

مقالات يوحنا فم الذهب وسيرته

مقالات يوحنا فم الذهب
وسيرته

يوحنا فم الذهب

مقالات يوحنا فم الذهب وسيرته

الطبعة الأولى

أول يناير ١٩٦٥

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

«أنا هو الحق والقيامة والحياة . من آمن بى ، ولو مات ، فسيحيا»

يسوع

الناشر
دار العرب
للبستاني
٢٨ شارع الفجالة - القاهرة
ت : ٩٠٨٠٢٥
الجمهورية العربية المتحدة

كتب المثلث الرحمة الشيخ ناصيف اليازجى العلامة الشهير عام ١٨٧٤ يقول :

المجد لله المفيض مياه الحياة فى فؤاد من كان من بحرها مستمداً . المُنزِلَ علوم النجاة على قلب من كان لها مستعداً . المودع صدور الكهنة أسراره الإلهية التى هدى بها من استهدى . الناطق على أفواه الأئمة بما أفاد وأنار وأسدى وأجدى .

سبحانه من إله لم تزل سوابغ جوده شاملة لعباده . ومعبود بهرت نوابغ هَدْيِه فاسترشدت بها أعين عُبّادِه . ونستشفعُ إليه بتلاميذه المرسلين بالحق . وخلفائهم المخلوقين لنفع الخلْق . وأتباعِهم المنيرينَ العقولَ إنارة الأفقِ بوميضِ البرق .

إن كل واحد من أفاضل البطاركة الأبرار . والعلماء الأطهار . قد وضع فى البيعة ما رفع به عقول دراريها إلى واهبها . وحقق به الديانة المسيحية وأظهر محاسنَ مناقبها . فمنهم من صنّفَ فى التوحيد والتثليث والإتحاد . ومنهم من ردَّ على من قال بالقدَم وأنكر المبدأ والمعاد . ومنهم من شرح النصوص وفسّرها . ومنهم من وعظ البصائر ونوّرها . ولما طالعتُ جمهرة كتبهم ولخصتُ مقاصدها وأغراضها . لم أجد فى البيعة أعمَّ نفعاً من مصنفات الأب البطريرك يوحنا فم الذهب . الذى هو لسانُ المسيح الأمجد لا فمُ العسجد . فإنَّ الذهب عرَضٌ تحدثُ منه عوارضُ البؤوس . وتعليمه جوهرٌ بجوهر النفوس . وذاك محبته علة الموت ومعلولها . وهذا تلاوته صحةُ الحيوة موضوعها ومحمولها . فأدام الله لبنيه النفع بلسانه وبنانه وأقلامه . وحسب له برَّ تعبه واهتمامه . فإنه لم يترك نصا إلا شرحهُ . ولا مشكلا إلا أوضحه . ولا معنى مغلقاً إلا فتحهُ . ولا لفظا مستهجنا إلا هذّبهُ ونقحهُ .

ولم أجد فى مصنفات « يوحنا فم الذهب » أنفع للخواص والعوام من مواعظه البديعة ، وهى تروى شروح كتب البيعة ......

فيا لمعجزات كتبه كم أحيت من نفوس كان الإثم قد أماتها . ويا لآيات خطبهِ كم فكت قلوبا من أسر ذنوبها وضمنت نجاتها . ويا العجب تعليمه كم جذبت إليها عقولا بلطائف كلماتها ويا لغرائب تقويمه كم ردّت أعوجاج طبائع إلى استقامة هيئاتها .

فالغلام أنشأته تعاليمه مثالا صالحا . والفتى أفاحت منه رياض رياضتها له عُرفاً نافحاً والكهل حملته على كاهل فضائلها غادياً ورائحاً . والشيخ شغلته بمتجر الآخرة ، فحيثما انقلب كان رابحاً . والنساء جميعاً على اختلاف أعمارهنَّ وأحوالهنَّ اقتدين بها فأصبح عملهنَّ ناجحاً . وجميع الرؤساء والمرءوسين منهم من صيرته راهبا ومنهم من جعلته سائحاً . والذين لم يسلكوا هذه المسالك أبقتهم فى العالم عونا لأولئك . وركنا للدين والدنيا والمملوك ورحمة للعالم العامِل ونقمة للجاهل التارك . فطوبى له من إمام لم يدَعْ عيوبا تلحق برعيته إلاَّ بادر إلىَ إزالتها وهنيئا له من راع لم يترك نبذة من الفضيلة إلا ألزمتهم تعاليمه باكتسابها . ولا غادر صغيرة من الرذيلة إلا نهتهم مواعظه عن إرتكابها . لقد أوسع فى العبادة وأسهب . وأضرم القلوب المنتبهة بنار الزجر .

حقا لقد كان « يوحنا فم الذهب » لسان المسيح الفصيح .

الشيخ ناصيف اليازجى

تمهيد

فى سنة ثلاثمائة وخمسة وأربعين للميلاد، بزغ فى سماء المسيحية نجم جديد ملأت أضواؤه رحاب الكنيسة . وغشيت من أنواره أبصار فلول الوثنية فى إبان الدولة الرومانية المنهارة . وكان للوليد الجديد دوى كالرعد يزلزل عروش القياصرة ويردهم عن غيهم صاغرين. كان يطلق القذائف من فمه فيكشف أباطيل المنافقين ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ولا يلين . وكان إذا اعتلى المنابر هزها بسحر بيانه وقوة حجته وسلامة منطقه . فدانت له قلوب رعاياه . وسعى إليه أصحاب التيجان من الأباطرة ، وأوكلوا إليه تعمير كنائس المسيحية ونشر فضائل الدين القويم .

واهتدى على يده الكثيرون من الوثنيين . واعتنقوا الدين المسيحى ، فكان فى هذا خلاص للنفوس وكسب للكنيسة غير منكور .

واجترأت الحماقة على مقامه السامى يوما ما ودفعت به إلى منفى سحيق إلا أنها أحنت الرأس فى نهاية الأمر لهيبته وردته إلى مكانه معززاً مكرماً مرفوع الجبين .

ذلكم هو يوحنا فم الذهب ، كان أبوه « سكوندوس » قائدا فى المعسكر الرومانى فى سوريا وكان وثنيا . أما أمه فكانت مسيحية تقية وبفضل تأثير الزوجة ، صار الزوج مسيحياً حقيقياً .

وتوفى الأب وهذا النبت الجديد لا يزال غض العود ، فتولت أمه تربيته وأعرضت عن الزواج مرة أخرى وراحت الأم تعلم صبيها ما حوته الكتب المقدسة ، ولم تكتف بهذا ، بل ثقفت عقله بالعلوم والمعارف فدرس المنطق والبلاغة ، واستمع إلى « ليبانيوس(١) أعظم فلاسفة ذلك العصر » وقضى يوحنا سنتين وهو يعمل « فقيها » يرفع إلى القضاء دعاوى المظلومين ، ويدافع عنهم بلسانه الفصيح وكاد أن يرقى إلى وظيفة قاض ، إلا أنه رأى أن يترك كل هذا لأن الله اختاره إلى ما هو أسمى ، وأوحى إليه أن ينكب على مطالعة الكتب المقدسة ويمارس الصوم والصلاة ويخصص نفسه لله ويكرسها لخدمته تعالى .

---

(١) ليبانيوس : LIBANIUS — فيلسوف يونانى ولد فى أنطاكية سنة ٣١٥ . ومات حوالى سنة ٣٩١ — إشتهر بأنه من فلاسفة السفسطائيين .

نعم . . . جاء يوحنا فم الذهب إلى العالم ، والأمبراطورية الرومانية غارقة فى أوحال الإثم والفساد ، تشيع فيها روح الارستقراطية والتنعم بملذات الثروة وبسطة العيش ، وكان الرجال يزنون أقدارهم بما ملكت أيديهم من عبيد وإماء ، أو ما أوتوا من قصور مشيدة ، وعربات مذهبة وجياد مطهمة ، وتجاوزت السيدات حدود اللياقة فى الزينة والبهرجة ، فكن يلبسن الحرير والديباج ويتزين بالذهبيات من قلائد فى الأعناق وأساور فى المعاصم وخواتم فى الأصابع ، ولا غرو إذا كان التمادى فى التبذير والترف والانهماك فى الشهوات والملذات والانكباب على المسارح والملاهى . كل هذا قد دفع بالأمبراطورية الرومانية إلى الدمار والاضمحلال .

فى هذا الجو عاش يوحنا فم الذهب متسلحاً بسلاح التقوى ، شاهراً سيفه على المتمرغين فى حمأة الاثم ، حتى ولو كانوا من لابسى التيجان ومن المتربعين على العروش .

ألقى يوحنا نظرة على العالم ومافيه من شر وفساد فنأى عنه بجانبه ، واتجه بقلبه إلى العبادة الحقة واعتاد لبس الملابس البسيطة المحتشمة ، وترامت سيرته إلى أسقف أنطاكية ، فقربه إليه وهذبه ومكث تحت إرشاده ثلاث سنوات ، ثم جمعت الصداقة بينه وبين رجل يدعى « باسيليوس » فاتفقا على أن يعيشا عيشة التوحد ، وعزما على الخروج من أنطاكية سراً إلى البرارى .

ولما علمت أمه بما انعقدت نيته عليه ، توسلت إليه أن يبقى إلى جانبها فى ترملها حتى إذا ما انتهى أجلها كان له أن يفعل ما يريد ، فاستمع الابن البار إلى توسلاتها ، غير أنه عند ما بلغ الخامسة والعشرين ألقى نفسه فى خطر يرغمه على الهروب من أنطاكية والاتجاه إلى البرية ، ذلك أن مجمع الأساقفة قرر يومئذ أن يرقيه إلى درجة الأسقفية ، فأحس بأنه لا يستحق هذه الوظيفة لسموها ، فآثر الهروب .

وتوفيت أم يوحنا فى ذلك الحين ، فرأى أن الفرصة سانحة لترك العالم . فرحل من مدينة أنطاكية قاصداً ديراً بالجبال المجاورة ، وأقام فيه أربع سنوات متقشفا متنسكا ، يدرس الكتاب المقدس ، حتى قيل أنه حفظه عن ظهر قلب .

وعكرت عليه ظروف طارئة صفوحياته فى مغارته ، إذ داهمه مرض لم يتحمله قوامه النحيل ، فاضطر إلى العودة إلى أنطاكية ، فى سنة ٣٨١ ميلادية ، وكان آنئذ قد جاوز الثلاثين من عمره .

ولما وصل إلى أنطاكية تلقاه الأسقف « ملاتيوس » بصدر رحب ورسمه شماساً ، فقام

بوظيفته خير قيام وكتب فى أثناء ذلك مقالات تدل على رسوخ قدمه وعمق ثقافته ، ولما توفى « ملاتيوس » وخلفه « فلافيانوس » رسم يوحنا قسيساً سنة ٣٨٦ ، وأوكل إليه أمر الخدمة والوعظ ، فكان يعظ بفصاحة نادرة وكان الناس يتوافدون عليه جماعات وأفرادا لسماع عظاته . ومن ذلك الحين لقبوه بيوحنا « فم الذهب » .

كان يوحنا خطيباً قبل كل شيء ، وقد أطلق عليه البعض اسم « خطيب المدينتين » أى أنطاكية والقسطنطينية(١) ، وكانت مواعظه تتميز بأنها عملية أكثر من كونها تعليمية ، أو فلسفية ، كان يشير إلى الكتاب المقدس فى أثناء مواعظه ويقول إن الكتاب هو القانون الحق وأساس كل تعليم صحيح ، كان يجتهد ألا يخرج عن الموضوع الأصلى . ولا يميل إلى استخدام الألفاظ المبهمة ، وكان يقبح لسامعيه أنواع المآثم والرذائل مستهجنا عيشة البذخ التى يحياها الأغنياء ، مستنكراً أساليبهم فى اللهو والخلاعة ، ولم يغفل عن الأفعال التى يأتيها السحرة والمشعوذون ، فكان يسلط عليها الضوء ليفضح مكنوناتها .

ولما توفى بطريرك القسطنطينية ، أجمع القساوسة وجموع الشعب على تزكية « فم الذهب » وانتخبوه فى غيبته لهذا المركز الخطير ، وعقب رسامته فى سنة ٣٩٨ زاره الأمبراطور « أركاديوس » طالباً منه البركة فباركه وقال له : إنى لما أرى العبء الثقيل الذى وضع علىّ ، وأتأمل أننى لا أستحق هذه الدرجة السامية نظراً لضعفى ، تضطرب عند ذلك نفسى وترتعد . غير أنه مادام ملك العالمين ورب الأرباب قد شاء أن يقيمنى راعياً لهذه الرعية العظيمة ، فمن ثم أطلب من جلالتك أيها الملك العظيم أن تستمع لصوتى ، صوت من أقامه الله راعياً لك ولشعبك ، وينبغى أن تصغوا لكلام الله باحترام وطاعة . ولما كان سيدنا يسوع المسيح قد أجلسنى على هذا الكرسى فإننى أبدأ كرازتى وتعليمى بقولى للجميع ما قاله يوحنا المعمدان « توبوا » وأنا فى عظاتى لا أدارى أحداً ، فإن قبلتم نصائحى فسوف تجنون ثمرة الخلاص وإن لم تفعلوا فسيصيبكم ضرر جسيم .

كان يوحنا فم الذهب ، وهو يتقلد منصبه البطريركى قدوة صالحة لشعبه ، اكتفى بالمأكل البسيط واللباس الخشن . كان يوزع أمواله على الفقراء والمعوزين ، يتفقدهم فى بيوتهم . كان يزور المرضى والمسجونين لتخفيف آلامهم . كان يقيم المستشفيات والمنازل لإيواء الذين

---

(١) القسطنطينية : استانبول .

أقعدهم المرض وتضافرت عليهم المصائب ، وكان يتردد على الملاجىء ، أكثر مما يتردد على قصور العظماء .

ولم تقف جهود البطريرك يوحنا عند هذا الحد ، وهو الرجل الذى خلع على المسيحية معنى عملياً وخرج بها من دائرتها الضيقة ، دائرة الانكباب على الصلاة والصوم والعبادة ، إلى دائرة رحبة تصل فيها رسالة الخلاص إلى جميع أولئك الذين يتعطشون إلى الجدول العذب إلى المسيحية الحقة . ولهذا سعى الرجل إلى أن تبلغ كلمة الإنجيل البلاد الفينيقية . حيث كان أهلها يعبدون الأصنام وتستبد بهم الخرافات والأباطيل، فألف بعثة تبشيرية لترشد أولئك الناس إلى الطريق الحق ، وقد لاقت البعثة فى مهمتها عذابا شديداً ، ومع هذا أصرت على على مواصلة جهودها متمثلة بقول بولس الرسول « ويل لى إن كنت لا أبشر » .

سيرته ونشأته

عرف بين المؤرخين باسم القديس يوحنا كريزوستوم (الذهبي الفم)[1] ، وهو أعظم الآباء اليونانيين شهرة وأبعدهم صيتا . ولد فى أنطاكية فى حوالى سنة ٣٤٥ ميلادية وتربى فى مدرسة ليبانيوس ، وبدت عليه فى صدر شبابه مخايل الذكاء والمواهب العقلية اللامعة والميل إلى الثقافة الكلاسيكية ، ولما تم تعميده فى سنة ٣٧٠ للميلاد على يد « ملاتيوس » أسقف أنطاكية . اتخذ مأواه فى الصحراء للعبادة ، وقضى هناك عشر سنوات ، انقطع فيها لحياة النسك والدراسة إلا أن المرض أرغمه على العودة إلى العالم . وفى عام ٣٨١ رسم شماسا ، ثم قساً فى عام ٣٨٦ . وطبقت شهرته الآفاق بفضل ما كان يلقيه من مواعظ فى أنطاكية ، ولا سيما عندما هاجم التماثيل التى أقامها الأباطرة فى لحظة كان الناس يخشون فيها آثار تدمير تماثيل الأمبراطور « تيودوسيوس » فى ثورة عارمة .

وعندما توفى « نكتاريوس » وقع الاختيار على فم الذهب ليصير أسقفا للقسطنطينية ، وكان هذا فى عام ٣٩٨ وبحكم وظيفته السامية هذه استطاع أن يكسب قلوب الشعب بمواعظه البليغة ، لاسيما وأنه كان قد خصص دخله لإقامة المستشفيات ، إلا أن رغبته الشديدة هذه فى الإصلاح وغيرته على أولئك الذين تقطعت بهم أسباب الحياة قد خلقت له أعداء كثيرين .

---

(١) يطلقون عليه فى الحضارة اليونانية اسم CHRYSOSTOM ومعناها الذهبى الفم . وبالانجليزية: GOLDEN MOUTHED وبالفرنسية : BOUCHE D'OR

وحرم على رجال الكنيسة أن يخصصوا الراهبات أو الممرضات لخدمتهم ، ومنع الرهبان الذين كانوا يهيمون على وجوههم دون قصد أو هدف من مغادرة أديرتهم ، وحمل حملة شديدة على إسراف البلاط الأمبراطورى، ووجد أعداؤه ذريعة للإنتقام منه لأنه آوى أربعة من الرهبان الذين كان قد حرمهم أسقفهم « توفيلس » أسقف الاسكندرية فى ذلك الحين .

واستدعى توفيلس إلى القسطنطينية فى عام ٤٠٣ ووجه إلى « فم الذهب » تهمة مؤداها أنه من أتباع مذهب أوريجانوس (١). واشتهر توفيلس بأنه من المقاومين لفلسفة أوريجانوس فكان يصدر قرار الحرمان ضد أنصاره ويعذبهم ، حتى دفع بعضهم إلى الهرب لفلسطين ، ودعا أسقف الاسكندرية « فم الذهب » إلى المثول أمام مجمع مقدس ثلاث مرات ولكنه لم يمتثل للأمر ورفض رفضاً باتاً ، وأخيراً صدر ضده قرار بالعزل وألقى القبض عليه ونفى .

وثار الشعب ثورته وغلا مرجل غضبه ، وراح يهدد ويتوعد ، ولهـــذا اضطرت إمبراطورة ذلك الزمان واسمها « أيدوكسيا » أن تستدعيه من منفاه .

وما كان الاضطهاد من العوامل التى تثنى الرجل عن مبادئه أو ترده عن غايته. وأبت المصائب إلا أن تنهال عليه ، فلم يمض إلا القليل ، حتى جرد سلاح الحق من غمده وهاجم ألوان التكريم التى يخلعها المنافقون على تمثال الأمبراطورة ، وكان مقاما فى ميدان القديسة صوفيا . وقد أدى الأمر إلى محاكمته من جديد أمام مجمع ثان ، وحكم هذا المجمع بتجريده من رتبته فى عام ٤٠٤ وزعم أنه نهض بوظائفه دون إذن منه ، وهاجم الشعب الكاتدرائية ومبنى مجلس الشيوخ ولكن « فم الذهب » كان قد نقل على عجل إلى القوقاز واستطاع فى منفاه السحيق أن يكتب الرسائل إلى الكنائس المختلفة ، واعترف البابا « إينوسنت الأول (٢) » باستقامة مبادئه . وقد أثار هذا حنق الأمبراطور أركاديوس عليه فنقله إلى أقصى الصحراء .

ومات يوحنا « فم الذهب » فى سنة ٤٠٧ وقد أثار نفيه موجة من السخط ولم يعد « اليوحنايون » إلى أحضان الكنيسة ، فى ظل أسقف القسطنطينية إلا بعد أن أحضر رفات القديس إلى المدينة (فى عام ٤٣٧) .

---

(١) ويسمى المبدأ بالإنجليزية (Origenism). ويعد أوريجانوس من أعظم أبناء الكنيسه المصرية فى النصف الاول من القرن الثالث . وقدعرف عنه أنه مزج الفلسفة بالتفسير والشرح فأزعج قادة الكنيسة .

(٢) INNOCENS. I

والتمس الأمبراطور مغفرة الله علنا !! ويقع عيد القديس يوحنا فى ١٣ نوفمبر فى الكنيسة اليونانية (الأرثوذكسية) وفى ٢٧ يناير فى الكنيسة (اللاتينية).

ومنذ عام ٤٢٥ يعد اليونانيون واللاتين «يوحنا فم الذهب» حجة عظيمة فى الدين ومن كبار الثقاة فيه.

وتقع مؤلفاته التى كتبها فى مجلدات ضخمة ، ومن بينها المواعظ والتعقيبات المتعددة التى كتبها فى أثناء خدمته الكهنوتية ، وأشهرها ما كتبه عن (التماثيل) وعن الرهبنة والتكوين والمزامير ، ورسالته عن «متى وأهل روما»،وتعتبر الخطابات والرسائل التى كتبها أثناء فترة نفيه مصدراً قيماً من مصادر التاريخ.

واهتمت مكتبة أكسفورد للآباء بترجمة مواعظ «يوحنا فم الذهب»وهى تحتفظ بها من بين المراجع الهامة.

وبعد ، فإننا نحنى الرأس إجلالا لهذ القديس العظيم . الذى لاقى من الاضطهاد فى سبيل المبدأ والعقيدة ما لاقاه شهداء الكنيسة الأولون ، ولا عجب إذا كان البابا «إينوسنت الأول» قد رفع اسم «يوحنا فم الذهب» إلى مدارج القديسين . ولا جدال فى أن الرجـــل الذى يضحى بحياته فى سبيل تمسكه بالحق جدير بأن يحتل اسمه صفحة ناصعة فى تاريخ الأبرار.

حقا لقد اجتمعت لهذا الرجل قوة روحية وقوة شعبية ، فقد ذكر المؤرخون أن زلزالا شديداً قد وقع يوم أن انتزع «فم الذهب» من مكانه ليلا فى طريقه إلى المنفى فكأن السماء أعلنت غضبتها على ما حاق بفم الذهب ظلماً وعدواناً ، وثار أتباعه حينئذ واشتدت ثورتهم ، وعمد بعضهم إلى استخدام القوة ، فسالت الدماء حتى بلغت ساحة الكنيسة نفسها وكان يوحنا فى منفاه أقوى تأثيراً وأبعد نفوذاً ، ففى القسطنطينية ثار رعاياه على الرجل الذى عُين خليفة له ، واشتعلت النار فى كنيسة القديسة صوفيا . والتهمت الحرائق نصف المدينة.

ولما أحس «فم الذهب» أن الصدام بين الشعب الأعزل والقوة الغاشمة سيزيد من إراقة الدماء رأى أن يسلم نفسه ليد الذين أمروا بنفيه . ولكنه ذهب إلى الكنيسة أولا ليودعها وهناك جثى على ركبتيه وصلى ثم عانق الأساقفة وعيناه تذرفان الدموع.

وقاسى فى طريقه إلى منفاه آلاماً مبرحة وشدائد كثيرة ، وقد أخذوه إلى مدينة «نيقية» فى آسيا الصغرى ثم نقلوه إلى منفى آخر فى جبال طوروس وكان سفره متعباً شاقاً ، ومع هذا استسلم لإرادة الله وامتثل لقضائه ، ولم يفت هذا فى عضده . بل ظلت غيرته على الكنيسة متقدة بين جوانحه ، وكتب آنئذ إلى أحد قساوسته يقول : إذا رأيت بحر الاضطهاد قد هاج

فلا تيأس ولا تهمل شيئاً مما التزمت به ، اهدم نفاق الوثنيين ، وشيد الكنائس واهتم بخلاص النفوس .

وجد القديس نفسه فى بلاد يسكنها الوثنيون وظن أعداؤه أن هؤلاء سيقتلونه فى منفاه ولكنه استطاع أن يتودد إليهم و يبشرهم برسالة الخلاص فصاروا مسيحيين ورسم لهم بعض الرعاة لتدبير شئونهم .

ولما رأى أعداؤه أن نفوذه آخذ فى الازدياد ، جُنَّ جنونهم وعقدوا العزم على نقله إلى منفى آخر وتم لهم هذا فى سنة ٤٠٧ إذ أخذوا « فم الذهب » إلى بلدة نائية عند جبال القوقاز على شاطىء البحر الأسود ، وقد استخدم الحارسان اللذان كلفا بحراسته كل صنوف التعذيب فكانا يسيران به تحت ظل المطر المنهمر ، وفى أثناء اشتداد الحرارة نهاراً وكانا يضنان عليه بجرعة الماء إذا عطش ، وكان كل همهما أن يلقى الرجل منيته فى الطريق .

وفى ذلك الحين كتب « يوحنا فم الذهب » رسالة إلى أحد أصفيائه قال فيها : إننى أكتب إليك وأنا على شفا حفرة ، أوشك الموت أن يدهورنى فيها ، لقد كابدت الهول فى الشهرين الماضيين وقاربت الموت .

لقد هدت الشدائد جسمه النحيل فخارت قوته وصار لونه شاحبا وظهرت عليه علامات الموت ، وفى شهر سبتمبر من عام ٤٠٧ وصل القديس إلى قبر « باسيليكوس » الشهيد وكانت بجواره كنيسة صغيرة فنام فيها ، وفى تلك الليلة ظهر له الشهيد فى حلم وقال له : ثق أيها الأخ بأننا سنجتمع غدا .

وأصبح الصباح فأمره الحارسان أن يستأنف الرحلة فى قسوة بالغة وما أن قطعا به مسافة غير بعيدة حتى ظهرت عليه دلائل الموت ، فاضطرا للعودة به إلى الكنيسة ، وهناك رفع إلى الهيكل وأجرى العشاء الربانى وتناول منه ، ثم صلى صلاته الأخيرة وأسلم الروح ، وكانت آخر كلمة نطق بها « المجد لله فى كل شىء » .

تلك هى سيرة القديس « يوحنا فم الذهب » لخصناها فى صفحات ولسنا نزعم أننا وفيناه حقه فإن دراسة هذه الشخصية تتطلب الكثير من الجهد وحسبنا أننا نشرنا فى الفصول التالية مواعظ « فم الذهب » وهى بيت القصيد من هذا الكتاب (١) وسيجد القارىء فيها حكمة ،

---

(١) أدمجنا مواعظ كثيرة فى أبواب موحدة حتى نتحاشى التكرار كما تقيدنا ببعض الالفاظ الاعجمية التى جاءت فى النص .

وتقوى وورعا ، وترفعاً عن الدنايا وعزاء للمضطهدين ، وبلسما لجراح المظلومين ، ووعداً بالملكوت لأولئك الذين يسيرون فى طاعة المسيح ويتحملون الألم من أجله ومن أجل رسالته ..

ولعل أروع ما قاله « فم الذهب » لأصفيائه ساعة الشدة : لا يخر عزمكم فإنه لا شىء يروع المؤمنين إلا الخطيئة . لا تخافوا النفى أو السيف أو عداوة العالم بأسره . كل هذه الأشياء زائلة فلماذا ترتاعون ؟

ألستم تعلمون أن المسيح قد صلب وأن براباس اللص قد أطلق ؟ إن الكنيسة تزدهر وتقوى بالشدائد والآلام .

بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين

المقالة الأولى

(الاجتهاد فى تربية النشء)

اتضرع إليكم متوسلا أيها الأخوة الأحباء بأن تجتهدوا بنشاط كلى فى تربية أولادكم وخدامكم وترغبوا فى خلاص نفوسهم دائماً. فتذكروا الطوباوى أيوب الذى كان يقدم فى كل يوم ذبائح لأجل بنيه لأنه كان يخاف عليهم لئلا يخطئوا إلى الله فى عقـــولهم . وتشبهوا بابراهيم الذى أوصى أن يحفظوا نواميس الله وشرائعه . وكذلك النبى والملك داود لما حان وقت وفاته فعوض مايترك لابنه ميراثاً عظيما دعاه وأوصاه قائلا يابنى إن أردت أن تحيا بمقتضى نواميس الله فلا يمكن أن يرد عليك شىء من الشر أبداً لكن كل الأشياء تتفق لك بحسب الاستقامة كما تريد . ويحصل لك غاية التمكين . وأما إن سقطت من هذه المعونة فلا ينفعك الملك شيئاً أصلا ولا القوة العظيمة البتة. لأن الإنسان إذا كان خالياً من العدل وحسن العبادة يخسر جميع المقتنيات التى اكتسبها بكد عظيم وإذا ملك الإنسان طريق العدل وحسن العبادة يقتنى ما ليس له . فيجب أن يحرص الوالدون أعنى الآباء والأمهات لا ليغنوا أولادهم بالفضة والذهب لكن ليصيروهم أغنى من ذلك بالورع والتعليم والفضائل وبالأدب أكثر من الكل . ولا يحتاجوا إلى أشياء كثيرة ولا يكونوا منصبين على الشهوات والأمور العالمية . ومائلين مع هوى الصبا والشبوبية . بل يكونوا ذوى ورع وذوى تعليم وأدب . ويجب عليكم أنتم أيها الآباء أن تفحصوا أيضاً وتفتشوا عن دخولهم وخروجهم وعن كيفية مشيهم باجتهاد كلى وحرص جزيل . وأن تلاحظوا سعيهم واجتماعاتهم . لأنكم متى تهاونتم فى هذه الأمور كلها ليس لكم من الله غفران البتة . لأنه إذا لم يكن لنا حرص على باقى الناس فالله مزمع أن يعاقبنا كقول بولس الرسول أنه لا أحد يطلب ما يوافقه فقط بل وما يوافق اخاه المسيحى . فكم بالحرى يريد الله أن يعذبنا إذا لم يكن لنا حرص على أولادنا . بل أنت أيها الإنسان تعمل جهدك فى أن يقتنى ابنك فرساً جيداً أو بيتاً مزيناً أو حقلا أو كرماً كثير الثمن أو مالا جزيلا ومقتنيات شتى غير هذه . وأما أنه كيف يقتنى نية صالحة ونفساً

مهذبة ديناً وأدباً واعتناء صالحاً . فهـــذا ما تصنعه فى عقلك البتة . ولكن أعلم أن كل ما ذكرناه من المقتنيات الكثيرة إذا كانت صالحة له وهو شرير وعديم الأدب ولا يمكنه أن يدبرها فتذهب سدى . وأما إذا كانت نفسه شجاعة . ذات فضيلة صالحة ولو لم يكن له شىء فى بيته البتة فيمكنه أن يقتنى هذه بسهولة كثيرة . ولهذا أكثر الآباء يصيبهم هذا الشر لكونهم لا يهوون أن يجلدوا أولادهم ويزجروهم وينتهروهم بالكلام . ويهينوهم إذا كانوا عائشين بغير أدب ، أعنى بالفجور والشرور ومضادة النواميس وكم مرة رأيت أناساً منهم سيقوا إلى القضاء لما أمسكوا فى ذنوب وعيوب وقطعت رؤوسهم لأجل قلة تأديب والديهم لهم.اعلم أيها الأب أنك أن لم تؤدب ابنك وتعلمه طريق العفاف وتعظه فهو يجتمع باناس أشرار نجسين . فإذا صار شريكا لخبثهم وشرورهم فيساق حينئذ إلى حكم النواميس العامة . مكان القضاء فيعذبونهم ويؤدبونهم عياناً بمشاهدة الجميع.ومع البلية والخسارة اللتين تصيبانه يستحوذ عليه الخزى والخجل وعلى والده معه والجميع يشيرون على والده بالأصابع وإذا مات ولده يموت شريراً ويعترى الوالد الخزى والخجل ويقولون هذا الأب إذ أنه لم يؤدبه أصابه ما أصابه والجميع يذمونه فحينئذ الأب من شدة الحياء الذى يعتريه لا يمكنه أن يعود يتظاهر أيضاً بين الناس فى الأزقة والشوارع ولا فى محل آخر . فبأى يستطيع أن يظهر إلى الذين يصادفونه بعد إصابة ابنه تلك المصائب.ترى هل يوجد أجهل واحمق من هذا الأب. أما تخجل وتستحى قل لى يا هذا إذا رأيت الحاكم يؤدب ابنك ليعقله ويؤدبه وأنت لم تؤدبه حيث هو مقيم عندك وملازمك هذا الزمان كله . افلا يجب عليك أن تخجل وتستحى مختفياً تحت الثرى.كيف تتجاسر أن تدعو نفسك والداً بعد أن اسلمت ابنك إلى مثل هذه الشرور وما عملت معه ما هو واجب عليك من أن تعلمه وتؤدبه وتجلده لكنك اهملته إلى أن تلف بالكلية.فأنت إذا رأيت أحد الناس يضرب ابنك يصعب عليك ذلك جداً فتحزن مغضباً وتستشيط عليه أشد من الوحش الضارى . فالشيطان الذى تراه يوماً فيوماً يضرب ابنك ويجذبه إلى الشياطين . فلماذا تلبث متغافلا ولا يصعب ذلك عليك ولا تحزن ولا تريد أن تحفظه من الوحش الضارى أى الشيطان . فأيما محبة بشرية تؤثر أن تجدها عند الله.فأنت مثلا إذا رأيت ابنك يصرع من الشيطان حين يخنقه تسارع ملتجئاً إلىشفاعة القديسين ليشفوه من الصرع الكائن به فكيف لا يكون شيئاً ردياً ومضاداً حين تجده فى الخطية والشر اللذين هما أشر من ذلك كثيراً . وأن تشاهد ما يفعله كل يوم . أما تصغى إليه بعقلك لأن الشيطان إذا صرع ولدك وألقاه على الأرض ليس شيئاً لانه لا يستطيع

أن يلقيه فى جهنم. بل من هذا الداء نفسه يستطيع الإنسان أن يخلص مكللا أن احتمله بصبر وشكر . وأما ذلك الإنسان الذى يوجد داخل الخطية فليس ممكنا أن يخلص البتة . أما فى هذا العالم فيهان ويهزأ به ضرورة وأما فى المستأنف فيعذب مخلداً . ترى ايما جواب تؤدى لله أيها المتهاون بتأديب ولدك حين يقول لك أيها الأب أما سا كنت ولدك معك؟ أما اقمتك عليه معلماً وسيداً ومرشداً؟ أما جعلت سلطانه مسلماً بيدك؟أما أوصيتك بأن ترشده وتخلق طباعه منذطفوليته؟.فأى مسامحة تجدها إذا اهملت ولدك إلى أن تمرد من البدء وصار بغير أدب فإن قلت عن ولدك أنه عاص غير مطيع . اجبتك أنه كان يجب عليك من الابتداء حين كان طفلا صغيراً أن تهتم بتأديبه وتدربه فى الأمـــور اللائقة وتهذب نشأته ليخافك من صغره . كالفلاح الماهر مثلا فإنه حين تنقية أرضه يقطع عنها الأشواك بسهولة . كذلك أنت أيضاً يسهل عليك أن تقطع عنه العادة السيئه فى أوانها. فايما جواب وكلام نقدر ان نقوله لله إذا أولادنا شتمونا؟ لأن الله يقول فى ناموس موسى لبنى اسرائيل أن من يشتم أباه أو أمه يقتل . فلن يصعب علينا حينئذ إذا ضربنا أولادنا واحسنا تأديبهم . فكيف إذاً لو شتم الله من قبلهم أما هو بالحرى يصعب علينا ذلك جداً ؟. ها لسان الله يخاطبنا دائماً . أنه إذا شتمك ولدك انتقمت لك منه فكيف أنت إذا رأيته شاتماً نواميسى دائساً شرائعى لايهون عليك بذلك إهانته وتأديبه . فكيف إذاً تنال منى مسامحة وغفراناً ؟. فلا نتهاون إذاً فى تأديب أولادنا ليستمعوا وصايا الله ولنعقل هذا متفهمين . وهو أنه لو سلك أبناؤنا فى هذا العالم الزمنى سبيل التقوى أمام الله لحصل لهم بذلك عيشة كريمة كما أنه إذا وجد رجل صالح متق الله فإن الناس بأسرهم يكرمونه ويوقرون وبعكسه الشرير فإنه يمقت من الناس ويحتقر ويشمئزون من مجالسته ولوكان موسراً جداً . فالذين يتهاونون حينئذ بتربية أولادهم فى حال صغرهم ولايصيرونهم متقين الله فيستحوز عليهم العقاب المريع من الله ولو كانوا حسنى السيرة فى كل أعمالهم أمام الله . وأن آثرتم أن تعلموا هذا متيقنين اصغوا إلى ما أقوله . وهو أنه كان فى الزمان القديم رجل ما كاهنا وكان صالحاً جداً ذا أدب وتقوى أسمه عالى وكان له ابنان جاهلا ن ولكنه لما كان يراهما يصنعان القبائح والشرور لم يكن ينتهرهما ولا يردعهما حتى ولوكان فى بعض الأحيان يعنفهما لكن لم يكن ذلك منه بشدة واهتمام بل باللفظ فقط كان ينهاهما من غير اكتراث . وما كان يجلدهما لكى يرجعا عن عوائدهما الردية التى كانا يفعلانها بل كان يقول لهما هذا الكلام وهو لا ياولدى لاتعملا هكذا . لأن السمع الذى اسمعه عنكما ليس بجيد . فهذا الكلام كأنه كان كافياً تشبيتهما فى الصلاح ولوكانا ذوى عقل سديد . ولكن

ذلك الكاهن لما لم يعمل جهده فيما كان واجباً عليه من حسن تأديبهما صير الله عدواً له ولولديه . لأجل اشفاقه عليهما وقلة تربيته لهما أضاع خلاصه وخلاصهما لأنه لما كان الولدان يفعلان القبائح والشرور ويتصرفان ضد وصايا الله فاستثقل الله ذلك منهما وسلط عليهما الأمم فاهلكوهما . فلما سمع أبوهما بقتل ولديه سقط من مكانه مستلقياً إلى ورائه آسفا عليهما فاندق عنقه ومات . كان هذا لعدم تربيته لولديه وتهذيبهما فإنه عدم معهما الحيوة الوقتية والمستأنفة ولو ما وجد عليه الله علة أخرى غير هذا فقط . وهو أنه لم يؤدبهما بل كانا لاهماله اياهما فاقدى الأدب . فإذا كان هذا الكاهن الذى خطيته وجيزة جداً اهلكه الله وجميع بيته هكذا! فكيف اذاً الذين يفعلون أشر من هذا أن يتركهم الله خلوا من عقاب. فإن كان ذلك الكاهن الذى كان شيخاً ومكرماً وقاضياً ومحترساً على شعب اليهود مقدار عشرين سنة من غير أن يقبل شيئاً من حكومته فالذى كان هكذا معتبراً فى جميع أموره فما أمكن ولا واحدة من هذه الأوصاف الحميدة أن تنقذه ولا بيته من الهلاك والإنتقام لعدم شدة تأديبه أولاده كما يجب . فايما عقاب وإنتقام يشملنا نحن الذين لم نيقن ولا واحدة من من فضائله الكثيرة . فليس لأننا لم نعتن بالكلية بتأديب أولادنا وتربيتهم فى أمر صالح فقط بل نكون لهم أشد غيرة على رداءة أفعالهم اعنى من حيث الغباوة والدغل فكما أن كل أحد لا يستطيع أن يعطى جوابا عن سيئاته ويفر من الاعتذار عنها لكى ينال صفحاً عن ذلاته وغفرانا . هكذا الوالدون لايستطيعون أن يعتذروا عن ذلات بنيهم لئلا يعاقبوا لعدم تأديبهم فلهذا نرى أن تربية الأولاد إذا كانت صالحة عسر عليهم أن ينعكفوا إلى الشرور إذا بلغوا حد الرجال لأن نفوس الأطفال كالثوب الساطع البياض الذى إذا صبغ ابتدأ بلون ماثبت عليه حتى الانتهاء وأن أحب أحد أن يحيله إلى لون آخر. فلابد أن يبقى فيه أثر الأول ضرورة وهكذا الأولاد الصغار إذا اعتادوا عادات صالحة يعسر عليهم الانعكاف عنها إلى الشرور . ولهذا يقول بولس الرسول (١ كو١٥: ٣٣) أن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة اعنى ائتلاف الأحداث فى الكلمات الردية تفسد عاداتهم الصالحة . فلا تعجبن إذاً متى صار أحدمنهم سارقاً أو زانياً أو منكراً الديانة المسيحية وما ذاك إلا لقلة استماعهم المواعظ والتنبيهات من صغرهم ولعدم تأديبهم من تلقاء والديهم على ما توجبه نواميس الله وشرائعه فحينئذ يعتادون من ابتدائهم أن يمارسوا الشرور ومتى وجدوا شيئاً وجيزاً فللحين يرتدون عن الطريق المستقيم ولهذا يوصى الرسول بولس قائلا (افسس ص ٦) أيها الأولاد أطيعوا والديكم فى الرب . فهذا هو الواجب أكرم أباك وأمك وهذه الوصية الإلهية لكى

يحصل لك الخير . وتصير كثير السنين على حياتك . وأمـــا سليمان الحكيم فهكذا يقول (أمثال ص١٠) هكذا الابن المؤدب يكون حكيما . وأيضاً من يشفق على عصاه ذاك يبغض ولده ومن أحب أبنه يؤدبه بكل الاحتراس والاعتناء . لأنه لو كانت الرذيلة فى الناس طبيعية ، حتى لم يقدروا أن يعلموا بخلافها بل يكونوا مقيمين فى الشر . وكذلك الصالحين أيضاً يكونون صالحين لكان من الواجب أنه يمكن لكل أحد أن يعطى لله جوابا. ولكن بما أنه لكل أحد بحسب ضميره يصير صالحاً أو شريراً . فايما جواب مقنع اقناعاً بليغاً يكون لذلك الأب والأم أن يقولاه له اللذين يتركان أولادهم المحبوبين منهما جداً . أن يصيروا عديمى الأدب أشراراً فاجرين . فإن آثرتم أن تهدوا أولادكم إلى طريق الفضيلة فلا تعتنوا لهم بغنى ومقتنيات لأنه من غاية الجهل وأشنعه إذا كنتم انتم الوالدون فى حال الحيوة تجعلون لاولادكم مقتنيات يتمتعون بها بهواهم بعد وفاتكم. فلو انكم تدفعونها لهم فى حال حياتكم لما كنتم تستطيعون رؤياهم حين كانوا يعملون الرذائل ويصرفون أموالكم فى الأمور غير النافعة فكنتم تصدونهم وتؤدبونهم ولكن بعد انتقالكم وترككم أياهم فى حال الصبا واليتم من غير أدب وتخلفون لهم ثروة جزيلة حتى أنهم يتوصلون إلى التمتع بشواتهم فيسقط حينئذ المساكين الأشقياء فى ربوات من الهوان والمعاطب . فلا نفحص إذاً على أننا نترك أولادنا بعد مماتنا أن يكونوا أغنياء بل أن يكونوا مؤدبين ذوى فضائل لأنه إذا كان اعتمادهم على الغنى فلا يكون لهم اعتناء أن يعملوا شيئاً آخر من الأعمال الصالحة بل لن يكون لهم استطاعة أن يحجبوا أفعالهم الشريرة بواسطة الغنى ولكن إذا رأوا أن والديهم ما تركوا لهم غنى بل أدباً وعقلا فقط فحينئذ يكون اجتهادهم بواسطة أدبهم وفضائلهم الصالحة من كل جهة أن يجدوا عزاء يتعزون به فى حال فقرهم ومسكنتهم . فإذاً من اللازم أن لا نعمل عملا آخر إلا أن نهذب نفوس أبنائنا لأننا إذا أدبنا نحن أولادنا وغيرنا أدب أولاده على حسب التقليد والتسلسل بأن كل أحد يؤدب ابنه وهكذا من وجه إلى وجه وجيل إلى جيل فيمكن حينئذ لجميعهم أن يكونوا مؤدبين وذوى فضائل على حسب ما تسلمه الابن عن أبيه إلى حين مجىء السيد المسيح المجىء الثانى فينالون حينئذ أجرهم من ربنا يسوع المسيح . أعلم أنك أن ربيت ابنك جيداً وصيرته مؤدباً وخائفاً من الله، والآخر هكذا فيصير طريق الأدب والتربية كسلسلة متصلة من واحد منتهية إلى آخر حتى جميع ذريتك فيمكن حينئذ أن يصير لك أجر متكاثر لكونك كنت الأصل والقاعدة فى جميع هذه الأمور الصالحة لأن أولئك الذين يهملون تربية أولادهم ولا يؤدبونهم بطرق الأدب كافة ليصيروا ذوى فضائل وصالحين فيصيرون قتلة لأولادهم وأشد رداءة من

اللصوص الفاتكين . لأن أولئك اللصوص يقتلون أجساماً هيولية وهؤلاء يقتلون نفوس أولادهم . فكما أن النفس أعظم وأشرف من الجسم كذلك قتل النفس هو أعظم من قتل الجسد . كمثلما إذا رأيت فرساً راكضاً فى أماكن متشعبة متطرفة وهو مشرف على السقوط فتضع فى فمه لجاما وتنحيه بضرب شديد لتميله إلى الطريق المستقيمة . فذاك التهذيب الذى تفعله به ولو ضيقت عليه وضربته . لكن ذاك الضرب والتضييق لذاك الفرس من حيث كونك لم تدعه يهوى متساقطاً فيهلك . هكذا فليكن صنيعك مع أولادك حين تشاهدهم يخطئون ويسلكون فى سيرة ردية وهم قد تعدوا نواميس الله . أربط ولدك أعنى أدبه حين يخطئ إلى أن تجعل الله منعطفاً عليه وعليك ولا تدعه منحلا من عقاله ليفعل مراده لئلا يربط ربطا عنيفاً برجز الله لأنك أن قيدته أى أدبته برجز وغيظ شديدين فإن الله ما يقيده لأنك أن ما عقلته أنت فتنتظره تلك العقالات غير المنحلة ولك أيضاً العقاب الجهنمى الدائم. فإن قلت أن ولدى قد بقى مربوطاً زماناً طويلا . اجبتك أنه لا يكفيه مدى الزمان فقط بل يجب أن تعاين نفسه أن كانت تهذبت فانظر فيه حينئذ أن كان قد اقتنى تخشعاً وورعا أو كان غير معقوله الردى الذى كان موجوداً فيه فيكون قد حصل جميع ماذكرناه ، فإن لم توجد هذه الأحوال المذكورة فلن يجدى طول الزمان نفعاً لأننا لا نفحص عن الجرح هل تضمد مراراً كثيرة بل نفحص هل نفعه الضماد شيئاً ولو أن الضماد نفعه فى وقت قليل فما يلزمك أن تضعه على الجرح أيضاً إلا إذا أمّلت منه الشفاء فداومه ولو عشر سنين وهذا يكون برهانا لغاية الضماد ونفعه وهو شفاء مكان الضماد . أعلم أن الرجل المتقدم على جماعة والمتسلط عليهم لا يؤيده ويفخمه مثل إظهار محبته الغزيرة للمرؤوس عليهم . كذلك الوالد لا يصيره أبا توليده لبنيه فقط بل محبته لهم فإن كان عند وجود الطبيعة تقتضى هذه المحبة فكم بالأحرى موضع ما تكون النعمة . أعنى أن كان من الواجب أن يحب أحد أولاده الطبيعيين أن أحب أن يسمى أبا طبيعياً فكم بالاجدر يجب أن يحب أولاده النعمة أعنى الروحيين المعتمدين لئلا يحصلوا فى جهنم معاقبين فيجب حينئذ على كل من الوالدين أبا كان أو أما أن يجتهد فى تربية أولاده لكى يعلمهم كل نوع صالح من التعاليم التى تكون نافعة لنفوسهم . وأن لم يفعل الوالدون هكذا فكل ما يعملونه من الرذائل يكون من كل والديهم وسوف يعطون عنه جوابا لله. وأن كان الوالدون ذوى فضائل صالحة ولم يعتنوا باولادهم بل يتركونهم يسلكون بحسب إرادتهم فلا تفيدهم أعمالهم الصالحة شيئاً البتة ولا تنجيهم من العذاب الدائم . وأنت أيها الولد أخدم والديك كعبد لأنك كيف تقدر أن تجازى والديك عوض مافعلوه معك فإنك لا تقدر

أن تلدهم مثلما ولدوك ولا يمكنك أن تفعل مثلما فعلوه معك بتعب ونصب . أعلم أنه إذا غضب أبوك على أخيك الآخر وشتمه إغضب أنت أيضاً متحداً مع أبيك إما لأجل صلاح أمر أخيك وإما لأجل محبة والدك مبيناً أنك مطابق لارادته لأن أخاك المذنب إذا رأى والدك يشتمه وأنت تتملقه وتتحاشاه فيصير أشر مما كان ولا يصطلح ولا يحصل لك هذا الضرر فقط ولكن يحصل لك العقاب لكونك صرت سبباً لعصيانه ومخالفته لأن من منع مداواة الجرح لم يكن أقل عقوبة من الجارح بل أعظم ذنباً وأشد جرما لأن خطأ الجارح ليس مساويا مع خطأ مانع المداواة لأن منع المداواة بالحقيقة يولد موتا وأما الجرح ذاته فليس كذلك . فلا نحتقرن إذن والدينا لأننا إذا أحتقرناهم فخوف القضاة والحكام يجعلنا طائعين وخاضعين غصباً فإن أحتقرنا أولئك أيضاً وفعلنا الشرور والقبائح فلا نستطيع أن نهرب من توبيخ ضميرنا أعنى الناموس الطبيعى وأن احتقرنا هذا أيضاً ونبذناه فبمراقبة الكثيرين لنا يمكن أن نصطلح وإن نحن خرجنا أيضاً عن دائرة الاستحياء من الكثيرين فخوف النواميس يلزمنا أن نتأدب ضرورة لأنه كما أن الأشرار متى أدبوا يصير تأديبهم اصلاحا لغيرهم هكذا إذا عمل أناس شيئاً صالحا يماثلهم الكثيرون ويغايرونهم فلهذا يؤدب المعلمون الأولاد ويضربونهم أمام غيرهم إذا اخطأوا لكى ينظر الغير إليهم ويخافوا ويصطلحوا . وكذلك يكرمون الصلحاء المهذبين أمام البقية لكى يماثلوهم فى الصلاح إذا عاينوا الإكرام الواصل إليهم . وهذا ما يفعله الحكماء من المعلمين الجياد . فلذلك ينبغى لنا أن نفتش لأولادنا على معلمين أفاضل ماهرين يكونون اكفاء لتعليمهم وتهذيبهم أكثر من أبائهم لأنه لا يحصل للابناء من الآباء سوى الوجود البسيط . وأما من المعلمى الماهرين فيحصل لهم الايجاد بالحيوة الصالحة . فلا تفتخرن أيها الولد بأن لك أبا صالحا وأنت تكون سالكا فى سيرة ردية فهذا يكون لك أعظم دينونة من حيث أن لك مثالا صالحا اعنى أن أباك فاضل وأنت شرير شقى . صالح وعظيم هو أن يكون رجاء خلاصك من أفعالك وتقويماتك لامن الأمور الغريبة عنك لأن هناك فى الحيوة المزمعة لا يمكن لأحد الأصدقاء يعضدك أصلا لأن التبجيل والإكرام الواصلين إلى الآباء الصالحين لا يفيدنا أن لم نماثلهم فى أفعالهم بل أنه يحصل لنا الدينونة المريعة بالأكثر أن لم نقتد بهم فلنسمع أن كان الأمر هكذا أن ابيشالوم كان ابناً لداود وكان متظاهراً بالشبوبية ومفسوداً من الشرور بالكلية فهذا قام وقتاً ما على أبيه داود الملك عاصيا مضاداً . ورفع عليه رأساً وجمع له جانباً من العسكر واخرج أباه داود من كرسى ملكه ومدينته واستحوذ عليهما ولم يستح من الطبيعة الأبوية ولا وقر شيخوخة

أبيه ولا فكر بتربيته له ولا بالأشياء السابقة له وهكذا كان عديم الإنسانية قاسياً بالكلية كأنه وحش وليس إنساناً لكونه احتقر هذه الموانع بأسرها وقاوم الناموس الطبيعي بوقاحة بليغة وقلقل هذه الأمور المذكورة بأسرها . وقد كان ينبغي له إذا ما أراد أن يستحي من داود ويوقره كأب له أن يوقره كشيخ . وأن احتقر شيخوخة داود أيضاً كان ينبغي له أن يستحى منه لكونه علة وجوده وإن كان هذا أيضاً لم يعتبره ولم يستح منه كان ينبغي له أن يستحى منه كملك لكونه لم يضره بشيء البتة . لكن محبة الرئاسة التي آثر الاستيلاء عليها صيرته أنه يضيع هذا الأستحياء كله وصار عوض الإنسان وحشاً وأما الطوباوي داود أبوه الذي ولد ابيشالوم هذا ورباه فكان من جرائه هارباً مطروداً في البراري ومعاقباً من النفى وصعوبته وأما ابيشالوم ابنه فكان يسر بخيرات أبيه التي اختلسها منه . وحدث لما كانت هذه الأمور جارية على هذا النسق والجيوش بأسرها مع ابيشالوم والبلاد كافة تحت أمر المغتصب أن رجلا صالحاً محباً لداود اسمه حوشاي كان يحافظ على محبته دائما حتى في مثل هذه الأمور والوقائع . لما رأى داود على غفلة أنه تائه في البراري والقفار مزق ثيابه ووضع الرماد على رأسه وتنهد وصرخ بمرارة وندب ولما لم يقدر أن ينفعه بشيء قدم الدموع تعزية له لأنه لم يكن صديقاً لداود في حال سلطنته وعزه فقط بل كان محباً لفضيلته وخيرته فإن كان داود تغير من ملكه واغتصبه ابنه منه فإن حوشاي محبه لم يتغير عن صداقته فلما شاهده داود يظهر هذا الأسف باكياً قال له أن الدموع علامة للصداقة لكنها لا تنفعنا شيئاً فينبغي أن تشير علينا مشورة صالحة تدفع عنا هذه الشرور وننجو بها من هذا الشقاء والأهوال التي داهمتنا . فلما خاطب داود حوشاي صديقه بهذا الكلام أشار عليه في اثنائه قائلا . قم انطلق إلى ابيشالوم وتصنع له بوجه الصداقة وانقض عليه تدابيره وأهدم ما بناه اخيتوفال من تدبيره. ففعل ذلك الخل الوفي والأمين الصالح كما أمره ومضى حسبما رسم داود . والنتيجة أن داود غلب فائزاً وابنه العاصي ابيشالوم غلب لأن الله يريد أن الأبناء يطيعون والديهم ويخضعون لهم فإن لم يخضعوا يموتوا ميتة شريرة وعلى الوالدين أن يربوا بنيهم تربية جيدة حسب مقدرتهم وهذا دين عليهم بأن يعلموهم طريق الكمال وحسن العبادة واتقان الفضيلة وأن لم يفعلوا كذلك فلا يصح البتة أن يقال لهم آباء ويجب أيضاً أن البنين المديونين يستمعون لآبائهم ولا يخالفون أقوالهم بالكلية فإن لم يصنعوا هكذا فليسوا بنين بل عصاة كابيشالوم نحو داود أبيه . وهكذا يكونون عتيدين أن يموتوا موتاً شريراً كهلاك ابيشالوم فلا تظنوا إذاً أنتم أيها الآباء أنه يكفيكم أن تسموا آباء من

غير أن تؤدبوا أبناءكم وتعلموهم ما هو المفيد لهم نفساً وجسداً وما هو الذى يضرهم . وأنتم تظنون بل بالحرى تعتقدون أن الغنى هو الذى ينفعهم مع باقى الأشياء الزائلة مع أن هذه الأشياء ليست فقط غير نافعة بل تضرهم مضرة عظيمة لكونها أشياء وقتية فما الذى ينفعهم حينئذ . هو الحكمة . العلم . الفضيلة . الأدب . أما أنتم فتحشوهم على شيء آخر إلا على الأمور التى تضر أنفسهم وأجسادهم . ولم تفعلوا هـذا معهم إلا لكونكم قليلى الأدب . وبما حصلتم عليه أنتم تريدون أن تعلموا أولادكم مثله لا بل الأحرى أن تجعلوهم أشر منكم لأن الشر على مدى الزمان ينمو ويزيد وآخره أشر من أوله وتصيرون معلمين أردياء ومثالا شريراً لأبنائكم . وتضعون لهم رسما شريراً يقتدون به من بعدكم . أيها الإنسان ترى إن مرض ابنك مرضاً ما جسدياً فإنما تفرغ كل جهدك بأن توافيه بطبيب لتنقذه وتنجيه من مرضه الجسدى . وأما إن رأيته مرض مرضاً روحيا هو أعظم وأشد من ذاك فتتهاهل فى علاجه ولا تنقذه من مرضه المهلك . فإن قلت متى مرض مرض النفس . اجبتك حينما يخطىء ، وحينما يزنى بجسده ، وحينما يسرق ، وحينما يعمل القبائح وكل ما يمنعه الله. لأن قلة الأدب هى أشد سقما للنفس لأن من قلة المعرفة تأتى سائر الشرور . فلهذا يجب علينا أن نؤدب أولادنا ونعلمهم الحكمة التى بواسطتها يمكنهم أن يعرفوا جميع الأمور ويعرفوا الله أيضاً لأنه بدون المعرفة لا يسهل لأحد أن يعرف الله بل يعرفه كما تعرفه الحيوانات العادمة النطق . وعلى هذا النحو لا يوجد بينه وبين الحيوانات فرقاً غير النطق . وأن احب إنسان أن يماثل الحيوانات العديمة النطق بإرادته فهذا شقاء وعمى لا يوصف لأن الإنسان الناطق يلزمه أن يكون حكيما بصورة ماخلقه البارى تعالى عليه من البدء لأن النطق بدون حكمة يشبه حجراً كريماً ملقى فى حمأة ومتى كان الشيء المكرم مهملا داخل الشيء المهان فهو شر عظيم . فإن قلت أنه يمكن لأحد أن يسلك بغير حكمة فلا تكون قد قلت الحق لأن السلوك بغير حكمة هو خاص بالحيوانات غير الناطقة وكما أن السفينة بدون الدفة والنوتية لا يمكنها السلوك فى وسط البحر كذلك الإنسان العديم الحكمة فإنه يكون كالسفينة الخالية من الدفة والنوتية داخل هذه الحيوة الحاضرة ولا يدرى كيف يتوجه . ولهذا قال أحد الحكماء المتبصرين أن الخائب من علم لا ينظر نظراً أعنى أن الإنسان غير الحكيم وإن كان مبصراً فهو كالأعمى إذ يبان له أنه يبصر وهو لا يبصر . لأنك إن سألت عديم الأدب والحكمة والعلم هل نفسه قابلة الموت أو الحيوة ؟ هل هى متحركة أو غير متحركة ؟ هل السماء مستقرة أو دائرة ؟ هل الله ذو ثلاثة أقانيم أم لا ؟ هل هو ذو جسم

أو عديم الجسم ؟ هل توجد قيامة أم لا ؟ هل الكل يقومون أو البعض ؟ هل يوجد بين الملائكة فرق أم تساو ؟ أم أى خير يحصل من المعمودية ؟ أم أى شر يكون بعدمها . ماهو القداس ؟ ماهو الكاهن ؟ ماهو الأسقف؟ فالعديم العلم والأدب ليس له معرفة بشىء من هذه المذكورات جميعها ولا يمكنه أن يرد جواباً أصلا عنها ولا عن غيرها فإذا لم يكن له اطلاع على شىء من هذه الأمور أفلا يكون عديم النظر فيها. ومن هنا يتحقق أن الخائب من الحكمة والأدب هو بمنزلة الأعمى. لأنه وأن كان ينظر بحدقتيه الجسديتين فعينا نفسه كفيفتان لأن عديم الأدب والحكمة أعمى لا محالة وخصوصاً نفسه لأن النفس والعقل هما اللذان يبصران ومتى لم يعقل الأمور الضرورية فهو أعمى بالكلية . انظروا أيها الآباء الذين تهملون أولادكم بغير أدب . إلى كم من الرداءة تفعلون معهم حيث انكم تصيرونهم عميانا وتعمون أنتم معهم . فأنت أيها الأعمى أن قدت أعمى مثلك فكلا كما تقعان فى حفرة . لأنه لو كان أحدكما ذا نظر كان يمكنه أن يرشد الآخر وأما إذا كنتما كلا كما أعميين فكيف يكون أمركما . فتلزمنا حينئذ الضرورة أن نؤدب أولادنا فى الابتداء من حال صغرهم لأن كل ماينطبع فى عقولهم من صغر سنهم ذاك يكون ثابتاً فيهم إلى حال كبرهم . كالشجرة فى صغرها كيفما قومتها اعتدلت واستقامت مستوية وإن تركتها معوجة غلظت وتعذر تقويمها بل ربما تنكسر . ولهذا ينصحنا الطوباوى داود قائلا ، ابتغوا الأدب لئلا يغضب الرب . وألزم مايكون أن تؤدبوا أبناءكم لأنه دين عليكم وأن لم تفعلوا هذا فتعاقبون ولو كنتم حاوين كل الفضائل . علموا أبناءكم أن يعرفوا أسرار الكنيسة. علموهم العدل والعفة والفهم شجاعة النفس. علموهم أن يعرفوا ذواتهم لانهم متى عرفوها امكنهم حينئذ أن يعرفوا الله. وهذه الأمور لايمكن أن تتم لهم وتكمل فيهم إلا بواسطة الأدب فإن انقصتموهم شيئاً من العلم وتركتموهم بغير أدب ذوى وقاحة جاهلين فانكم تعدمونهم معرفة الله . وإذا خابوا من معرفة الله فاى خير يكون لهم . أما سمعتم ما قاله الرب فى انجيله المقدس ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. فيلزمكم إذاً أن تؤدبوا أولادكم مع ذواتكم لتخلصوا انتم وهم معاً وتنالوا ملكوت السموات بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد إلى الآبد آمين .

المقـــالة الثانية

(تشتمل على نصح الذين يرغبون فى حسن النساء)

إن الذى يريد أن يأخذ له امرأة بطرق الناموس ينبغى له أولا أن يقرأ النواميس التى ذكرها بولس الرسول ليفهم ما يجب عليه أن يعمله لأنه متى عرض له أن يأخذ امرأة شريرة أو شتامة أو سكيرة مملوءة من الجهل وغير ذلك من الشرور أو يجد فيها خصلة من الخصال الذميمة التى هى أقبح الجميع أعنى فاسقة . فيضطره الأمر إلى تخليتها والأعراض عنها فيحصل له بذلك معاطب وخسائر زائدة فلهذا يجب على من أراد أن يتزوج أن يصرف كل جهده فى اتخاذ زوجة صالحة متواضعة عاقلة مطيعة. لأنك ياهذا إذا أردت أن تشترى لك بيتاً أوعبيداً تفحص أولا باجتهاد عن البائعين والذين قد اقتنوهم سابقاً وعن صحتهم ونشاطهم وسجاياهم وعن بناء المنزل ومحاسنه . فكم الأجدر بك أن تفحص وتستخبر عن أحوال الزوجة قبل اقترانك بها لأنك أن استأجرت بيتاً واطئاً حقيراً ولم تطب به نفسك يمكنك أن تغيره وكذلك العبيد . وأما المرأة فلن يمكنك فيما بعد أن تردها . وأن اقترنت بامرأة فقيرة فهو شر أقل . وأن أقترنت بغنية فهو شر أعظم ومضاعف لأن الأولى تضر فى المال فقط وأما الأخرى فتضر فى الحرية وتجعل الرجـــل كأسير لا يرجو عتقا . وأما الذين يقتنون الزوانى فلا يكفيهم أن يعاقبوا عقابا مؤبداً فقط بل ههنا يهلكون أشر الهلاك . لأنهم يكابدون من الفاجرات فنونا كثيرة ردية وحيلا شيطانية لكونهم يتعاطين السحر ليصيرنهم مغرمين بهن يسقطن البعض منهم فى المخاطر الصعبة والبعض يهلــكون بالكلية . فأنت أيها الإنسان أن كنت لاتخاف الله ولا العذابات الجهنمية فاقل ما يكون خف السحر الشيطانى لانك إذا شاهدت ذاتك مقفراً من العون الآلهى بواسطة الزنا وانت متعر من النعمة العلوية . فأعلم حينئذ العلم اليقين أن الزانية هى التى تجتذبك بعدم الخوف وتستدعى الأبالسة أن يكتبوا لك حمائل ليجردوك عن خلاصك فتجعلك حينئذ ضحكة وهزأ فى المدينة بأسرها . أتشاء أن يحصل لنفسك تعزية جزئية لاتمض إلى ميادين اللعب والمنتزهات بل امض إلى روضة ماء واجلس منفرداً على جانب الماء واسمع تلاحين الأطيار وترنيمهم وتعلم منهم التسبيح والتمجيد لله تعالى. أو بادر مسرعا إلى كنائس الله المرسومـــة باسم الشهداء القديسين الذين بصلواتهم يمنحون مواهب الشفاء للنفس والجسد معاً ولن يحصل منهم ضرر

البتة . ترى أى فرح وسرور أعظم من هذا تؤثر أن يكون لك . أعنى عبيد وامرأة أو بنين . أترى لك منزل أم لك عشيرة وأصدقاء . فهذا فرح كلى وربحه خلاص وتطويب . فأى شيء ألذ وأفضل فى العـــالم جميعه من الأصدقاء الصالحين المحبين أو أى شيء أوفق وأشرف من القرينة المهذبة العاقلة والمطيعة فإذا رأيت ياهذا امرأة جميلة وتضاعف ميلك إليها فافتكر بها أنها أرض ورماد . وفى الحال يكف عنك القتال وتخمد نار الشهوة الملتهبة داخلك ، ضع فى عقلك أن حالها يتغير وجمالها يستحيل . إما من الشيخوخة أو من الأمراض ، وتخيل أنك ترى الحاظها قد غاصت ووجهها قد أكمـــد وكيف زهر ذاك الجمال قد ذبل ومحاسن تلك الشبوبية وطرواة ذاك الجسم قد اضمحل. فتعجب حينئذ من حسن ذاك الجسد الذى ليس هو شيئاً آخر سوى غبار ورماد وقبر مكلس . لانك إن تأملت باطن الجسم تراه ممتلئاً من كل نتن ونجاسة ومراراً كثيرة بعدان ماتت ابنة جميلة ومضى عليها فى القبر يوماً أو ثلاثة أيام شوهد قبرها مملوءاً من الصديد والنتن والدود الكثير . فإذا رأيت أيها الإنسان هذا فأى حسن تعود تشتهى وتميل اليه . ولا جل هذا منع السيد المسيح التأمل الى حسن أحد بقوله من نظر إلى امرأة وأشتهاها فقد زنى بها . فسبيلك متى نظرت شخصاً ما واعتراك منه شيء من الضرر النفسانى فـــلا تعد النظر فيه بالكلية فتجولأن المستسقين والموجوعين فى أكبادهم تبصر وجوههم وتلمـــع ولكن أن تحققنا المرض الكائن داخلهم نستكرههم . هكذا يجب عليك أن تستكره النظر فى محاسن الأجنبيات وتفر من العشرة الرديه وتقنع بالزوجة الشرعية ولو لم تـــكن جميلة وحسنة الأخلاق . وقد ذكر أن أحد فلاسفة اليونان كان له أمرأة سليطة اللسان مناقرة وكان الجميع يقولون له لأى سبب أنت صابر على هذه المرأة السليطة ولم تطردها . فـــكان يجيبهم انى أريد أن يكون لى فى منزلى جهاد وورع لاكون وديعاً للغير ولاجل هذا احتمل الشتيمة والمشقة . واسمعوا أيضاً عن محبة الهية كانت لزوجين مكرمين قد أظهرها احدهما للآخر حتى إلى مخاطر الموت وهو أن إبراهيم حين سكن فى مكان يسمى جرار سأله أهل تلك المدينة عن ساره أمرأته فمن خوفه قال أنها اخته . فللحين ارسل الملك ابيمالك فأخذ سارة لأنها كانت جميلة جداً . اما إبراهيم الصغير فصبر محتملا للمصيبة المضاعفة اعنى الغربة واختطاف الزوجة . واما البارى تعالى ففى تلك الليلة بعينها ارسل ملاكا إلى ابيمالك وزجره قائلا له . إن لم ترد امراة الرجل الغريب التى اختطفتها منه ففى الليلة تموت فأجابه الملك قائلا ان الرجل قال لى أنها اخته وانا لم أمد اليها يداً البتة فسامحنى لأنى فعلت هذا بعدم المعرفة . فقال الله له احذر وكن عالما ان هذا الرجل الغريب هو احد احبائى المنتخبين فرد اليه زوجته . ولكونه

نبياً فيتوسل إلى عنك فتعيش زماناً طويلا . وإن كنت لا تردها إليه فستموت أنت وكل عشيرتك لأنه خوفاً من الموت قال أنها ليست زوجته وأكرمه بصلات وعطايا ليطلب من أجلك . فلما انتبه ابيمالك من نومه وهو مملوء خوفاً وفزعاً فللحين أتى إلى ابراهيم باكرام واجلال وقال له لماذا فعلت هكذا أيها الإنسان وجلبت علينا الموت ونحن لم نسيء إليك بشيء . فقال إبراهيم للملك أنني خفت من الموت فقلت أنها أختي ولم اكذب بهذا لأنها أختي من أبي وليست من أمي وأنا اتخذتها لي زوجة وشقيقة. فحينئذ أكرم الملك الصديق لاتضاعه ووداعته وأعطاه ألف دينار وغنما وبقراً وعبيداً وأماء وسارة إمرأته . وليس هـذا فقط بل وأعطاه سلطاناً أن يسكن أى مكان إختاره من أرضه . وذلك إذ علم أن بواسطة طلبته وهبت له حياته وصار عنده ذاك الغريب غير المعروف بمنزلة محسن عظيم . فهذه كلها صارت من قبل الرب بتدبير إلهى ليحصل منها السرور عوض المحزنات . ولما صار إبراهيم ذا شيخوخة متناهية لم يحب أن يأخذ لابنه إسحق عروسا من جنس الكنعانيين . فدعا مقدم عبيده الذى كان أكثرهم أمانة وعقلا لديه لأن جملة عبيده كانوا ثلثمائة وثمانية عشر . وقال له أذهب إلى وطنى فيما بين النهرين وخذ لابنى الحبيب إسحق إمرأة من جنسى أرأيتم أيها الأحباء كيف إنهم فى الزمان القديم لم يكونوا يرغبون فى الغنى ولا فى المقتنيات ولا فى الكروم والبساتين ولا كانوا يبحثون عن الجمال الظاهر بل على محاسن النفوس وشرف الجنس ولما أخذ صلات أب الآباء والجمال والهدايا وحلى العرس مضى نحو سوريا فيما بين النهرين إلى مدينة ناحور الذى كان أخا لإبراهيم فوقف خارج المدينة قريباً من البئر التى تستقى منها أهل المدينة وشرع يصلى قائلا هكذا أيها الرب إله مولاى إبراهيم سهل لى فى هذا اليوم وكمل إرادة سيدى إبراهيم . وإذا برفقة أقبلت تستقى ماء فأراد أن يختبرها هل هى محبة للغرباء فقال لها أيضاً بعد أن شرب هل لك يا أبنتى أن تستقى ماء وتسقى الجمال إلى أن أكتفوا عن آخرهم فعجب من حسن نيتها ومحبتها للغرباء فلما نظر المرسل إلى لطافة عقلها أخذ يستفهم بطريق السؤال أبنة من هى وهل لوالدها مكان لينزل به . فقالت له عندنا محل معد لنزولك مع أنه لم يكن عندهم مكان يسع ولا ناقة واحدة ومن ذلك الوقت أبتدأت أن تظهر أنها مزمعة أن تكون لإبراهيم محب الغرباء كنة وابنة فثنّى عليها السؤال قائلا من هى ؟ أما هى فاجابته أنا ابنت بتوئيل بن ناحور الذى ولدته له ملكة وهو الذى كان أخا لإبراهيم أب الآباء فسألها أيضاً هل يوجد عندهم علف للإبل فأجابته أن المكان واسع والعلف وافر فتفضل . انظر الى هذا التواضع الجزيل ومحبة الغرباء العظيمة الصادرة عن صدر فسيح . فكم هو أفضل هـذا الفعل من الغنى وكم هو أشرف من

الكنوز. هذاهو النقد الجزيل القيمة . هذا الذى يصير سبباً لإكتساب ربوات من الصالحات او هو الكنز الذى لا يفرغ أبداً. فلماسمع العبد كلام الجارية تعجب من محبتها للغرباء التى بغير قياس وفرح جداً بنيتها الرحمية وشكر الرب قائلا تبارك الرب اله سيدى ابراهيم وأخذ يخبر الجارية عن أمره ويفهمها من هو وذكر لها أن المحب للغرباء ابراهيم العجيب الذى أرسله هو أخ جدها ناحور . فلما سمعت الجارية هذه الأقوال بادرت مسرعة بفرح كثير واخبرت والديها بما قال الغريب فأسرع حينئذ أبوها الى الخارج نحو ذاك الانسان وقال له لماذا أنت واقف خارجا كل هذا الزمان مع انك عبد لرجل من أخص أنسبائنا . هلم معى الى منزلى لأنى قد هيأت لك مكانا لتستريح فيه أنت والحيوانات التى معك . فلما مضى معه أستقبله ببشاشة وقدم لجماله علفاً وغسل رجليه ولجميع من كانوا معه ووضع لهم مائدة ودعاهم إلى الغذاء . فأجاب المرسل قائلا لا يمكننى أن أتناول شيئاً من الطعام حتى أخبركم بماذا أرسلنى سيدى نحوكم . إسمعوا إنى واحد من الثلاثمائة والثمانية عشر عبداً لابراهيم أب الآباء الذى باركه الله لكونه يحبه كثيراً وأعطاه كثرة من الغنم والبقر بغير عدد وذهبا وفضة لا تقدر كميتها وكثرة من العبيد والآماء وجمالا وحميراً وبغالا وولدت له زوجته سارة ابنا جميلا بموعد سبق فيه وهو يسود فيه على جميع أماكن الكنعانيين . ولهذا أتيت اليكم بصلات ذاك فإن شئتم أن تعطونى ابنتكم لامضى بها لابنه أسحق لتكون له عروساً لكونه هكذا أمرنى أن آخذ لأبنه الشريف النسب عروساً تكون من أبناء جنسه وبلدته . فأجابه عند ذلك أبو الجارية قائلا أن هذا القول لآت من عند الله ها أبنتنا بين يديك فخذها وأذهب بها إلى مولاك كما أمرك وكما رسم بذلك البارى تعالى لتكون إمرأة لابن سيدك . فأخرج العبد فى تلك الساعة الحلى الذهبية الكثيرة الثمن وزين بها رفقة . وكذلك والديها فالبسهما ثيابا فاخرة ووهبهما هدايا ثمينة ، فأكلوا حينئذ وشربوا وفى الغد دعوا الجارية وأمروها أن تذهب مع المرسل إلى خطيبها ، فأجابتهم أن رسمتم بذلك فتفضلوا على وزودونى صلاتكم لأمضى إلى سيدى حسب إرادة الله . فباركوها للوقت ودعوا لها قائلين تبارك الله يا ابنتنا الوحيدة علة لألوف وربوات ونسلك يرث جميع أعدائه . وقبلتهم رفقة قبلة الوداع وركبت مع جواريها على الجمال وساروا صحبة القائد المرسل . فعلى مثل هذه الطريقة كان اكابر القدماء وأشرافهم يصنعون خطباتهم وزيجاتهم لا مثل أهل هذا الزمان بالكبرياء والافتخار وكثرة الأموال . فلما إقتربوا من المضارب قيل أن إسحق خرج إلى البقعة ليتنزه فلما شاهدته رفقة سألت قائلة من يكون هذا الشاب الجميل المقبل إلينا الذى ينير وجهه كالشمس فأجابوها إنه عريسها فانحدرت للحين من الهودج فمضى بها

إسحق إلى منزل والدته واقترن بها لتكون له زوجة وصنعوا فى ذلك اليوم حسنات وصدقات كثيرة هكذا ، لا باللعب والرقص ولا بالأغانى والملاهى الشيطانية بل بالرحمة والصدقة على الفقراء والمساكين فحينئذ تأتيهم النعمة من لدن المسيح ويبارك ذلك العرس ويجنون ثمرة حسناتهم بسرعة. وان اردت تعلم حقيقة الأمر فعليك بمطالعة الكتاب المقدس ترفيه ماذا ينبغى لك أن تتخذ من النساء ومن أى صنف تكون المرأة التى تتخذها لك زوجة أمن الأغنياء المثرين الفاسدى الخلق والآداب . أومن الناس الغير اتقياء . أومن الجميلات اللائى يتباهين بحسنهن وليس عندهن من الإيمان شيئاً . لعمرى أن معاشرتهن أردأ من معاشرة الشياطين . فاسمع اذن مايقوله رسول السيد المسيح وأنتن أيتها النساء فلتكن زينتكن لا بحلى الذهب ولا بضفائر الشعر ولبس الثياب الفاخرة بل فلتكن زينتكن بالأعمال الصالحة والتقوى والعفاف والطهارة . فسبيلنا أيها الأخوة أن نتبع أوامر ربنا يسوع المسيح وتعليمات رسله وقديسيه الذين هم نور العالم فله المجد مع أبيه وروح قدسه من الآن والى كل أوان والى دهر الداهرين آمين .

المقالة الثالثة

(الاهمال واحتقار كنيسة المسيح وباقى الاسرار)

انى اليوم لمتعجب لتخلف أكثركم عن المجىء إلى الكنيسة . لانى لم أرمنكم فى البيعة إلا القليل . ليت شعرى ماهو السبب الذى أعاقكم عن الحضور . مع أن وجودنا فى الكنيسه ماهو إلا للاستغاثة للعزة الالهية وإظهار عبوديتنا له تعالى وشكرنا لنعمائه المجانية التى أسبغها علينا حالة كوننا أعداء له ومضادين وغير خاضعين لعزته إذ أرسل ابنه الوحيد من السماء سافكادمه الزكى وباذلا جسده الكريم الطاهر فداء عنا ذاكرين هذه الآلام المجيدة وصانعين هذه التذكارات الجليلة المحجوبة تحت ستار طبيعتى الخبز والخمر اللذين هما سر الجسد المبذول والدم الزكى المسفوك ومشتركين فى هذه النعم الغزيرة ومتحدين فى هذه الامجاد الالهية الفريدة كما واننا ذاكرين لسير الآباء المتقدمين والشهداء القديسين الذين اقتدوا بسيرة فاديهم واتبعوا تعليمات مرشدهم وقائدهم الأمين وسفكوا دماءهم تثبيتاً لايمانهم ولعمرى أنه إذا كان أحد القواد أو الملوك عمل عملا فى يوم معلوم يحصل به على خلاص مملكته من يد المغتصب الطاغى العاصى المارد وأمر أن العمل المذكور يستمر صنع تذكاره

فى سائر عواصم وبلدان مملكته ويذكر فيه أيضاً أسماء بعض الجنود أو القواد الذين اقتدوا بسيرة سيدهم وملكهم وحذوا حذوه فى تخليص منازلهم ومقتنياتهم من يد المغتصبين افما كانت تحتشد لذلك سائر الرعية ويحتفل لذلك كامل الموظفين والوجوه والأعيان فكم بالحرى يجب علينا نحن المسيحيين أن نحتفل فى بيعة الله عند ماتقام فيها العبادة والصلوات وخصوصاً فى حال عمل تذكار الآلام المقدسة والقيامة المجيدة بوضع الاسرار الالهية على مذبح الله تعالى ولكننى أحزن حزناً كلياً واتكدر تكدراً زائداً عندما أنظر فى البيعة ولا أرى فيها أحداً منكم إلا القليل ولم يشترك معنا احد من الكثيرين . ألعلة بعد المسافة جعلهم أن يتكاسلوا متهاونين. لالعمرى ليس هو المانع بل عدم وجود حرارة محبة الله وقد يسبه فيهم فمثلما ان النشيط المجتهد والمستيقظ الضمير لايمكن أن يعيقه شيء من العوائق . كذلك الكسلان المتوانى فممكن أن يعيقه كل شيء . الشهداء سفكوا دماءهم لاجل الحق الذى هو السيد المسيح وانت لاتشتهى أن تتعب ذاتك فى المشى مسافة صغيرة من الطريق . أولئك قطعت رؤوسهم لاجل المسيح ، حتى المسيح نفسه مات لأجلك وانت من أجله متكاسل. ها تذكار سيد الشهداء موجود وانت متكاسل متهاون . وقد كان ينبغى لك أن تحضر إلى هذا الميدان الروحانى لتنظر الشيطان كيف هو مغلوب والشهيد غالب والله ممجد والكنيسة مكللة . فماذا اذا يقول الإنسان الجاهل بأنى خاطىء لست اقدر على المجيء إلى الكنيسة .فان كنت ايها الانسان خاطئاً فاحضر إلى الكنيسة لتتبرر . فمن تراه من الناس صالحا وبريئامن الخطأ . أما تعلم أن هؤلاء الذين هم اصحاب الرتب الكنائسية الذين يخدمون المذبح المقدس ليسوا بأبرار بالكلية بما انهم بشر ذوو أجساد ترابية وحتى نحن انفسنا الجالسون على كرسى رئاسة الكهنوت ونعظكم دائماً مشتبكون بالخطايا ولكن لا نيأس من محبة الله للبشر ولا نظهر عدم الأنسانية . فانه لهذا جعل الكهنة أن يكونوا تحت اعراض الآلام ليشفقوا على الغير من الأشياء التى تصيبهم . فكم هو من الجهل الفظيع متى دعانا أحد إلى ميدان الغناء والرقص والى باقى الملاعب والمطربات نبادر اليها جريا بغاية الحرص والأجتهاد كأننا باجنحة وتتخذها علينا منه عظيمه وكرامة زائدة للذى دعانا ونقيم هنالك نهارنا أجمع بصبر جميل بحيث أننا نسمع له ونشاهده فقط . أما إذا وعظنا الله على السن أنبيائه ورسله فنتناعس متثائبين وتعصر قلوبنا وتتوجع رؤوسنا وتظلم اذهاننا . وأما فى ميدان اللعب حيث لاجدار ولا سقف فيصبرون على ذلك ولو عرض مطر وزوابع حتى تضرب الحاضرين فى وجوههم فيتحملونه كالمجانين ولا يهينهم البرد والحر ولا يتعبهم بعد الطريق ولا يعيقهم عن ذلك مشقة البتة . وإذا أرادوا الحضور إلى الكنيسة فالمذكورات بأسرها

تصير لهم موانع. فإن سأل أحد هؤلاء قائلا لهم ترى من هو أبو أشعياء النبي .أو عوبديا أو واحد من الأنبياء والرسل . فما يمكنه أن يرد جوابا . ومالى أقول هكذا عن أفراد الشعب بل والقسوس وخدام الكنيسة أنفسهم . وأما أن سألته عن المركبات وقلت له أيما هى التى تمضى إلى اللعب . فيجبك بغاية التأنق والتفهيم ويخبرك بمعرفة كلية عن مركبات المتحكمين والمترجمين والفصحاء . فقل لى من يسمع هذه الأمور ويحتملها . وقد وعظت مراراً كثيرة ونبهت على ألا تمضوا إلى أماكن اللعب والفرح ووبخت البعض على هذا . فإن كنت لم تمتثل لكلامى ولم تسمعه فلا تستح . بل تعالى أيضاً واسمع أو ربما تقول حضرت وسمعت وما حفظت فكيف يمكننى الآن أن أحضر وأنا لا أمتثل لما أسمعه فأجيبك بالحقيقة إنك خجلان ولو ما كان ظاهراً فى الخارج . ها إحمرار وجهك يظهر خجلك لأن كلامى هذا متأصل فى قلبك ولو لم يوبخك أحد فالخوف والحياء موجودان فيك لأن تعليمى يشقيك . وتقول إنك ماحفظت فانت بالحقيقة محتاج إلى الحضور أيضاً لتسمع. فإن كنت اليوم مثلا تستعمل شيئاً من الأدوية ولم ينفك أما تستعمله يوما آخر ؟ قل ياهذا إذا عزم الحطاب على قطع شجرة عظيمة ولم تقطع بضربة واحدة أما يثنى عليها الضرب ولو عشر مرات وأنت أفعل هكذا ولست أقول هذا لأجعلكم متكاسلين ومتهاونين بل لأصيركم أشد نشاطاً ورغبة . فإن دخلت ياهذا الكنيسة واستحقيت لسماع الكتب المقدسة وخاصة أقوال المسيح الهنا فاحرص ألا تخرج قبل أن يختم الكاهن الصلوة لأنك إن خرجت قبل ختم الصلوة فستدان من الله كعبد مارق فالنهار كله تصرفه فى معاطاة الأشغال الجسدانية أفلا يمكنك أن تصبر ولو ساعة وفى الأمور الروحية الملاعب لا تبرح عنها إلى أن يتم اللعب منها . والكنيسة أيجوز لك ألا تخرج منها قبل إنتهاء القداس . خف من أن الذى يتهاون بالاسرار الإلهية يهان من المسيح أن وقفت بحضرة السلطان لا تجسر أن تتبسم وأن وقفت امام السيد المسيح ملك للكل فما تقف بخوف ورعدة بل تتكلم فى هيكل الله وتضحك من غير أدب وبهذا تلزمه أن يعاملك بالغضب والإنتقام وتعدم غفران خطاياك. اعلم أن الله لايبغض الذين يخطئون بهذا المقدار كما يبغض الذين يعرضون عن خطاياهم بالكلية . ويتغافل البارى تعالى عن مثل هؤلاء ويتخلى عنهم . فماذا تصنع أيها الإنسان فى وقوفك فى الكنيسة وأنت تتأمل الحسن الغريب أما تخاف مرتعداً من كونك تشتم الله فى كنيسته المقدسة وتحتقر هيكله الطاهر حتى تستبنه

كأنه ماخور الزناء وأنقص شأناً من الاسواق اذ تخاف وتستحى أن تظهر فى السوق متأملا فى حسن أحدوا اما هيكل الله الذى يعظك ويرهبك بالأكثر لاجل خطاياك وتعديك النواميس التى تفعلها ولاسيما من حيث أنك تسمع النهى ان لاتفعل كذا فتجعل فيه قلبك حانوتاً للشياطين وتستعمل عينيك فى النظر المنحرف أما كان الاجمل لهاتين العينين بالحقيقة ان تكونا مكفوفتين من ان تنظرا نظراً ردياً مخالفاً للناموس . ضع فى عقلك ايها الانسان فى حضرة من انت قائم .اعلم انك بقرب القداسات الإلهية الموقرة . ياليت شعرى مع من انت مزمع ان تطلب من الله . مع الشاروبيم ام مع السارافيم .ام مع بقية الملائكة ورؤساء الملائكة وجميع القوات السموية .افتكر مع من انت مشترك فى الصلوة والترتيل وهذا يكفيك للإنتباه والإدراك اذا تذكرت أنك متحد لابساً جسما ترابيا وأنت مع الملائكة القديسين ومع باقى القوات السموية غير المتجسدة واستحقيت ان تسبح وترتل للسيد المسيح اله الكل .ولاجل هذا لاتصير فى الترتيل وقت القداسات الإلهية كمخلع بل كنشيط ولايكن لك فكر دنيوى البتة فى ذلك. بل ارفع عقلك كله الى السماء كانك واقف بقرب كرسى المجد ذى العظمة وطائر مع السارافيم وهكذا قدم التسبيح للكلى قدسه . ولهذا نوصيكم دائماً ان تقفوا حسناً فى وقت القداس الإلهى ونوصيكم أيضاً أن ترفعوا الافكار السفلية الى العلا لان وقت الصلوات الإلهية ياأخوه ليس البشر فقط يهتفون بتلك النغمة الإلهية بل والملائكة الإلهيون يسجدون للسيد المسيح حتى أن رؤساء الملائكة يطلبون ويتضرعون لكون الوقت مساعداً لهم . وخاصة القداس المقدس الإلهى اعنى الأسرار الإلهية الرهيبة . وكما ان الناس يحملون بأيديهم اغصان الزيتون ويهزونها امام الملك كأنهم يذكرونه بهذه الأغصان ان يستعمل معهم الرحمة والمحبة البشرية هكذا والملائكة القديسون فى حال ذبيحة القداس الإلهى فعوض الأغصان الزيتونية يقدمون هذا الجسد السيدى الكلى قدسه بعينه ويرونه سيدنا وإلهنا يسوع المسيح . ويتوسلون اليه من اجل الطبيعة البشرية قائلين نحو المسيح المخلص . أيها السيد الكلى الصلاح المحب البشر اننا نطلب منك متضرعين اليك من اجل جنس البشر وحدهم الذين سبقت انت فاحببتهم بهذا المقدار . حتى انك تنازلت إلى أن اسلمت نفسك الكاملة لأجلهم . فلاجل هذا نحن نذرف الدموع ونسكبها كما سكبت دمك الكلى قدسه عنهم . ايها الكلى الصلاح لاجل هؤلاء نحن نتضرع أولئك الذين

بسببهم قدمت جسدك الكلى الطهر ذبيحة ومحرقة على أيدى اليهود . ولهذا ينبغى لكل واحد منا أن يفكر بعقله بروية . ترى أيما ذنب أو أيما خطأ استغفرتهما وأى تقويم فضيلة اكتسبتها . وأية خطية تركتها . أو إلى كم مقدار من الفضيلة وصل . اترى صار أفضل مما كان . فإذا اختبر ذاته وعرف أنه صار أفضل مما كان فى صومه فليحرص جيداً . وأن ظهر له أنه متكاسل فى طريق المحامد ولم يكمل سوى الصوم فقط وباقى الفضائل لم يتقن منها شيئاً . فليقف خارجاً . ومتى طهر من جميع خطاياه على ماينبغى فحينئذ يدخل الكنيسة ويتناول أسرار المسيح الرهيبة . أعلم أن من لم يصم ربما أنه يسامح بذلك لعذر ما . أما عن شيخوخة وأما عن مرض جسدانى وأما عن عائق ما . وأما الذى لايقوم أعوجاج خطاياه فغير ممكن له أن ينال صفحاً وأن يقبل له عذر . لأن البارى تعالى إذا فحصنا عن الذنوب وعن الحديث فى الكنائس والأهمال والكسل فى الصلوات ماذا عسانا نفعل وكيف نرد جوابه . ترى إذا ترك الله لنا الجميع وحاكمنا مطالبا لنا لأجل هذه الخطية فقط وهى أن مراراً كثيرة فيما الله يخاطبنا جميعاً على ألسن أنبيائه ورسله نحن نتكلم كلاماً غير مرتب وغير لائق بعضنا عن بعض من غير أن تحصل لنا منه فائدة بل أننا ندمدم باطلا فاى رجاء خلاص يكون لنا . ولاتظن فى عقلك أن هذه خطية صغيرة فإن أردت أن تعرف مقدار هذه الخطية وعظم التهاون الحاصل منها فاستفهم عن ذلك من أهل العالم فيظهر لك قبح فعلك . قل لى ياهذا لو اتفق لك الحضور بمجلس أحد الشرفاء أو الأصدقاء وانفرد بك واحد يخاطبك باعذب الألفاظ وأحسنها بغاية الأدب والاحتشام ويظهر لك نصائح مفيدة لحياتك ويخبرك عن الأزمنة السالفة وماجرى على أهلها من الأحوال الحميدة والذميمة فهل كان يمكنك أن تتواقح وتتجاسر بهذا المقدار حتى أنك تعرض عن الاستماع لكلامه وتنعطف إلى مخاطبة عبده والتكلم معه فلو فعلت مثل هذا فالى كم من القبح وقلة الأدب يظهر فعلك . فمن هنا إذاً تفهم إلى كم من الاحتقار والتهاون تجاسرت أن تفعله مع البارى تعالى فيا للعجب لأنه إذا ازدرى أحد بآخر من أصحاب الرتب العالية وتهاون برتبته كيف يجرى عليه الحكم بالعذاب الشديد وربما بقطع الرأس . فكم الأجدر بنا أن نعتبر البارى تعالى ونخافه ولانطمع فى رحمته وطول أناته . لأنه فى كل يوم يشتم ويهان ليس من واحد أو اثنين أو ثلاثة بل من كثيرين حتى لا أقول منا كلنا . وأما هو فمن حيث أنه رحيم وحكيم لايعجل علينا بالإنتقام لأنه لايشاء هلاكنا . وإذا كنتم متى رأيتم الملك الأرضى قد غضب على أحد المذنبين يبادر جميعكم مع النساء والأولاد وتسجدون أمامه بالخوف والفزع وتستعطفونه بالبكاء والورع

والتوسلات الخشوعية لتهدئوا غضبه وتخلصوا المجرم من طائلة الموت . وأما الملك السماوى فمع علمنا بأنه مملوء غضباً على الأشرار ولاسيما على الذين يدنسون بيعته المقدسة بخطاياهم لانهوى أن نستعطفه ونهدىء غضبه ليس عن اثنين أو ثلاثة أو مائة ، بل عن جميع خطاة الأرض لكنكم تجلسون خارجا ولا تؤثرون أن تبادروا باجمعكم إلى الكنيسة لأن بورعكم واتفاقكم تسطعفون الله الى الرضا لينقذ أولئك من العـذاب ويغفر لكم سيئاتكم . ترى أى شىء يكون أقوى من بيعة الله . ولا تجبنى عن الجـدران والآلات لأن طول الزمان يفنى هذه جميعها . وأما الكنيسة فثابتة إلى الانقضاء من غير فناء ولاهرم . وما يقدر الأعداء غير المنظورين أن يوصلوا إليها شيئاً من الضرر ولسنا نخص هذه الأشياء المذكورة إلى الكنيسة من طريق الافتخار لأنها هى بذاتها تشهد بذلك . فكم من الملوك المغتصبين حاربوا كنيسة المسيح. أما محاربوها فهلكوا وبادوا. وأما الكنيسة فتثبت مستعلية إلى السماء . فالكنيسة حاصلة على مثل هذا الشأن الجزيل الرفعة . لأنها إذا كانت محاربة فهى غالبة . ومتى اضطهدت تضاعفت ومتى شتمت استنارت وبقيت مشرقة لامعة . وقد احطتم علماً بما جرى علينا فى ذلك اليوم حين كنا ذاهبين إلى بلاط الملك كيف انعكفت علينا الأسلحة وتواتر غضب الجنود الذى هو أحر من لهيب النار لكل المسكونة . ولكن بنعمة الله لم يرجفنا من هذه المذكورات ولا واحدة . ولماذا لأنه ولا واحدة من المكاره الوقتية مرة . فأى شىء إذاً فى العالم مكروه . لا شىء . أترى الموت . كلا . لأن الموت غير ردى لأن بواسطته نصل إلى الميناء المتيقظ بسرعة . أترى خطف المتاع . لكنى عريانا خرجت وعريانا أمضى . أترى النفى . لكن الأرض بكمالها للرب . أتهمة باطلة . لكن افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم فى السموات متى قالوا عنكم كل كلمة بطالة . فإنهم لو كانوا يسوقوننى إلى الطرد فهذا لم يكن شتماً وعاراً لأن شيئاً واحداً هو الشتم وهو الخطية وحدها. لأن إذا شتمك العالم كله فلا تشتم أنت نفسك فلا تكون شتمت أبداً . لأن علة الوقوع فى يد الحاكم والدينونة هو الضمير فقط . وإن كان الضمير لا يدفعنا إلى هذا الحكم فلا يقدر أحد أن يدفعنا إلى المحاكمة . لأنى فيما كنت مساقاً من الأعداء كنت أشاهد أشياء خصوصاً ما كانوا يتقولونه على فى الأسواق . فعجبت أنا من ذلك ولهذا كنت اشتهى أن أبصر إلى أين يذهب وفى أى محل يوجد أولئك الذين يتركون سماع القداس الآلهى ويتهاونون عن المضى إلى الكنيسة ويجلسون فى الشوارع والأسواق ويتكلمون فى الهموم العالمية وهم خالون من نعمة الله . قل يا هذا هل يمكن للعبد أن يعمل خدمة بيته قبل أن يشرع فى خدمة سيده. فهذا غير ممكن . فإذا كان هذا شىء غير لائق بنا ولا واجب علينا وقبيح بنا أيضاً أن لم

ندع الأعلى منا ساداتنا . بل يجب أن نوقرهم ونخضع لهم طائعين بغاية العز والتكريم . فإن كان هذا فعلنا مع الناس المخلوقين فبكم نحن ملامون أن لم نظر هذه الأفعال لسيدنا الحقيقى يسوع المسيح الذى ليس هو سيدنا وخالقنا نحن البشر فقط بل سيد وصانع القوات السماوية . ياليت كان ممكناً لى أن أريكم بأعينكم نفوس أولئك لكنتم تنظرونها معتراة بالقروح والخجل . فكما أن الأجساد التى لا تدخل الحمام لتغتسل وتنقى تبقى ممتلئة من الأوساخ والأقذار الكثيفة كذلك النفس التى لا تسمع التعليم الروحى لاتزال مفعمة من نجاسات الخطايا وأدناسها . وكنتم ترون نفوسهم ممتلئة من الجراحات والأشواك . وكما أن الأرض التى لا تفلح تصير بوراً وتمتلىء أشواكا كذلك النفس التى لاتسمع قول الله والتعليم الروحى فإنها تنبث شوكا وحسكا . أعنى تتولد فى قلوبنا كل أنواع الخطايا . فإذا كنا نحن الذين نتأمل كل يوم المقروئات ونسمع أقوال الأنبياء والرسل ومواظبين على تكميل فروضنا فبالجهد الجهيد يمكننا أن نهرب من آلامنا النفسانية وبالتعب الشديد نستطيع أن نهدىء غضبنا ونروض أخلاقنا ومثل ذلك الجسد والشهوات الردية . وبالحرص الجزيل أيضاً نقدر أن نهدى الوحوش العديمة الاستحياء أعنى الأفكار الشريرة التى تحدث من الشياطين فأولئك الذين لم يقبلوا مداواة هذا التعليم فأى رجاء خلاص يحصل لهم . فكما أن الذى يخرج من الميناء يتوه فى أماكن كثيرة كذلك الذى يفقد بصره يكثر عثاره فى أغلب الأماكن. فيسقط كذلك الذى ينسى خوف الله فإن الهموم والغموم والمحزنات تعلوه دائماً . لأن الله متى كان مساعداً لنا يطرد عنا جميع المحزنات بعيداً . وهكذا أيضاً إذا ابتعد عنا لأجل خطايانا فإنه لا يذكرنا البتة ويشتمل الحزن العظيم على أنفسنا وأجسادنا بهذا المقدار حتى تتمزق منه قلوبنا ويتسلط علينا الناس والشياطين الذين يحزوننا ونكون مضطهدين منكدين من الجميع . وهذا كله يجرى لتنشيط الكسالى ليعودوا إلى المحل الذى سقطوا منه . لأن الكتاب الآلهى يقول أن عصيانك يؤدبك وشرك يوبخك . لكون تخلية الله عن الخاطىء هى شكل العناية به . لأنه تعالى إذا أراد أن يعتنى بانسان ويهتم به يهمله قليلا حتى يكون محتقراً إلى أن ينفى عنه الكسل . فيصير حينئذ ذوو الكسل نشطين. ولقد كنت اتمنى أن أرى علانيه أولئك الذين تركونا فيما سلف ومضوا إلى المشاهد واللعب الخارجة عن الشريعة واليوم أتونا حتى كنت أطردهم خارجاً عن باب الكنيسة لا ليلبثوا خارجاً أبداً بل إلى أن يتقوموا فيعودوا أيضاً . كما أن الآباء حين يذنب أولادهم يطرحونهم

خارج المنزل ويمنعون عنهم الخبز . وليس هذا منهم ليفوهم بالكلية بل ليتعنفوا ويصيروا أحسن مما كانوا فحينئذ يعودون بالمجد والكرامة إلى الميراث الأبدى . وكذلك أيضاً تفعل الرعيان باغنامهم الجربة حين يفرزونهم من بقية الأغنام السليمة لئلا تعديها بمرضها حتى إذا شفيت بعد التجربة والأختبار الشديدين يعودون بها إلى الأغنام الصحيحة المتعافية فلهذا السبب نريد نحن أن نعلم من هم الذين على هذه الحالة . ولو ما أردنا أن نراهم باعيننا لأن القول الموجه نحوهم هو يعرفهم ولاسيما ضمائرهم التى توبخهم ولست أعنى بقولى هذا الموجودين داخل الكنيسة فقط الذين يوجهون عقولهم نحو الإستحقاق للسلوك فى الطريق القويم . بل ولذاك الذى تكون سيرته مفسودة أيضاً وهو مختلط مع الاكثرية . فهذا وأن كان جسده هنا وعقله خارجاً لا ينتفع بالكلية . أما الذين هم تحت قوانين النواميس الإلهية ويلبثون خارجاً فبالحقيقة أن رجاءهم صالح . فإن أصلحوا فساد خطاياهم فيمكنهم حينئذ الدخول بضمير نقى . وأما أولئك الذين نجسواذواتهم وحكم عليهم بأن لا يدخلوا داخل الباب المتقدم على باب المائدة المقدسة قبل أن يتنقوا أولا من الأوساخ الحاصلة لهم من الخطايا . فإن توقحوا فيما بعد وتجاسروا على الدخول يجعلون جراحاتهم متضاعفة عما كانت . لأنه شىء قبيح هو أن يخطىء الإنسان وأشد قبحاً منه عدم حيائه من بعد خطيته . كثير من الناس يتناولون الأسرار الإلهية فى السنة مرة واحدة . وآخرون يتناولون مراراً عديدة . فمن من هؤلاء نمدح ونطوب . هل الذين يتناولون مرة واحدة أم الذين يتناولون مراراً أم الذين يتباطئون فى التناول . أما أنا فأقول أن المـــدحة والتطويب لايخصان الذين يتناولون فى السنة مرة واحدة . ولا الذين يتناولون مراراً كثيرة ولا الذين يتخلفون عن ذلك مدة من الزمان بل يخصان الذين يقبلون الأسرار المقدسة بضمير نقى وقلب طاهر . الذين يحيون حيوة بريئة من اللوم الذين لايوجد فيهم شىء من الحقد والحسد السالكين طريق السلامة. فهؤلاء فى كل عيد سيدى وكل زمان لهم أن يتناولوا القربان المقدس . وأما أولئك غير المختبرين والمدنسون بجميع أنواع الخطايا فإنهم غير مستحقين التناول ولو فى السنة مرة واحدة . لأن أغلب المرضى يموتون لعدم استحقاقهم لتناول الأسرار الإلهية ويعاقبون . فإن أكلت ياهذا من مائدة روحية واستحقيت لعشاء ملوكى فهل يجوز لك بعد ذلك أن تشرك ذاتك أيضاً فى الخسائس والنجاسات . مابالك تدهن جسدك بالأطياب العطرة ثم تلطخه بالنتن والحمأة . فى كل عام تتنقى وتتناول وقبل أن يمر عليك سبت من الزمان تعود أيضاً إلى شرورك وعادتك السيئة . قل لى ياهـذا أن كنت مريضا بمرض مزمن وشفيت منه بمدة

أربعين يوما . فإن أهملت ذاتك وتركتها أن تسقط راجعة فى ذلك المرض : أما تكون قد أضعت كل تعبك السالف باطلا . فإن كنت تحرص وتجتهد أن تغير الادوية الطبيعية فكم الاجدر بك وواجب عليك أن تعتنى بتبديل أشياء الضمير . فإذا كنت متى وجدت فى فمك شيئاً من النتن والرائحة الكريهة بسبب مرض ما فلا يمكنك أن تستعمل ولا المآكل المعتادعليها . فكيف يمكنك أن تتجاسر على تناول الأسرار ونفسك مفعمة من نتانة الخطيه ونجاستهافلا عفواتكون مستحقا.ولالواحدة .لأن بولس الرسول يقول من يأكل جسد المسيح ويشرب دمه بغير استحقاق فهو مطالب به . أعنى بمقدار ماهومزمع لليهود الذين صلبوا المسيح من الانتقام والعذابات المرة لكونهم قاتليه وأعداء دمه. وهكذا يجرى ويتم على الذين يتناولون أسرار المسيح الرهيبة بدون استحقاق .ومثلما إذ مزق أحد ثوب الملك أو وسخه يكون كأنه قد أهان الملك نفسه وشتمه . وهكذا يجرى الأمر فى الأسرار المقدسة لأن من يتناولها بنفس مدنسة وضمير غير طاهر يكون كأنه قتل جسد المسيح نفسه. إن مخالفة الناموس مختلفة الأشكال وهذه المخالفة مساوية لغيرها من الخطايا وعلى حسب ظنى أن هذا القول أزعج كثيرين وأوعدهم وكوى قلوبهم وجرح ضمائر السامعين وبالأحرى لى أنا المتكلم أكثر منكم أنتم السامعين . لأن التعليم متى كان متساوياً والجراحات كذلك فالمراهم أيضاً تكون متساوية . وهذا الفعل صار من محبة الله للبشر من حيث أن المتكلم والسامع تحت حكم هذه الطبيعة متساويان لأن كل واحد منا مذنب وعاص لأوامر الله . فإن قلت لماذا . أجبتك حتى أن المعلم الروحى يكون إذا حكم فيتناول مع ضعف المخطئين ويضع عليهم القوانين المناسبة برفق لكونه عارفا بضعفهم ونقص قوتهم فلا يشدد عليهم بالقوانين الثقيله . ولهذا سبيلك متى رأيت أحداً مرتكباً خطيه الزنا. أن تقول للكاهن سراً أن فلانا غير مستحق لتناول الاسرار فامنعه لأنه غير طاهر وأن سترت عليه فتكون شريكه فى الخطية . لأن النبى لم يقل أنك زنيت بل قال مع الفاسق جعلت نصيبك ، أواه كم يكون شراً عظيما أن أخفى الإنسان خطاياه أو خطايا الغير عن المتقدم أو عن معلم الاعتراف . لأن النبى بقوله مع الفاسق جعلت نصيبك أراد أن يبين له أنه شريكه فى العذاب لأجل اخفاء خطيته عن المذكورين . لأنك وإن لم تشترك معه فى اللذة فبالعدل أنت شريكه فى العذاب لكتمان خطيته ، فلا تجاوبنى بكلام الجهل الذى يجعلك مدانا ومعذبا إذ تقول لى مالى ولخطايا الغرباء إذا كنت أنا بالجهد أستطيع أن أبحث عن خطاياى . لأنه من الواجب عليك أن تفحص عن خطايا أخيك بزيادة . ومتى فحصت أنت عن خطاياك يجب عليك بالأكثر أن تفحص عن خطايا أخيك . وذلك لأجل منفعته

كما يقول بولس الرسول لايطلب أحدمايخصه ويوافقه فقط . لأن الخاطى متى شاهد الجميع يبغضونه ويتجنبونه فيتحقق عنده مقدار عظم شره فيتجنبه ولايعود إليه وأما إذا رأى أن ليس أحد يستكره مما يفعله ولا يتثقل منه فيصير أشر ممـــا هو . وربما يثقل هذا الـكلام على سماعكم فتعتذرون على أن لاطاقة لـكم عمل مثل هذا المقدار من التوبيخ . فتقول كنا سابقاً نمتنع عن الحضور إلى الكنيسه فلما حضرنا شرعت فى تبكيتنا كانك تصدنا بهـذا عن التقدم إلى الأسرار المقدسة والاشتراك فى العشاء السرى . أجبتكم ليس الأمر على ما تزعمون لأن ليس قصدى هو طردكم . كلا . بل التئامكم وجمعكم . ولا أن أمنعكم . حاشا بل استدعيكم وأجذبكم إلى الخير والصلاح لـكونى ملزوماً بوعظكم . وعلى الخصوص أن أستعمل معكم التوبيخ . لأنه مثلماً تذيب النار الشمع كذلك الخوف من العقوبات يلين قلوب الخطاة ويزيل ضمائرهم . وليس يفعل هذا فقط بل ويحرق خطاياكم ويصفى عقولـكم ويجعل دالتـكم ومجاهدتكم أكثر فكما أن الطبيب الماهر يعطى لأصحاب المعد الضعيفة أدوية مرة ليخرج منها العفونات وينقيها ويدشط القابلية المائتة وينهضها ويقوى الاشتهاء إلى تناول المعتاد من الطعام . هـكذا التعليم الروحى فإنه متى كان مراً ينقى الأفكار الردية من العقل والقلب ويزيل عنهم ثقل الخطايا فيتناولون حينئذ جسد المسيح ودمه بغاية الفرح والسرور. ولهذا قال الرسول ياأخوة اطيعوا مدبريكم واسمعوا منهم لانهم يسهرون من أجل نفوسكم كانهم يعطون عنكم جواباً . لأنك لوكنت تهتم أنت بخطاياك وتدبرها كالواجب لما كان يلزمك تعليم أبداً . لأن الـكاهن ولو دبر حياته تدبيراً صالحاً وما اعتنى بغاية الحرص والاجتهاد فى تدبير أخواته فمزمع أن يساق مثل شرير مع الأشرار إلى نار جهنم لأنه كثيراً ما يغفل ولو لم يدفع إلى العذاب لأجل هفواته لـكنه يعذب لأجل خطايا الغير . وإذا كنا وبخنا توبيخاً مراً للذين يتناولون الأسرار وهم غير مستحقين فيلزمنا إذاً أن نوجه الخطاب نحوكم أيها الـكهنة وخدام الـكنيسة لـكى تحرصوا بغاية الاجتهاد والورع وتثبتوا معتنين فى تكميل خدمة الأسرار المقدسة ومتى اطلعتم على حال أحد وعرفتم سوء سيرته وغفرتم له لـكى يتناول الأسرار فمن أيديكم يطلب الله تعالى دم ابنه حتى إذا جاء أحد يتناول الأسرار بغير استحقاق فامنعه ولو كان ذاك أميراً أو واحداً من الرؤساء المعظمين حتى إذا كان الملك ذاته . فلا تخف منه لأن سلطانك أنت أيها الكاهن أعظم من سلطان الملك . وأحذر لئلا تحرك السيد المسيح إلى الغضب بتسليمك أياه إلى جسد مملوء نجاسة ونتناً ولاتعط لمثل هؤلاء عوضاً عن الطعام سيفاً مرهفاً . امنعه ولاتخف . خف الله ولاترهب الناس فتـكون محبوباً من الله

ومكرماً عند الناس . وأن خفت منه فاحضره لدى لأنى لاأسمح أن تصير هذه الأمور المخالفة للناموس وأرضى أن تخرج نفسى أولا من أن أدفع لغير المستحقين الجسد والدم الأقدسين. وخير لى أن أسفك دمى قبل أن أعطى هذا الدم الرهيب بغير الواجب وأفضل لى أن أضيع حياتى لأجل الله وليس لأجل حياتى أخسر الله الذى له المجد والعزة إلى أبد الدهور كلها آمين .

المقالة الرابعة :

(مرتبة على قول داود النبى لاتخف إذا استغنى الانسان وإذا كثر مجد بيته)

إذا كان لايوجد عند الفلاح ألذ واحلى من أخذه السكة وفلاحته لحقله وشقه الأرض لينقيها ويقتلع منها الاشواك لكى إذا القى فيها البذار لايوجد بها شىء من العوارض التى تخنق الزرع وتعطله . فكذلك ألذ واحلى من هذا كثيراً مايلقيه الواعظ من بذار المعانى الروحية المفيدة فى الاسماع الصاحية غير المشوشه . فلهذا إذاً نشرع فى التعليم الروحى بفرح كثير ونشاط جزيل من حيث اننا نشاهد هذا الحقل الذى هو سماعكم نقياً من العوارض والاكدار ولو لم نطلع على بواطن ضمائركم لاننا من مشاهدتنا اعينكم محدقة الينا وآذانكم مرتفعة لسماع كلامنا نأخذ علامة . ولان عقلكم الباطن مستعد لقبول التعليم وإن كنت لا استطيع أن ادخل إلى قلوبكم وأنظرها لأن ارتفاع أعينكم إلى فوق يدلنى أن ليس فى عقولكم تشويشاً البتة . ولسان حالكم يقول لى الق البذار بحرص ونشاط لاننا نرتضيه ونقبل كل ماتزرعه فينا على رجاء الثمرة . لكوننا طردنا من عقولنا جميع التعلقات والهموم العالمية . ولهذا لما رأيتكم على هذه الصورة شرعت بتقدمة جميع المعانى الرفيعة بكثرة مطمئناً بشرف الحقل المهيأ الذى هو عقلكم لأن الكتاب لايؤثر إن يكون المعلم فيلسوفاً فقط بل وإن يكون المستمعون ذوى عقول وادراك . فهذا أطوبكم وأطوب ذاتى . لأنه مطوب وسعيد المتكلم فى آذان سامعه . ومطوبين هم الجياع والعطاش لأجل العدل . فلنلق حينئذ نحوكم انتم الذين أتيتم إلى الكنيسة بشوق واشتهاء معانى الكتب المقدسة ونزرعها بأراضى قلوبكم . وأما الذين هم الآن فى الاسواق مترددين فهم منهمكون وغارقون فى الهموم العالمية . وأما انتم فلكونكم صرتم ارفع من الأرضيات كثيراً تقبلون المعانى العقلية .

وأما اولئك الذين لم يحضروا فهم متعبدون لبطونهم ومهتمون باجسادهم .وأما انتم فتزينون نفوسكم التى هى السيدة الشريفة وتحفظونها غير مستعبدة للآلام . ترى اين تتردد الآن ايها الإنسان . أفى السوق . ترى ما الذى تريد ان تجمعه من هناك ماهو الاطين وحمأة . ولقد كان الأفضل لك أن تحضر عندنا فى الكنيسة وتجمع لك اطيابا زكية . ترى ما الذى تجمعه وتحويه هل فضة زائلة . وماذا تريد من محبة الفضة التى هى بمنزلة المغتصب الشرير . لماذا تطلب السلطات الزائلة . ولماذا تجمع المقتنيات الوافرة التى توجد اليوم وفى الغد تعدم . لماذا تجنى الزهر فقط وتترك الثمر . لماذا تجرى وراء الخيال ولا تحاضر لتدرك الحق. لماذا تتبع الأشياء الزائلة ولا تتبع الأشياء الباقية . لأن الإنسان كالحشيش الأخضر وكل مجده مثل زهر الحشيش . وأما كلام الله فلا يفقد ابداً . فما الفائدة الحاصلة لنفسك من جمعك الأموال الكثيرة غير انك تصير موسرا فى المقتنيات وفقيراً فى النفس . فتكون حينئذ مزيناً بالورق وخالياً من الثمر . قل لى ماهى المنفعة الحاصلة لك من هذا وانت مزمع أن تترك ما قد جمعته من الدراهم ههنا ، فان اخذت سلطة وسيادة فهى تصير مسببة لك مسئولية أكثر . فحاضر إلى الكنيسة لتتمتع منها باقوال الفضائل . اطرح عنك مآثمك ونق ضميرك واجعل عقلك متعالياً فتصير حينئذ انساناً وملاكا . أهمل ثقل طبيعة الجسد وأتخذ أجنحة الحيوة الخفيفة . أعتق نفسك من التعلق بالأشياء المنظورة وتمسك بالغير المنظورة . اصعد نحو السماء اطرب مع الملائكة . قف فى مكان القضاء العالى . اترك الدخان والظل وغادر الحشيش والعنكبوت . ولا أعلم ماذا أسمى هذه الأشياء الحقيرة الدنيئة . وهذه إذا أقولها ولا أفتر عن التكلم بها. أعنى احضر الكنيسة وكن انساناً لئلا يكون محمول الإنسانية عليك كاذباً . أتراكم فهمتم ماقلته لكم أم تسالونى قائلين أن كان هو إنسانا لماذا تكلفه المجىء إلى الكنيسة ليكون إنساناً حقيقياً . نعم إنه قد يوجد من افراد الناس من يقال له إنساناً بالأسم . وأما من حيث العقل فليس هو بانسان بالكلية . لانك إذا رأيت انساناً عائشاً عيشة البهائم غير الناطقة فكيف يمكنك أن تدعوه إنساناً ولا ثوراً . وإذا شاهدته يخطف فكيف تسميه انساناً ولاذئباً ومتى رأيته يزنى فكيف تكنيه بانسان ولا خنزيراً . ومتى شاهدت خبثه فكيف تلقبه بانسان ولاحية . ومتى نظرت اسمه فكيف تقول إنه إنسان ولا افعى وإن رأيته عديم الفهم فكيف تظنه إنسانا ولا حمارا . وإذا عاينته يتصيد النساء فكيف تجوز انسانيته ولا تدعوه فرساً جموحاً صاهلا على أناث الخيل . وإذا رمقته غير مطيع ولا فهيم فكيف تحكم بانه انسان ولا حجراً . أيها الأنسان انك قد

أخذت من الله حسباً شريفاً . لماذا أسلمت حسن الطبيعة التي أخذتها للذل والهوان . قل لى ماذا تفعل . أننا نرى البعض من الناس لهم استطاعة بحسب الأمكان ان يصيروا الحيوانات العديمة النطق بالصناعة قابلة للشرف الإنسانى . تراهم يؤدبون البعض من الطيور ويجعلونها تترنم بنغمة بشرية . فبواسطة هذه الصناعة يلزمون الطبيعة غير الناطقة أن تكون ناطقة ويهذبون وحشية السباع ويحيلون نفارها إلى الإنس والألفة حتى انهم يجذبونها فى الأزقة والاسواق . ايها الإنسان ان الأسد الضارى تهذبه وتصيره هكذا وديعاً وذاتك تصيرها بهذا المقدار وحشية . والاشد قبحاً وشناعة من هذا وأعظم توحشاً هو أن كل فرد من الحيوانات الغير الناطقة يخص بخصلة ذميمة كالذئب مثلا خصلته الخطف . والحية الخبث . والأفعى السم . وهلم جرا . وأما الأمر فى الإنسان الشرير الردى فبخلاف ذلك لأن الإنسان الشرير لا ينفرد بشر واحد بل تتعدد فيه الشرور لأنه يكون خائفاً كالذئب . وخبيثاً كالحية . ومسموماً كالأفعى . والنتيجة أن جميع رذائل الحيوانات وخصالها الذميمة موجودة فى نفسه ، فكيف يمكننى إذا أن أسميك إنساناً وأقول أنك ناطق ولا توجد فيك علامة السلطنة ولا تاج الملك وليس لك الحلة الملوكية . قال الله تعالى لنصنعن إنساناً على صورتنا ومثالنا وأنت تهبط ذاتك إلى درجة الحيوانات الخسيسة غير الناطقة . ياهذا إذا رأيت أحد الملوك قد طرح عنه ثوبه وتاجه وسلم سلطانه واختلط بالجنود ماذا تقول عنه . اتدعوه بعدها ملكا أو مسلطاً فلا يكفينى أن كنت إنساناً أن تظهر أن لك نفساً إنسانية . بل أريد أن تظهر أن أنسانيتك هى ذات عقل وتمييز فإن كنت مسلطاً على الحيوانات الغير الناطقة فلم باختيارك تصير ذاتك عبداً لها ولآلامك فإن أراد كل منكم أن يقول لى فبماذا أصير إنساناً . أجبتك إنك تصير إنساناً حين تغلب آلام الجسد البهيمية بحسن تمييزك . أعنى إن كنت طردت عنك عادة الخطية النجسة . إن كنت نقيت عنك شهوة المال الردية غير الضرورية . إن نبذت عنك إغتصابها . أن صيرت حقل نفسك نقياً طاهراً . أتطلب منى كيف تصير إنساناً هلم إلى الكنيسة . فإن جئت هنا بين جملة الناس ورأيتك عديم النطق صيرتك إنساناً ناطقاً لأنى أن شاهدتك ذئبا أحلتك إلى إنسان . لست أغير طبيعتك بل أنقل ضميرك الردى وأحيله إلى ضمير جيد . ولربما يعتذر كل منكم قائلا لى أن لى زوجة وأولاداً وأنا ملتزم بتدبيرهم وبالاهتمام بمنزلى ولخصاصة حالى أصرف كل جهدى فى تحصيل القوت الضرورى فكيف إذاً يمكننى أن أحضر إلى الكنيسة لأصير إنساناً كما تقول لى . أجبتك هذه كلها حجج باطلة واعتذارات واهية . وذلك لو كنت أريد أن ابقيك هنا بالكلية وأمنعك عن الخروج لقضاء حوائجك ومعاطاة لوازمك الضرورية

لكان لك فى ذلك عذر بين. حتى وفى هذا المحل ما كان ينبغى لك أن تقول مثل هذا لأن البارى تعالى قادر على أن يكثر مقتنياتك ولا يدعك تحتاج شيئاً ولو أقمت نهارك كله هنا ومع هذا أنا لا أحثك على الأتيان الى هنا لتقيم يومك كله فى الكنيسة. بل إنى أحثك على حضور الكنيسة لتقيم فيها ساعة واحدة او حصة قليلة من النهار. لا اقصد منى أن تلبث فيها الى المساء. فانظر صعوبة هذا الأمر وثقله. فهلم أيها الإنسان إلى البيعة وأقبل المعانى العقلية لئلا تتعرض للسياط والعقاب. خذ لك سلاحاً منيعاً لا لتضرب به الغير فتقتله بل لتصير السوق كنيسة. هلم فاتخذ سلاحاً لحفظك وصيانتك لئلا تجرح جرحاً أليماً. انتصب فى مصاف الحرب ويكفيك انك مدجج بسلاح. قف فى المكان الطاهر لكن بشرط ان تكون مغض الطرف. اخرج من المينا لكن دبر سفينتك حسناً. فلماذا لا تشاء ان تحفظ هذه جميعها هنا وهى مستطاعة لك. لعلك تريد أن تخرج أمام الحرب العالمية وتعتزل خالياً من وصايا الله. ضع فى عقلك ان الأفضل لك هو ان تخرج من الكنيسة بحيث تحتقر الأشياء البشرية كلها وكل الأمور المحزنة. وتصير ارفع من الخيرات وأن لا تتشامخ فى الصلاح وألا تسقط تحت الرذيلة كما كان ايوب الذى لم يخفضه الفقر ولا رفعه ولكن فى الحالتين المضادتين كان حافظاً عقله سوياً. هلم فاتخذ لك منى سلاحاً وما هو هذا السلاح. هو الذى يضمن لك الخلاص فإن خرجت فى بعض الأوقات مثلا ورايت احد الناس راكباً جواداً مسرجاً مزخرفاً ملجوماً بلجام ذهب وما شاكل ذلك من الزينة وشاهدت كثرة الخدم المحتفة به ثم تلتفت ايضاً الى الجانب الآخر فرايت احد الفقراء مطروحاً مهملا فحدث لك خاطر فى عقلك. ان تحسد ذلك الغنى فيقبل اليك حينئذ داود النبى ويقف بحذائك قائلا لك لا تخف إذا أستغنى الإنسان. فإن أثرت أن تقول لى أن هذا الذى يقوله النبى إنما هو نصيحة ومشورة وحكم من الواجبات فأرنى إذاً الطريقة التى تصدنى عن الخوف من الإنسان إذا أستغنى أيما هى. أجبتك لا يجب عليك أن تخاف لأن طبيعة الغنى تشبه طبيعة الإنسان. فإن قلت بماذا أجبتك أن ماهية الإنسان ماهى إلا حيوان وضيع مضمحل قصير الحياة وهكذا حال الغنى بل وأشد ضعفاً لأن كثيراً ما يعرض أن الغنى لا يتناهى مع الإنسان إلى آخر عمره. وأنتم تعرفون من هذا العيشة الحاضرة أنموذجات كثيرة على إنصرام هذا الغنى الوقتى. ولقد علمتم أن ذاك الذى كان غنياً فيما سلف هاهو يعد حى وأما غناه فقد فقد لأن إنتهاء الغنى وموته ليس هو شيئاً آخر إلا أن الموسر أضحى فقيراً. ضع فى عقلك إذاً كيف أن مدة الغنى قصيرة وجيزة لأن ذاك الفانى يعد حى والغنى فقد. ياليته ضاع وحده ولم يتلف معه ذاك المقتنى فإذاً ليس هو يغلط أن قلت أن الغنى عبد جاهل. أودعوته عبداً شارباً للدم وقاتلا أو عبداً مكافئاً سيده بالذبح. والأشر من هذا إنه لا يفعل هكذا مع سيده بعد أن يتركه بل وقبل أن

يتركه يلقيه فى المخاطر ويجعله قلقاً مضطربا دائماً . لا تنظر ذاك المتحلى بالثياب الحـــريرية الفاخرة ومطيباً بالروائح العطرة الذى يتبين ظاهره أنه مهوب متنعم بل أكشف عن قلبه وعن ضميره لأنه فيما هو ثابت فى حال الغنى تجد داخله مملوءاً أضطرابات وإنزاعاجات ومخاوف كثيرة متلونة .. خاصة إذا رأى سقوط غيره . من ثم يعرف ماهـــو مزمع أن يحل به من المصيبة والخسران فأى شيء هو أكثر غلطاً مثل الأشياء البشرية كما قلت مرة لأنها تجرى كمجرى النهر المتسرب . فيظهر أنهم يجرون مع النهر ولكن لا يعرف جريهم كيف هو، وإن خاطبهم أحد مع جريهم يطفرون منه ذاهبين . لاتخف إذا استغنى الإنسان . تمسك بهذا النص النبوى والترنيم الروحى . فإذا دخل الحسد قلب الإنسان فهذا النص يقتل آلامه كسيف مرهف لاتخف إذا استغنى الإنسان . فهذه العقاقير لاتحتاج فضة بل تحتاج أناساً . لأنى وأن كنت معلما لكنى إنسان مثل باقى الناس ولهذا اجعل التعليم عاماً . لاتخف إذا استغنى الإنسان . تشبت بهذا النص كأنه أصل وقاعدة للغنى والسعادة لأن الغنى ليس هو طلب جمع المال بل الاعراض عنه هل ترى فهمتم ماقلته لكم . لأن ذاك الذى يطلب الغنى يحتاج إلى امتعة وأموال فهو لم يزل فقيراً محتاجاً وأما الذى لايريد الاستغناء فهو دائما سعيداً غنى . لاتخف إذا استغنى الإنسان وإذا كثر مجد بيته . ولماذا لا أخاف مع أن الأغنياء يخيفون . لأن النبى يذكر حياتهم قائلا لماذا تخاف إنساناً مملوءا ورقا وليس فيـــه ثمر . لماذا تخاف إنساناً متصرفاً فى الثمر . لماذا تخاف إنساناً عائشا دائمـــا بالخوف والجزع . فانت متى غبت فـلا يخافك عبدك وأما أنت ايها الغنى المتعبد للمال فحيثما توجهت فخوف سيدك مستحوذ عليك وترهب منه لأن محبة الفضة تابعة لك لأن الموسر الخسيس يخاف من الأغنياء . ومن العبيد . ومن الحساد . ومن المحسنين . لأن جميعهم يكونون له اعداء لكن المتمول ينهض عليه حسد عظيم من الجميع فالأنسان الفقير يعرف زمانه من غير أن يظلم أحداً لكونه غنياً فى الفضيلة والصبر . واما الغنى فبما أنه عائش فى الاستكثار يمقت من الجميع . وإذا حضر فى المجالس العامة فيتملقه الجميع فى وجهه وأما فى الفكر والضمير فيكون ممقوتاً عندهم فاذا أردت حقيقة الحال فتطلع عليه متى هبت الرياح وتساقطت الأوراق وتغيرت الأحوال فعند ذلك تجد الأصدقاء المنافقين وينكشف لك وجه المطربين المصطنع . ويظهر فى ذلك الوقت مجمع المرائين وكثرتهم واعتذاراتهم وتنفتح فى ذلك المحل أفواه الجميع وتنطلق ألسنتهم بالمذمة على ذاك الغنى الذى كان يغذيهم سابقاً ويشنعون عليه بأنه نجس شرير ويقلبون محامده السابقة باسرها إلى مذمة . فيا ايها المرائى أما كنت بالامس تتملقه وتمدحه . أما كنت تقبل يديه . فبالحقيقة أنها كانت مخاتلة بتركيب ووجه مصطنع فلما

حضر الوقت دفع عنه شكل الوجه المستعار وأظهر بلسانه وحكمه ما كنت تكتمه فى ضميرك ايها الغنى . فلم تخاف إذاً ياهذا من الغنى المذموم والمعير من الكثيرين وهذاليس هو بشىء أيضاً . فياليت الغنى ماكان يذم ذاته بذاته . ولست أقول هذا لاذم الغنى والمال كما تقدم لى من القول مراراً عديدة بل اذم أولئك الذين يتخذونه كمقتنى صالح لأن الإقتناء لايكون صالحا إلا إذا اقترن بالأعمال الحميدة وكيف صلاحه هو أنه يسلى الفقير ويقوم المسكنة فاسمع مايقوله أيوب . أناكنت عينا للاعمى ورجلا للكسيح واباً للضعفاء . هذا الغنى الذى لايوجد فيه ولا خطية واحدة . بل ومع الغنى موجود محبة الفقراء . يقول أيوب بيتى كان مفتوحاً لكل أحد من القادمين . هذه هى وظيفة الغنى ليس أنها تكون بالاسم فقط بل وبالأعمال . فالغنى الذى هذه الصورة صورته يكون خادماً لذاك الغنى المستقبل . لأن الغنى الذى يختصه الناس لذواتهم فقط هو اسم موضوعه العدم . وأما الغنى الذى يكون لمالكه ولغيره من المحتاجين فهذا له اسم وحقيقة اعنى أنه غنى حقيقى . وكيف هذا الايسار . هوغنى الفضائل وغنى الرحمة . فان قلت كيف هذا اجبتك أنه يوجد غنى يخطف أموال الجميع ويوجد غنى يبدد ماله على المساكين . هذا يجمع ليغتنى . وذاك ينفق ليغتنى الواحد يفلح للارض والآخر للسماء. أنظر هذا الغنى الذى يعطى للمساكين كيف هو أفضل وأفيد من ذاك الغنى الذى يدخره الإنسان لذاته فقط . فالغنى الذى يعطى منه للمساكين يحصل منه محبون كثيرون والذى لايدفع منه لأحد فيكون له ربوات من المذمين واغرب من هذا أن خاطف المال والمستكثر منه لا يبغضه الذين ظلمهم فقط بل أيضاً أولئك الذين لم ينلهم منه ضرر فانهم يبغضونه ايضاً . ولماذا لأنهم يتوجعون للمظلومين منه . واما الرحيم فليس يحبه الذى نالهم منه الرحمة فقط بل الذين لم ينلهم منه شيء يحبونه ايضا . بالحقيقة ان الفضيلة اجل من الرذيلة يا اخوة . لأن فاعل الرذيلة ولو لم يظلم الناس فمن ذاتها هى تجعل الناس يحاربونه . وفاعل الرحمة ايضا يصير الناس له محبين ولو لم ينلهم منه شيء البتة لأن كل واحد من الناظرين إليه يدعو له ويطلب من الله أن يعوضه خيراً عن خيره . لماذا تطلب له طول العمر انت الذى لم تقبل منه شيئاً ولا وهبك هبة . نعم أنا ما نلت منه هبة ولكن أخى نال منحته وبما أن أخى جزء منى فاحتسب الخير الذى فعله معه لذاتى . أرأيت أى شيء هو الجود والرحمة كيف أنهما شهيان ومحبوبان وكيف هما شيء صالح لأن الإنسان الرحوم مثل أب لكثيرين وكالعصا والعكاز تتوكأ عليه الضعفاء والشيوخ . ومتى عرضت له مصيبة ما فالجميع يصلون لأجله ويتضرعون إلى الله قائلين الله يرحمه الله يعطيه الخير الله يثبت عليه أنعامه . وإذا إنعطفت نحو الحنجرى الخاطف تسمع

الغالبية تصفه بالصفات الذميمة ويدعونه شريراً ونجسا رديا . فانت الذى لم ينلك منه ظلم ولا ضرر فلماذا تتكلم عليه بمثل هذه القبائح . أنا ما أصابنى منه ظلم لكن أصاب أخى . فضجيج كثير يسمع كل يوم ضد الردى الفاقد الرحمة . وإن اتفق له أن يسقط من درجة فالجميع يوبخونه ويشتمونه ويلعنونه . أترى هذه معيشة . أترى هذا غنى . أفلا ترى أنه يكون اشر من أحد المجرمين . فالمجرم إنما يتلف جسده وأما الغنى الذى على هذه الصورة فهلك روحه . أما ترى الغنى كيف هو مربوط بمحبة الفضة . فلماذا لاتحزن عليه ياإنسان لأنى ابغضته . ولم . لأنه مربوط بمحبة الفضة لاغصبا بل طوعا واختياراً . برضاه وبإرادته ربط ذاته بهذه السلسلة . ولربما تلتفت الأغنياء نحوى قائلين ألنا أيضا ابتدأت أن تعلم يافم الذهب وتتكلم ضدنا . نعم إنى انتصبت نحوكم لاقول ضدكم لانكم لم تكفوا عن نهشكم لحوم المساكين وأنا لا أكف عن تقويمكم . لانك لم تزل أيها الغنى ملصقا بالمسكين لتفترسه . أعدل عن غنمى وأعرض عن اتلاف قطيعى ولا تفسد غنمى . لأنك أن افسدت غنمى فتكون قد عيرتنى لكونى راعيها . ولهذا أطردك لأنى راع ولو لم أكن راعيا لكان يمكنك أن تعيرنى إذا رأيتنى لم أطرد الذئب عن الحظيرة . ولكن بما أنى راع لهذه الخراف الناطقة يلزمنى أن أضرب الذئاب عنها دائما اعنى الذين يضرون المساكين . إننى لا أضربهم بحجارة بل بالكلام . ولست أطردك حقيقة بل الأليق أنى أدعوك . فصر إذاً خروفا وكن من قطيعى فلماذا تفسده على . مع أنه يجب عليك بأن تضاعفه . أنا لا أطردك أنت نفسك بل أطرد ذئباً . فان لم تكن ذئباً فانى لاأطردك . دن أنت نفسك لأنك صرت ذئباً لاخروفا . لست أنا بضد للاغنياء بل بالحقيقة إنى مساعد لهم لأن هذه الأقوال التى أقولها هى عون لك وأن لم تفهمها . فان قلت كيف هى عون لى وأنت تطردنى وتحاجنى بها وتشتمنى . اجبتك أنى بهذه الأقوال التى تثقل على سمعك أوثر أن أخلصك من الخطية واعتقك من الخطف واجعلك صديقاً للجميع ومحبوباً عندهم فيرتاح إليك الكل . فأنا أكرر عليك الخطاب دائماً بأنك أن كنت خطفت شيئاً أو أخذت غير ما يحق لك . تعال إلى فأنا أزيل فسادك وأصلحك وأرفع عنك العداوة التى يعاديك بها الكل وأصيرك صديقاً للكل وأرفع عنك العطب المزمع أن يحل بك وأجعله لايصيبك . فهذه الفوائد امنحها لك مادمت فى هذه الحيوة الحاضرة . وبعد الممات اهبك هناك ملكوت السماء ولاتمضى إلى حيث ثقل العذاب الشديد بل تكون مستحقاً أن تحوز تلك الخيرات التى مارأتها عين ولا سمعت بها أذن ولا استطاع أن يدركها عقل بشرى . فماذا عساك تقول لى أيها

الغنى اترى هذه الأقوال صادرة من عدو مضطهد أم من صديق مشهور بالخير . لكن وأن كنت تبغضنى لأنى ارشدك إلى منهج الخير والصواب فإن أحبك بمقتضى ما على من الوصية السيدية . فاحب اعدائى ولا اكف عن مدواتك ولو كنت لى عدواً . فسيدك المسيح فيما هو يصلب قال من فوق الصليب نحو الآب اغفر لهم يا ابتاه لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون . فأنت تظن فى أنى اطردك وادينك لكن ليس طردى لك الا لآلام محبة الفضة الكائنة فيه . وتظن انى أحاربك كلا لكن محاربتى لرذائلك إلا تعدنى فى هذه محسنا ولاتحسن بى الظن ولا تتخذنى مرشداً لك أكثر من الغير . فمن هو الذى فى زعمك يقول لك هذه الأقوال سواى ألعلك تنتظرها من المتقدم فى المدينة فهذا لا يخاطبك منها بشىء أصلا . بل أنه يكلمك إما عن ذنوب وسيئات تفعلها الناس أما عن حكومات أخرى تجرى على بعض منهم ليهتم بك . فليست إذاً مخاطبة الوالى لك بهذه الخطوب لأجل خلاصك . أم لعلك تتوقع من زوجتك أن تقول لك الأقوال التى أقولها لك ولا هذه أيضاً تخاطبك بمثل هذه الأشياء بل انها تتكلم معك من أجل حلى أوذهب أو غير ذلك مما يحبه النساء . أم تترجى أن أبنك يخاطبك بما يوافق خلاصك فهو لا يتكلم معك بهذا المعنى بل يسألك عن خصوص الميراث والوصية وما يناسبه . أم تظن أن عبدك يشور عليك بمثل هذا فعبدك لا يكلمك إلا بما فيه أسباب الخدم والأشغال أو لأجل عتق العبيد وغيره وليس لأجل خلاصك . أم لعلك تزعم أن أولئك الذين يجالسونك على الأكل والشرب وهم يضحكون عليك أنهم يتكلمون معك من هذا القبيل حاشا بل انهم يجعلون خطابهم فى باب المطاعم والمشارب والتقول وغير ذلك أم فى الملاعب التى تمضى إليها لتتنزه تخال أن أحداً يعظك هناك حقا أنه لا أحد يكلمك هناك إلا بألفاظ تجلب الضحك السمج والشهوات الردية وأمثالها . العلك ترجو أن توعظ فى المحاكم وبيوت القضاء بما وعظتك به لأجل منفعتك فلعمرى ولا هناك أيضاً لأن المحاكم لا يجرى فيها كلام إلا على المواثيق والمواريث وعتق العبيد وغير ذلك مما يقتضيه الشرع .. فاذاً أين تسمع من غيرى ما تسمعه منى هنا . فالكل يخافك أيها الغنى وأما أنا وحدى فما اخافك طالما أنت على هذه السيجة أنا أحتقرك واحسبك عندى لاشىء . احتقر الداء الكائن فيك واحرص أن ادفعه عنك وأنت تضج . لكنى لا أخشى ضجيجك وارتفاع صوتك بل انى أحب خلاصك لكونى طبيباً قاصداً مداواتك . ياليت شعرى لو كان فيك مرض محتاج إلى قطع ودعوت الطبيب ليعالجك . فإذا رأيته يتخذ آلات القطع . فهل كنت تنفر منه متبرماً أم كنت تقول له اقطع الداء عنى ولو مضنى ألمه رجاء بالشفاء الحاصل من

ذاك القطع . وانا الذى أنق عقلك لا بالقطع بل بالكلام فلماذا تهرب منى مع ان الطبيب فى غالب الأوقات يزيد شدة الداء بالقطع ويجعله اشر مما كان وأما انا فلست اصيره اشر مما كان بل اجعله اصلح واحسن . لأن هناك إما ان يعرض للطبيعة أن لاتقوى على دفع المرض وأما أنقوة العقاقير تكون ضعيفة فيعتذر حينئذالشفاء وأما هنا فقوة الكلام فقط : فالطبيب لا يتكفل بشفائك وأما فأضمن لك الخلاص . إسمع ما أقوله لك أن ابن الله الوحيد الجنس لأجل هذا نزل من السماء لكى يرفعنا نحن ويجلعنا أرفع من السموات . خف من واحدة فقط وهى الخطيئة دع الكل ياهذا إن كان فقراً أو قوة أو رئاسة غير شىء أن تكون فى العدم ولا تخف هذه . لازال أقولها ولست أكف عن عن قولها . لأشاء أن أضيع واحدة . من غنمى . فإن سألتنى قائلا ترى هل يستطيع الغنى أن يخلص . أجبتك نعم مستطاع جداً فأيوب كان غنيا ولقد عرفت غنى أيوب فأنظر إلى محبته للغرباء وأنظر إلى مائدته وتأمل استقباله للمسافرين . ابراهيم كان غنياً . فإن حاورك أحد من جهة غناهم قل نعم انه كان غنياً فعملت غناه وصح عندك ذلك . انظر الى سيرته وكيف كان مستسيراً . يقول الكتاب الإلهى أن فى ساعةانتصاف النهار ظهرالرب لابراهيم وهو جالس بقرب الشجرةالتى فى ممر فلاح لهفى تلك الساعة ثلاثة رجال فنهض لاستقبالهم ولم يخل أن الكائن هو اللهوسجد لهم قائلا أن تنازلتم ورأيتمونى مستحقاً لحضوركم فتفضلوا وأدخلوا معىداخل منزلى . وفى ذلك الوقت دخل بيته . أنظر ماذا كان يصنعهالشيخابراهيم لأنه فى انتصاف النهار لم يكن يجلس داخل بيته بل على قارعة الطريق . فلما مر به أناس غرباءعابروا طريق لميكن يعرفهم البتة ولا يعلم منأين أقبلوا نهض لأستقبالهم وسجدلهم ذاك الذى كان موسرا وحسيباًذا الثروة الجزيلة فترك منزله وعبيده وخرج يتصيد فالقى شبكة محبة الغرباء لعلهيجد أحداً من عابرى الطريق فيصطاده لكيلا يمر به غريب فلا يدخل منزله . أنظر ماذا كان يصنعه ابراهيم الشيخ فإنه لم يكن يأمر أحدمن عبيده مع انهم كانوا ثلاثمائة وثمانية عشر يسدون الطريق لكى اذا مر به أحد يأتى به ظنا منه بأن العبد يتناعس فيفوته الغريب و يضيع منه الصيد لكنه عالماً ان جنس العبيد ذوكسل فى الخير . أنظر ماذا صنع إبراهيم الغنى . أترك أنت تتنازل ولو أقل مايكون أن تنظر إلى مسكين بائس أو أن ترد عليه جوابه وتتكلم معه حتى إذا أعطيته شيئاً فى الوقت مالم تتنازل أن تعطيه له بيدك بل بواسطة عبدك أن يدفعه له . لكن إبراهيم الصديق لم يكن هكذا بل كان جالساً فى الشمس نصف النهار وكانت الهاجرة تحرقه وبمنزلة الندى كانت له تلك الحرارة وبمقام ظل ظليل كانت له شجرة محبة الغرباء وهو جالس يجنى ثمارها . فهذا هو

الغنى ومثله من يكون غنياً بالحقيقة مخلصاً . فقس إذاً اغنياء هذا الزمان وابحث عنهم لتنظر أين يجلسون نصف النهار . فإنهم يجلسون فى جحيم الخطية وفى مصرع السكر . يجلسون فى الأسواق سكارى عميانا قساة القلوب وأقل نطقاً من البهائم . فأما إبراهيم الخليل فلم تكن هذه سجيته . اتشاء أن تغاير إبراهيم . غايره هكذا وأفعل ما كان يفعله . لأن السيد المسيح يطلب منا أن نفعل أكثر منه بقوله لنا إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لاتدخلوا ملكوت السموات . فأنت إذاً أقل مايكون تشبه بابراهيم الذى كان محبا للغرباء والناس الذين لم يكن يعرفهم ولا من أى مكان مقبلين فالى هناك قام وسجد لهم . لأنه لو كان يعلم من هم لما كان فعله أمراً عجيباً بل كان تعبداً لله . لكن فعله هذا مع الذين لم يعرفهم يوضح كثرة اشتياقه لمحبة الغرباء الذين كان لهم بالمرصاد واستقباله لهم باجلال كثير كما استبان فى أولئك الثلاثة الذين بعد أن أخذهم . ذبح للحين عجلا ونادى بسارة أمرأته ليجعلها شريكة معه فى محبة الغرباء . لأنها لم تكن جالسة معه بل كانت داخل الخيمة لأن تلك المائدة التى أعدت لمحبة الغرباء هى التى فتحت مستودعها وأصلحت عقم طبيعتها . ذبح إبراهيم العجل . أخذ اسحق . عجنت سارة الدقيق حازت الاتلاد . والقول بأن يكثر نسلها مثل نجوم السماء ورمل البحر . ولربما تجترىء أن تقول لى اعطنى هذا الثمر الخاص كما أعطى إبراهيم وسارة . فيا أيها الإنسان الحقير ذو الشقاء والمسكنة اتطلب منى الأشياء الأرضية وأنا أريد أن أعطيك السموات التى هى محل الملائكة لتطرب معهم . أنت تطلب منى ما يموت ويفسد وأنا أعطيك حيوة عديمة الانتهاء . عظيم هو التعويض واعظم منه هو الجزاء . انصت بحرص إلى ما أقوله لك لتطلع على استحالة الأمور فترى ماذا قال إبراهيم نحو زوجته حين الزمه الأمر أن يظهر محبة الغرباء . اجتهدى فاعجنى ثلاثة اكيال دقيق نقى . وأما هو فسارع إلى قطيع الغنم . واقتسما بينهما التعب ليقتسما الأكاليل . فكأنه يقول أن كانت الزيجة مشتركة ما بيننا دعينا نكون أيضاً مشتركين فى الفضيلة لأنى اتخذتك أيتها المرأة مساعدة فكونى لى إذا مساعدة فى الأشياء الرفيعة اجتهدى واحرصى . فكأنه يحثها ويقول لها ايتها المرأة أصرفى فى جهدك كله قصداً منه ألا يدخل بينهما غريب أولئلا يحصل التباطؤ فى الخدمة والكسل . اجتهدى فاعجنى ثلاثة اكيال دقيق نقى . فأما سارة فلم تتعجب لهذا الأمر أو لعلى أنا بهذا الرجاء تزوجت وهو أن تجعلنى خادمة وتكلفنى أن أعجن أنى أمرأة ذات ثروة جزيلة . فلم لم ترد أن تأمر بذلك أحداً من عبيدك الذين هم ثلاثمائة وثمانية عشر بل شرعت تحثنى على إتمام هذه الخدمة . فلم تقل شيئاً من هذا لكونها لم تكن زوجة لابراهيم من حيث الشركة الجسدية فقط بل وبشركة الفضيلة أيضاً . فلهذا قال لها اجتهدى . فامتثلت سارة كلامه

أمرها به وفعلته بشوق ونشاط لأنها كانت عارفة ببشاشة محبة الغرباء واتساع الرحب بهم ولهذا قال لها ابراهيم احرصى فاعجنى لأنه كان يعرف شدة اجتهادها وكمال شوقها . فأين نساء زماننا هذا فليأتين لتقابلهن مع سارة . اتراهن يقبلن مثل هذه الأوامر أو يفعلن مثل هذه الأمور . أو لعلهن يرتضين أو يعملن نظير هذا العمل . أشهر أيدى نساء هذا الزمان لتراها من خارج مزينة بحلى الذهب ومن داخل مملوءة خطفاً . ياليت شعرى كم من الخطف واستغنام الفقراء مملوءة يدك ايتها المرأة . اخرجى يدك واريفيها لانظر بماذا هى متلبسة . فلا خفاء أنها مملوءة من محبة الاستكثار . اخرجى يد سارة لتتأمليها بماذا هى متحلية ومملتئة فهى لاشك أنها مفعمة بمحبة الغرباء ورحمة وحنواً وشفقة على المساكين فما ابهى واجمل هذه اليد اليمنى لأنها مضاهية لتلك لكن من حيث الشكل والهيئة وأما الفرق المعنوى بينهما فبغير قياس لأن هناك آبار الدموع وهنا اكاليل الفرح وهذا إنما أقوله لئلا تتطاول النساء على رجالهن فيطلبن منهم شيئاً ولئلا يرضى الرجال ويقبلوا إذا طلبت النساء منهم هذه الأشياء المذكورة انظر إلى سارة . شاهد هذه الغنية الحقيقية وتأمل مقدار تعبها إذ عجنت هذه الأكيال من الدقيق ولكنها ما استشعرت بذلك رجاء بالفائدة الحاصلة منه . احرصى واجتهدى فاعجنى ثلاثة أكيال دقيق نقى . لماذا تتزينين أيتها المرأة . من تريدين أن ترضى . أزوجك . وهذا هو الظن الردى . ألعلك بهذا الشكل تؤثرين أن ترضى زوجك وبهذا النوع تريدين أن تعجبيه . فإن قلتى وبماذا إذاً أعجب زوجى اجبتك افهمى وتعلمى بماذا تعجبينه . بالعفة والنقاوة والوداعة وبالفضائل والتواضع وبالمحبة والاتفاق واستماع كلامه فهذه هى زينتك وهذه الفضائل نفسها تصيرك متفقة معه . وأما بقية الحلى فلا تجعلك أن ترضى زوجك بل تجعله يتنقل منك . لأنك إذا قلت له أخطف واحتل وقدم لى فترضيه فى وقت يسير . ولكن فيما بعد يصير لك عدواً ولتعلمى هذا يقيناً ظاهراً أن ما تفعلينه من الزينة ليس هو لأن ترضى زوجك . وشاهده لما تكونين فى بيتك وداخل منزلك تطرحين عنك الحلى وإذا مضيت إلى الكنيسة فحينئذ تتزينين فلو كان فعلك هذا لترضى زوجك لكنت تتزينين فى بيتك لكن ليس كذلك بل تدخلين الكنيسة مزينة اليدين والعنق بالذهب . وإذا حضر القديس بولس الرسول ذاك المخوف منه والمشوق إليه . اعنى مخوف للخطاة ومشوق من المؤمنين الحسنى العبادة ويصرخ قائلا . وهكذا النساء فلايتزين بأنواع الذهب واللؤلؤ . ولا يأتين الكنيسة بحلى كثيرة الثمن لأنه إذا اتفق أحد من غير المؤمنين داخل الكنيسة ونظر النساء متزينات بالحلى من فوق إلى أسفل . وسمع الطوباوى بولس

قائلا . هكذا ألا يتزين بهذه الأمور . ألا يقول أن جميع ما يقوله المسيحيون إفك وكذب لكون معلمهم بولس يقول شيئاً وهم يعملون بخلافه . أما الأمور المسيحية فلا تزال حقيقة لكن أولئك الذين ينظرون صيرورة هذه الأشياء المخالفة يحصل لهم الضرر . لأن ذاك غير المؤمن . يقول اليوم دخلت كنيسة المسيحيين وسمعت معلمهم بولس يقول أن النساء لا يدخلن الكنيسة مزينات بالذهب واللؤلؤ . وبحلى جزيلة الثمن . ولا بالضفائر أيضاً . ولقد رأيت من غير توقف . يعملون بضد ما يقوله بولس . ويحصل الضرر أيضاً لأولئك الذين لم يسمعوا ولم يحفظوا تعاليم الرسل القديسين . أيتها المرأة بماذا ينفعك الذهب أتتزينين به لتظهرى حسنك فهذا شيء لاينفعك فى حسن النفس أصلا . فأولى أن تصيرى فى النفس حسنة ليحسن الجسد أيضاً . لأن الفضيلة تنير وجه الإنسان. لكن الشوق لايولده شيء آخر مثل المحبة . فإذا أحبك رجلك ولو كنت ذات طلعة قبيحة فأنت مشوقة عنده . وكذلك إذا كان يبغضك فإنه لايشاء النظر إليك ولو كنت بديعة بالجمال لأن بغضة النفس التى لايحبها لاتدع حسن الوجه أن يظهر . ومتى يبغضك حين تطلبين منه الحلى والذهب فى ذلك الوقت يزمع أن يهرب منك ولا يمكنه ذلك . بل الذى يطلبه فى السوق يمكنه الهرب منه وأما منك فلا لكونك داخل منزله دائماً . وتطلبين أشياء تفوق الحد فلاتكن ايتها المرأة أذناك سامعة لهذا الكلام فقط بل أن تغيرى ضميرك أيضاً . لأن هذه الأقوال هى عقاقير. وتؤلم وتوجع فى وقت يسير. وأما فرحها الذى تسببه فدائم وأناهو الطبيب الذى أجس الجراحات وافتقدها لئلا تتعتق فتصير أشد ضرورة لأنى أداوى وأمنح الشفاء الذى يصير بواسطة الكلام وأما الأطباء الآخرون فهم يداوون الجسد الذى هو وقتى ومنحط وحقير. ولنرجع إلى ما كنا فى صدده من أمر ابراهيم. لأنى لا أنسى ما وعدت به فكان يقول لامرأته اجتهدى فاعجنى . هذه الأقوال فلتكتبها كل واحدة من النساء فى تروس عقلها . وليضعها كل واحد من الرجال فى فكره . لماذا أيها الغنى تلبس ثياباً حريرية وتركب فرساً وبغلا موشحا بآلة الذهب . لماذا الخيل والبغال وقوف مزينة بالذهب فكيف تزين الخيل باللجم والسروج المذهبة . والفقير جالس خارجا عن باب بيتك يتضور جوعا كأنه المسيح يلتهب من الجوع فيالعظم غباوتك وجهلك. فأيما جواب تريد أن تعطيه يوم المحاكمة وأيما غفران تكون أهلا له إذا كان المسيح قائما أمام باب منزلك بشكل فقير . فإن قلت إنى لقد اعطيت صدقة . اجبتك . أنه لا ينبغى لك أن تعطى على مقدار ما يطلب المسكين بل على مقدار ما يمكنك . فقل لى ما الذى تستطيع أن تقوله فى ذلك الوقت حين يوجد ذاك اللهيب الذى

لا يطاق حين تترتب تلك العذابات والمخاوف وشدة الرعدة حين يزمع النهر النارى أن يغلى حين ترتقب أن تصير تلك الدينونة المفزعة العديمة الأخذ بالوجوه حيث تجلس هناك الطبيعة الازلية وتفقد جميع الاشياء البشرية . حيث لا يمكن لأحد أن يعينك لا أب ولا أم ولا جار ولا ملك . بل يقف الإنسان وحده مع أعماله ويدان عليها . فإن كانت صالحة فيكلل وأن كانت طالحة فيعاقب . فما الذى تؤثر أن تقوله فى ذلك الوقت . اتفتكر بكلامى فى ذلك الحين . ولكن أية فائدة تحصل لك ان افتكرت به . فذلك الغنى قد افتكر وكان يطلب زمانا ليتوب فيه لكن لم يحصل له فائدة البتة . وقد كان يقول نحو إبراهيم ليرسل لعازر ويبل طرف أصبعه ليندى به لسانه فلم يرسل إليه لعازر . وليس ذلك أن نقطة واحدة تنقص نهر الفردوس العظيم ولكن من حيث أن نقطة الرحمة لا يمكنها أن تتحد بعدم الإنسانية . لأنه فى حين إمكان المسير فى طريق الفضيلة لم يكن يكرم إبراهيم . ولذلك ففى الآن الذى تعطى فيه الأكاليل لم يؤهله لتسلية واحدة . وهذا كان لكيلا يبكى الفقير فى حال فقره ولكيلا يفرح الغنى بحال غناه . أنت غنى فهذا الغنى مرذول هو . أن لم تحضر إلى الوسط الغنى اللائق . اجتهدى فاعجنى ثلاثة أكيال دقيق نقى . هذه الأقوال كان يقولها إبراهيم لزوجته . ومن بعد هذا أسرع جاريا إلى القطعان ونحر منها عجلا ولم تضعف قوة جسد الشيخ عن الجرى بل صار شديد العزم فيه . واشتد فكره فى الاهتمام بالفضيلة وغلب نشاطه طبيعته وكان حاملا للعجل ذاك الذى كان سيد الثلاثمائة والثمانية عشر خادما ولم يثقل عليه . لأن شهوة ضميره الكائنة فيه كانت تسهل عليه سعى الطريق مع أنه كان شيخا والخدمة ثقيلة وكذلك المرأة أيضاً . ولم يستقبلا أولئك الغرباء بتفاخر المال وتمميق المائدة بل بخدمة وترحيب جزيل ولا بواسطة عبيدهما بل بايديهما وأجسادهما تمما الخدمة . لأن المرأة بعد ذلك وقفت فى الخدمة مقيمة ذاتها بمنزلة جارية . وأما الغرباء الذين لم يعرفاهم فكانوا جلوساً . ولم اكف عن ان أقول مثل هذا أنهما لم يظنا أن هؤلاء بعض غرباء مميزين . ولم يضعا فى عقليهما أنهما هكذا بل استقبلا غرباء فقط . وكان كلاهما واقفين . وهما يجنيان فى ذلك الوقت عناقيد محبة الغرباء بعقلهما الصالح وفضيلتهما وخدمتهما واستقبالهما واتضاعهما وتعبهما ومحبتهما واعتنائهما فى جميع اللوازم باجتهاد جزيل حتى أنهما لم يهملا شيئاً مما يلزمهم . وأما امرأة إبراهيم فكانت قائمة داخل الخباء وهى لم تخجل من أن تظهر كرامتها . كانت تجنى ثمر خدمتها . فماذا صنع حينئذ ذاك القادم عليها فقال إنى سأجىء فى مثل هذا الزمان ويكون وقتئذ لسارة التى هى عاقر ابن ذكر . فيالها من ثمرة قد أينعتها تلك المائدة . فإنها أينعت عنقوداً جيداً سريع الاستواء أعنى بذلك الغلام . لأن كلمة ذاك الغريب أثرت

فى احشاء سارة وكونت الصبى تاما . هكذا ثمار محبة الغرباء . أنصت إلى المقولات . لأن ذلك الصبى الذى ولد من جرى تلك المائدة قد انتشأ فيما بعد وصار رجل ثمرة محبة الغرباء. لأن الحال لم تلده تلك الاحشاء العقيمة مثلما ولدته مائدة محبة الغرباء . وخصوصاً قبل كل شيء كلمة الله . فلما أن بلغ أشده وصار رجلا آن زمان تزويجه . أنصت إلى المقولات بخرص ذاك المطوب أعنى ابراهيم الشيخ أب الآباء قبل أن يذوق كأس الحمام كان ساكنا بين نساء مفسودات وقبيلة وقبيلة شريرة . فاستدعى عبده وقال له أن نساء الكنعانيين شريرات . فقال له العبد فماذا تريد إذا ياسيدى فقال له الشيخ امض إلى الأرض التى ولدت فيها ومن هناك ائتنى بامرأة لابنى . فأمور مستغربة وحديثة قد صنعها إبراهيم. فأنتم بأسركم تعرفون هذا جيداً أنه متى أحب أحد أن يأخذ امرأة لابنه يتكلم الأب والأم بهذا ويمضيان إلى بيوت الغرباء ويتملقان البعض ويصيران لهما سماسرة بذلك من رجال ونساء ويعدانهم بالعطايا ويخترع الأب والأم كل نوع من الجهد بأن يتكلما بذواتهما ولا يستحيا أن يفعلا كذا ولا يأمرا أحداً من خدمهما ليتقدم فيه . لكن إذا جاء أحد الغرباء إلى منزلهما يأمران هذا أو ذاك أن يهتم به واستقبله ودعه يجلس .أما إبراهيم فما كان هذا صنيعه بل كان يفعل ضده لأنه إذا احتاج أمراً من الأمور العالية الفاضلة يباشرها بنفسه كمحبة الغرباء ولم يأمر عبده بل أمراته وهو بذاته . ولما هم إبراهيم بالعرس وأراد أن يأخذ امرأة لابنه قال لعبده فى ذلك الوقت اذهب أنت . فالنساء الآن يصنعن ضد هذه القضية لأنهن إذا أردن أن يدعون الصائغ يخرجن إليه بذواتهن ويجلسن على القرب منه لئلا يسرق شيئاً من الذهب ولم يستحين من ذلك لأن شهوة الفضة صيرتهن أن يستهن بكرامتهن . أما إبراهيم فما كان يصنع هكذا بل كان يستقبل الغريب بذاته ويخدمه وأما العرس فيأمر عبده أن يخدمه . اتراك تفتكر متأملا بإبراهيم وغناه وصنيعه لهذه الأمور المرضية لله . ضع هذا أيها الغنى فى عقلك أعنى أعمال إبراهيم فما يمكنك أن تعود تستهين بأحد أصلا . ثم أقول إن ابتداء أقوالى هذه حين كنت متمسكا بداود النبى وبعصاه . وهى لا تخف إذا استغنى الإنسان . فهذا النص نفسه أولد هذه بأسرها ولقد وجدنا بها كنزاً مملوءاً ذهباً . لا تخف إذا استغنى الإنسان . أمسك هذا العكاز الذى يمكنه أن ينهض الأجساد المرتجفة أو لن تستطيع العصا أن تنهض الأجسام المرتعدة وتثبتها مثلما يمكن لهذا النص . أن يثبت أجساد الشيوخ والشباب معاً الساقطة فى الشهوات فإنه ينهض الضمير المرتاب من الخطية . لاتخف إذا استغنى الإنسان . لماذا تخاف إنساناً وليس بإنسان بل ذئب . لماذا تخاف إنساناً مملوءاً رذائل ومأسوراً من

الذهب . لماذا تخاف إنسانا بدرق ماله الذى حواه من الظلم وقد حوى عدوه داخله . وأنا لقد كنت أريد أخاف الإنسان متى استغنى ولكن ألزمنى النبى قائلا لا تخف إذا استغنى الإنسان . قل لى أيها النبى النبيل من أية جهة لا أخاف إذا كثر مجد بيته . فيا لشرف هذه الكلمة كيف أنه بطريق المذاكرة والتعليم أحضر فضيلة جسيمة . لا تخف إذا استغنى الإنسان وإذا كثر مجد بيته . ولم يقل إذا كثر مجده . أى مجد الإنسان بل مجد بيته وزينته. لأنك متى دخلت بيت الغنى تجد هناك الأعمدة العالية العظيمة المذهبة الرؤوس والحيطان المشيدة بالرخام وينابيع المياه الجارية داخلا والأواوين وخرير المياه واهتزاز الأشجار من هبوب الرياح وأرضا مملوءة نقوشا من الحجارة الدقيقة وخصيانا باللباس المذهب وعبيداً متعددة ومفارش فاخرة ومائدة تلمع من الذهب ومخادع ومقاصير مزينه . فهذه هى مجد البيت وزينته وليست بمجد الإنسان لأن مجد الإنسان هو أن يكون ورعا . أن يكون متضعا . أن يكون رحيما فهذه كلها هى مجد الإنسان . فلماذا تخاف الغنى خف إذاً من بيته لأن بيته هو الغنى وليس ذاك الساكن فيه . فإن قال قائل أنا لا أخاف الذهب لكونه مادة غير متنفسة . أجبته اتخاف الإنسان إذاً . يقول نعم . ولم تخافه . ألعل الغنى له بل أنما العظمة والشرف كله للبيت . فإذا كان الحائط مشيداً بالرخام فما المنفعة للسكان داخله والسقف مذهبا فماذا عسى أن تكون منفعة مقتنيه ورءوس الأعمدة مزخرفة فما الذى ينتفع منه إذا كان رأس الغنى مثقلا بالخطايا والجرائم . نعم الأرض نظيفة لامعة وأما ضمير الغنى وقلبه فغير طاهر فما الفائدة فى أن يلبس الغنى ملابس حريرية خزية ونفسه لابسة ثياباً رثة بالية . لأن الغنى هو البيت وأما مالكه فهو فقير بائس لا على حسب إيثاره ولو كثر مجد بيته . وليتضح عندكم أن المجد والشرف هو للبيت لا للإنسان . ما أوبخكم به الآن من كلامكم فإن دخلتم بيت غنى وسألكم واحد أين كنتم فتجيبونه داخل البيت . فيقول لكم ما رأيتم به فتجيبونه رخاماً حسناً . ألعلكم تقولون رأينا إنساناً حسناً وعواميد عجيبة وكوات مزخرفة . ألعلكم تقولون أن الساكن داخل هذا البيت لعجيب هو وتقولون سقفه موشح بالذهب الكثير . ألعلكم تقولون كثيرة هى رحمته وتقولون غزيرة هى مجارى مياهه وغنى وافر داخله . ألعلكم تقولون جزيل غنى صاحبه ولم تتداولوا فى كل موضع إلا بما يخص الحيطان والرخام وسواقى المياه ثم تنظرون فرساً مزينا بأدوات ذهبية فتقولون ما أحسن هذا اللجام فالمديح أذن والشرف هو للصائغ أو ثوبا عجيبا فالتعب والعمل للحائك أم عبيداً نجباء فالشرف هو لبائعهم . وفى الجملة أن صاحب هذا المحل يصير مصفراً

من الأكاليل والشرف وجميع تلك الأشياء التي حوله تمدح ويثني عليها . ولكن اذ رأيت انسانا صالحا تقيا تقول هذا إنسان جيد حسن وديع عجيب رحيم ذو عقل رفيع ورع مداوم للصلوات مواظب على الصوم ملازم الحضور في الكنائس غير مفارق للوعظ والتعليم الروحي هذه هي مدايح الإنسان الصالح فتعلم حينئذ ماهو غنى الإنسان ماهو غنى البيت، ولا تخف إذا تعلمت أن توزع غنى الإنسان ولا ترهب من توزيع غنى البيت. أرأيت الغنى الذي يظنونه غنى والذي تحسبه عندك أنت أنه غنى . لك أقول أنت أيها المسكين الفقير لا تخف إذ استغنى الإنسان اعلم أن هذه الأمور هكذا هي فانظر الحاصل على هذه كلها في حال موته هل تراه يأخذ شيئا منها ويمضى به مات ذلك الغنى فها هو طريح عريان . وشقى ذاك الذي كان لابسا الثياب الحرير . هاهو طريح في لحد وعبيده يترددون من مكان إلى مكان . ولا أحد منهم يهتم لأنهم ليسوا عبيده بالحقيقة . مضى هو ولم يبق له شيء . لكن بينما يكون طريحا تندبه أمرأته وتحل شعرها وتسترسله ويعزيها الجميع لتصمت فتأبى عن أن تتعزى وتصير أولاده يتامى وأمرأته أرمله وتكون خيله وسقاته وأوانيه موجودة. وأولئك الذين كانوا يؤاكلونه وينادمونه والذين كانوا يفتدونه وكذلك الخصيان الذين كانوا يخدمونه فكل يكون موجودا بعده وباقيا . وأما هو فلا يقدر أن يصحب معه شيئاً فماذا يجرى به هذا أن يحملوه مفرداً ويحاضروا به لقبره وهم يمدحونه . لكن ماذا يفيده هذا المديح بل إنما هذه التباجيل مجد فارغ هي فلماذا يمدح العله يستطيع أن يأخذ معه شيئاً . كلا . حتى وهذه الأشياء جميعها لا تقدر أن تقف بمساعدته يوم الدينونة ويمضى الغنى الذى خطف جميع هذه الأشياء واختلسها إلى القبر ويقبر ثم في مكان قيد ثلاثة أذرع لا غير ويهملون التراب على وجهه ويدحرجون الغطاء المعروف فوق الحفرة وتنصرف امرأته من هناك . فقل لى إذن أيها الغنى اين هو غناك . اين هم عبيدك . قد غادرك الجميع . حتى امرأتك تركتك ولو لم ترد ذلك . لأن النتن وكثرة الدود يطردانها ويجعلانها أن تطفر عنك فارة . أهذه خيرات الغنى كلها . نعم هذه . فهو عضى وليس له شيء فإن أردت تعلم أنه مضى وليس له شيء فأعلمه من هذا . أن الشهداء القديسين منذ نالوا خيراتهم لم يفارق الجميع قبورهم . وأما قبر الغنى هنا فحتى امرأته قدرت أن تصبر عليه وتحتمله . أما محل الشهداء هناك فالملك يرمى بتاجه ويجلس لدى أجداثهم . فإذن لا تخف إذا استغنى الإنسان وإذا كثر مجد بيته . فإذا أجمعنا بأسرنا على حفظ هذا النص فلنبدأ جميعا ان نمجد الآب شاكرين له مع الابن والروح القدس . لأن له يجب المجد المطلق إلى آباد الدهور كلها آمين .

المقالة الخامسة :

(مرتبة على الاستكثار)

قل لى ياأخى لأى سبب تشتهى الإستغناء من الإستكثار والخطف . أتحب أن يجد غيرك الفضة والذهب اللذين جمعتهما ظلماً وأنت تقع تحت اللعنات والشتائم من أولئك الذين ظلمتهم فأولئك يجدون من غير تعب ما جمعته أنت فيأكلون ويشربون بفرح وأنت مزمع أن تؤدى لله جواباً عن الذين ظلمتهم فى يوم الدينونة الرهيبة ولن يوجد لك مساعد . وأما المظلوم منك فيحصل له من يساعده ولو كان غير مستحق . لأن الله لا يعجبه الظلم . ولا تقل لى أن فلاناً يعيش عيشاً هنياً وهو مستغن لأنه لايستقيم إلى الإنتهاء . فالكتاب الإلهى يقول . لاتغر من الذين يصنعون الأثم لأنهم كزهر الحقل سريعاً يسقطون . فالإستغنام هو غيرة قديمة وأى بيت دخلته صيرته نجسا مقفراً . لأنك إن اكتسبت شيئاً يسيراً من الظلم فذاك القليل من الظلم يخسر مالك بأسره ويفسده ولهذا رأينا القليل مراراً كثيرة من المجموع جمعاً ردياً أفسد الأشياء المجموعة حسناً وأبادها فماذا ترى المستكثر يقول كيف يستغنى الأكثرون بتعب الغير ولا ينالهم شىء من الضرر . أعلم أنهم ولو هربوا من التأديب وما أصابهم الآن شىء لكنهم مزمعون أن يعاقبوا هناك عقاباً شديداً ولا يخفى هذا فقط بل والذين ورثوهم . فإنهم مزمعون أن يعاقبوا كذلك لأن القضاة والحكام هكذا تفعل لأنهم لايقتلون أو يشنقون السارقين فقط بل ومنقذيهم أيضاً . فإن عرفت ياهذا الإنسان أولئك المظلومين فأعطهم ما لهم بزيادة كما فعل ذاك العشار زكا . وإن لم تعرفهم فوزعه على المساكين فيحصل لك ذاك جزء من التعزية لكون الصدقة الغريبة لافائدة لنا منها . وتعلم هذه من زكا الذى أعطى من ظلمه أربعة أضعاف حتى وجد المسامحة من الله بخلاف ما نفعله نحن . فإننا إذا خطفنا ربوات وإذ أردنا أن نعطى صدقة يسيرة من ذلك الإختلاس نظن إننا تراضينا مع الله . فليس الأمر كذلك فإذا كان قايين الذى قدم لله أخص ماعنده ولم يقبله مع إنه كان من تعبه ونصبه وعوقب مع ذلك عقاباً شديداً فكيف لا يصيبنا أشر مما أصاب قايين إذا قدمنا لله قداديس وقرابين من مال الظلم والإستكثار . لماذا تشتم الرب بتقديمك له قرابين وهدايا نجسة . فخير للمسيحى أن يجوع ويعير من أن يتغذى من المستكثرين . لأنه لايشاء أن يقتات من الظلم ولا تظن أن الخطفة فقط هم المستكثرون بل الذين يستكثرون

فى صنائعهم ولا يعطون لله التماجيد فى أوانهـا . فالأولى بك ألا تعرى أناساً وتكسو
غيرهم . أتراك ماظلمت الذين عريتهم . فالظاهر إنك ظلمتهم ولو أعطيت ما أخذته للغير
لأن هذه لم تكن رحمة . فلا عذاب شديد تكون مستحقاً إذا أعطيت من الأشياء التى ظلمت
بها جزاء فى طريق الصدقة . فإن كان العازر الذى لم يظلم من الغنى قام عليه محاجاً مراً
شديداً لكونه ما قبل منه إحساناً فقط . فأى جواب يستطيع أن يعطيه أولئك الذين لم
يرحموا المساكين من أتعابهم وأعمالهم ويخطفوا ما ليس لهم . فإن كان أولئك الذين
يتركونه يموت جوعا وهم لا يعطونه ولا من ذاك الذى يخطفونه ويسرقونه . بل المكسو
يعرفونه ويستقبلونه خصوصاً وهو غريب وليس إنهم لا يقبلونه فقط فى بيوتهم بل يطردونه .
وكذلك إذا كان مريضا فليس إنهم ما يعـولونه فقط بل يهينونه ويشتمونه . كذلك إذا
كان محبوساً معتقلا . ليس أنهم ما يفتقدونه فقط بل إذا كان طليقاً يسجنونه مكراً
واحتيالا . فمثل هؤلاء كم من العقاب والعذاب مزمعون أن يعاينوه ويقاسوه لأنه إذا أحب
أحـدكم من أحبه . فلا يتميز عن الأمم . فالذين يسيئون لمن لا يظلمهم فأية مسامحة تكون
لامسامحة لهم البتة . فإن كان الذى لا يعول المسيح جائعاً يجمع على رأسه ناراً قدرها
عظيم فكيف حال من يخرب بيوت الايتام والارامل ، ليت شعرى أى غفران يكون
لمثل هؤلاء . ولهذا فلنهرب من الخطية الدنسه وننفر من الظلم والاستكثار ونفكر فى الظلمة
المستكثرين السالفين كيف أنهم مضوا ليعطوا جوابا للديان عن كل ما فعلوه وأما مقتنياتهم
واتعابهم فحاز عليها الغير وهم الآن معذبون بشدة أليس هـذا هو الجهل الصريح والعمى
العظيم أن نتعب جميع أيام حياتنا ونقاسى فيها الشدة والعناء وبعد مماتنا نعاقب فى وهدة
جهنم . فياله من شر يصيبنا . أترى أى شىء يكون أشر من المستكثرين فى الدنيا لأن
حياتهم أشر من الموت لأنها تنقص من المهمات والاختباطات ويقضون عمرهم جميعه
بالسهر ولا يحظون بفرح وسرور أصلا . وأن اتفق لهم فى بعض الأوقات وخسروا شيئاً
فيخالون أنهم سلبوا كل ما يمتلكونه حتى حياتهم أيضاً . لأن محب الفضة إذا كان له أهل
ولم يحصل له فائدة منهم يمقتهم لكونه يبغض الجميع ويعاديهم . فحقا يقال أن محب الفضة
هو عديم التمييز وفاقد الإنسانية لأنه لأجل ربح يسير يهون بذاته ويصير عدواً للجميع
ويتثقل من الأرض كثيراً لكونها لم تنبت له عوض السنبل وينابيع المياه والجبال عسجداً
ولجينا ويحزن على عافية الغير وانبساطه متأسفاً . ويبغض الناس أجمعين ويتوارى عنهم
مستتراً خصوصاً من الفقراء والبائسين لئلا ينظرهم وإذا رآهم مقبلين نحوه ليطلبوا منه

صدقة ينظر إليهم بغضب مقطباً ويوبخهم لكونهم مبغضى العمل متطفلين . وأما الأغنياء فإنه يحسدهم ويعاديهم لأن مالهم وفضتهم لم يحصلا له ويظن أنه مظلوم من الجميع فلا يزال هذا الرجل الشرير حزيناً جداً . انظر هل كان يوجد فى ذلك الزمان أشر وأخبث من من آخاب ملك اليهود . فذاك اشتهى كرم نابوت الازراعيلى فتأمل أنت كم من الحزن وألهم أطاف بلبه . وأما ضميره فلازال يبكته من حين علم أن ايليا آت إليه ليوبخه . فماد للحين إلى ورائه معبساً مطأطئاً وجهه أسفل إلى الأرض وعيناه مظلمتان من الحزن الكثير . أتؤثرون أن يتضح عندكم ايضاحاً بيناً . وتعلموا علماً يقيناً أن الغنى لايدع الناس على أقوام بشريتهم بل يحيلهم إلى وحوش وأبالس . اسمعوا ما أقوله . أن بعض الأوقات صار فى انطاكية احتراق وقيظ. فتضرع الجميع لله تعالى الذى هو محب البشر . واستمطروا منه الغيث مستسقين فأرسل لهم الله تعالى غيثاً جزيلا . حتى أروى الأرض بجملتها وأشبعها ماء فشكر الله الجميع لكونه انتشلهم من أبواب الموت وازدادوا مسرة وحبوراً . وكان فى ذلك الحين رجل غنى ماشياً فى وسط المدينة وهو حزين مكتئب جداً فسأله كثيرون ايعلموا سبب حزنه فاجابهم وهو منخوز من اغتصاب الألم . أن عندى عشرة آلاف كيل حنطة والآن من يشتريها لا أدرى كيف أدبرها . ما هذا القول الذى تقوله ياهـذا . أتحزن لأجل أن الناس جميعها لم تمت جوعاً لتجمع لك فضة الهلاك . أما سمعت سليمان يقول . أما المحتكر ملعون من جميع البشر ويصير صديقاً ثم عبداً للشيطان لأنه يطلب الجدب والقحط ليبيع ماخزنه غالياً ويجمع الفضة الزائلة . فالوحوش إذا أكلت تشبع وتكتفى راجعة . وأما المستكثر ومحب الزنى فلا يشبعان البتة ولافيه محبة الله ولاخوف الجحيم ولاحياء من الناس ولا أدب بل يكون فى الجميع عديم الاستحياء والإنسانية على الاطلاق ويظن أن كلام الله خرافات ولا يرهب الدينونة المستأنفة المزمع أن يناقش محاكما بها على المظالم التى صنعها مثل وحش ضار . بل أبعد شبهاً من الوحوش لكونه يظلم اخوته المشاركين له فى الإيمان ويفترسهم فكيف يمكنه أن يعطى جواباً لله . أما تنظر النحلة كيف هى متى لسعت ماتت . فاعتبر أنت بها ولاتضر أخاك وتحزنه فلربما يدركنا الموت قبل المظلومين . وسميت الأشياء العالمية مقتنيات لأننا نحتاجها ونقتنيها وقت الحاجة إليها لالنخزنها . وأما محب الفضة فلا يبغض أعداءه فقط بل محبيه خاصة فإنه يبغضهم بزيادة . ومع هذا فلا يوجد له صديق أبداً بل يكون ممقوتاً من الناس أجمعين ولايخسر نفسه فقط بل جسمه الشقى أيضاً وذلك من شدة ماتعتريه الهموم الكثيرة فيفسده الغنى ويجعله ممقوتاً . والذى يستهين بالمقتنيات فقد أوقف شهوة محبة الفضة ، والذى يحب أن يستغنى يشعل فى نفسه نار شهوتها أكثر من ذلك لأنه وإن

اقتنى ربوات من الفضة فهو يتمنى أمثالها وأن حصل له ذلك يرغب فى أن يتضاعف مقدارها ولا يمكنه أن يطفىء اضطرام شهوة الاستكثار الردية أصلا . فإذا كنت لاتعول جائعاً يعاقبك الرب فإذا عريت المكسو كيف تهرب من دينونته . فهذا لك غير ممكن لـ ون المظلومين يطلبون متاعهم . قل لى إذا أراد أحد أن يذهب بك إلى بلاد الاعاجم لتتفرج ثم يأمرك أن تبنى هناك دوراً ومنازل . أفما كنت تضحك منه على نقص عقله وعتوه لأنه يأمرك أن تصرف مالك فى شيء لاينفعك بجهله . هكذا أنت فاعل فى مكانك الذى تزمع أن تتركه بعد وقت قليل . فإن قلت أنى أغادرها لأولادى. أجبتك وأولئك أيضاً يلتحقون بك أمواتاً بعد زمن يسير وقد يتقدمونك فى النقلة غالب الأوقات. وأظن أنك تطلب الاستكثار لتصيغ لفرسك آنية مذهبة أو لأعمدة منزلك . فأجبنى كم من العقاب أنت تستحقه لأجل هذا وأراك تهتم كثيراً بأمر الكلاب . والمسكين بل المسيح يموت جوعا ذاك الذى طأطأ السموات لأجله وأنت لاتمنحه ولا القوت الضرورى من جميع كرامتك وتصير السيد المسيح أقل قيمة منك متى تعطى الزانى والزانية وتتغافل عن المسكين وظلم الأرامل والايتام . وكم من انهار نار تكفى لحريق تلك النفس الشرهة الزانية . خافوا إذا أنتم الذين تحتقرون المساكين وتظلمونهم . أنتم أيها الأغنياء لكم مالكم ومقتنياتكم والمساكين لهم أسلحة التنهيد والنوح . وبواسطة هذه تأتيهم المعونة من السموات . وبهذه تخرب بيوت الظالمين ومنازلهم . فقد أبادت هذه الأسلحة مدنا كثيرة وبلاداً واسعة أغرقت أمماً لاتحصى فهذا المقدار هو مقدار المعونة الإلهية للمضرورين الممتحنين . سلاح عظيم هو تنهد البائسين والمظلومين لأن الله المحتمل الصبور يترأف عليهم لضميرهم الصالح متى أتتهم الشرور وتجلدوا لها غير مجدفين وهم يتنهدون باكين على مصائبهم فقط . فيكون للمظلومين مسامحاً وغفوراً ولمحزنيهم معاقباً . فلنهرب إذاً أيها الأخوة من أن نكون معتدين ظالمين لكى نجد الله مترأفا علينا ومسامحاً لنا بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذى له المجد والعزة إلى آباد الدهور كلها آمين .

المقالة السادسة

(الـكبرياء النجسة والمجد الفارغ)

أيها الحبيب إذا أردت أن تبدى ملاحظاتك للإنسان المتكبر لا توبخه ولا تعلمه كثرة الكلام بل أظهر له ضعف الطبيعة البشرية بكلام وجيز بحسن معرفة . وقل له أيها الإنسان لماذا تتكبر وتتخذ المجد الفارغ مع أنك أرض ورماد كما نحن كذلك . فإن قال هذا يصيبني بعد الموت. أجبه كلا بل الآن ومادام الإنسان حياً هو أرض ورماد . إلا أنه لم يفهم حاله هكذا لنظره جمال جسمه وتأمله السلطة والكرامة ويرى مديح الكاذبين أولئك الذين يحضرون الموائد ويتكلمون بالمجون وتحلية الملابس الثمينة هذه التى تضله وتجعله ينسى الطبيعة . ومع هذا لم يمض نحو المقابر ليشاهد اللحود مملوءة نتناً وحمأة بل لم يزل ينظر الأشياء الوقتية فقط دون المزمعة . وقل له ثانية لما تتكبر أيها الإنسان وأنت أرض ورماد ونتانة : أنظر حياة الناس المقتصرة الزائلة وارقب يوم مماتك لعلك تتوب لأن الموت يأتى على غفلة ولا تعلم زمان مجيئة . فإذا كان الإنسان الذى هو أرض ودخان أجترأ مع هذا أن يقول اننى لاصعد إلى السموات وأصير الها . فمتى لم يكن له لجام حقر الطبيعة وضعفها . فماذا عساه كان يقول ويبرز من ضميره . فإذا رأيت أحداً متكبراً متشامخاً بعنفه مع حواجبه كالثور قل مشيراً نحوه لماذا تتكبرين أيتها الأرض وأنت أيها الغبار لكون حياته مع باطنه مرذولة هى . وهذه تقولها ولو للملك نفسه ولا تخف من تاجه وثيابه المذهبة . فالكتاب الالهى يقول أن مجد الإنسان كله كزهر حشيش . فلماذا تتعظم أنت أيها الإنسان المتباهى ألعلك صنعت السموات . انحدر عن منكب الهوة وتأمل ضعف الطبيعة لتراها وقتية وانت ظل ورماد ودخان وحشيش وزهر حشيش . فلماذا تتمجد فى ذاتك . فماذا عسى أن يكون لك أصح من هذا إنك تسود الناس . فأية منفعة من هذا فخير لك أن يحكم عليك ولا أن تحكم وتتقدم على الغير . فأية فائدة لك إذا تقدمت أناساً وأنت مستعبد لآلام الخطية وأسيرها كالذى يكون سيداً ومسلطا وله عبيد يضربونه ويملئون جسده جراحات فالأليق لك أن تحكم على آلام بشرتك ولا تكون رفيقاً للخطية من أن تمضى إلى السوق متمجدا مفتخراً . إنك تحكم على أناس كثيرين فإذا كان المتكبر فى الأشياء الصالحة الحقيقية مستوجباً المذمة وأتعابه الحاصلة له من إقتناء الفضائل تضيع بأسرها فكيف

إذاً الذى يفتكر بالأمور الطالحة ويبتغى المجد الوقتى وهو يترفع بذاته أن يكون مضحوكا عليه من الكل ومهانا جداً . أيها الإنسان الحقير الشقى تشاهد نفسك مفسودة من الشرور . ومعذبة من أمراض الخطايا وتتمجد مترفعاً على أن عندك هذا المقدار من الذهب والفضة أو على أن لك عبيداً كثيرين . فاعلم أن هؤلاء كلهم ليسوا لك بل للغير . وإن لم تصدقنى بذلك فتعلمه من تجربة الأكابر والاشراف الذين تقدموك . وإن لم تتأدب من الكتب ومن الناس الذين أصابتهم هذه الأمور فاصبر قليلا فإنك ستعرفه بذاتك . فإن قلت ومتى . أجبتك متى قاربت نفسك الخروج وأنت فى حال النزع ولم يحصل لك فائدة واحدة أو مساعدا مامن مالك ومقتنياتك . فحينئذ لن تجد ولا سيدا ساعةواحدة بل ولا دقيقة فتسم حينئذ الأشياء كلها قسراً وجبرا لأولئك الذين لم ترد أن تنظر وجوههم لان نتيجة نجاح الاشياء البشرية ليست إلاغباراً ودخاناً وظلا والإنسان أيضا أو هى من هذه . وإن ظننت بأنك فى مرتبة عالية وأنت لابس ملابس بهية لكنك تموت كأحد الفقراء المساكين . وأما صيرورة هذه الاشياء كما فى منام فكما أن المنام إذا ظهرعليه النهار زال سريعا لعدم وجوده فيه . وإذا أقبل الليل أيضا ينفسخ ما تقدمه هكذا يكشف كذب هذه الاشياء غير الحقيقية ويظهر . أتراك صرت وزيراً للملك . وكذلك أنا أيضا فى منامى صرت وزيراً . فإن قال قائل أنا صرت نهاراً وأنت ليلا . أجبته وما الفرق فى هذا متى صرت ليلا فأكثر من التسمية لا يحصل من هذا شىء قط . أن فلانا صار وزيراً أو بطريركا . وعلى الفور يفوت الامر مع الكلام ولا يبقى سوى شرف التسمية فقط . هـــذه أمور العالم بأسرها ، أشاهدت أولئك الذين مضوا من مدة ثلاث أو أربع سنين والذين حازوا الوزارة منذ عشر سنين كيف لم يظهر لهم ذكـــر البتة . وأما مثل بولس الرسول فليس أمره هكذا لانه كان فى حال حياته مشرفا مفخما فى سنين كثيرة . والآن أنتقل من مدة مديدة وهو لم يزل معظمامؤيداً أكثر مما كان فى حياته . والشرف الذى حصل عليه فى السموات أى لسان بشرى يستطيع أن يشرحه . ولا واحد . والمتكبرون كأمواج البحر التى تراها تارة متعالية وتارة منخفضة . كذلك هم فتراهم تارة يتمايلون وتارة يرفعون حواجبهم متعالية أولئك الذين يقول لأجلهم داود النبى . لا تخف إذا أستغنى الإنسان . وكثر مجد بيته . ولأى معنى قال النبى الصادق لا تخف إذا أستغنى الإنسان . ليعلمك أن لا تتشوش وتضطرب من خيال الغنى ومجد الكبرياء .

لأنك عتيد أن تراه بعد قليل دائناً عرياناً ويصير مأكلا للدود ولا يستطيع أن يصحب

معه شيئاً من ماله . بل نترك هاهنا الجميع ونمضى بأوثاق الخطايا التى جمعناها موقرين لابسين شرورنا ومتوشحين بها . قال المعلمون القدماء أن الإفتخار والعظمة هما المجد الفارغ وصاحبه لا يكون داخل قلبه شيء صالح بل كالوجوه المركبة إستعارة فيرى ظاهرها لامعا وباطنها فارغا . هكذا هو مجد الكثيرين والأكثر شقاوة على الإطلاق . لإنه لايوجد شيء يبعد محبة الله للبشرية مثل أغتصاب الكبرياء فإنها تسلم صاحبها إلى نار العذاب ولو كان حافظا للبتولية أو الصوم أو الصلوات أو الرحمة أو أى فعل من الأفعال الصالحة وتصير حياته جميعها نجسة لأن الكتاب الإلهى يقول نجس هو كل مترفع القلب . والمجد الفارغ بهذا المقدار ردى هو حتى إنه لا يكفيه أن يهوى بأصحابه إلى الشرور ويكردسهم فى هاوية الهلاك فقط بل يترقب الفضائل أيضا حتى إذا ماقدر أن يخرجنا عنها بوجه ما يستطيع أن يسبب لنا بواسطة هذه الفضائل خسارة عظيمة لأنه يحثنا أن نصبر على أتعابها ثم يعدمنا ثمرتها . وإنه غير ممكن لاحد ان يقرن مع فضيلة الأتضاع المجد الفارغ . فأولى بنا أن نتوق الى تلك الغبطة السموية أعنى بها التواضع لأن الذى يطلب مجد الناس ومديحهم أياه على ما عمله من الصلاح فهو ضائع لكونه قد أخذ مجازاته هنا . وأما هناك فى قضاء الله فلا ينال موهبة واحدة . ولماذا لكونه فضل مجد الناس على مجد الله . واما ذاك الذى يخدم الله ويرضيه فينال هناك مجازاة ثمينة . فإن قلت وبأى وجه . أجبتك متى رذلنا مجد الناس وما طلبناه . فإذا كان أولئك الذين يصارعون فى موقف النظارة يمدحهم الأكثرون هم لا يلتفتون أن يرتضوا بمدح أحد منهم بل ينتظرون الملك اذا كان جالسا فى كرسيه أن يكللهم فحينئذ يفرحون مبتهجين لا بمدح الغير . فكيف اذن هو أصعب وأشق ما يكون لاولئك الذين يعملون الفضائل ليظهروها للناس فمتى صاموا يعبسون وجوهم ويصلون فى الازقة والشوارع ويحتملون الاتعاب والمشقات ويعدمون بعد ذلك أجورهم . لماذا تصير لك شهوداً على الصائرات منك مع أن لك ديانا وتدع ملك الملائكة الذى يشاهد أتعاب فضائلك ونسكك وتسارع نحو وجوه مشاركيك فى العبودية أن يبصروك . فلهذا ولو تعبت كثيراً وعرقت فى عمل الفضائل تنصرف عديم الاكاليل غير ناجح من واضع الجهاد فتعلم هذا من العبد النصوح فإنه متى خدم سيده خدمة مالايريد أن يعجب بخدمته أحداً بل أن يعجب سيده فقط لاغير ونحن لنا مثل هذا السيد الذى هو ربنا يسوع المسيح والهنا . ونؤثر أن ينظرنا الغير الذين لا يستطيعون أن ينفعونا بشيء البتة . فإذا كان الذى يقتنى المجد الفارغ فى تقويمه الفضيلة يضيع تعبه هكذا فالذى يستعمله فى الخطايا كم من العقاب والعذاب يكون مستحقا . لأن

الذي يخطىء ويفتخر بذلك متعظما هو أشر الجميع وجهله عظيم جداً . فليس شيء يجعل محب المجد الفارغ جهلة ومتعدى الشريعة مثل أن يبتغوا المجد والمديح من الناس. كذلك لا يجعل الرجال القديسين مطوبين بزيادة مثل أن يزدروا بالمجد الباطل المترتب من الكثيرين ويبغضوه. فأنت إذا أيها الدود لماذا ترفع متعاليا. قل لي لأى معنى تتبختر وتمشى الخيلاء على رؤوس أصابعك . ولم تشمخ بحاجبيك كثيراً وتنتفخ بصدرك وأنت لا قدرة لك أن تصنع شعرة واحدة بيضاء أو سوداء وأراك إذا مشيت تتمنى أن تكون فوق متن السحاب وتريد أن تتجنح بأجنحة لئلا تطأ الأرض بقدميك . فبأى شيء أمدحك وأطوبك لقد قلت أنك رماد ودخان وهباء . وأقـــول أيضا بعد أن وصفت الطبيعة البشرية ونهايتها أن الانسان المتكبر يشبه مشاقة الكتان من حيث أن ذاك إذا احترق لا يظهر منه شيء سوى اللهيب فقط ومثل فقاقيع الماء أيضا فإنها تتعالى بسهـــولة ثم تضمحل فتصير ماء أيضاً بسهولة هكذا مستعملو المجد الباطل فإنهم يبيدون بسهـــولة . فإذاً لا شيء أرد أو أشر من المجد الفارغ والكبرياء لأن الشيطان لم يكن فى الابتداء لا هكذا قبل أن يتكبر بل كان ملاكا نورانيا فلما تكبر صار شيطانا . واستحال من النور إلى الظلام فهذا هو الذى صير آدم أن يتخيل الكبرياء ليصير الها فاضاع منه عدم الموت الذى كان له فصار مائتا. وبسبب هذا وبخ الله جهله وهزأ به قائلا ها آدم صار كواحد منا أعنى أن الله قال نحو آدم ها قد صرت واحداً منا أى من الثالوث المحى وها ابنى الأزلى مزمع أن يصير إنساناً مثلك ويسمى بلاهوته آدم الجديد وأنت فتصير الهاً بالنعمة حسبما اشتهيت أن تكون ولما أخذ الشيطان أجازة جزئية من الله على أيوب الطوباوى هدم بيته من أساسات الأرض وأكل جسده كله من القروح وجعله اللعين عبرة ليخدع به العالم بأسره وأفسد حاله وأباده وأمات أولاده وردمهم وصير جسده نخراً من الدود وأقام أمرأته عليه توبخه لعلها تجعله يجدف على الله وصير أصدقاءه أعداء له وكذلك عبيد منزله وحثهم على أن يعيروه . ولو لم يمنعه الله لكان يبيد محاسن العالم بأسره لأن الشيطان وحش خبيث لا يشبع فلهذه لم يعطه البارى تعالى أجازة على الكل لكونه سبحانه بالطبع صالحاً ومحباً للبشر له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة السابعة

١ — (باطل هو أن يضطرب كل إنسان حى)

٢ — (الصدقة)

إذا كانت زوايا البحر تستحث الصياد على العمل حتى إذا اتفق له أن يلقى شبكته يجمع من الأسماك مالا يحصى وبتعب كثير ونصب يستطيع أن يجذب شبكته إلى الأرض وكذلك الغيضة الملتفة الأشجار التى تربى الوحوش والبهائم داخلها تجعل القانص يعود إلى بيته راجعا بصيد جزيل مبتهجا متى أشرف على الجبال واقتحم الآجام المشتبكة بالأغصان فيستبين لاولئك الذين يرغبون فى الربح الزمنى أن تعبهم الذى يتعبونه كله حلو ولذيذ . فكم بالحرى هم الذين يصطادون فى أغصان الكنيسة المقدسة الذين ربحهم ليس أرضيا ولا وقتيا بل هو الملكوت السموى . فهلم بنا أيها الحبيب لنرتل مترنمين بالمزمار والقيثارة الداودية لنفضح الشقاء البشرى مع داود قائلين إذاً باطل هو أن يضطرب كل إنسان حى . يضطرب الإنسان ابتداء ولكن فى الانتهاء يبيد ويضمحل . يضطرب وقبل أن يرسب يغرق . يشتعل ويتعالى كالنار ولكن كالقصب يحترق . يرتفع كالزوبعة ويتمزق كالغبار . يتصاعد كشهاب النار وينحل ويضمحل كالدخان . يتزين كالزهر ويجف كالحشيش . يمتد كالغيم المتراكم وكقطر الغيث يتساقط . يطفو كالفقاقيع على الماء منتفخاً متكبراً . وينطفىء كشرارة . يضطرب بالاستكثار ويربح منه الحماة ، يضطرب فيمضى ولا يأخذ معه شيئا من كسب الأضطراب بل يحصل على الأضطراب لاغير . وأما الفرح فلآخرين . له الأتعاب ولآخرين الكنوز ، له الاهتمام وللغير السرور له الحزن والآخرين الإبتهاج ، له الحسرات المترادفة ولغيره الغنى الكثير ، له الدموع ولآخرين المقتنيات، له العذاب فى الجحيم والغير يأكلون بماله ويشربون ويسرون ويترنمون فإذا باطل هو أن يضطرب كل إنسان حى . الإنسان الوقتى المستعير الحيوة والمديون للموت والملزم به . الحيوان غير الطائع بضميره . البشر غير القابل التعليم الذى تعلم الغش وتفقه به من ذاته الحاذق فى الشرور . النشيط فى الظلم المتيقظ الفارس فى الاستكثار . العديم الشبع من محبة البطن . الرشق فى عدم الوفاء . النسمة المتكبرة . العلبة المملوءة مجداً فارغا . العلو السهل هدمه الطين المتواقح . الرماد المضطرب . الغبار المرتفع . الشرار السريع انطفاؤه . اللهيب القريب الخمود السراج السريع الطفء العود القابل الفساد بسهولة ، العشب الذى

يذوى بسرعة الخضرة النضرة التى تضمحل سريعا ، الطبيعة القابلة الفساد التى ترهب اليوم وفى الغد تموت . اليوم غنية وفى الغد مفتقرة مطروحة فى القبر . اليوم لابسة تاجا وفى الغد تستوطن اللحد . اليوم متوشحة بالبرفير وفى الغد تدفع للفساد . اليوم حاوية كنوز وفى الغد تساكن الاجداث . اليوم مع المتملقين وفى الغد مع الدود الذى لا يموت . الإنسان الذى هو اليوم وفى الغد ليس هو . الذى الآن يتكبر وبعد هنيهة ينوح . الذى هو حين السعادة صعب غير محتمل وحين الأحزان عديم التعزية . الذى لا يفهم الأشياء التى له والأشياء التى فوق قوته يفحص عنها . الذى لا يفقه الأشياء الحاضرة . والمزمعة يميزها الذى هو بالطبع مائت . وبالتشامخ بما يظنه أبدى موضوع كل مرض . ومقر كل ألم . ميدان حرب الأمراض والحميات . الخزانة المفعمة من كل حزن . آها لعظم شقاء ضعفنا . كم هو مستحق من الويل ذلك الذل الإنسانى وكم مقدار ما أقول . فلم أجد واحدة أليق من الصوت المقول من فم النبى إذاً باطل هو أن يضطرب كل إنسان حى . فتأمل بعد هذه كلها أيها الأخ الحبيب أن كانت الأمور البشرية لا تشبه البحر . أن كانت حياتنا لا تشترك بمزعجاته . وأن الذى نقاسيه فى البر أشد مما نعانيه فى البحر وأن تصادمنا بعضنا بعضاً أشد من الرياح الزعازع وأن زحامنا فى المقتنيات بعضنا لبعض أشد من اضطراب الأمواج فى اللجة وأننا نخبط خبط عشواء ههنا وهناك كاننا فى ظلام الليل . فواحد يختلس حقل ذاك . وآخر يخطف عبيد فلان . آخر يخاصم جاره لأجل الماء . وآخر يحارب مساكنيه لأجل الهواء . آخر يخاصم لأجل تقسيم حصص الأرض . وآخر يحزن غيره لأجل البناء . آخر يتمنى أن يسلب من غيره شيئاً لم يعطه أياه . وآخر يشاجر لئلا يؤدى ما أخذه . آخر يحزن لفقره وآخر يقلق وينزعج لثروته . آخر يعير لاقلاله . وآخر يحتال عليه آخر وآخر يحسد لغناه . وآخر يمقت ويبغض لسطوته . آخر يستحضر بمقدرته . فالحروب تتكاثر . والحسد ينمو . فيحكم بعد الشبع . والاستكثار يغتصب . الكذب يعلو . والحق يتباعد من بين الناس نائياً . الصدق اضمحل من الأرض بالكلية . والصدقة جعلت حدودها المائدة . فإذاً الأرض لا تستطيع أن تحتمل هذه الشرور كلها . والهواء قد تنجس حتى إلى السماء . العناصر المتعتقة قد بيعت بالورق . الطرق تعسر سلوكها . الأرض تقسم . المياه يحكم عليها . الهواء يباع . المكاسون والمغتصبون يضبطون المدن . الأغنياء يبيدون من الاهتمام . أصحاب الديون يضمرون من العناء . الخطفة يرجفون العالم . وامقو (محبو) الفضة يفسدون المحاكم . التجار يتاجرون فى مصائب الناس . متهموا الناس باطلا يبيعون الكذب . ولقد نفد القسم من بيننا من كذب أحدنا على الآخر . ولا عدنا نعرف شيئاً سوى أننا نقسم بالله

فقط . فلما رأى النبى استحالة الجميع إلى الشرور فويل حياتنا قائلا إذاً باطل هوأن يضطرب كل إنسان حى . أيها النبى النبيل . هل الإنسان وحده يضطرب . والخليقة الناطقة وحدها تعير . نعم لأننى ما وجدت أحداً من الوحوش ولا من العناصر يضطرب . تضطرب المياه لكنها تستكن أخيراً . تتزعزع الأرض لكنها فيما بعد تثبت . تخفق الرياح لكنها ستهدأ . تضطرب الوحوش لكن متى شبعت كفت . يتعالى اللهيب لكن متى احرق مادته كلها طفىء . وأما اضطراب الإنسان لأجل المقتنيات فلا كفاف له . لأنه إذا حصل على هذا يتوقع ذاك . وأن حوى على ذاك يجتهد على الآخر . وهلم جرا . فيحرص على المائة أن يضاعفها ثم يجتهد أن يجمع فوقها ولا يكف عن الجمع أصلا إلى انتهاء آخرته . وإذا تضايق من عطش محبة الفضة يصيرلونه أشد اصفراراً من الذهب لأجل المشوق إليه كثيراً . والصديق الكذوب الناكث الوعد والحبيب الغاش والمتلاعب بكثرة السادات والمعشوق من الكثيرين والخؤون والطائر المقيد والمائت المحارب والربح الطائر فى العالم أعنى به الغنى الذى هو منشأ كل رذيلة وموجد كل شر ومساعد محبة البطن المفسدة للنفوس . ومقاوم الامساك ومحارب العفة والسارق المختلس كل فضيلة . ومالى أذمه وأترك مقتنيه . هاهو أيضا يظلم منهم مقيداً مكبلا بالسلاسل والاغلال . ويظهر لى أن الغنى نفسه يصرخ نحوهم قائلا . لماذا أيها الوامقون الفضة تعتقلوننى . ولماذا تحصروننى بربوات من القيود كعبد رق . ولماذا تحتضنوننى وتقبلوننى كصديق وتقيدوننى كفاعل شر . فإن أحببتم راحتى زمنا يسيراً ولو أنه أخف من المنام أتركونى قليلا لأمضى لأيدى الفقراء . فكأنك تقول ياهذا اننى أجمع الغنى لأولادى لئلا يرثوا الفقر ، أيها الغنى المتأمل إن فى هذا لعجباً . لأنك لا تعرف الأمور الكائنة حالا فكيف تهتم لأجل المزمعة . أمور ذاتك لا تعرفها فكيف تهتم لأجل أولادك . لا تعلم أن كان تحصل لك دفنة جيدة وتدبر أمور الورثة . أيها الغنى الجاهل قل لى أولا عن انتهائك ثم احرص بعد ذلك لأجل أولادك . قل لى ماذا يصير اليوم ثم أصدقك فيما يصير غداً . لماذا تضل ذاتك بعد الموت أتريد أن تكون ميتاً ضالا . لماذا تأمر الله وتحكم عليه فى ما يصنع . لماذا تشرع على عناية الله . أتشاء أن تدبر الأشياء التى اعطاهالك . أنت ليس لك فى أمور الذين يبقون بعدك دخل . فلا تحكم على شىء خلفته بعد مماتك ولا تسد عليه لأنه لا يمكنك أن تكون ميتاً ومقسماً للاحياء أو قاضيا على الموتى لتعطى كل ذى حق حقه . فلماذا تتعب باطلا أيها الغنى و تخطف أموال المساكين وتقرنه بمالك وأنت لا تدرى لمن تجمعه . لماذا تضبط مال اليتامى . لماذا تشتط على الذين

يطلبون منك متاعهم . فكأنك تنفق عليهم من مالك . فهم يطلبون مالهم لا مالك . يطلبون منك الأشياء التى دفعت إليك من أجلهم لا التى ولدت معك . اعطهم حقهم ذاك الذى أخذته واكسب الثناء لأنك امرت أن تعطى ولا تأخذ . يكفيك أن يمد إليك السيد يمينه ويقبض ماتعطيه لأجل المساكين . ذاك الذى يسكب الغيث فيروى يطلب منك فلساً واحداً . ذاك الذى يبرق ويرعد يقول لك ارحم . ذاك الذى يجلل السماء بالسحاب يطلب منك طمراً بالياً يكفيك فخراً أن المساكين تتضرع إليك كأنك إله وأنت لاتشاء أن ترفع عينيك لتنظر إليهم . أرحم لترحم . أفلا تحزن متى تضرعوا إليك أعطهم مالهم قبل أن يقوم يوم الحساب فيتفحصوك . أعطهم مالهم الذى أنت مزمع أن نسترده بعدقليل . أعطهم مالهم وخذ من أبيهم الطمأنينة لأن لهم أبا ملكا . فإن قلت وما هذه الطمأنينة . أجبتك هى مهما فعلتم بأحد أخوتى هؤلاء الصغار فى فعلتم . لأن الذى يرحم فقيراً بائساً ليس أنه يحل صك خطاياه فقط بل ينال ميثاق المعترف القائل . من يرحم مسكيناً يقرض الله . فلنقرض الصدقة لله لنأخذ منه المحبة البشرية . فيالها من كلمة مفعمة كل حكمة . من يرحم مسكيناً يقرض الله . ولم يقل يعطى الله بل قال يقرضه ذلك لكون الكتاب الإلهى له خبرة باستكثارنا وعرف أننا لانمل من الاستكثار بل دائماً ننتظر الزيادة ونطلبها . ولهذا لم يعبر بقوله . من يرحم مسكيناً يعطى الله لئلا نظن عن الاعطاء البسيط بل قال يقرض الله . حتى إذا سمع محب الدرهم والدينار بكتابة القرض يميل ذاته قسراً إلى الصدقة . من يرحم مسكيناً يقرض الله . فإذا اقترض البارى تعالى منا فيكون حينئذ مديونا لنا . أفما ترضى أن يكون الله مديونا لك لا دائنا وأنت تعلم أن المديون يوقر من أقرضه والدائن لايستحى من المديون . ولهذا يجب علينا أيها الأخوة أن نتصفح ذلك بتأمل وننظر لاى سبب قال الله من يرحم مسكيناً يقرضنى أنا . وما ذاك إلا لعرفانه باستكثارنا أنه دائم الميل إلى الازدياد كما تقدم قولنا . وهل ترى يرضى أحد المتمولين أن يعطى ماله قرضاً فى موضع غير محفوظ ولا مؤتمن لأن من عادة الذى يقرض دائماً يطلب وثيقة أو رهنا أو ضمينا وبأحد هذه الثلاثة الأشياء المقنعة للاحتفاظ يمكنه أن يستأمن على ماله . ولما تقدم علم البارى تعالى بهذه . أعنى خلواً من هذه الثلاثة الأشياء لا يقرض أحد أحدا لكون المقرض لاينظر إلى محبة بشرية . بل إلى الربح فقط . والمسكين خال عن هذه كلها فإنه لايملك رهناً لاقلاله بالكلية . ولايجد له ضميناً لأجل فقره ومسكنته فلا يستأمنه أحد والبارى تعالى عالم بعدم إنسانية صاحب المال فاورد ذاته الشريفة إلى الوسط وصار ضميناً

للفقير ورهنا للمقرض . وقال له إن لم تأمن هذه الفقره . فصدقنى أنا لأنى ذو الغنى الغزير لأن الله تعالى نظر المسكين ولم يتغافل عنه بل أعطى ذاته رهناً عن الذى ليس له شىء . وبكثرة صلاحه أعان البائس المتحير . من يرحم مسكيناً يقرض الله . ويقول له لاتخف لأنك تقرضنى أنا . فإن قال له المقرض وكم هو مقدار ما أربحه منك حتى أقرضك . فيجيبه البارى مائة ضعف ثم حيوة الأبد . وأن قال متى تؤدينى هذه لأنى أروام الاشتراط لاثبت الوعد فحدد لى زمان الاعطاء واحتمه بموعد الوفاء فاسمع أسمع مصغيا متى يعطيك القرض وأين يؤديه ذاك الذى اقترض منك لأجل المسكين . فإنه يقول إذا جلس ابن البشر على كرسى مجده يقيم الاغنام من عن يمينه والجداء من يساره . ثم يقول لذوى ميمنته . هلم يامباركى أبى رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم . ولاى سبب لأنى جعت فأطعمتمونى وعطشت فسقيتمونى كنت غريبا وعريانا وأسيراً فى السجن فافتقدتمونى . فإذا رأى ضعفهم أولئك الذين خدموه فى زمانهم جيداً وشاهدوا ذاك الشرف العظيم الحاصل لمن أقرضوه فيقولون متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك وأنت الذى أعين الكل تترجاك ومتى رأيناك بهذا المقدار متضايقا متحيراً فتعهدناك ومتى فعلنا مثل هذه فيجيبهم قائلا . مهما فعلتم بأحد أخوتى الصغار فبى فعلتم ذلك . أترى لايكون إذاً صادقا قول الله من يرحم مسكينا يقرض الله . ثم بعد أن دفع الملكوت لاهل ميمنته هبة لاجل محبته للبشر قائلا . هلم يامباركى أبى رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم . أشار إلى أهل ميسرته الفاقدى الثمرة والعديمى الإنسانية والخوف من العقاب قائلا . ابعدوا عنى ياملاعين إلى الظلمة القصوى المعدة لابليس وجنوده ولماذا . لانى جعت فلم تقيتونى . ولم يقل أنكم زنيتم أو فسقتم أو سرقتم أو شهدتم زوراً أو نكثتم فيما بينكم . لأن الشرور وأن كانت ظاهرة وتحت طائلة العذاب والانتقام هى أدنى درجة من عدم الإنسانية وقلة الرحمة . فإن قلت ولماذا يارب لم تقرعنا بذكر شىء آخر فيجيب أنى لا أدين الخطية بل أدين القساوة لا أدين الخطية بل أدين الذين لايتوبون عنها . ولاجل قساوتكم أحكم عليكم لانه كان عندكم أدوية وعقاقير بها تتخلصون وهى الصدقة . فتركتموها وأهملتم مقدار شرف مثل هذه العطية والمنة فإذاً توبيخى لقساوتكم التى هى أصل وينبوع لكل الشرور والكفر والالحاد . وأمدح المحبة البشرية لكونها جرثومة الخيرات . وأرهب عديمى الرحمة والقساوة بالنار التى لاتطفأ والعقاب الذى لانهاية له . وأهب محبى البشر الرحومين ملكوت السماء وحيوة الابد بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد والاكرام إلى أبد الآبدين آمين .

المقالة الثامنة

(فى الدينونة المزمعة وفى عذاب الجحيم الذى لانهاية للذين لايؤمنون بوجود هذا العذاب)

كثيرون من الناس فى هذا الزمان وخاصة منا نحن المسيحيين متفرغون للأشياء الزمنية ومنصبون فى آلام هذا العالم وهم يصنعون كل نوع من الخطايا المخالفة للناموس. ويظنون أن بعد الممات لا توجد دينونة ومجازاة ولايتأتى عقاب وعذاب مؤبد. يحتجون قائلين أن الله محب البشر لايعاقب الأشرار الخطاة. نعم لاشك أن الله محب وهو لم يزل كذلك. لكنه أيضاً قاض عدل. فإذا نال أحد من الله خيرات غزيرة. أعنى عافية وكرامة وغنى وترفهاً فى حياته جميعها ثم وجد بعدها قليل الشفقة والرحمة. أعنى يظلم ويخطف ماليس له ويعمل كل فاحشة من الرذيلة وهو لايجنح إلى التوبة بوعيد الكتب ولا بوعد الله تعالى وعطاياه. قل لى ياهذا أليس هو مستحقاً للعذاب والإنتقام. أعلم أننا لو فحصنا دينونة الله العادلة بتصفح لكان من الواجب أن يقضى علينا بالاضمحلال منذ القديم حسب قول الصديق أنه إذا شتم احدنا من لم يظلمه فمزمع أن يعطى الله جوابا ضرورة. وإذا شتم المحسن إليه ذاك الذى افاده عدة افادات من الخير وربما يكون سبب ايجاده فى الصلاح فلأية مسامحة يكون مستحقا ولا لواحدة. فكيف لاتخاف الله حين تجترىء قائلا. أن الله محب للبشر وهو لايعاقب عديمى الشكر والخائنين مثل أولئك الذين على هذه الصورة فإن كان يعذب هؤلاء على زعمك فليس إذاً محباً للبشر. أترى لك عذر حين تخطىء إليه ألم يسبق فيقول لك عن هذه كلها. أما خوفك وأرهبك. أما ساعدك فى شدائدك ومصائبك. أما عمل ربوات من التدابير لأجلك. أما صلب لأجل خطاياك. فإذا كانت الأشرار واللصوص والقتلة لا يعاقبون. وكذلك الصالحون والقديسون أيضاً لايكللون فأين إذاً محبة الله للبشر. وأين قضاة العدل. فلهذا لاتضل نفوسكم أيها الناس بما يوسوس لكم الشيطان فإن هذه جميعها ايجاداته واختراعاته. فإذا كان القضاة وواضعوا الشرائع. يؤدون الناس الصالحين ويكرمونهم والأشرار يعاقبونهم ويهلكونهم. فكم هو بالحرى أن يصنع الله هكذا. فإذا كان الخطاة والناس الأشرار ينتظرون عقاباً مؤبداً. مع هذا لايتركون الخطايا والمظالم. فكيف اذاً لو نفوا عنهم مثل هذا الخوف وليس خوف العقاب فقط بل أن ينالوا ملكوت السماء. فمتى يكفون عن الرذائل التى يصنعونها. ولقد بلغنى عن أناس محبى الرذيلة أنهم يقولون أن الله ينص عن وجود عذاب الخطاه لأجل الترهيب فقط. وإلا فهو الرحوم

الشفوق . قل لى أيها الذى لا تؤمن بوعيد العقاب المنتظر . من الذى جلب الطوفان المخوف فى أيام نوح البار وغرق ساكنى الدنيا قاطبة من رجز الله . من أرسل البروق والصواعق على أرض سدوم وعمورة واحرق السبع مدن مع أولئك القتلة ومضاجعى الذكور بالقار المنتن وأبادهم جميعا عن وجه الأرض . من غرق فرعون وجنوده فى البحر الأحمر . من أباد جملة الوف من اليهود فى البرية . من أحرق محلة أبيرام . من أمر الأرض أن تفتح فاها وتبتلع قورح وداثان وأبيرام أحياء . من قتل فى أيام داود سبعين ألف نفس . من قتل من الأشوريين مائة خمسة وثمـــانين ألفا فى ليلة واحدة على عهد اشعياء النبى . حتى المصائب التى تصيبنا يوما فيوما أما ننظرها من أجل خطايانا التى نعملها دائما . كالحريق وعدم الأمطار والزمهرير والطاعون والسبى ومقاومة المحاربين . فأى جواب لك أن ترده عن هذه كلها وأنى أرى بعضا يقررن بوجود العذاب وبعضا ينكرونه . فاقول إذا كان الله لم يزل غير ظالم فيلزمك أن تعطى جوابا فى الدينونة وتعاقب متى أخطأت ضرورة . وإلا إذا كان الله محبا للبشر ولا يعاقب الخطاة على زعمك كان يجب أيضا أن لا يعاقب هؤلاء الآن . مع أنه يعاقبهم هنا فهذا هو الجهـــل الصريح فإن كنتم لا تؤمنون بنصوص الكتب المقدسة عن غضب الله فسوف تؤمنون بذلك عنـــد وقوعـــكم فى العقاب المخيف . أترانا نقصد الكلام مقاومة من يقاومنا من حيث النص عن العقاب أحقيقى هو أم لا . فهذا لسنا نقوله نحن فقط بل وكثير من المنشئين أصول الفلسفة قالوه . أعنى أكابر فلاسفة اليونان فأنهم تفلسفوا كثيراً عن العقاب المزمع وأبانوا على أن الأشرار والناس الأردياء يعاقبون فى الجحيم ولو لم يكونوا مثلنا نحن الذين تبين لنا الحق ظاهراً جليا . إلا أنهم قد أدركوا وجود الدينونة والعقاب بالجملة . فهم يقولون أنهم قد سمعوا نوحا وعويلا وأنهر نار جاوية وجليداً وطرطوس وأماكن أخر كثيرة للعذاب . ونصوا عنها بأنها تحت الأرض وقد تحدثوا أيضا عن أماكن حسان وجزائر للطوبانيين . وفراديس مزهرة بروايح زكية . وقالوا أنه يوجد هناك صفوف قديسين متزينين بحلل نفيسة وهم يرتلون بتسابيح عجيبة . فلهذا لا نشك بوجود العقاب لئلا نسقط فيه . لأن الذى لا يؤمن بوجود العذاب يتهامل فى أمر خلاصه . لكونه لا يخاف فيقع فيه . بل يجب علينا أن نؤمن أيمانا حقيقيا بريئا من الشك والأرتياب ونتداول بهذا ما بيننا كثيراً فيحفظنا من الرجوع إلى الخطية . لأن نتأمل العذاب مع الموت هما بمنزلة الدواء المر الذى ينق النفس من كل الشرور والخبائث وذلك إذا إستعملناه بمداومة . فإذا كنت بخيلا مثلا أو فاقد الرحمـــة تفكر فى العذارى الخمس الجاهلات اللاتى طفئت مصابيحهن حين لم يكن لهن جهاز الختن وهو

الرحمة فسقطن فبهذا أيمكنك أن تصير رحوماً ولو كنت غاشما ومختلسا . أسمع سيدنا المسيح قائلا . شدوا يديه ورجليه والقوه فى الظلمة الخارجية فيمكنك حينئذ ان تطرد عنك الشهوة الردية . أو كنت سكيراً حنجريا أسمع مايقوله الغنى نحو إبراهيم ياأبتاه أرحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ليبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهب . أو أن صارعتك شهوة الزنى افتكر فى اضطرام نار جهنم فيخمد عنك اضطرام الشهوة الدنسة . ومابالى أرهب بالنار والعقاب مع أن الإبتعاد عن الله فقط هو أشر من كل عقوبة متى منعنا عن النظر إلى المسيح . لأن ليس شىء أشر من عدم النظر الآلهى . أنظر مقدار مرارة ألمه . وإذا كان ذلك لم تشتهى الإقامة والخلود فى دار الغرور أعنى بها الدنيا . وكما إذا طرح أحد الاشراف فى سجن وألقى فى نتانة حبس مظلم وقيد مع اللصوص والقتلة كيف أنه يرى ذلك عليه أشر من الموت . هكذا نحن حين نساق إلى هناك . أعنى سجن الجحيم لنعاقب مع قتلة المسكونة . ومع ذلك أننا لا نبصر أحداً ولا أحد يبصرنا بل نحصل بين الجموع المعاقبين منفردين وغرباء عن كل تعزية . لأن من شدة الظلام المدلهم المستحوذ هناك لايقدر المقيمون أن ينظروا شيئاً أوأن يقبينوا من فى جانبهم بل كل واحد يعاقب على حدة . ولو قيل أن هناك ناراً ولهيبا لكن لا إشراق لها بالفعل . بل الكائنون بها يحترقون مظلمين وهم لايستنيرون ولا يستضيؤن ولا يخمد عنهم اللهيب . ولا يكفى هذا فقط . بل يشتملهم الوجع الأليم حتى يحزن أنفسهم . لأن تلك النار الشديدة الأضطرام متى شملت أحداً أحرقته مؤبداً . ولهذا قيل لها النار التى لاتطفأ ويتردى بها الخطاة فى الجحيم وليس للإكرام . (أعنى لا كالنار المتوشح بها الملائكة النورانيون) بل لعذاب خالد . حاوين على كل ما هناك من المرارة والألم . وأشد من هذا صعوبة ومرارة هو الخيبة من الصالحات . فهذه كمية الوجع والعقاب وكيفية الحزن والضيقة التى لايضاهيها ولا واحدة من عقوبات الدنيا وأوجاعها . المهيأة للخطاة إذا لم يتوبوا هنا فى عنصر حياتهم . أترى إذا ولج أحد السجن وشاهد بعضاً حافين مكتئبى الوجه كالأموات . وبعضاً مكبلين بالحديد والأغلال فى أعناقهم . وبعضاً موثقين فى المقطرة . وغيرهم معانين فى سجن مظلم كريه الرائحة . أما كان يخاف مرتعداً ويحرص مجتهداً إلا يسقط فى شدة هذا عظم مقدارها .

فكيف إذاً لو أزمعنا أن نمضى مقيدين إلى سجن مضنكين . فماذا عسانا أن نفعله فى ذلك الوقت فوا أسفاه علينا وآها لنا لأن تلك العقالات ليست من حديد بل هى نار لا تطفأ على الدوام . وأما المعذبون لنا فليسوا أناساً مثلنا يحزنون علينا بل هم ملائكة مرهبون أوغير شفوقين . قـــوم لايستطاع النظر اليهم . ولاننا شتمنا سيدهم بأعمالنا الردية السمجة يغضبون علينا غضباً لا يوصف . وأما الحبوس التى هناك فليست مثل هذه الحبوس التى يتفقد الأهل فيها مسجونيهم بعض بفضة وقـــوم باغطية وأناس بمآكل وطائفة يعزونهم تعزية الصبر والإحتمال بل هى عقالات جهنمية فاقدة العزاء والتسلية . ولو أن نوحا أو إبراهيم أو يعقوب أو دانيال أبصروا أهاليهم معذبين لم يجترئوا أن يتضرعوا من أجلهم ويمدوا أياديهم فيخرجوهم من ذلك العقاب الفادح لأن وقت الدينونة تضمحل المسامحة الطبيعية وتبيد . حتى إنه يتفق أن الآباء الصالحين يشاهدون أولادهم الخطاة والأولاد الصديقون يصادفون آباءهم الأشرار وهم فى السعير فلا يحزنون عليهم مكتئبين لأن القديسين لا يصادفهم حزن من حين حازوا تلك الخيرات السموية . فلهذا تنطفىء منهم حرارة الشفقة . ولأجل ذلك لا يؤمل أحد منا أن ينال هناك خيراً ما لم يصنع أعمالا صالحة ولو كان له أباء واسلاف صديقون لأننا إذا ضيعنا الزمان الذى أعطيناه فسوف نؤدى عنه جوابا كيف أضعناه وتصرفنا فيه بالكسل وعدم الإعتناء بالصلاح متى صرنا هناك . كالذى أقترض فضة وأنفقها أكلا وشربا فإنه متى طلبها مقرضه ولم يؤدها له يضعه فى السجن . فهكذا إذا صرفنا حياتنا فى الطريق الردية فإننا مزمعون أن نفحص بزيادة نحن الذين بددنا المواهب التى أعطاناها الله كالأبن الشاطر أعنى أننا دنسنا المعمودية المقدسة وأفسدنا العذرية الطاهرة . فكما أن البشر يطلبون الحساب على عبيدهم فى مصرف المقتنيات هكذا البارى تعالى مزمع أن يفحصنا أغنياء وفقراء . أن كنا جمعنا الغنى بأتعاب صادقة من طريق الحلال . أوكان من الخطف والإستكثار . أن كنا صرفنا المقتنيات، على المساكين أو على الزنى والترفه والبذخ والسكر . أو كان فى مساعدة المظلومين . ثم يفحص أيضاً عن الفقراء هل صبروا بشجاعة شاكرين الله على فقرهم ولم يتذمروا على أحكام الله وتدابيره متى رأوا الغير بعيش رغيد مملوئين من كل الخيرات . ولا تظن أن الفحص واقع على الأغنياء والفقراء فقط . بل على القضاة والملوك أيضاً . فإنه تعالى يفحص عنهم باجتهاد عظيم أن كانوا حكموا جوراً وعدواناً . إن حابوا

وجيها وأفسدوا حقاً . أن قضو الخلاف لأجل عداوة أو لأجل إرضاء أحد أستعملوا الظلم والجور وخاصة رؤساء الكهنة والبطاركة فعلى حسب مراتبهم وأكرامهم وسلطتهم يطلب الله الجواب منهم . مع أن هذه الوظائف والمراتب بأسرها لا تبعد عن أنها كالظل أو طيف المنام . فالحلاوة وقتية أما المرارة فابدية . لأنه قبل أن تتم الخطية تخمد شهوة اللذة . ولهذا البارى تعالى لا يفتر عن مفاوضتنا كل حين عن هذا العقاب الأبدى . لكى نرتدع من خوف العقاب . فهاهو الآن متى ذكر تتقبض نفوسنا من خوفه . لأنه لو لم يتقدم بالأنذار عن هذا الخوف لسقط فيه الكثيرون مع أنه يوجد أناس بعد هـذا كله يعملون الخطايا بغير خوف ولا أستحياء . كأن العذاب ليس بموجود . فإذا لو لم يحرصنا الله تعالى ويخفنا بالعقاب فلأى شرور كنا نتصل . لكن لا شك فى أن هذا لم يحدث إلا من قبل محبة الله للبشر فقط والدليل على أنه لو لم يخف أهل نينوى على يد يونان النبى لما نجت من الإنقلاب . ولقد كان يوجد حجة للقائل بعدم العقاب لو لم يكن شديد الإعتناء بنا من حيث خطايانا وفضائلنا لكونه يجتهد بنا فى أن لا نخطىء . وأن نعمل الفضائل . فيظهر من هنا إننا إذا أخطأنا يعاقبنا . وإذا قومنا الفضائل يكللنا . ولقد نرى كثيرين يحاجون البارى تعالى من حيث أنه مراراً كثيرة يطيل أناته على الأشرار والزناة والقتلة والسراق وعلى المستكثرين ومسببى الإنشقاقات ولا يعاقبهم هنا . فهذا ليس بعجيب لأنه لو أرهبهم هنا بالعقاب . فإننا نراهم يزدادون عتواً وجسارة ويذمونه بزيادة . ولكن العجب الاعظم هو أن نتعدى العقاب ها هنا ولم نحصل فيه هناك . فياله من جهل وعته . ويالها من نفس وامقة الخطية . حتى أنها تتأول أقوال التخويف وتتهاون بها ولكن من الأفعال سيعلمون العقاب والملخص من هذا انه لا يمكن لاحد أن يفر من العقاب ما لم يحل عنه أولا وسق خطاياه هنا بواسطة الإعتراف النقى والتوبة الحقيقية . وكما ان الاشرار يقادون إلى محل القضاء معتقلين بالسلاسل . هكذا الخطاة تجذبهم الشياطين إلى قضاء البارى تعالى المملوء رهبة وارتجافا مغلولين بعقالات آثامهم ليعذبوا مؤبداً . وان آثرت ان تتطلع على كمية هذا فأنظر هل اتفق لك الذهاب إلى حمام شديد الحرارة أو أعتراك فى وقت ماحمى محرقة . فتفطن حينئذ بسعير الجحيم . وأن تفطنت يمكنك الفرار حينئذ من الخطية . وتصير أمينا لتنجو من العذاب . واعلم اننا سنحاكم على الأفعال . والاقوال والأفكار . وسوف نعاقب عنها عقاباً شديداً . ونكافأ عن الأعمال

الصالحة . فلنكف إذاً عن الشرور ونعمل الصالحات لننجو من سعير نار جهنم تلك الأبدية ولنحجم عن الخبائث والمآثم ونصنع الفضيلة لكى نرث ذاك ملكوت . السماء ولقد راينا العالم معتاداً أن يثنى على الإنسان الصالح الذى لا يعمل الشر . الذى عنه يقول داود النبى ولم يقبل العار على أقاربه . اعنى لم يدمدم على جيرانه اصلا . فمن هنا ظهر انه متى احب الناس إنسانا احبه الله ومتى ابغضوه ابغضه . واما القساوة التى اشار اليها السيد المسيح بقوله . انى جعت فلم تطعمونى . فتطلق على الذين لايرحمون المساكين من الأشياء التى منحهم الله اياها. فإنهم لايعدمون الخيرات الأبدية فقط . بل ايضاً يساقون إلى تلك النار التى لا تطفأ واما الذين عملوا الصالحات فينالون تلك الخيرات السموية . فإذا كان شرفاء الدنيا وزعماؤها ينالهم العقاب الشديد والنكال الأليم متى تعدوا النواميس الشرعية فكم بالحرى يعاقب اكثر من هؤلاء ذاك الذى يهمل وصايا الله . وانى لأعرف جيداً انه يثقل على قولى لكم عن العذاب والدينونة ويحصل لكم منه حزن وغم شديدين ولكن بقدر ما يكتئب الضمير وينقبض محزونا بأكثرمنه ينتفع عقل المحزونين وتصورهم حسبما ذكر عن لعازر الفقيروالغنى . فلهذا يجب علينا ان ننتحب نائحين بدموع مرة . لأن هناك لن يوجد لنا زمان توبة . ولكننا مادمنا مقيمين فى هذا العالم ونسمع مثل هذه الاقاويل الرادعة يمكننا ان نتوب ونمحو عناصك هفواتنا . وتحصل لنا بذلك عند الله دالة عظيمة . فلنعدل يأخوتى عن الشرور إلى الصلاح. ولنشكر سيدنا يسوع المسيح محب البشر الذى بواسطة عذاب غير التائبين خلصنا من كسلنا وانهضنا من رقاد الخطية ولكن فلنعلم لاى معنى يعذب الله البعض هٰهنا والبعض هناك ولا يعاقب الجميع هنا . لو كان الامر كذلك لهلكنا باجمعنا . لكوننا مشتبكين فى الخطايا باسرنا . ولو لم يعاقب هنا ايضا لصار الكثيرون كسالى ومتهاونين وكاد الكثيرون يقولون أن الله لايعتنى بأحد . ومع هذا نرى اكثر الأشرار معاقبين ونحن نوجد مجدفين . فلو لم يعاقب إذاً الأشرار فماذا عسانا نقول من الشر . فلهذا يعاقب الله تعالى هنا بعضا دون بعض . مثلا إذا كان احد زانيا او يرتكب خطيةما فيبتليه الله باحد الامراض الشنيعة - فإما أن يقطع فى الخطية واما ان يكف عنها تائبا فيخلص . واما ان يحصل له هناك اخف عذاب فتكون صيرورة عفته من التاديب . واماالبعض الذين لا يعذبهم فإذا راوا امهال الله اياهم فيتخشعون ويتوبون ينجون منعتقين من العذاب هنا وهناك . وان القينا فى الخطية أيضا ونحن لا نتوب فلا يحصل لنا نفع البتة من مسامحة الله بل اننا سوف ننال أشد عذاب وعقوبة لاجل اهمالنا الزائد وعدم اكتراثنا بما نصنعه لدى الله . أعنى متى أخطأنا .

وسترنا الله لئلا ينالنا المكروه الذى لأجله كان يجب علينا ان نكون تحت طائلة الإنتقام والعقاب . وأن وجدنا بعد أناة الله وأحساناته مقيمين على مانحن عليه من الخطية فمن ذا يستطيع أن يخلصنا من العقاب . فهذاهو الذى لم يصبه مرض أو ضرر من الخطية للتأديب ومثله الذى يكون فى كرامة جزيلة وراحة واسعه فهؤلاء عذابهم هناك لاتحد شدته وعظمته . فلهذا متى رأيت أحد يستغنى من مال الظلم والأستكثار فلا تقرظه بالمديح . بل الأولى أن تبكى عليه بعين سخية لأن هذا الغنى يزيده عقابا هناك لأنه قد كنز لذاته غضبا ولعنة من أولئك الذين ظلمهم وغشهم . وتختلف العقوبات أيضا باختلاف الازمنة والأشخاص والرتب والحكماء والجهلة . فإذا كان شخصان شريران مثلا أحدهما غنى والآخر فقير . فالغنى يعاقب أكثر من الفقير . وأنت أيضا إذا قتلت ليس اخاك الجسدى فقط بل الروحى كقايين وليس ذلك بسيف وسنان بل بالجسد والوشاية والخسارة . أترى تستطيع أن تفر من العقاب . حاشا . أما بلغك عن ولدى ذاك الكاهن لماذا عوقبا اليس لأنهما كانا يأكلان خبز التقدمة قبل التضحية والبخور . أنظر أيضا كيف عوقب أبوهما لكونه لم يؤدبهما فماذا عسانا نحن نقول . ترى أما يوجد أحد منا إن كان ابا متهاونا باولاده وأولاده ارديا من عدم التأديب . أما وجد الكثير منهم قد مضوا فجحدوا أماناتهم وغيروها فــلا شك أنهم سيعاقبون هم وأبناؤهم عقابا شديداً ماذا تظن فى حنانيا وسفيرا ألم يحفظا شيئا يسيراً مما نذراه للرب . ولأجــل توبيخ بطرس لهما وقعا مائتين . أفلا نكثر نحن من ذلك . بل وأشد منها أيضاً . ولقد كنت أرغب أن لا يكون لهم دينونة ومجازاة أكثر منكم كلكم وألا يؤمنوا بشيء من هذا لكون كل واحد منا يخاف على نفسه أن لا يعاقب ولكن بما إنى متقدم فى الرعية ومزمع أن أعطى الله جوابا عن جميعها غــير ممكن لى أن أهرب من العقاب . فليس الله محسناً فقط بل ومعاقبا أيضا . صالح بالحقيقة ومحب البشر وعقابه أيضا يصنع أحسانا جميلا للبشر . كالطبيب الماهر فإنه وقتا يخرج المرضى إلى الرياض والهواء وحينا يدخلهم الحمام ويغسلهم وليس بهذا ينفعهم فقط . بل أنه يمنعهم تارة عن أنواع المآكل . أى أن لا يأكلوها ويحرضهم على الصوم خاصة . وتارة يقطع منهم اللحم المائت وطوراً يسقيهم دواء مرا كريها ليخرج الصفراء فهذا مايفعله الأطباء الروحيون فى معالجة خطايا الخطاة . فإذا رأيت احداً ذا فضيلة يستعملها دائما وهو صابر على تجارب كثيرة واحزان متنوعة فطوبه وغائره فى فضائله لكى تحظى هنا بغفران خطاياك جميعها وتقتنى هناك ثوابا جزيلا أى ثواب ما جمعته بالصبر والأحتمال . وأننا قد نرى بعضا يعاقبون هنا

وبعضا هناك وبعضا هنا وهناك . فأى منهم يطوبون فى احدى هذه المراتب الثلاث فبلا شك هم الذين يعانون الشقاء هنا لأجل الرب ويقلعون عن خطاياهم . اما بطريقة النسك والزهد . واما بالصوم والطاعة والفقر الشديد . فانهم يعاقبون هناك من العقاب اخفه . واما ذاك الذى يعمل الخطأ بجد واجتهاد فله هناك عقاب شديد . فلهذا يتقدم البارى تعالى قائلا لنا عن الأشياء التى يزمع ان يعملها لئلا نفعل تلك الأمور الردية التى سبق القول لنا عنها . فلاجل هذا يخيفنا من نار جهنم لئلا نلجها ويرهبنا بالكلام لئلايحزننا بالأفعال فجيد اذاً هو وعدك ايها السيد وصالح هو ملكوتك وخوف جهنم اللذان سوف ننالهما . فالملكوت يحثنا على الصلاح . والعقاب يخيف الخطاة ويصيرهم ابراراً لأن الله لا يخيف الخطاة ليضعهم فى جهنم بل لينجيهم منها . فهو يرهب بالكلام لئلا يبرز العقاب إلى الفعل فإن الذى لاينظران ينهض نفسه وهو لا يؤدب هنا لآجل اثمه ذاك يرغب أن يعيش ههنا فقط لا فى ذاك العالم الآتى فلهذا لا يعمل فضيلة ولا يكف عن آثامه ويكون عذابه لانهاية له وأما ذاك الذى يخاف من العقاب ويرهب الدينونة المفزعة المزمع أن يدان بها فيجعله ذلك الأمر الرهيب يتصنع بكل طريقة ليهرب من الزنا والنجاسة والغش ومن كل نوع من الخطايا حتى يصير وديعاً متعففاً متواضعا ورحوما ومحبوبا من الكل ومن الله نفسه . وهذا لايمكن أن يعمله الكلام مثلما يعمله الخوف أو الطمع فى اكليل ملكوت الله . وانى لاعرف كثيرين منكم يخافون العقاب جداً ولكننى اقول لكم إنى لارتعد جداً من ان أحرم من ملكوت السماء لان ذلك أمر من نار جهنم . وما ذاك إلا لكوننا لانعرف غبطة الخيرات الابدية ولا نظرنا إلى مرارة عدم تلك الصالحات . أما الطوباى بولس فقد نظرها نظراً جليا حين مضى إلى الفردوس وسمع أقوالا لا يباح بوصفها . فهذا وحده يبين لنا ان كل من يسقط من مجد المسيح هو معاقب بالكلية اكثر من جميع الخطاة . وهو الذى اقوله الآن سوف نعلمه متى أصابنا . فعسى ان لا يصيبنا هذا ياابن الله الوحيد الجنس نتضرع إليك ان لا نسمع اننى لا اعرفكم وان لا نعير اننا رأيناه جائعا ولم نطعمه . لانه خير لى ان تدهمنى كل صاعقة مبرقة من أن لا احظى بالنظر إلى وجه المسيح الكلى القداسة . ذاك الذى لما كنا له أعداء صلب لأجلنا . ونحن مع هذا نبغضه ونهرب منه ونحاضر وراء الشيطان عدونا . وربنا يسوع المسيح له المجد قد نصب مصارعاً ليبعدنا من وهدة إبليس ولم يحزن على ذاته بل اسلمها للموت . ونحن حين نراه بهذا المقدار تألم لأجلنا لا نسمح أن نعطيه ولو كسرة يابسة عندما نراه جائعا . قل لى باية الصدقات نعاينه فى تلك الدينونة المرهبة . فلو رآك أحد مثلا شيخاً عاجزاً وهو يمكنه أن

يعيدك شابا قويا وجميلا حسنا ويملكك ملك هذا العالم بأسره وأن تعيش فيه بحيوة عديمة الموت . أترى كنت تؤثر منحة وعطية أكثر من هذه . لا لعمرى . هكذا ربنا يسوع المسيح ليس أنه يعدنا بمثل هذه فقط بل وأكثر منها قد أعد لأولئك الذين يحبون ويعملون بمشيئته . وأن كان غير ممكن لأحد أن ينظر بعينيه الحسيتين إلى تلك الخيرات السماوية . فاصعد بعقلك فقط وتأمل ذاك الذى هـــو غير مدرك فى طغمات الملائكة ورؤساء الملائكة . ثم أحضر عقلك من السموات وانظر إلى ملوك الأرض والمحيطين بهم من حملة السلاح والحراس اللابسين الثياب المذهبة والجنائب المسومة بالسروج واللجم الذهبية والمركبات المرصعة والمنقوشة بالتصاوير من فوق أثوابها كالتنانين والافاعى . وتفهم ذلك باعتناء وحرص . ثم انهض فكرك ايضا وافتكر فى ذلك اليوم المخوف الذى يزمع أن يأتى المسيح فيه بمجد عظيم . ليس بعشرين حامل سلاح او بمائة بل بألوف ألوف من الملائكة وربوات ربوات من رؤساء الملائكة . ويحدث خوف عظيم بهذا المقدار حتى لم يصر مثله البتة منذ استقام العالم ويستتر شعاع الشمس والقمر من بهاء مجده . ويشرع حينئذ فى مجازاة واحد فواحد نظير اعماله . ورب جاهل يقول كلاما سمجا . وهو ان عوقب الغير دعنى اعاقب ايضا . ضع فى عقلك ايها القائل هذه الاقوال وانظـــر كم هم الواقعون فى داء النقرس وهم يتقلبون تحت الأوجاع الشديدة الفادحة . فلو رأيت ربوات المرضى لما وضعوا فى عقولهم بأنهم أشد مرضاً وتألما منهم ولو كان غيرهم موجوعا . لأن الوجع الشديد لايخففه وجع الغير . فلهذا لا ينبغى لنا أن نتكلم عن رجاء فاتر لنتعزى به لأنه متى حصل الألم لا يمكن أن يحصل للنفس عزاء تتعزى به . قل لى أن اراد أحد أن يحضر بين أناس كثيرين من الاكابر وهم لابسون ثيابا فاخرة موشاة وفى وسطهم رجل مهوب فائق الزينة ووجهه يلمع كالشمس وثيابه مزخرفة بالحجارة الكريمة واللؤلؤ الثمين . وكذلك التاج الذى على رأسه وهو يعدك أن تكون معه فى العالم صحبة أكابر ذلك الملك . أفما كنت تفرغ جهدك كله لتحوز تلك الرتبة وتحظى بذلك الوعد الذى ليس هو من جملة هذه الأشياء الأرضية . بل هو تلك الخيرات غير الموصوفة . ترى ماهو هذا . هو محل القوات العلوية ومقر الطوباويين السماويين . وأما ذاك الملك فلا يمكننا أن نصفه بكلام أما ينبغى لنا أن نتعب زمانا يسيراً لئلا نعدم ذواتنا تلك الخيرات الموسومة الأبدية . فليس هو بشىء أن صبرنا على ربوات من الميتات حتى على جهنم نفسها بحيث اننا نراه آتيا بمجده ويعدنا فى مصاف قديسيه . نرى كثيرين من الناس الجهلاء يقولون أننا لا نريد شيئاً آخر سوى اننا لانعاقب فى الجحيم . أما تعلم ياهذا أنه اشد على من كل عقاب عدم الحصول

على الرب يوم مجد مجيء سيدنا يسوع المسيح الورود الثانى. أعنى الانفصال من السيد المسيح.
الذى هو أعظم وأرهب من كل عقوبة فادحة . فعلى هذا أبكى وأنوح لأن ذاك الذى يحيينا
ليس هو إنسانا ساذجا . ما هو إلا ملك عظيم . أترانا ما نستحى من فرط هذه المحبة
وعظمها . فإن قلت وماهى . أجبتك انه فضلنا على جميع الأشياء المبروءة . بماذا . بكونه
اسلم ابنه الوحيد إلى الموت وما شفق عليه لأجل محبته لنا . ونحن مع هذا ما كفانا أننا
لا نحبه ونشكره فقط . بل نهينه بافعالنا التى هى التقلبات الشيطانية وليست بحسب مراد
الله . اليس هو بعدل واستحقاق ان كنا نلج العذاب الدائم . فعلى مثل هذا أنوح نادبا لأنى
اريدك ان لا تعاقب . فكيف لا انتحب وانوح وانا اخاف عليك من أن تصلى سعير النار
والأفضل لى هو ان احزنكم الآن ولا اراكم معاقبين فى ذلك اليوم الذى تكون فيه الدينونة
المريعة . ايها الانسان انك إذا مرض جسدك تتمنى من الجميع ان يعزوك ويشفقوا عليك.
والذين لا يتوجعون لك تذمهم وتصفهم بقلة الشفقة والحنو . فهذه صورة نفسك حين تراها
معاقبة . وتنهانى أنت عن البكاء عليها والتفجع لها لكن لا استطيع ذلك لكونى ابا محباً
لبنيه . ياليته كان ممكنا لكم ان تنظروا اللهيب الكائن داخل مهجتى حتى تروا الألم
الحاصل فى بسببكم . فانى اتحرق من اجلكم ايها الشعب المسيحى تحرق المرأة الثكلى
عندما فقدت ولدها لكونى ارى الكثيرين منكم فى المشاجرات والمنازعات ويذم بعضكم
بعضا . وانتم تعبرون زمانكم كله فى الرذيلة لافى الفضيلة. فإذا كان الموت الجسدى يخيف
الناس الاشرار لما يساقون كهذا لأن يموتوا شنقا او قتلا فتظلم وجوههم وتضمحل سحنهم
وتزهق نفوسهم ولقد سمعت مراراً كثيرة من اولئك الذين نجوا من ذلك الموت لانهم لم
يكونوا يبصرون الناس كمثل اناس لشدة اضطراب نفوسهم وتشويش تصور لانهم خرجوا
عن عقولهم . فكيف إذاً يكون صنيعنا متى حضر الموت الابدى وازمع كل منا ان يرى
الارض مرتجة والسماء كدرج ملتف ونشاهد السيد المسيح آتيا بمجد كثير وهو مهوب جداً
فأى جواب يكون حينئذ للخاطىء . وخاصة إذا رأت نفسه اناسا معاقبين وهالكين
ونفوسهم متخلعة من الخوف والحزن . فإن سقطنا نحن فى عقوبات ومهالك اشد
من هذه فماذا يكون صنيعنا . ولكن صدقونى ياإخوة أنه لايمكن أن أظهر لكم شدة
هذا الالم بالكلام . ولربما يقول أحدكم حقاً ماتقوله يامعلم . ولكن الله متحنن ومحب
للبشر . أجبتك إذاً باطل هو كلام الله وكتبه . حاشا . فيقول بل كتبه لأجل التخويف .
هى لكى نتعفف فقط . وإذا لم نتعفف بل استقمنا على ارتكاب المآثم أترى نستطيع

الفرار من العقاب . كلا فعلى هذا لا يكون إذاً للصالحين مجازاة من الله عوض أتعابهم فيقول نعم وهذا هو الواجب . لأن ليس ما كتب عن العقاب لأجل التخويف فقط . ألعل ما سمعته عن الطوفان وعن سدوم وعمورة كتب لأجل التخويف أليس أمرهم قد ذاع فى كل العالم . وما تقولونه أنتم الآن كانوا هم أيضا يقولونه مراراً كثيرة . ونوح الصديق لما كان يعمل فى السفينة فى مدة تلك المائة سنة . وكان يهتف إليهم قائلا أن يتوبوا . وما أحد منهم يصدقه . وكان يقول لهم أيضا ألا ترون الوحوش الضارية كيف هى مؤتلفة مع الانيسة وهم يعملون بمقتضى مراد الله . أعنى الأسد مع العجـــل . والدب مع الغنم . والذئب مع مع الخروف . والحية مع الحمامه . ونوح الباركان يطرق عند المساء بالناقوس فتجتمع الوحوش بأسرها إلى السفينة وتنتظرة إلى أن يدخلها إلى السفينة . وعلى هذا النسق أيضا نحن نقرع خشبة الناقوس . ونجتمع فى السفينة الجديدة . أعنى بيعة السيد المسيح . وكما أن أولئك الذين لم يدخلوا السفينة هلكوا غرقا . كذلك أولئك الذين لا يدخلون إلى الكنيسة سوف يصيبهم مثلهم . فلهذا هؤلاء وأولئك الذين قد غرقوا فى مياه الطوفان لما استمر المطر على الأرض أربعين نهاراً وأربعين ليلة رأوا الوحوش والدبابات لم تغرق لدخولها السفينة ورأوا انفسهم قد اشرفوا على الغرق عند ذلك صدقوا اضطراراً . فلنجتهد نحن يا اخوتى ان نهرب من هذه التجربة ونجيز باقى حياتنا ههنا بصحة وسلامة لنحظى هناك بالخيرات الراهنة بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذى له القوة والمجـــد من الآن وإلى أوان وإلى دهر الداهرين آمين .

المقالة التاسعة

(فى الأعتراف والتوبة)

إنى (لأسألكم) أيها الاخوة هل مضى أحدكم إلى فلسطين . أعنى تخوم أورشليم ونواحى الاردن . فعلى حسب ظنى أنكم ذهبتم إلى هناك فتقلولوا لنا ما الذى عاينتموه فى تلك الاماكن . فتجيبونى أننا رأينا هناك أماكن كثيرة مثمرة . فأقول لكم أنها فى القديم كانت صالحة ، وأما الآن فليست هى على ما كانت عليه أولا . بل استحالت من غضب الله . لأن هذا المكان الكثير الثمار وتلك المدن التى هناك كانت تفوق جميع البلاد والمدن التى فى الدنيا

بهاء ورونقاً وكانت تضاهى الفردوس الذى غرسه الله حسنا وجمالا . وأما الآن فهى قفر وأكثر خرابا من كل القفار واشقاها وإلى يومنا هذا أثارات ذلك باقية تشهد تذكرة لرجز الله قل لى يامن لاتصدق بحقيقة عقاب الاشرار فى جهنم النـــار وثواب الصالحين ومكافأة الابرار والتائبين . أترى هذه الأمور التى قلناها قرع أصوات لاطائل تحتها . تظهر لكل أحد أنها ثقيلة صعبة . كلا ليست هى ثقيلة . لكن الأقوال التى ينكرون بها العذاب ويجحدون وجود نار الجحيم هى الثقيلة . فكلامك يلزمنى أيها الأخ أن أتحدث عن هذه التى لاتصدقها . وهو قولك أن ليس عذاب بل إنما هو خبر لأجل التخويف فقط . فلو كنت تؤمن بأقوال المسيح لما احضرت لك من الأشياء شيئاً مصدقا حقيقيا . لأن الله لأجل خطية واحدة أرسل على سدوم وعمورة ذلك الغضب العظيم وأحرقهم بنار وكبريت ولم يقبل فيهم تضرع ابراهيم ولوط البارين . فماذا عساه يحل بنا وكيف نستطيع أن نهرب من رجز الله العتيد ومن لهيب الجحيم لأجل كثرة مانصنعه من الأثم القبيح . ألعله يشفق ويحن علينا . كلا فهذا الرجاء هزء وكاذب وضلالة شيطانية وشىء لاحقيقة له . فإن أردت أن تعلم من المؤمنين الذين كانوا يحفظون وصايا الله فتراهم معاقبين لكونهم لم يقتنوا عيشة صالحه . اسمع الطوباوى بولس قائلا . كما زنى أناس ومات فى يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفا من اليهود لأنهم زنوا مع بنات أهل مدين . فإذا كانت خطية الزنى وحدها فعلت مثل هذا القتل فما الذى يصير بنا نحن الذين نرتكب أنواعا كثيرة من الخطايا ليس الزنى والطماثة فقط . بل أيضا القتل والسرقة وغير هذه من الشرور : وأن رأينا مع هذا أننا لاندان ولانعاقب فى هذه الدنيا لانعجب لأن أولئك لم يعاقبوا ههنا بل هناك . إلا أنهم لم يعرفوا أن العقاب موجود وجهنم معدة لمن يخطىء ، وخاصة أنهم كانوا من الأمم الغريبة وعبدة الأوثان . وأما أنت يا أيها المسيحى فكل ما ترتكبه من المعصية وأن لم تعاقب عليه هنا لابد أن تعاقب عليه هناك ضرورة لكونك مزمعا أن توفى كل ما يجب عليك . لأننا إذا أخطأنا كالسدوميين يحيق بنا عقاب أشد منهم . ولِمَ ؟ لأننا أخذنا نعمة أكثر منهم ، فإذا لو أخطأنا وبقينا بلا تأديب أعنى ما عاقبنا الله تعالى . ميز هذه ظاهراً . فلاجل هذا يضع الله العذاب علينا . ليس أنه يطلب منا دينونة الخطايا السالفة فقط بل ليقومنا لأجل الخطايا المزمعة أيضا . وإن اردت ان تتبين حقيقة هذا اسمع مايقوله الله لموسى : « دعنى اغضب حتى ابيد جنس اليهود » فقوله له دعنى ليس ان موسى كان يمنع الله ، لكن أعطاه سببا ليتضرع إليه فى أمر اليهود . ومثل ذلك قضية يونان النبى لأن الكتاب الإلهى يقول ، وانتهى قول الرب إلى

يونان النبى آمراً . قم فامض إلى نينوى المدينة العظمى وناد فى وسطها قائلا أن نينوى بعد ثلاثة أيام تغور . فلما سمع يونان ذلك انحدر إلى مدينة يافا لـكى يهرب فى البحر من وجه الرب ويمضى إلى ترسيس . قل لى أيها الإنسان إلى أين تهرب من وجه إلهك . ولـكن اصبر قليلا لتعلم أنه لا يمكنك الهرب ولا من يد العبد أعنى البحر . ولما دخل يونان السفينة هاجت عليهم حينئذ ريح عاصفة حتى أنهم طرحوا أمتعتهم بأسرها فى اليم . ومع هذا لم تخف السفينة لكون الحمل الثقيل باقيا داخلها أعنى به جثمان النبى الثقيل بالخطية وهو معلوم أن لاشىء أثقل من الجريرة والمعصية . فهلم اذاً لنعاين مخاصمة النوتية مع النبى لأنه كان يقول أن النوتية القوا قرعة فيما بينهم ووقعت القرعة على يونان المذنب العاصى . ولـكن لم يريدوا أن يطرحوه ذلك الوقت فى البحر . تأمل مقدار هذه العناية الآلهية التى صيرت هذه الأمور كلها لتأديب النبى لـيكون محباً للبشر ووديعاً . فكان البارى تعالى يقول له ماثل هؤلاء النوتيه الناس السذج لكونهم لم يحتقروا نفساً واحدة وانت لم تشفق على مدينة تامة مع ربوات من الناس هذا مقدارهم لئلا يهلكوا بسببك . والنوتية وجدوا المذنب ولم يشاءوا أن يقاصوه . وأنت مع أنه لم يكن لك على أهل نينوى ولا حجة واحدة تركتهم يهلكون وهكذا نراه كثيراً فى الناس انهم يتغافلون عن خطاياهم . وهذا دأب الخطية أن تجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى . أليست هذه هى التى جلبت الشرور كلها إلى العالم حتى أن المصائب نفسها لا تأتى علينا والأسواء الكثيرة لا تدهمنا إلا منها . فإن حدثت شرور أو موت أو مضادة بين الأمم فالخطيئة سببها الأول ومنشأها الأصلى ليس إلا . حتى إذا كان المتسلط علينا والحاكم فينا هو إبراهيم أو موسى أو داود الوديع أو سليمان الكلى الحكمة أو أخطأ العالم وأشره فنحن نجعل له أسباباً مضادة ونصير سبباً لجذب الشرور إلينا . لأن الله لا يعطى شعبه إلا بحسب نيته فيقيم عليه مغتصبين ليحكموا بالجور ويعذبوه . لأنه بحسب سيرتنا يكون المتقدمون علينا لاغير ، ولو كان المتسلط علينا صديقاً للغاية ومقوم كل الفضيلة كموسى لا يمكنه أن يستر كثرة شرورنا . وإن التمستم منى أن أقنعكم أن خطية الواحد فى أكثر الأوقات تفسد دالة كثيرين من الصالحين واولى الفضيلة انصتوا إلى ما أقوله . أن يشوع بن نون مضى مرة إلى مدينة أريحا ليغزوها محارباً ولشدة ما ضيق عليها من الحرب التى صنعها أوشكت أسوار المدينة أن تقوض فأشار إلى عسكره قائلا يا أيها الغزاة والقوم المحاربون أن هذه المدينة هى نذر لرب الصباؤوت هى وجميع مافيها فاحذروا أن تختلسوا شيئاً من هـذه الأشياء المنذورة فإن الله يمتنا وبعدئذ اندكت الأسوار وسقطت وصارت غنائم

المدينة بأسرها فى ايدى المحاربين . لكن الشعب كله كان حافظاً وصية النبى ما عدا واحد فإن معصيته اشعلت غضب الله على الجمع كله . لأنه يقول أن بنى إسرائيل أخطأوا خطية عظيمة وواحد هو الذى فعلها اسمه عخان وذلك أن يشوع بن نون كان قد أرسل من أريحا رجالا أبطالا نحو ثلاثة آلاف رجل إلى مدينة يقال لها عاى فقتل منهم أهل تلك المدينة ستة وثلاثون رجلا . انظرت الآن كيف أن خطية واحدة سببت ضربة لاعزائها . فواحد اخطأ فسقط الموت والخوف على الجميع . فما هذا أيها السيد المسيح الكلى الصلاح لأنك وحدك عادل وحكمك هو بالعدل ، ولقد قلت أن كل واحد يموت بخطيته ، ولقد قلت أن كل واحد يموت بخطيته . فكأن الرب يرد لنا الجواب قائلا أن الخطية هى كالجرب فلهذا يعم عذابها الجميع . أشاهدتم كيف أن خطية الواحد سبب العقاب لكل الشعب . فاسمعوا الآن كيف مات هذا الشرير الشنيع عخان فان يشوع بن نون أحضر عخان هذا وكل بنيه وبناته وبقره وغنمه وحميره وخيمته وكل ما كان ورجمهم بنو اسرائيل جميعــاً فى وادى عخان بالحجارة . فلهذا لانظن متوهمين أن الله يطيل أناته إذا شتم منا بل أننا نحرق معاقبين لأجل هــذا . لأن الذى يضرب على خده الأيمن ويحول الأيسر لايضرب أيضاً . فذاك أفضل له من أن يضرب ضاربه ربوات من الجلدات . أصنع انت هكذا إذا شتمك أحد فاصبر وصل لاجله فتكون قد جلدته أشد الجلد . وأما إذا كان لنا فضائل قليلة وخطايا كثيرة ونحن مع هــذا مترفهون متنعمون ورابحون فى كل حال ولا يصيبنا شىء من المكروه فلاشك أننا سنمضى إلى هناك عراة مقفرين لكوننا قــد نلنا هنا المكافأة عن خيراتنا مثل ذاك الغنى الذى كان يعذب فى سعير نار الجحيم فلهذا لايحصل العقاب فى هذا العالم من التعب والشقاء بل من الخطية فقط . ولقد كان يجب علينا أن نطلب التأديب وحكم الله إذا لم يعاقبنا الله هنا ونتمم القوانين التى يحكم بها علينا المعلم الروحى حينما نعترف بخطايانا فيرتاح العقل إذا طلب الحكيم من ذاته لكى يتأدب بصرامة . ولنتأمل أولئك الذين تموت أولادهم كيف ينوحون بلوعة وتفجع لتحل لهم التعزية اليسيرة من هذا . أى من ذلك العذاب الذى يفعلونه بأنفسهم لأجل الذى يحبونه . فكل من يحب المسيح كما يجب يلزمه أن يحتمل الشدائد والأتعاب من أجله ويكون بها راضياً . وأما ذاك الذى يغيظه بالأفعال السيئة غير تائب عنها بل يمكث فى الشرور دائماً فسوف يناله العقاب أشده ومن العذاب أمره . لأنه لا أب ولا أم ولا صديق ولا واحد من العالم أحبنا مثل محبة البارى تعالى خالقنا لكونه أسلم أبنه الوحيد للموت عنا ليخلصنا . ولا تقل لى أنى حزين وكثير

الأوجاع لسبب الشدائد التى تصيبنا فى هـــذه الحيوة المتعبة بل تأمل واعلم مقدار ذنبك الذى ترتكبه كل يوم وأفحص ضميرك بالتدقيق والإنتباه عن الجرائر التى تجنيها إليه فى يوم واحد فقط . وهكذا نعلم مقدار ذنوبنا وخطايانا الكثيرة ولأجل هذه الخطايا العظيمة التى نرتكبها أمامه تداهمنا هذه الضربات المؤلمة . وسببه أننا نتغافل عن الخطايا الطفيفة التى نفعلها ونستخف بها فلذلك تفاجئنا الخسائر بغتة ويرد الطاعون فى غير وقته وأوانه . لأننا من افراط تعظمنا وتشامخنا نخال أننا قـــد أدركنا السموات وأمنا من ورود كأس الحمام فنخطف ما لغيرنا ونختلسه ونتوق إلى الاستكثار ونحن لانتأدب من أقوال الله لنخشاه ولا نتذكر ذلك العقاب العتيد لتكون عندنا العفة أو نهمل الهموم الأرضية ولا أحد منا يلتفت بنظره إلى السماء المعدة لنا لنرثها . ياليت شعرى كم هـــو الخوف المعد لنا من الأرواح الـــكائنة فى الهواء . ونحن مـــع ذلك لا نرتعد خوفاً بل دائمـــاً نعكس نظرنا ونوجـــهه إلى أسفل فى الأرض كالخنـــازير المتمرغة فى الحمـــأة . والبعض ينجسون ذواتهم ويدنسونها أكثر من الخنازير ولا يعلمون ذلك ولقد كان الأفضل والأولى أن يتنجس الإنسان برجس حمأة منتنة من أن يتدنس بدرن الخطايا . لأن الذى يتنجس بحمأة يغتسل بعد ساعة فيصير كما كان أولا . وأما ذاك الذى يقع فى وهدة الرذيلة فيقع فى دنس مفرط ولا يمكنه رحض وضر آثامه بالماء . بل بالدموع الحارة والنوح الكثير . فكما أن أحد الملوك المتسلطين لابس التاج الملوكى وهو مدجج بسلاح مرهف ، ومع هذا لا يوجد من تسمع منه بل الجميع يشتمونه معيرين ولا تنفعه الملابس شيئاً البتة . هكذا المسيحى اللابس المعمودية والمتمنطق بالإيمان لاينتفع بهما شيئاً إذا كانت آلام الخطية قدفعلت فيه وأضنكته وهو يعيش عيشة مفسودة وليس أن يكون مكرماً من هذا فقط ، بل الأولى أن يكون هزءاً للجميع . فلا نعيبن إذاً حياتنا وندنس جسدنا بالزنا والطماثة الذى هو هيكل الله كما يقول الرسول الإلهى . فكيف إذاً يمكنك الدخول إلى بيعة الله بعد أن تكلمت مع الزناة وحادثتهم ؟ كيف تجترىء أن ترفع يديك نحو السماء متوسلا إلى الله بعد أن تشبثت بها مع الزانية والزانى ؟ كيف تصلى بلسانك الذى نطقت به الكلام القبيح السمج ؟ بأية الحدقتين تنظر الذين يحبونك وأنت مرتكب كل فاحشة هـــذا عظم مقدارها . ومالى أقول إنك أن تنظر أحباءك أعنى الأصدقاء والمعلمين الروحيين فها ضميرك يوبخك ولو لم ينظرك أحد من الناس وأنت نفسك تمقت جسدك وتشمئز منه ولم يكن

الأمر كذلك لما سارع الزناة إلى الحمامات ليستحموا وما ذاك إلا لأنهم يحتسبون ذواتهم أنجس من كل حمأة وأعظم نتنا . فأية عاقبة حميدة تترجى من الله وأنت هكذا خاطىء وقد دنست نفسك وصيرت جسدك كله نجساً . أبحث عن مكان منق تنقية بليغة يستطيع أن يزيل عنك درن أوساخك . وأن لم نهتم هكذا فلا يمكننا أن نمحو عنا جزءاً يسيراً من الخطيه ولو أغتسلنا بأنهار الدنيا بأسرها ونزحنا ينابيعها . فهـذا الأمر نشبه عبـداً قذراً يريدأن يضع بين أثواب سيده ثيابه الوسخة المفعمة من الهوام أترى يقبل سيده هكذا ، كلا . أو أن كنت تضع فى إناء ذهب طيباً وآخر يضع فيه نجاسة . أفما كنت تشتمه وتعاقبه . فماذا نقول عن أنفسنا التى نحسب أنها أحقر من هذه جميعها ونظنها أدناها التى قد أنسكب عليها الميرون الإلهى وأنصبغت بالمعمودية المقدسة وأبلغ من هـذا أنها تناولت الأسرار الرهيبة . ونحن نخترع لهذه النفس المقدسة ألحاناً شيطانية ومسموعات مملوءة زنا من المحال . قل لى ياهذا كيف يحتمل الله هذه الشرور كلها . فكما أن الذين يمارسون السكر هم كثيفو العقل ومصرعون وإذا مشوا يعثرون ههنا وهناك ولو وجد فى طريقهم بئراً أو هوة لسقطوا فيها بدون أن يشعروا . هكذا الذين يستعملون الخطية فأنهم يستعبدون الشهوة آلامهم كالسكر الردى ولا يعقلون ماذا يصنعون ولا يستحيون من الناس أصلا ولا يفكرون بذلك العقاب المستأنف لكون الخطية كفيفة لا تبصر وتولد أوجاع مرة للنفس عند أفتعالها . لأنه بعد خمود نار لذة الخطية وإنقضائها تظهر حمة منخز التوبة الشديد المرارة كسيف ذى حدين فى قلب الخاطىء وينتصب ضميرنا محاجاً صعباً هذا هو ديدن الخطاة وعادتهم خاصة الزناة واللصوص فإنهم يخافون الجميع ويرهبونهم حتى من ظلهم . وأن رأوا أناساً يتكلمون عن أمور أخرى يتوهمون أن الكلام عليهم هذا مقدار خوف الخطية الشريرة لأن الخطاة يسلمون أنفسهم للقضاء من دون أن يوبخهم أحد والخطية تجعل الخاطىء مجرماً مداناً كما أن العدل يجعل الصديق عديم الخوف مجاهراً . لأن الكتاب يقول أن المنافق يهرب من حيث لا يطرده أحد لكون مخاصمته داخلة أى تبكيت ضميره له فتراه يهرب من مكان إلى آخر وليس من يطرده وأما الصديق فليس كذلك بل يكون كالأسد المستأمن مطمئناً بنفسه ومعتزاً بذاته كإيليا النبى فإنه لما رأى أخاب الملك مقبلا نحوه وهو يقول لماذا أنت تفسد الشعب الإسرائيلى أجابه النبى الغيور قائلا لست أنا أفسد الشعب وأضله بل أنت وكل بيت أبيك . فبالحقيقة أن الصديق كالأسد المطمئن . أنظر مقاومة النبى للملك مع أن الملك بسلاحه وجنوده كإيليا بفروته الرثة الممزقة ولكنها أفخر من البرفير الملوكى لأن برفير الملك سبب جوعاً وموتاً فى العالم وأما وشاح إيليا الخلق فنع الجوع والموت وحل جميع

الشرور . هذا هو الوشاح الذى به شق نهر الأردن وجاز فيه هذا الوشاح الذى صير اليشع إيليا الثانى . أنظر كيف ترفع الفضيلة قدر صاحبها ، والرذيلة بعكس ذلك لأن الذين يتدنسون بالزنى يحسبون أنفسهم نجسة وهم كذلك . ولكن إذا تابوا وتطهروا أمدحهم واستقبلهم بسرور . وإن لم يفعلوا ذلك أذمهم وأوبخهم . إلا أن من يسقط متمرغا فى الحمأة بعد تنقيته بالإعتراف يشبه من يهدم ما بناه ويبنيه أيضا ثم يهدمه . فأى كسب يحصل له من هذا سوى الأتعاب الكثيرة وشدة العذاب فما الفائدة فى أننا نخطىء ونتوب كل يوم لأن ليس شيء أردأ وأشر للإنسان من أن لا يخاف الله وما من شيء مثله يسبب له العذاب الأليم فالكتاب الإلهى يقول رأس الحكمة مخافة الله فمتى أنتفى الخوف من قلب الإنسان ثبت له كل عمــــل يريده من الرذائل . وكذلك لاشيء يخلص الإنسان مثل تصوره البارى تعالى فى عقله دائماً . فالكتاب الإلهى يقول أبصرت الرب أمامى فى كل حين أنه عن يمينى كيلا أتزعزع ، لأننا إذا رأينا إنساناً نخجل أن نفعل الخطية أمامه . فكم بالحرى متى تخشعنا من الله ونصبناه تجاه أعيننا . صالح جداً للإنسان أن لايخطىء أصلا . وأن أخطأ فليتب سريعاً ويطلب من الله غفران الخطايا . وإن فرح الإنسان عند ارتكابه المعاصى فذاك الجهل الصريح وعدم الإنسانية . فالذى يسقط فى خطية من غير تعمد ثم يكرهها كقول داود النبى أبغضت الإثم ورذلته وناموسك أحببته ذاك سريع التوبة . وأما الذى يمدح الخطية عند فعلها فذاك يطرد عنه وسائط الخلاص حتى إذا رام التوبة لايمكنه ذلك البتة . لأن الذين يعملون الرذيلة يعاقبون جداً . وأشد منهم أولئك الذين يمدحونها وكذلك الذين يمدحون الناس الصالحين ويطوبونهم متعجبين فإنهم يشاركونهم فى أكاليلهم . إذا لم تحس بالوجع والحزن الحاصلين من خطاياك فتنهد وابك لذلك لكون هذا لم ينتج من عدم الحزن على الخطية . بل أن نفسك تميل إلى الشر وهى عديمة الحس . فإذا كان الإنسان لايتوجع على خطايا غيره يكون مستوجباً المذمة . فكم بالحرى الذى لايبكى نائحاً على خطاياه بل هو عـــديم التوجيع عليها ومتكاسل أتراه يكون مستحقاً للخلاص ؟ لا لعمرى . فإذا كان بولس ذاك الرسول الإلهى لم يهتم بالأشياء الموافقة له بل لما يوافق الغير . فأى عقاب لانستحق نحن الذين لانشاء أن نبتعد من الضرر الحاصل لنا . أما الطيور فقد أعطيت أجنحة لتفر من فخاخ القانصين وأما البشر فقد أعطوا من الله تمييزاً لكى يهربوا من احبولة الخطية التى ينصبها لهم الشياطين ولعلك تقول لى أنك لاتعرف خطاياك

فكيف أصدقك وأنت تفحص عن خطايا الغير وتكتبها وتحكم عليهم بالعقاب الأبدى وتبتعد عنهم وتصير لهم دياناً مخيفاً . فأى جواب لك عن خطئك هذا . وتقول لى أنك لاتدرى ماهذه الأمور الصائرة . تزنى وتدين ذاك إذا زنى وتوجب عليه الإنتقام وتؤمل لذاتك الغفران . قل لى . إن كنت تحكم بالعقاب على غيرك إذا زنى . وإن كنت تحكم على غيرك بالعقاب والتأديب فكيف تؤمل الهرب منه . أم كيف تستطيع أن ترد جواباً وأنت متورط بمثل هذه الخطايا بعينها . فمن حكمك ودينونتك على الغير سوف يدينك الله . اسمع الرسول الإلهى قائلا . أيها الإنسان الذى تدين غيرك صانع الردى اتظن أنك تهرب من دينونة الله وأنت فاعل هكذا . فإن كنت لاتهرب من دينونتك فكيف تريد أن تهرب من دينونة الله . فلا بد من هذا . وأن قلت أعرف بتحقيق أنى مستحق العذاب . أجبتك . لكنك تحتقر طول أناة الله لظنك به أنه لايسلك بسرعة . ولكن ستخاف منه مرتجفاً . وسلمنا أنك بار لكن تحسب أنك لاتدان بل بالأكثر متى أهملت أشياء غير متقومة . وكذلك الذى يفعل الخطايا الكبائر مستتراً وهو لايشكك أحداً فإن عذابه يكون خفيفاً . ومثله الإنسان الحقير والخمول الفكر بين الناس لكون ضرره الحاصل غير كلى . وأما الذى يكون عظيما ذا سمعة واشتهار فى الفضيلة والأدب وهو فى مرتبة التشامخ والعظمة . فسقوط هذا يكون عظيما والكل يستغربونه متى عثر فى إحــدى الخطايا ويكون ضرره عاماً ويصير أكثر الناس كسالى مضطجعين . فلا تخف إذاً من ظلم الحاكم بل خف الضرر المسبب عن الخطية لانه لايمكن لأحد الناس أن يضرك مالم تضر أنت ذاتك . وإن كنت غير مذنب فالله ينقذك وينجيك ولووقعت بين ملاعب الأسنة وقطع البواتر . وإن كنت مخطئاً لله تسقط ولو حصلت فى الفردوس . أنظر كيف كان آدم فى الفردوس . أنظر كيف كان آدم . أو ماذا أضرت المزبلة بأيوب : ذاك لم يكن من يضطهده . فعثر وسقط . وهذا كان الشيطان يمتحنه ويبتليه ففاز مكللا . أما أعدمه مقتنياته وارزاقه . ولكن حسن عبادته لله لم يقدر أن يختلسها . أما الجعه بقتل أولاده كلهم . وأما ايمانه فما استطاع أن يقلقه . أما مزق جسده بنخز الدود ولكن الكنز المخفى فى نفسه لم يجده أتضرع إليكم أن تحافظوا على قولى هذا وشريعتى لاضبط أقدامكم الفاضلة . ليس بيدى بل بعقلى وأردف العبرات قائلا لكم بتضرع أن تحفظوا شريعتى هـــذه ومتى حفظتموها لايقدر أحد أن يؤذيكم وانظروا داود النبى والملك كيف أنه فى حال الحرب ألقى ساقطاً وحين نهوضه ظهر ظافراً . انظروا خطية الفسق والقتل التى فعلها كيف غفرت عند توبته . انظر إليه ياهذا . كيف

أنه بعدما حصل فى نعمة الروح القدس وحاز رتبة الدالة لدى الله بكثرة تقويماته ووفور غلبته فى الحروب كيف صرخ قائلا بعد هذه كلها . ارحمنى ياالله كعظيم رحمتك . فسله ياهذا قائلا . لم قلت عظيم رحمتك . وكم مقداره هذا العظم . فتراه يجيبك قائلا . العظم أعرفه لكن لاأستطيع أن اعبر عن كمية مقداره . ولكنى ألقيت ذاتى فى لجة محبة سيدى البشرية . فسله ثانية وما الذى تريده منه الآن وقد سمعت ناثان النبى يقول لك أن الرب غفر لك خطاياك . فما عساك تلتمس منه أكثر من هذا . قل لى فيجيبك قائلا . إنى لاأطلب منه هذا فقط بل بهجتى الأولى وحسن الدالة . والمجاهرة التى كانت لى عنده اياهـا ابتغى واطلب . اغسلنى كثيراً من إثمى ومن خطيتى طهرنى . أرأيت ماذا يطلب . فانه يطلب طهارة أوفر ونقاوة أعظم . فسله وما الذى تعطيه يا داود المطلوب عن هذا المطلوب فيجيبك اسألنى ماذا أعطى انى أنا عارف بآثامى فسله أيضاً أهذا تعطى . ومن من الناس لا يعرف خطاياه فيردف القول أيضاً إنى أقول الحق لكون الكثيرين من الذين يعملون المآثم يفتخرون ويغيظون أخوتهم ويحزنونهم ولا ينتحبون وينوحون ولكن أنا عارف بآثامى وخطاياى أمامى فى كل حين . فيالها فى نفس شريفة فائقة التواضع والجودة لكونها لم تنس ذكر الخطية بل بعد أن نال المسامحة من الله على يد ناثان النبى رسم قضيته كصورة داخل قلبه ليفطن بها دائماً . فانظر أنت ذاتك أيضاً فانك متى تذكرت خطيتك فالله لا يذكرها . وإن نسيتها فالله لا ينساها . فاحرص على أن تتذكر كل شيء ردىء عملته لكى ينساه الله . فإن صنعت شيئاً صالحاً فانسه لكيما يعلنه سيدك المسيح ظاهراً بمديح . لأنك لا تستطيع أن تظهر أعمالك الصالحة كما يظهرها لك سيدك فان قلت ولم ؟ أجبتك : اسمع ترى أن أعطيت فقيراً صدقة وسلوت ذلك لا يمكنك أن تقول الا أنى رأيت فقيراً جائعاً فأطعمته . وأما السيد المسيح فلا يخبر عن صدقتك هكذا . بل يقول رأيتمونى جائعاً فاطعمتمونى وعطشاناً فسقيتمونى . واحرص متى أخطأت أن تسمع توبيخك من الغير . بل قبل أن توبخ ويشتكى عليك وبخ أنت نفسك واندم على خطاياك بطريقة الاعتراف لأنك إذا وبخت من الغير لا يكون التهذيب قد صدر منك بل تكون المنة لذاك الذى بكتك . وهكذا فعل بطرس بعد أن جحد المسيح ندم سريعاً وبكى بكاء مراً . وبهذه الطريقة حسم داء الانكار وعظم قدره حتى أنه صار رأساً للرسل ودفع اليه من المسيح سلطان حل خطايا البشر وربطها كباقى الرسل . وهذه هى السلطة التى تسلمها رؤساء الكهنة أن يربطوا ويحلوا جميع خطايا الناس لكون رئيس الكهنة هو المتقدم وتقدمته

أفضل من تقدمة الملك . لأن أوامر النواميس والشرائع الالهية تسلمت بايديهم . وأن الملك والعامة ينقادون اليهم حتى إذا احتاج أن يكون فعلا ما محموداً يحضر الملك ذاته عند رئيس الكهنة . ولم يرسل الله ملائكته من السموات لتقويم خطايا البشر . بل أقام معلمين من الطبيعة الانسانية لئلا تمنع الملائكة الناس عن الخطايا بزجر مؤلم وتقريع شديد . فلاجل هذا أقام عليهم معلمين وكهنة مائتين وهم تحت ضعف الطبيعة كالباقين وأوضحت لكم مثل هذا الكلام لئلا تقولوا لى أنك أنت نقى من الخطايا . ولهذا لا تشفق على الخاطئين . بل أنك تنتهرهم بسلطة مستصعبة وتحملهم أثقال القوانين الموقرة . فكيف تقولون هذا وأنا قبلكم عارف بحزن التائبين وتأسفهم ومضغوط من الخطايا مثلكم . ألسنا جميعاً مثقلين تحت سلطة الردع وإمرة القوانين ولا يستطيع أحد منا أن يفتخر بأن له قلبا نقيا وقولى لكم عن الخطايا الغريبة ليس هو عدم انسانية منى . بل شفقة عليكم لأنى أحرص مجتهداً كما ترون لأجل محبتكم . ولهذا أكثر لكم من التوبيخ والملامة . ليس كما يفعل أطباء الأجساد لأنهم لما يعالجونها يوصلون اليها الألم والتوجع فهى وحدها تحس بالوجع . وأما الطبيب الروحى الذى يعانى شفاء أنفس الناس فلخوفه ألا يسقط بذار تعليمه فى أرض صالحة بل بين أشواك وقرطب فلا يأتى بالثمر الروحى يحصل له الوجع والحزن الشديد . وان أردتم أن تعرفوا مقدار التقويم الذى يحصل لمن يتذكر خطاياه دائما أنظروا إلى ما يعمله الأغنياء لما يصرفون أموالهم فى أشغالهم ولوازمهم كيف أنهم لما ينتهون لمصرفهم يدعون العبد الموكل على ذلك ويطلبون منه حسابا عما صرفه بالأمس ويدققون عليه قائلين له ما الذى صرفنا باطلا . وما الذى نفذناه فى أغراضنا الضرورية وما الذى تبقى لنا اليوم . هكذا ينبغى لنا أن نفعل ونحاسب أعمالنا ونفحص عقودنا كالعبد عن الأقوال والأفعال والأفكار وننظر ما هو المحتاج اليه . وما الذى كان مضراً لنا دائما . وما هى الأقوال التى تكلمناها ردية باطلا . أشتمنا أحداً أم دناه . أم تكلمنا كلاما سمجا قبيحا . أم باطلا . أنظرنا حسنا غريبا . أم عثرنا باليدين . أجدفنا باللسان . أم سبينا من المجد الباطل والحسد والضحك غير اللائق . ثم ننتزح عن هذه الشرور التى ارتكبناها وأصابنا منها الخطأ العظيم . وعوض ما صرفناه بالباطل نجمع الجيد ونكنزه . أعنى عوض الأقوال الردية المضرة التى تكلمناها نعمل رحمة وصوما وصلوة لأننا إذا لم نكنز لذواتنا شيئا صالحا فسنزمع أن نحصل فى فقر روحى عظيم ونرسل إلى عذاب نار أبدية لا تضمحل . فكم هو الأجمل بنا والاليق أن نقتنى تخشعا

وندبا زمنيا فى هذا العالم اليسير والزمان الوقتى ونأخذ عوضه خيرات أبدية ومسرة لا تتناهى لأننا ان لم نجمع ههنا ما ذكرناه سنعذب عذابا مؤبداً متى مضينا إلى هناك . فاذا كان بولس ذاك الرسول العظيم الذى اخترق الآفاق وطاف المسكونة بأسرها منذراً بانجيل المسيح ومعلما طريق الخلاص حتى أنه صعد إلى الفردوس وسمع أسراراً عظيمة مرهبة لم يسمعها رسول قبله ولا بعده إلى يومنا هذا نص قائلا . إنى أذلل جسدى وأعبده حتى إذا بشرت آخرين لا أوجد أنا غير مجرب . فان كانت أفعال مثل هذا الرسول متعبة له هكذا . فأى جواب نرد نحن الموقرين بثقل الخطايا . فلذلك نحن ملزومون دائما أن ننتصب ساهرين لأن حرب جسدنا هذا ليس له هدوء ولا قرار أبدا . فلنهتمن إذا سرمدا لكون الزمان غير مضمون لمقاومة محاربنا واطراحه ولالهنا المجد والعزة إلى الأبد آمين .

المقالة العاشرة

(فى الحسد والبغض)

لا توجد خطية تفرق الإنسان من الله والناس مثل خطية الحسد . لأن هذا المرض هو أشد خبثاً من محبة الفضة لكون محب الفضة يفرح متى ربح شيئاً . وأما الحسود فيفرح متى خسر أحد شيئاً أو ضاع تعبه ويحسب عسر الغير وخسرانهم ربحاً له . فهل يوجد أشر من هذا . أنظر كيف أنه يهمل شروره ويبحث عن خيرات الآخرين ولا يحصل له من ذلك غير التحرق والاضطراب ويعدم ذاته مثل ذاك النعيم الشهى فى الفردوس. ومالى أقول الفردوس فإنه فى هذا العالم أيضاً لا يحصل له خير ولا نعيم. وكما أن الارضة تأكل الخشب والعث يفسد الصوف . هكذا الحسد فإنه يذيب عظام الحسودين ونفوسهم ويفنيها معاً . أولئك الذين هم أشر من الوحوش وأخبث من الأبالسة لأن غضب الوحوش وشرهم إما من احتياجهم للغذاء وإما من اضطرابهم وقلقهم منا . لكن الحسودين ان أحسن إليهم أحد يكون كأنه ظلمهم . وأما الأبالسة فيكونون أعداء ألداء غير رحومين نحو أبناء البشر . ولكن مع شركائهم وأمثالهم لهم محبة مفرطة بخلاف الحسودين فإنهم يهربون من مكالمة آل طبيعتهم وبالأكثر أنهم لا يحبون خلاصهم . لأنه يقول أن الحسد لم يكن له خبرة بتكريم الأفضل وأمثال هؤلاء يوجدون دائماً مفعمين من كل اضطراب وانزعاج وكآبة وهم مع ذلك لا يزالون

معذبين نفوسهم . فالزانى يحصل له من خطيته لذة ما الى زمان ثم يرفض الخطية فيما بعد إما من شيخوخة وإما من مرض ما يمنعه فيتوب ويخلص . لكن الحسود يعذب ذاته ويعاقبها ولو لم يحصل له ضرر ممن حسده . فلهذا كانت خطية الحسد والغيرة اشر الخطايا واشنعها لأن الحاسد لا يمكنه أن يغادر هذه الخطية أصلا . بل يصير كالخنزير المتمرغ فى الحمأة ويماثل بفعله الشيطان . فكما ان الشيطان يسر بهلاكنا ومضرتنا . هكذا الحسود إذا رأى جيرانه وأقرانه قد أصابهم شيء من الخسارة والضرر يفرح لكونه يستريح فى مصائب الغير ولأنه يحتسب الخير الحاصل لغيره ضرراً له . كما ان الجعل يغتذى من المزابل . هكذا الحساد فإنهم يغتذون من مصائب الناس فهم لا يزالون أعداء الطبيعة البشرية ومحاربيها مع أن باقى الناس اذا رأوا حيواناً غير ناطق مذبوحا يحزنون لأجله ويغتمون . والحاسدون إذا رأوا احداً فى نعم تتغير هيئاتهم وتصفر وجوههم وترتجف مفاصلهم كقايين ويصيرون وحوشا ردية من شر حسدهم . فانظر ماذا يكون أشر من هذا الصرع والجنون . قل لى أيها الحسود لماذا ترتعد وتتلون فأى شر حصل لك . هل ذلك لأن أخاك صار مشرفا ومعتبراً . لقد كان يجب عليك ياشقى ان تفرح له وتمجد الله لانك رأيت جسداً يضاهيك وجزءاً منك قد صار مشرفا مبجلا . فإن قلت كنت أوثر أن يتمجد المسيح ألهنا من أجلى . اجبتك ان فرحت بتشريف أخيك وغناه يتمجد الله أيضاً من أجلك ولو كان عدواً لك ومجازيا اياك . فإن الله يتمجد من أجله . ولهذا كان واجباً عليك أن تجعل عدوك محباً لك . وأنت قد تجعل صديقك الذى يتمجد الله بنجاحه عدواً لك . وتصير الله محارباً اياك بطريقة أخرى أى بايصال الإحسان إلى ذلك . فلهذا اقول لكم أنه ولو كان أحدنا يجترح الآيات والعجائب أو يكون حافظاً للبتولية . أو يكون صواما . أو يكون باسطاً كفيه فى الرحمة . أو ينام على الحضيض . أو يصل بواسطة هذه الطرائق إلى فضيلة الملائكة وكان فيه آلام الحسد فلا محالة يكون أشر من جميع الخطاة وأردأهم . فإذا كنا نحب من يحبنا وليس لنا أجر أكثر من باقى الأمم . فكيف إذاً يكون حال من يبغض الذى يحبه ويحسده وأين يستقر بعد ذلك الشقى . اعلم أن الحاسد هو أشر من المحارب لأن المحارب يكف عن حربه متى انحسم سبب العداوة . وأما الحسود فلا يصير صديقاً لأحد البتة . وكما أن الظالم يظلم ذاته بظلمه كذلك الذى يخاتل جاره ويغشه فإنه يغش نفسه ويهلكها . كما أن الخير الذى نصنعه مع غيرنا يكون صنعه لذواتنا لأننا إذا قلنا عن أحد أنه شرير كذباً لا يظلم منا . بل يحصل له الأجر العظيم من الله . لأن ليس الذى يصيبه الشر يستحق العقوبة . بل الذى يوصل الأذى

بحيث لا يكون ما تجناه عليه من طريق الواجب . ولكن غير ممكن أن تتواتر الأخبار عن أحد بأنه شرير مالم يسبب هو بذاته تلك الأسباب . لأن كثيراً من هؤلاء يسقطون فى اليأس وعدم الاستحياء . قل لى يا هذا إذا كنت ظلمت من أولئك الارديا لماذا تظلم أنت ذاتك أيضاً . أما تعلم أن من جازى شراً بشر ففى ذاته يجبن السيف فإن أثرت انتفاع نفسك والإحسان إلى ذاك فقل للذى ظلمك أنك وأن تكلمت علىّ شراً فأنا لا أعتقد إنك لى عدوا . ولا تتكلم على أحد بالردى أبداً لئلا تدنس ذاتك وتهلك نفسك . ولا تخلط زبلا بطين لتتخذ منه لبنا . بل الاجدر أن تضفر لك اكليلا من قرنفل وازهار أخر زكية الرائحة . ولا تقذف من فمك شيئاً نجساً كالجعل لأن الذين يشتمون الغير ويهينونهم يحصلون النجاسة والنتن لذواتهم أولا . ولهذا يبغض الجميع الشاتمين والمتكلمين كلاماً قبيحاً ويجتنبونهم كاجتنابهم الجعل والدود النامى فى الاقذار . وأما الرجل الصالح الذى يكون فمه نقياً طاهراً فالجميع يحتسبونه عضواً منهم ويعدونه أخاً حقيقاً لهم ولقد قتل هابيل الصديق من يد اخيه قايين ظلماً وحسداً . أفليس ذاك الحسد بعينه أرسل هابيل سريعاً من غير إختياره ليمثل بين يدى الله واحتشد قايين لذاته ربوات من الشرور والموت الردى أو ما الذى أضر بيعقوب حين حسده أخوه العيس . أما كان يعقوب ممتلئاً من كل الخيرات والعيس كان مطروداً من وطنه يجول فى بلاد غريبة ولم يصحبه سوى الحسد والغش . أو ما الذى أستطاع أن يصنعه أولاد يعقوب بيوسف الحسن وقد وصلوا معه إلى سفك الدم . اليس أنهم كادوا يموتون جوعا وقد أصابهم كل مصيبة ويوسف المحسود منهم قد صار ملكا متسلطاً على مصر وتخومها . وأما أنت أيها المتصف بهذه الصفة فبمقدار ما تحسد المنعم عليه تسبب له خيرات جزيلة وتعد لنفسك عقاباً مؤلماً مع الشيطان مدبرك لأن الله فاحص القلوب . وينظر أفعالنا جميعها سواء كانت صالحة أم شريرة فإذا رأى المظلوم صابراً شاكراً ضاعف له الأحسان أكثر من الآخرين وعاقب الظالمين بزيادة فإذا كان عقابه يعم البخلاء والقساة فكم بالحرى يتم عقابه للحسودين والظالمين فإن كنت تحب من يحبك فقد ذكر إنه صنيع الخطاة والعشارين فإذا أبغضت من يحبك فأى عفو وغفران يحصل لك . لا لعمرى لم تحزن أيها الأح لأجل الواصل لأخيك وقد كان يجب عليك أن تحزن على الذين يصيبهم شراً لا على الذين يحصل لهم الخير . فالزانى طمعا فى لذة جزئية يتورط فى الخطأ والسارق له حجة الفقر . فأى عذر لك تورده أنت أيها الحاسد . لا شىء بل أنما هو مضرة وشر عظيم . فإذا كان سيدنا له المجد يامرنا أن نحب أعداءنا ونحن نبغض من يحبنا فاى جواب نؤدى لله . فالشيطان الخبيث

يحسد الناس فقط لا الأبالسة المماثلين له. وأنت بما إنك إنسان تحسد الناس المشابهين لك. فبالحقيقة أن الحسد هو خطية عظيمة أيها الأحباء وويل لذاك الذي يسجسه روح خبيث ويجعله خبيثاً بهذا المقدار حتى لا يوجد فيه خير البتة. ولقد سبق القول بان الحسد لا يعرف الأفضل النافع. ولقد كان هذا الدواء فى شاول الملك نحو النبى داود. لأن شاول كان فيه روح شر يقلقه. وكان لما يصرعه يدعو داود ليرتل له بمزماره فيهرب منه الشيطان وكان عندما يبرأ من دائه يطلب قتل المحسن إليه. وأن أحببتم أن أصف لكم كمية الاحسانات التى كان داود يصطنعها مع شاول وهو يجازيه عنها بالشرور. فاسمعوا. أنه قد حدث فى زمن حرب عظيمة بين بين اليهود وعماليق وهى من الأمم الغربية ووقع اليهود فى ضيق شديد وخوف جزيل حتى إنه لم يجترىء أحد منهم أن يقتحم تلك الحرب العوان بل كان كل منهم ينتظر وقت منيته يوماً فيوماً. فعندها بادر داود من بين غنمه واقتحم الجيش ليختبر الحرب والقتال كما يحارب الأعداء فصده الكثيرون عن مرامه وخصوصاً أخواته وكذلك الملك شاول أيضاً حين شاهده فى عنفوان شبابه. لأن عمره لم يكن قد ناهز العشرين سنة بعد وأما داود فعند ما شاهده ذاك البربرى المحارب المسمى جوليات يفتخر بشجاعته وبسالته ويتعظم بذلك القتال الذى صنعه توقد فؤاده غيرة وبرز نحو ذلك المحارب الجسور بعد أن سكن روع الملك وأفعم قلبه طمأنينة قبل الظفر بالغلبة وقال له لا تخف أيها السيد النبيل من جهة هذا البطل المحارب. فإنى أنا أمضى إليه واقطع رأسه بالصارم البتار. وكان قوله هكذا كمن قد انجز الأمر وتممه. انظر إلى حسن هذا الصنيع العظيم الذى يوجب أن يأخذ التاج عن رأس شاول ويكلل به هام داود. ولكن مع هذا لم يكونوا يصفون داود بالإكرام الواجب ذاك الذى وهب الحيوة والملك لشاول. لكن لنتأمل إلى الاحسانات التى نالها أخيراً فإنه بعد أن قطع رأس ذلك الجبار وظفر بالغلبة والغنائم عاد إلى غنمه التى كان يرعاها. وأما بنات أورشليم فانهن خرجن فى ذلك الحين إلى خارج المدينة واستقبلن الملك مع جنوده وهن يترنمن قائلات أن شاول بالألوف وداود بالربوات. أعنى أن كان لشاول ألوف من المديح فلداود ربوات منها. فلما سمع شاول هذا المدح المطنب والتكريم الزائد الذى حصل لداود حسده والتهب قلبه عليه بالغيظ والغضب ومن ذلك الحين كان يبتغى قتله. الحسود ردى جداً لأنه فى أكثر أوقاته يخترع فعلاً مميتاً لأنه لا يشاء أن يرى جيرانه هادئين مطمئنين ولا أن يراهم بخير وحسن حال وعافية ومتى شاهد فيهم هذه الخيرات يحترق ويذوب حسداً اسمعوا أيضاً قصة أخرى قديمة. وهى أن ملك جرار استمر

زمناً طويلا يحسد اسحق بن إبراهيم حين شاهد مزارعه وحقوله كل يوم تنموا بازدياد وكان يطرده دائماً من أرضه خوفاً . ويقول الكتاب الإلهى . أن اسحق زرع تلك الأرض فاستغل منها مائة ضعف . أنظر اعتناء البارى تعالى بعبده . تأمل هذا الإحسان الجزيل الذى صنعه بصديقه . بل لنحول النظر نحو حسد الملك وغيرته كيف هى . فإنه كان يقول للصديق ارتحل عن أرضنا وحدودنا لأنك صرت أشد منا . وبالحقيقة أنه كان أشد قوة منه لأن الله كان معيناً له . قل لى أيها الحسود إلى أين تريد أن تطرد الصديق . أما تعلم أنه حيثما توجه فان الله معه . ولو قذفته إلى البرارى فإنه يظهر هناك أشرق وأكرم منك لأن الله مدبره فى أوقات كثيرة من الأشياء المضادة . ذلك الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة الحادية عشرة

(فى الحقد والعداوة)

أيها الأحباء من كان منكم ممقوتاً أو مظلوماً من أحد فليتذكر أمر داود النبى وما احتمله من شاول فيتعزى فى حزنه . فإن قلت أن أخاك صار عدوك لأنه شتمك . ما ظلمك ولا سلب منك مالك ومقتناك . أفلهذا تعاديه . أما أنا فاتضرع إليك أن لا تفعل هكذا بل اقطع أسباب العداوة من غير كسل وتوان . لأن الإهمال يولد الغضب وينميه . فإذا مضى اليوم ولم تعقد فيه رباط المحبة فيستحوذ عليك الخجل بزيادة . وإن بقيت إلى الغد بغير مصالحة تخجل أكثر . وأن أقمت إلى اليوم الثالث على العداوة تبتعد عن المحبة بالكلية . فإن ذهب أحد إلى عدوه ليصطلح معه بمحبة وخر أمامه على قدميه واحتضنه وقبله وهو يذرف دموعه ويتضرع إليه فإنه يستميله لإظهار هذه المحبة وعلى كل حال يرضيه ولو كان وحشاً نفوراً أفتكون ياهذا قد أعتقت ذاتك من الذل وملت بأخيك نحو المحبة والوداد وربحت نفسك وقريبك . ولا تقل لى محتجاً أنه انسان شرس الأخلاق شرير فلا أقدر أن أعامله بالمحبة والسلام لأنه مفسود غير متقوم . فمهما نسبت اليه لا يوازى شدة شر شاول الذى خلصه داود مرة واثنتين وعدة دفعات ثم كان يكمن له بعد ذلك ويخاتله لكى يفتك به . فان قلت أنه اختلس كرمى وحقولى واضرنى كثيراً وصيرنى فقيراً بائساً . أجبتك أنه لم يصل بعد إلى طلب نفسك ولم يبتغ قتلك كما فعل شاول بداود . فما هو الشر الذى صنعه معك

عدوك . أسرق مالك ومقتناك . فانك اذا احتملت ذلك بجلادة شكرت الله على سلبه رزقك فانك تنال أجراً عنه كأنك أعطيته صدقة للمساكين وان قلت أنه يسبب لك موتاً فهذا يعده الله لك شهادة . وإن شئت فأعلم أيها الأخ بأن المصالحة ممكنة لكل إنسان مع عدوه متى أحب . فأجبنى أى الوحوش أشد شراسة من الأسد . ومع ذلك يميل به الناس إلى الوداعة حتى أنه يصير أكثر وداعة من الخروف فيمشى داخل الأسواق ولا يخاف منه أحد . فياللعجب من أننا نصير الوحوش الضارية وديعة مستأنسة ونقول أن لا نستطيع أن نجعل الانسان الناطق هكذا وديعا . ترى ما هى الخطيئة العظمى التى أخطأها العدو لديك حتى لاترتضى بمصالحته . أتراه قال لك أنك سارق وزان على سبيل العداوة . فما الذى جرى من هذا . فان كان قوله صدقاً فثقف نفسك وهذبها . وصر بعد ذلك أناء طاهراً نقياً . وأن كان آذاك كذبا فاضحك عليه مقهقهاً . وان كنت لا تدرى من جميع ما تجناه عليك شيئا . فلا ترفض مقولاته فقط بل افرح مبتهجاً حسب قول الرب الذى قاله . فمتى عيروكم وقالوا عنكم كل كلمة سوء فسروا وافرحوا فى ذلك اليوم لأن أجركم عظيم فى السموات . وان كان ما قد قاله حقيقيا فاحتمل ذلك بوداعة وصبر ولا تشتمه ولا تهنه بل تنهد تنهداً مرّاً باكيا من قبل ما أثمك فتجد بذلك غفرانا وصفحا . النفع الذى لم يفعله الأصدقاء معك قدفعله الأعداء بكلامهم الردىء . ولو كان ماتكلموا به صدقا لأن الأصدقاء يتصنعون فى المواجهة بالتمليق والأطراء فيثيرون الداء الدفين ويزيدونه قبحاً والما . وأما الأعداء فلسبب تحرقهم وبغضهم وتوبيخهم أياك على الخيطئة يضطرك الأمر إلى التقويم والاصلاح إضطراراً وتكون العداوة لنا سببا لنفع عظيم . ولهذا لا ينبغى أن نقول أن فلانا يضادنى ويستحشنى أن أتفوه بكلام ردىء وشتم مستقبح لأننا نحن المذنبون بهذا كله . ولو أردنا أن نتحذر من ذلك لما استطاع ولا الشيطان ذاته أن يميلنا إلى الغضب والشراسة . واعلم هذا من قصة داود مع شول فإن داود حين وجد شاول مرة نائماً قطع من هدب ثوبه قطعة ووقف عن بعد قائلا له . أيها الملك ها انا ممسك بيدى قطعة من ثوبك وحياتك كانت تحت سلطانى . فأجابه شاول على الفور قائلا . أنت هو بالحقيقة ابنى داود . انظر إلى هذا الوحش المفترس كيف استحال للوقت وديعاً وباسرع ما يكون تبدل من حال إلى حال وقد كان سابقاً لا يشتهى أن يسمع بذكره والآن يقول له هذا صوتك يا ابنى داود . فانظر كيف للحين حلت وداعة داود عداوة شاول وجعلت القاتل اباً والذئب خروفاً . فمن تراه يكون مطوباً مثل داود مخزن الودعاء . فلنتأمل ليس أن لا يعترينا من أعدائنا شىء من

الشرور فقط بل لا نأخذ الأخبار من واحـــد على الشر ولو أصابنا منه كل الويل . كما أن داود كان هارباً من شاول مطروداً وهو يخاتله إلى حد الموت ولم يصبه منه شر البتة بل صار داود ابهى مما كان فى الحرب الشديدة ومحبوباً ليس من الناس فقط بل من الله اوفر حباً . وها اسمه إلى اليوم ممدوح من أقـــواله وتراتيله النبوية فى الزبور . وكما أنه أصبح فى الأرض مشرقاً ومضيئاً هكذا هو اليوم فى السموات ابهى وابهج . فماذا ينفع الحسد ذاك الشقى المسكين . أليس أنه قد انحط عن سدة ملكه ومات موتاً رديئاً مع ابنه وهو الآن ينتظر العقوبات الجهنمية مخلداً . فأنت متى شاهدت عدوك أو خالج ذكره خاطرك فلا تقل أنه صنع معى كذا وكذا وتضرم نار غضبك عليه . تناس الجميع وقل أن الشيطان هو المذنب لا ذاك ثم تفطن فى كلمة جيدة قالها لك فى وقت من الأوقات . فعلى الفور يمكنك أن تنقض العداوة الكائنة بينكما وان اردت أن تبرز كلامك إلى التحقيق فاطرد عنك العداوة أولا ثم عاتبه بعد ذلك بمحبة ووداد وأطلب باجتهاد أن تبرر . وإذا عيرك عدوك فى خطيئة ما وأنت خبير بها فلا تشتمه وتقذفه حتى إذا تنهدت من جرائها وبكيت بكاء مراً مثل بطرس السليح وتضرعت إلى الله من أجلها يمكن أن يغفرها لك فتجد حينئذ من جميع خطاياك . ولئلا تخال إننا نعزيك بالكلام فقط إسمع ما نورده لك شاهداً من الكتاب الالهى . فإنه يقول . كان فريسى وآخر عشار . أما العشار فلكونه كان مكاساً ظلوما بلغ إلى جرائم عظيمة وهلاك مؤبد وأما الفريسى فلما كان فاعلا كل العدل والبر حاز خلاصاً مضاعفاً . فمضيا كلاهما إلى الهيكل ليصليا . أما الفريسى فمثل فى مكان مشرف عال . وهتف مصلياً هكذا . اللهم إنى أشكرك على إنى لست كباقى الناس الخطفة المستكثرين . ولا مثل هذا العشار فوقف عن بعد فى الهيكل وفى مكان منخفض ولم ينكر على الفريسى شيئاً البتة ولا كلمه كلاماً مراً موبخاً بل تنهد وقرع خزانة صدره ببكاء وتواضع قائلا . اللهم إغفر لى أنا الخاطىء . ولذلك عاد إلى بيته مبرراً . أرأيت هذه الفترة اليسيرة كيف أنه عند إقتباله التعيير محا جميع آثامه والعدو الذى بغير إختياره صار محسناً . فياليت شعرى هل يوجد أكثر غبطة وأسهل مراماً من الذى يسامح بخطاياه حالا . ترى كم مقدار التعب والنصب الذى كان العشار مزمعاً أن يناله وكان يجب عليه أن يعمل كل فضيلة من صيام وسهر إلى مدة مديدة وأن يعطى ماله صدقة لكى يغفر الله له هفواته . ولكن بكلمة ساذجة فقط طرح كل رذائله واستحق من الله العدل وحسن الجزاء . فلهذا أمرنا الله أن نصلى لأجل أعدائنا . ولننس إننا نترك لهم نقائصهم وشرورهم التى فعلوها ضدنا فقط . بل

لتتخذهم لنا أول الأصدقاء والمحبين . وإن ظلمت أحداً وما رددت له ماظلمته فلن يصيبك من ذلك خير . لأن الجرح لم يزل بعد حياً فى نفسك ولم تكمل عهد الله فكيف تطمع فى أن تجد المسامحة . إذا تضرعت إليه وأنت لم تسامح ذاتك بعد لأنك لم تسامح أولئك الذين صنعوا بك الشر . فكيف إذاً يصفح الله عن هفواتك . ولأنه إن غفرنا لمن ظلمنا وقذفنا بالشتم والاهانة فالبارى تعالى لايدع الحق يذهب هدراً ضائعاً . فاسمع هذه القصة التى أقولها لك . أنه فى أحد الأوقات عيرت مريم أخاها موسى وبختهُ لأنه اتخذ امرأة من بنات يثرون الكاهن الذى كان منذ زمان وثنياً . ماذا صنع الله بها . إنه ضربها بالبرص وصيرها غير طاهرة بسبب تعييرها لأخيها . وأما الطوباوى موسى فتضرع إلى الله بسببها لينقيها من الوجع الذى ألم بها . والبارى تعالى لم يستجب طلبه بل قال له أنا أقبل منك توسلك بأن لا أعاقبها فى الحيوة العليا وأما ههنا فتبقى معاقبة إلى الأجل المقرر . فتفطن ياهذا فى مداينة الله المرهبة . وأفهم أن هناك يمثل الجميع عراة بادية اعناقهم ولا يستتر أمامه شىء . فلهذا أن أهملت لأخيك سيئاته تضمحل هناك جرائرك المزمعة الظهور وتستعلن فى يوم الدينونة معتوقاً وتعوض بأكثر مما أعطيت . واسمع قوة هذه الوصية لأن الله يقول : إذا قام موسى وصموئيل فى التضرع والابتهال لاترضى نفسى على هؤلاء . فالذين لم يستطع موسى وصموئيل أن يختطفاهم من رجز الله أمكن لهذه الوصية أن تختطفهم من سخطه وهى وصية عدم الحقد . فان كنا مأمورين بأن نحب أعداءنا فأية مسامحة تكون لنا إذا ابغضنا من يحبنا . لالعمرى لأن الذى لايود أخاه ولو انفق كل ماله على المساكين حتى إذا قدم للاستشهاد يكون كأنه لم يفعل شيئاً . وما أشد العقاب الذى يستحقه فى وهدة الجحيم من يحارب الذى لم يظلمه . فحتى مَ يضاد أحدنا الآخر باطلا . وإلى م يحارب بعضنا بعضاً ونفرح بذلك الشيطان عدونا . ومع هذا أننا مأمورون بالوصية أن نحب الذين يبغضوننا . فبماذا تجيب أيها الإنسان . أما تخجل مستحياً بمقالك أن لى إنساناً عدواً . أما تكفينا عداوة الشيطان لنا منذ خلق الله العالم ذاك الذى أخرجنا من الفردوس كارهين وهو لم يزل يخرجنا منه ويذهب بنا إلى الجحيم من جرى العداوة المؤسسة بيننا وبينه . فياليت هذه العداوة بيننا لم تكن وليت الشيطان لم يفرح بها . ويا ليتكم كنتم تعلمون الفرح والابتهاج اللذين يحصلا للملائكة النورانيين عندما يسالم ويصالح بعضنا بعضاً وخصوصاً عندما يجدون الخاطىء قد نكص عن إثمه تائباً . فإذا كان اليونانيون الذين لم يكن لهم أمل بشىء صالح بعد مماتهم يعتنون فى أكثر حالاتهم بأن يتجنبوا الحقد على أحد . فكم بالحرى يجب عليك أن

تتجنبها أنت . وأنت أيها المسمى بالمسيحى الذى ترجو بأن ترث ملكوت السموات إرثاً مؤبداً ترغب جداً فى أن تختلق لك عداوة مع أحد . المسيح ابن الله لأجلك قدم ذبيحة على خشبة الصليب لأنك كنت عدواً لله وصنعت إرادة المحال وليس إرادته ، وحتى الآن إذا ثبت فهو يقبلك بفرح فى المظال الابدية . فإذا كان اللصوص الخونة عندما يواكلون بعض أصدقائهم وينادمونهم على مائدة تجعلهم المائدة الاتفاقية يتنكبون عن طرائقهم السيئة مع أحبائهم وتلزمهم أن ينقلبوا بخلق لين وديع أكثر من الخروف بعد أن كانوا أشد شراسة من الوحوش الكاسرة . ونحن الذين على مائدة هذا عظم مقدارها و نتناول جميعاً باتحاد طعاماً غير مضمحل ولا فان . يخاصم بعضنا بعضاً و نصير الشيطان محارباً قوياً علينا ونجعل ذواتنا ضعيفة قليلة القوى . فأى شر أعظم من هذا وأكثر بعداً عن الشريعة الإلهية . وهو أن نتخذ الشيطان مساعداً لنا ومحارباً باتضاد مع بعضنا البعض كل يوم ونتفق معه على المخاصمة فيما بيننا . فلنهرب أيها الأخوة الأحباء من قدام ابليس بقدر وسعنا وإمكاننا ولنسارع نحو إلهنا وأبينا فى الجبلة البشرية ومخلص نفوسنا يسوع المسيح ربنا . الذى له المجد والإكرام مع أبيه وروحه القدوس إلى كل الادهار آمين .

المقالة الثانية عشرة

(فى تذكر الشر وعدم تذكره)

أى نموذج نتخذه لنبرهن به عن الوداعة وعدم الشر اللذين قد اتخذناهما موضوعاً لكلامنا الموجه نحو محبتكم أيها الخلان الأصفياء . ليس ذلك النموذج إلا القديس الذى استحق الشهادة من قبل الله من العلاء حيث سر البارى تعالى بوداعته . فقال إنى لقد وجدت عبدى داود بن يسى رجلا مثل قلبى . لأن هذا النبى داود الملك ليس أنه كان يحسن إلى اعدائه ويقيتهم فقط بل كان فى أكثر الحالات إذا سقطوا فى المصائب حتى الموت نفسه يختطفهم منه وينقذهم ولقد علمت بشاول ملك اليهود كيف كان يمقت داود ويعاديه ويبغى قتله ولو أمكنه لفعل . مع أن داود أوصل إليه كثيراً من الاحسانات البليغة وناهيك عن تلك الغلبة الفاخرة التى أخمد بها نيران جوليات الجبار الذى ظفر بجنود شاول وعساكره قتلا وأسراً . ومن هذا الخلاص نفسه الذى حصل بداود للملك ولجميع الأمة الإسرائيلية . كان

شاول الملك يبغضه ويطرده وكان يتمنى قتله من جراء هذا الخير الذى صنعه معه . وفى أحد الأيام إذ كان عيد اليهود سأل شاول كبراء دولته قائلا ليت شعرى أين يكون أبن يسى . ظاناً فى نفسه أنه بمذمة جنسه يحقر شرف داود ويخمد ذكره . وأما ذاك الذكى الثناء والمشوق إليه أعنى داود فإنه وجد عدوه مرة داخل مغارة نائماً . أما البطل داود فما رضى أن يقول له . يا ابن قيس . لأن هذا كان اسم أبيه . بل ناداه بالإسم المشرف قائلا . لست أضع يدى على مسيح الرب . بهذا المقدار كان قلب الصديق طاهراً ونقياً من الغيظ والعداوة. حتى أنه كان يلقب شاول برجل الله الصالح . ذاك الذى ظلمه مرات كثيرة وكان ظمآناً إلى شرب دمه بعد إحسانات عديدة تبينها شاول العديم الشكر منه حين لقاه داود فى المغارة كمسجون وقد أشرف على الهلاك ووقع فى يده بسهولة . لا جرم إن الصحراء كانت تساعده ولذة السوسن تعينه وتحثه . ولكن شرف نفسه الأبية لم تستحسن الإنتقام بل قالت لا أمـــد يدى على مسيح الرب . فالى هذا الحد أنت أيها الصديق عديم الشر وطويل الأناة. فيجيب نعم . فإن أصاب الشر أحداً ولم يصبر عليه لايدعى صديقاً . وأقول أيضاً أن النبى لم يفكر بتلك الشرور التى أصابته بل لم يعبأ ايضاً بالخوف المستقبل .مع أن شاول كان تائقاً إلى محاربته . فياللعجب من هذا أن الطوباوى داود كان يفضل أن يبتلى بشدائد كثيرة عن أن يفتك بعدوه ومحاربه . بل قد شفق على خصمه الذى فعل ضده مثل هذه الشرور المتعددة كما يشفق على من نال منه خيرات جمة وإحسانات وافرة . ثم إنه أخذ قطعة من ردائه وكوز الماء ونكص فى طريقه راجعاً ووقف بعيداً منه وصرخ بصوت عال وايقظه . فلما هب شاول من رقاده أراه العلامات التى أخذها منه لاليفتخر بذلك الفعل عليه بل قصد أن يسكن غيظه وغضبه ويريه أنه ليس عدواً له كما يزعم . لأن داود كان يبذل جهده دائما فى أن يجذبه نحو المحبة والصداقة بخلاف شاول فإنه كان يبغى مضادته . فأى شر أعظم من الشر الذى كان يظهره نحو داود . وداود كان يستجلب خاطر شاول الفاقد العقل والأرعن بواسطة الخيرات والإحسانات . ونرى شاول ليس مرة ولا إثنتين بل دفعات عديدة قد رمى داود بالرمح ليقتله فاخطاه السنان وأصاب الحائط . أفليس هذا الأمر مسجساً ومغيظاً . إنما داود كان يحدكل ذلك خيراً له وفضل لنفسه أن يهرب ويتغرب عن وطنه ويكابد البؤس والعناء ويكون محتاجاً للقوت الضرورى على أن يكون سبباً لقتل الملك . بل كان يجتهد دائماً بأن ينجيه من آلام الحسد والغيرة القبيحة . وأما الشيطان فلما شاهدته هذا الإتضاع المفرط أظلم بصره واندهش فأى أمر أفضل لنفس الصديق من هذا أنها تحتوى المحبة المفرطة الفائقة الحد . فإنه صبر على

الفقر عوضا عن الغنى .وقطن القفر عوضاً عن الوطن . واعتاض عن الترفة والمجد والاكرام بالأوجاع والشدائد . وكان راضياً بأن يعانى هذا البلاء كله ليزيل العداوة من قلب عدوه ولكن إذ كان ذلك العدو فظاً قاسياً وعديم الانسانية لم يرجع إلى المحبة والوفاء بالكلية بل كان يطرده دائما من مكان إلى مكان متوقعا قتله . وأما تدبير الله تعالى فلمن يطلع أحد عليه لأنه تعالى أوقع شاول فى شباك داود كما يقول الكتاب الإلهى . أن هناك فى الصحراء كانت مغارتان الواحدة داخل الأخرى فدخل داود وجنوده المغارة الداخلية . وأما شاول فولج الخارجية فلما شاهد جنود داود ذلك قالوا له . ها قد تم اليوم قول الرب الذى قاله إنى سأسلم عدوك فى يدك . فانساب داود بخفة وسرعة وسلب الثوب الموشى الذى كان شاول ملتحفاً به فى حال نومه . ولكن داود أسف فيما بعد نادما على إختلاسه الثوب الملوكى وقال لصحبه أسأل الله أن يسمح لى عن هذا الأمر الذى فعلته لانى لا أشاء أن أرتكب هذا أصلا ولا أن أدنس يدى بقتل سيدى الملك فبالحقيقة أن سمى أحد هذا ملكا فإنه لا يخطىء إذاً أن الصيد كان واقعا فى حبالته والجند بأسره يحس الصياد على أن يولج حسامه فى قلب محاربه . تأمل هذا الصبر والاحتمال وهذه الغلبة وذاك الاكليل فحقاً إن غلبة داود على الطبيعة الإنسانية حين سامح شاول أبلغ إقتداراً من غلبته على جوليات ذاك الجبار الصنديد . وهذه الغلبة أشرف من تلك لأنها كانت بلا سفك دم وهذا أمر عجيب . فلما هب شاول من نومه خرج داود فى أثره شاكراً الله على إنه لم يقطع رأس عدوه بل كان غضبه غضباً مائتاً لأنه خلص شاول من حنقه وهشم الشيطان عدوه بحد السيف . وكما أن الفتيه الثلاثة ثبتوا فى سعير نار الأتون غير محترقين هكذا لم يحرقه لهيب الغيظ والغضب . فلما خرج داود صاح بشاول قائلا أيها الملك سيدى . فالتفت شاول إلى ورائه وأبصره فخر داود حالا إلى الأرض ساجداً له قائلا لم ياسيدى تسمع من أعدائنا كلام الهذيان الذى يبثونه لك . هاداود الذى يبغى نفسك حاضر وقد أسلمك الله اليوم فى يدى وقلت لا يسمح الله أن أضع يدى على سيدى . وها طرف ثوبك الذى أنا ممسكه وقد كرهت أن أسقيك كأس الحمام أنت الذى تبغى قتلى دفعات كثيرة . لأريك اليوم إننى لست عدواً لك . فليفهم هذا من له عدو ووقع فى يده ، فلا تستحسن ياهذا قتله ولا تجازه شراً عن شر ولو بلغك عنه كل شتم وقذف فى حقك بل كن مجتهداً فى أن تصلحه كما فعل داود بعدوه ليس أنه أصلحه فقط بل أبكاه حين سمعه يقول له أيها الملك سيدى . وأما شاول فاجاب داود على الفور بغيظ عظيم قائلا إنك لأبر منى لأجل صنعك معى مثل هذه الإحسانات الجمة الوافره وحتى الآن وهبتنى حياتى عوضاً عن كثرة الشرور التى جازيتك بها ولم

تهلكني . فمن يكون مطوباً أكثر من داود الكلى الوداعة الذى فى ساعة واحـدة أصلح عدوه . ونرى كثيرين من الناس الذين لا يكفيهم أن يتواروا على مكالمة أعدائهم فقط بل يكرهون أن يسمعوا كلامهم أيضاً . أما داود فليس هكذا بل أنه خلص عدوه وأكـرمه قائلا ياسيدى الملك وخر له ساجداً ولما أبصر شاول اتضاعه الغزير ووداعته بكى قائلا . أنت الآن ابنى وأنا اليوم ايقنت أنه لفرط اتضاعك سوف يسلم الله فى يديك ملك العبرانيين ويرتفع ملكك على كل ملوك الأرض ولكننى اتضرع إليك ياولدى فى هذا فقط . وهى إنى استحلفك باسم الله أن لا تبيد زرعى من بيت ابى متى مت . ترى ماذا صنع داود؟ العله تعظم بهذا . كلا لكنه قبل عهده برضى ووفى وعده . ولما مات شاول ليس أنه لم يرذل أولاده فقط بل اكرمهم غاية الاكرام وخولهم الجلوس على مائدته الملوكية . ولما سمع بسقوطه فى ساحة الحرب مزق ثوبه الملوكى ارباً ارباً ووضع التراب على رأسه واجهر بالبكاء والعويل قائلا شاول ويوناثان المحبوبان والحلوان فى حياتهما لم يفترقا فى مماتهما . هذا هو الواجب على كل منا فى كل وقت وأوان أن يفطن بذكر عدوه فى حياته وبعـد مماته ويصلى لأجله وإذا لزم الأمر فليبك على خلاصه وخصوصاً إذا كان قد أصابه منه ضرر مفرط لكى يستقبل الجزاء من الله بدالة عظيمه كما كان داود مع شاول . انظر أى عفـو يحصل لنا إذا تذكرنا ذنوبا سالفة منسية وطلبنا القصاص من الذين احزنونا . إنه أمر جيد أن لا يظلم أحدنا الآخر . والأجود منه أنه إذا ظلم أحد من آخر لا يجازى شراً بشر فذلك قيل فى العهد القديم أن العين بالعين والسن بالسن قصاص عادل . ولكن داود لما تفلسف ببلاغه وفاق بفعله ذلك العهد القديم . وأما نحن فليس أننا ملزمون بعدم مكافأة الشر بالشر فقط بل أن نحسن إلى أعدائنا أيضاً لأن سيدنا يسوع المسيح يقول صلوا على من يضطهدكم ويحزنكم واحسنوا إلى الذين يبغضونكم . فإذا كان الأمر كذلك فأى عذر يكون لنا أو أى غفران نستحقه نحن الذين من بعد مجيء السيد المسيح لم نبلغ مقدار أولئك القديسين القدماء الموجودين قبل مجيئه مع أنه يقول أيضاً أن يزد بركم على الكتبة والفريسيين لا تدخلوا ملكوت السماء . أسمع ما يقوله بطرس نحو المسيح إلى كم مرة إذا أخطأ إلى أخى أسامحه . اترى إلى سبع مرات ظاناً بنفسه أنه قد صفح الصفح الكثير فأجابه المخلص قائلا لست أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين سبعة التى مجموعها اربعمائة وتسعين مرة حاصلة من ضرب سبعة فى سبعين ان تغفر لمن أساء إليك . فيدل بهذا على أنه يجب أن نغفر دائماً لمن اخطأ إلينا . فالبارى تعالى لا يفرحه شيء فرحاً كلياً مثل أن يرى احداً يصفح عن جرم من أضره

وأن لا يكافئه شراً عوض شر . فإن اعترض معترض قائلا . إننى إنسان ضعيف ولا قدرة لى على عمل الشر مع من ظلمنى . فلا يكون منى مكافأة له . فاجيبه أنه يمكنك وذاك متى غضبت على من اساء إليك ولعنته وأخذت فى ذمه ودينونته عند الجميع واحلت عليه فى الانتقام منه . هذه مكافأة وهــذه السجايا كلها هى تحت سلطاننا . فالذى لا يتطرف إلى ارتكاب مثل هذه الأمور لا يكون قد كافأ شراً عن شر بل ينال من الله اجراً وثوابا . وهذا أمر بين لأنه متعلق بإرادته أن شاء فعله وأن شاء اعرض عنه . فلهــذا متى رأيت عدوك أيها الإنسان واقعاً بين يديك فلاتظن أن هذا وقت الانتقام منه بل الأجدر أنه زمان خلاصه لأنه من الواجب عليك أن تحزن على عدوك متأسفاً وخاصة فى الوقت الذى امكنك أن تبادئه بالشر وأنت لم تفعله وأن فعلنا هذا فى أعدائنا وغفرنا لهم فهذا هو الفعل الجسيم والأعظم مــن كل فضيلة وحينئذ نستحق الخيرات الأبدية بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد والاقتدار مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهــر الداهرين آمين .

المقالة الثالثة عشرة

(فى المحبة العامة والمحبة الأخوية)

أيها الأخوة . ان إلهنا محب البشر يشاء ويرغب جداً فى أن الناس باجمعهم يحبــون بعضهم بعضاً بصداقة خالصة وإيمان ثابت غير متزعزع . ولهذا وضع بحسن أحكامه وتدبيره أن تكون جميع الصنائع والمهن الكائنة فى نظام العالم محتاجة لمساعدة الواحد للآخر فى اصلاح حاله . فكما أن الفلاح لايقنعه أن يبذر الحنطة بمقدار كفافه . بل يبذر أكثر كثيراً وإلا لاضمحل هو وغيره من عوارض الاحتياج فى أوان ضيق الزمان ومحله . كذلك الجنود فى مقام الحرب لا يكفيهم أن يحفظوا ذواتهم من مخاطر الطعن والضرب فقط . بل أن يحفظوا البلاد والمدن بثقة وطمأنينة أيضاً وبحالة ذات أمن وسلام . ومثلهم التاجر الذى يجوب البلاد براً وبحراً ليس ليأتى ببضاعة تكفيه فقط بل يجلب أشياء أخر لاناس يحتاجون إليها فى أمورهم . فلو كان الأمر على خلاف هذا النظام لما تنازل أحد إلى أن يطلب من جاره شيئاً . فلهذا الف الله تعالى الدنيا بالمحبة بأمر مستغرب . لأن من

شأن المحبة الا تدع الإنسان يفعل ويهيء الشيء الذى يحتاجه أولا بل الذى يحتاجه الغير . لأنه لو لم توجد هذه المحبة الأخوية لما أمكن لأحد ان يخلص خلاصاً جسدياً أو روحياً. فلو احكمنا كل فضيلة ولم توجد فينا محبة أخوية ولا دالة فلا يمكننا أن نجد صداقة ولا ولا لنا عند الله مـــودة كما يقول بولس الرسول . إنى إذا وهبت كل موجوداتى صدقة واسلمت جسدى لحريق النار واموت شهيداً باسم المسيح ولم تكن فى محبة اخــوية فلا انتفاع لى بذلك أصلا . واسمعه يقول أيضاً لما قرب وقت محاكمته . فى ذلك القضاء العـــديم الحق . إننى لسعيد اليوم لأنى سوف أدان منك أيها الشريف فستوس . ولم يكن هذا الكلام منه ليطريه به لكنه قصد بواسطة الوداعة والمحبة أن يربح أحداً ويجتذبه حتى أنه بذلك ربح القاضى نفسه واجتذبه لديه . ولما غلب القاضى من جهة هذه المحبة والوداعة اعترف بصوت جهور أمام المجمع قائلا . أنك بقليل تقنعنى بأن أصير مسيحياً . فاجابه بولس قائلا أن هذا هو الذى ارجوه من سيدى ليس أنت فقط بل أيضاً جميع الذين يسمعوننى يصيرون مسيحيين مثلى . فإذاً متى طلب منا ذاك السيد المخلص شيئاً كثيراً مقداره ونحن لا نؤدى ولا النذر القليل فهل نكون مستحقين شيئاً من العفو لا لعمرى . فلهذا لاتظنوا أن أحتياج الواحد إلى الآخر هو شيء ردى لأن هذا العقل الآلهى صادر عن حكمة الله غير المدركة لأجل محبة أبناء البشر واتفاقهم . لأنه إذا كنا ونحن نحتاج إلى بعضنا بعضا لاتجذبنا الحاجة الضرورية إلى الألفة والصداقة فكم بالحرى لو كنا فى كل شيء كاملين . وهذا أمر واضح جلى وهو أننا نكون أشر من الوحوش الضاربة فى افتراس بعضنا بعضاً . فلذلك أمر البارى تعالى الذى هو ملك السلام والأتفاق أن يحتاج الناس عموماً بعضهم إلى بعض على كره صاغرين. وأن يطلب الواحد من الآخر ضرورياته وأن يسلم الواحد على الآخر أو يحييه متى التقى به . فلو رفع البارى تعالى عنا مثال هذه المحبة فياليت شعرى من كان يمكنه أن يتودد إلى جاره بسهولة ويحبه . فلهذا أعطانا الله منزلا واحداً ومقراً متفقا وهو هذه الدنيا بأسرها واذكى للجمع سراجاً واحداً وهى الشمس لتنير لهم نهاراً . ونشر لنا ستراً واحداً ليظللنا وهى السماء العليا . وبسط لنا مائدة جامعة وهى الأرض السفلى . ولم يهب الغنى الموسر كثيراً والفقير المقتر قليلا بل ساوى بين الفريقين بهباته لكى لايحتج أحد بأن ليس له صديق ولا حميم ولا جار مسعف فيقول كيف امضى اخاطب فى أمورى من لا أعرفه وليس لى معه تعلق ولا شركة البتة . فاسمع هذا لتعلمه أنه ليس من الواجب أن يظهر المحبة والمعرفة نحو صديقه فقط بل نحو كل البشر . لأننا

لانستطيع أن نقول لاحاجة لنا إلى اليد أو إلى الرجل . والذى يقول أن ليس له صديق ولا نسيب ولا جار يجب أن يهزأ به وبأمثاله لأنه إذا لم يكن ذاك قريبك ولا صديقك افليس هو إنساناً من طبيعتك وله سيد واحد وهو إله خالقك وولد فى هذه الدنيا نظيرك . فإذا كنا نود الذين هم موسرون عندهم فضة وءهب ونقرظهم بالمديح . أفليس بالأحرى والأولى أن نشفق على الذين نحن ملتزمون بالشفقة عليهم والمحبة لهم دائماً . فلهذا يجب أن تكون لنا محبة واحدة مع الجميع . وأن أحب أحد الأفتراق عنك فلا تباينه أنت فى المحبة ولا تتفوه بذلك القول السمج وهو . إن أحبنى ذاك فأنا أحبه . بل الأولى أنه إذا أغتاظ ذاك منك جداً ومال عن محبتك فأظهر له أنت المحبة الخالصة لتجذبه إليك لأن كل مسيحى هو عضو من أعضائك . فإذا كان إنسان ينفصل عن باقى جسده من عارض ماضرورى أفلا يبذل ذلك الإنسان كل جهده فى أن يبقى ذلك العضو فى موضعه على حالته الأولى . هكذا يجب علينا أن نعمل مع أخينا الذى لامحبة له . ومتى جذبته إلى محبتك بكل اجتهاد يحصل لك الأجر المضاعف من الله لأنه تبارك وتعالى يأمرنا أن ندعو إلى المحبة أولئك الذين لاقدرة لهم على أن يعيضونا عنها بشىء ليتضاعف بذلك ثوابنا . ونرى الواجب علينا أن نحرص كل الحرص على صداقة أخوتنا ومحبتهم . فلا تطمع إذا أحببت أحداً فى أن يحبك هو أيضاً فتكون قد اعتضت عن حبك بمكافأته . لأن الذى يحب ولا يحب يصير الله مديوناً له عن حبه . وأما الذى يكافأ بالمحبة ممن أحبه فلن يعتنى الله فى مجازاته اعتناء كلياً . لأنك إذا احببت من لم يحبك يكون لك الفضل العظيم عوض الأسعاف والمعونة الأخوية . فلا تجعلن الكسل سبباً لمنع الإجتهاد ولا تقولون أن محبته لى قد فقد اضطرامها من قلبه فلهذا أنا اتهاون واتغافل عن محبته لأن فتور المحبة من صميم الفؤاد هو داء عضال . لكن يجب عليك أن تستعمل الحزم فى أرجاع محبته أولا . وإن كنت لاتستطيع الآن أن تقتنى لك اخاً أو صديقاً بوداعة ففى أى زمان يمكنك ذلك . وإذا كان العضو الذى هو منك لاتقدر أن تدبره فكيف إذاً لو كان غريباً عنك تجذبه نحوك . فإن قلت وكيف يكون لى هذا . أجبتك متى أردت أن لا يسمع عنك كلام ردى فلا تقل عن أحد قولا شريراً . وإن أحببت أن يمدحك الغير فامدحهم أنت أولا . وإن أردت أن لايدينك أحد فلا تدن أنت إنساناً . تشتهى أن تعطى حسنة فصر انت أولا رحوماً . تتوق إلى أن تغفر لك هفواتك فاسمح عمن أساء إليك . تتمنى أن لاتظلم فلا تختلس ما لغيرك . ولنكن مع مجاورينا كما نريد أن يكونوا معنا . فكما أن الجسد من غير نفس لا

يقال له انسان كذلك النفس من غير جسد . وهكذا محبة الله إذا لم تشاركها محبة القريب فى الإيمان فهى باطلة . أتشاء أن تربح احداً فلا أمنعك عن ذلك . ولكن لاتصير هذا حزناً للغير . ولا نقنع بالنفع الحاصل من تعليم المعلمين وعظاتهم فقط بل لنتحد بأجمعنا فى تعليم بعضنا بعضاً . لماذا تلازم الوحدة ياهذا ولم تجتهد فى أن تتخذ لك أخواناً ومحبين . لماذا لم تصر عامل خير . لماذا لم تقتن الصداقة والمودة اللتين هما فخر عظيم للفضيلة . فكما أن المتفقين فى ارتكاب أمر ردى نقول انهم اشرار اردياء يغضبون الله ويجلبون سخطه . كذلك نقول أيضاً أن المتفقين فى العمل الصالح والمحبة يفرح الله بهم مبتهجاً . فلهذا لاتصحب الكثيرى الشر والخبثاء بل اتخذ لك اصدقاء واكرمهم كأهلك وقــدم على الجميع الكهنة الإطار والمتقدمين فى الكنيسة . لأن الإنسان الذى يسلك بالسلام يدعى ابن الله وأحسن أمر يفعله الإنسان هو أن يتخذ له أصدقاء اتقياء . ففاعل الصلح والسلام بين المتشاجرين لا يكفيه أن يكون أبن السلام فقط بل يكون ابناً لله أيضاً كقوله تعالى . طوبى لصانعى السلام لأنهم ابناء الله يدعون . وأما الذى يقتنى له أعداء ماكرين فلن يكون مستحقاً للمديح لأن الشيطان هو الذى يأمرنا بمعاداة بعضنا بعضا ليلقينا فى حبائل العقاب الأبدى مع أن الله تقدس اسمه يشتهى أن يخلص الناس جميعاً بواسطة الرحمة وعدم الاستكثار . والشيطان خزاه الله يحث الناس عن فرط الإهتمام بما لافائدة به ويأمرهم بأن يدخروا لهم كنوزاً فى السماء لامن مال الظلم بل من اتعاب الصدق . والشيطان لم يكفه بعد هذه الأتعاب والمشقات أنه لايقوى على مساعدة أولئك الذين عملوا حسب مشيئته حين يتهافتون إلى الجحيم معاقبين فقط بل يضرم اللهيب بزيادة ويحرق الذين كانوا يطيعونه ويطلبون الغنى بواسطة المآثم . أما السيد المسيح فقد أمرنا أن نرحم المحتاج ولو بكأس ماء بارد ومن فعل ذلك لايضيع أجره . أليس من الجهل الفظيع أن لانحب مثل هذا الرب الوديع والسيد الحلو المفعم من كل صلاح . أليس من أقبح الشر والجهل أن نعرض عنه ونتعبد للشيطان المغتصب المارد الذى تكلمنا به أيها الأخوان الأحباء لأن من يحبنى أحبه . ومن يحبنى خاصة هــو الذى يوبخنى ويديننى حينما اخطىء رغبة منه فى تقويمى واصلاحى . لأن من يمدح صديقه فى حالتى الخير والشر لايكون له صديقاً مخلصاً بل ضالا مضلا وبثوب الرياء ملتحفاً . بل من مدح صديقه متى عمل صالحا ووبخه على انفراد فى خلوة متى ارتكب الفحشاء فهذا هو الخل الوفى والمحب الودود . وأما إذا مدحنى العدو فلا اقبل ذلك منه وإذا وبخنى

الصديق فاحبه وامدحه لأن الجراحات التى يوصلها إلى محبة كقول الحكيم أن كلوم الصديق أفضل من تقبيلات العدو المصطنعة . لأن ذم العدو وتوبيخه سواء كان عدلا أو باطلا لا يقصد به التقويم والمنفعة بل قصده أن يجلب العـــار والخجل على ذلك الإنسان الممقوت منه . فلهذا لا يوجد فى الدنيا باسرهـا شىء أفضل من المحبة والاتفاق أو يوازيهما . لأن الواحد فى المحبة يظهر فى قوة جمهور متكاتفين بآدابهم . واثنين متفقين فى مقام عشرة متفرقين بل كل منهما فى مقدار العشرة والعشرة باعتبار واحد . وإذا أراد عدو أن يحارب أحد المتفقين يظهر له أنه يحارب عشرة لأن كلا منهم فى مقدار عشرين يداً وعشرين عيناً وعشرين رجلا وأن صار المتفقون مايه تتضاعف الأعداد كثيراً وقس عليه . وإذا كان أحد المتفقين فى بلاد فارس يمكنه أيضاً أن يكون فى رومية فالشىء الذى لا تقدر الطبيعة الإنسانية أن تعمله يمكن المحبة البشرية أن تفعله . إذا كان الواحد منه مثلا له ألف صديق فأكثر فتأمل كم مقدار القوة والمساعدة التى تكون له . وهذا الشىء يفوق الوصف عجباً لأن الواحد بسبب المحبة يساوى ألفاً فإذا كانت المحبة بهذا المقدار صالحة فلماذا لاتسعى فى اقتناء مساعدتها وقوتها ولو كان الذين تودهم فقراء ، بائسين فإن المساعدة تحصل لك منهم أكثر من الأغنياء. لأن الذى تقصد أن يرده عن نفسك بذاتك يرده عنك صديقك . فلهذا من يكون له حب وتودد مع الجميع لايعتريه شر البتة لأنه يكون محفوفاً بجنود كثيرة كالملك الظافر بالغلبة والغلبة الحاصلة من اتفاق تكون متالقة الأنوار ساطعة البهاء عند الكثيرين . وكما أن أوتار المعرفة متعددة كالمثانى والمثالث وغيرهما ولكن نغمة الجميع ترجع إلى لحن واحد مطرب . هكذا الذين بينهم محبة خالصة إذا اتفقوا بآراء تستحيل إلى رأى واحد فى المحبة . فكم مقدار ماتعمله محبة الصديق الحقيقى بحبيبه . وكم يوصل الودود من السرور والإبتهاج بمن يوده .كم من النفع كم من الاحتفاظ والصيانة .فالصفى الخالص الود لا يقع تحت كمية الأثمان ولا تقابله أو توازيه جميع كنوز الأرض . وكما أن الزنبق العطر والورد الزكى العرف يعطران بشذاهما ورائحتهما مكانا يوجدان فيه ويطيبانه هكذا الخلان الأصفياء أى مكان وجدوا فيه يبهجونه برونق الوفاء ويهبونه نعمة المحبة . فالاوفق للإنسان أن يتواضع خابطاً فى دياجى الظلم من أن يكون صفراً مقفراً من اخوان الصفاء وخلان الوفاء . فالحمى المحرقة لا يمكنها أن تحرق الأجساد التى تعتريها مثل الأحباء الصادقين عند افتراقهم بعضهم عن البعض . وليس حين المحبة الكاملة فى الحاضرين المجتمعين فقط . بل النائبين عن الألفة والاجتماع أيضاً لأن شوقهم يزداد كثيراً وشوقنا إليهم يتضاعف ومراراً كثيرة نشاهدهم فى رقادنا أو نحدثهم فماً لفم . إذا كان الذى يتذكر صديقه وحبيبه يسر مبتهجاً ويترنم بذكره

طرباً فكم بالحرى ذاك الذى يحب المسيح الذى هو الصديق الحقيقى والمحسن الودود الذى وهو اله تنازل فى محبته لنا . فهذا متى جعله أحدنا فى عقله وطبعه فى مخيلته لا يوافيه حزن ولا يعتريه نصب ولا يستحوذ عليه الخوف من أحد . فإذا كنا مومومقين من أناس ذوى سلطة نكون بسطوتهم مرهبين للجميع فكم بالحرى إذا كنا متحدين بالمحبة مع الله تبارك وتعالى. ومن الواجب أنه لا يكفينا أن نظهر المحبة لأخواننا بشقشقة اللسان فقط بل لنبرزها بالفعل أيضاً . ولو أننا اضطررنا أن نبذل دون هذه المحبة المقتنيات والأجساد والمهج الغوالى بعينها فلا نحزن لذلك ولا نشح بها توقياً . فهكذا السيد المسيح لم يعلمنا ويشقفنا بالأقوال فقط بل بالأفعال أيضاً أظهر محبته لنا . فلهذا يجب علينا أن نتضع ليعتنى الله بنا لأن الذين يعتنون بأنفسهم وحدها سوف يحتقرهم الله ويرذلهم . فمن رام أن يعـــرف كيفية محبته لصديقه محبة خصوصية ويطلع على كمية قوتها فليبادر نحو صانعها وموطدها أعنى به بولس الطوباوى ليأخذ عنه معرفتها فيرشده ويريه مقدار الجهاد المنصوب فى طريقها . وكيف يجب على الواحد أن يصبر على مفارقة صديقه الصدوق وكيف يحتاج نفساً شجاعة مأمونة. لأن الرسول الإلهى هذا المعظم ذكره قد علم المسكونة باسرها وطرد من فكره جميع الآلام المتغايرة وغاير الملائكة وحاز عدم آلامهم لكونه احتمل مشقات الناس بسهولة . أعنى الحبوس والسلاسل والاغلال والجهاد المؤلم والضرب بالعصى والميتات والإهانات المتنوعة وطفحت على سفينة جسمه أمواج الشقاء والإهانات فكأنه كان فى جسم مستعار غريب. وهذا الذى احتمله جميعه ما كان إلا نتيجة محبته العظيمة للسيد الذى خلصه وأنعم عليه بوظيفة الرسالة الجليلة ومع هذا تظنون أن هذا الرسول العظم الشأن اختصر على محبته لسيده . كلا . بل كان محباً للجميع وخصوصاً لأبناء جنسه وآل عشيرته حتى أنه قال مرة أنه كان يود أن يكون محروماً من المسيح من أجل اخوته أنسبائه حسب الجسد روميه ص ٩ عدد ١ — ٣ فانظروا أيها الأخوة غزارة تلك المحبة وأنها محبة ليست فى النفس فقط بل يلزمها تعزية جسدية ومخاطبة بمجاهرة . فيا للعجب من تلك الصداقة والمحبة الحارة التى كانت لبولس ذاك غير المقهور من التجارب والمحن والحصن الوثيق غير المنثلم القائل ماهو الذى يفصلنى عن محبة المسيح . احزن أم طرد أم مفارقة هذه الحيوة الزمنية . اننى أحتمل هذه جميعها بفرح . ولما أبصر أيضاً فى بعض الأوقات انسجام دموع احبائه الاخلاء عند مفارقته أياهم قال لهم . ماهذا الذى تصنعونه يا اخوتى ولماذا تبكون وتغمون قلبى وتذيبونه حزنا . فيا له من عجب مفرط . ماهذا الذى تقوله يابولس الطوباوى أترى تلك

النفس التى لم تستطع الأحوال والشدائد أن تقهرها وتكيدها أفلم تقدر أن تبيد وتكف الدموع والعبرات . نعم أن قوة المحبة الغزيرة . ومن هذه المحبة أكاد أن أكون مغلوباً ومتضايقاً واحتمل سائر المحزنات ما عدا المحبة . فمن لا يعجب ومن لا يندهل من شجاعة بولس الكائنة فى السموات . لأنه لما كان معتقلا مسجوناً كان يوجه رسائله من مدينة رومية إلى مكدونيا نحو أهل فيلبسيوس . والذين ذهبوا إلى هناك يعرفون بعد المسافة بين مكدونية ورومية ومع هذا البعد الشاسع لم يحصل له مانع يعيقه عن محبة التذكر لتلاميذه وكان يرسل مكاتيبه دائماً إلى كنائس المسيح فى كل صقع وجهة . هذه هى قوة المحبة وعظمتها وليس أنها تؤلف بين الحاضرين فقط بل تصافح البعيدين النائين وتحتضنهم . هكذا يجب على من يؤثر المحبة ويسمح بنفسه فى مآرب صديقه . فلهذا لا يوجد للخليل النصوح ثمن يوازيه . ألم تر كيف يفرح متهللا حين يشاهد وليه ويصلى لأجله كمن يصلى لأجل ذاته . ولقد شاهدت إنسانا يتوسل الى الله ويستمد من طلبات القديسين أن يساعدوا صفيه ثم بعد ذلك طلب لأجل ذاته . ولقد علمت مختبراً كيف أن بولس ذاك الرسول الطوباى كان يسمح بنفسه لأن يعاقب مع شوق متقد وصلوة حارة فداء عن أصدقائه ومحبيه . فمن يحب لا يشاء أن يحكم بل يؤثر أن يحكم عليه . ومن يحب يطلب أن يهب لا إن يوهب لأنه يريد أن يكون مديوناً لصديقه ومحكوماً عليه . وهذه يعدها منه عظيمة وإحسانات وافرة من حبيبه . ولا تتوهم فى ذهنك أن قولى هذا عن أصدقاء الموائد . حاشا . إن الذى له صديق متصف بهذه الصفات المذكورة يفهم ما أقوله ويعلم أن هذا الصديق هو أحلى من هذه الحيوة الحاضرة . وكثير من الناس لا يشتهون العيشة والمقام فى هذه الدنيا بعد موت خلانهم لكون أصدقائهم عندهم أعز وأفضل من نور أعينهم . ولقد كانوا يفضلون أن لا تضىء الشمس بأشعتها عليهم على أن يفترقوا من أحبائهم واصفيائهم لأن الانسان المكتنف من الأصدقاء لا يصادفه حزن البتة . وإذا كان لك صديق يحصل لك منه داء نفسانى فأصرم من الوسط حبل الوداد بلا تمهل . كما إذا رأينا أحد أعضائنا قد فسد وأضربنا كثيراً فنبادر إلى قطعه لئلا يفسد باقى أعضائنا ويوهنها . فإذا كان هذا الأمر جارياً على الجسد فالاهتمام بالنفس من باب أولى . لأن الإجتماع الردى والمحبة المفسدة هما شر كبير وداء عضال . لأن الذى لا يقدر الضرر أن يفعله تستطيع المحبة أن تضره والذى يوآخى أعداء الملك ويوادهم لا يمكنه أن يكون صديقاً للملك . ومتى أحبنا أحد من أجل الله نكون ملزومين بكرامته تعالى . ومتى مقتنا أحداً من أجل أسمه يكون هو ملزوما

بكرامتنا . فلنتأمل هذا نحن الذين لا نرفض المقتنيات المفسودة لأجل المسيح بل بالحرى لأجلنا ولنعجب من محبة بولس لأجل المسيح ونجعلها تجاه عقولنا وأذهاننا . لأن بولس لم يكن يحب المسيح بمقدار ما كان يحب لأجله . وكان قد خاف جداً أن يسقط من محبته . وهذا كان مخيفا له أكثر من جهنم . فإذا كان ذاك لأجل محبته للمسيح يرضى أن يلج نار الجحيم معاقباً ويعدم مثل تلك الخيرات السموية . فما بالنا نحن لا نرضى أن نهمل لأجله شيئاً ولو هذا العالم الفانى لا غير . أترى لسنا مستحقين الدينونة والانتقام الأبدى نحن الذين نبتعد بهذا المقدار عن عظمته . مع إننا لا نستحق أن نمس حذاءه . ولقد كان عندنا كلام آخر نخاطبكم به . ولكن ضاق الوقت عن ايراده فسنبقى التكلم عنه إلى وقت آخر . ونوصيكم الآن هذه الوصية فقط . وهى أنه كما أن لنا أيماناً قويماً مقدساً يجب أن يكون لنا باذائه حب مفرط للاصدقاء والأعداء معاً . وخاصة محبة الغرباء والصبر على التجارب والمحن التى تصيبنا . وأن نعتنى بالطاعة الجيدة لأقوال سيدنا المسيح وتعاليمه . وأن نجتهد فى الذهاب إلى الكنيسة فى وقته . وأن نصون عيوننا عن المناظر السيئة المعوجة ونحرص من الأفكار الرديئة المسجسة والسكر القبيح . وأن لا يعادى أحدنا الآخر . وأن لا نكترث بالمآكل المختلفة الأنواع كالحيوانات والوحوش النهمة . وأن لا يضر أحدنا الآخر بالوشاية والدعاوى فى الخصومات حسب رغبة ذلك الشيطان عدو أنفسنا وإرادته . بل يكون اجتهادنا بحرص وكد لنرضى المسيح ربنا ونفرح زمرة الملائكة والقوات العلوية وليحب بعضنا بعضاً لكى ننال ملكوت السموات بيسوع المسيح الهنا . الذى له المجد والقدرة والعظمة إلى ابد الآبدين آمين .

المقالة الرابعة عشرة

(فى الصدقة)

إن المقال على الصدقة أيها الأخوة لا يشمل الأغنياء والعظماء فقط بل الفقراء والمساكين أيضاً لأن فيه نفعاً عظيما وخلاصاً للجميع . ولو كان أحد مكدياً ويعتمد فى معيشته على التسول فإليه ينتهى الخطاب على الصدقة ويكون موافقاً له جداً . لعلمنا بأنه لا يوجد أحد

بهذا المقدار محتاجاً وفقيراً حتى أنه لايوجد عنده من حطام الدنيا مايساوى فلسين مع أنه يمكن إذا أعطى الإنسان من القليل قليلا لابد أن يكون أكثرفضلا وأجرة من الذى يعطى كثيراً كالأرملة المسكينة ذات الفلسين . لأن الله لا يطلب منا كمية الفضة المعطاة بل ينظر إلى ضمير المحسنين فهناك يعد عظم الصدقة وجزاءها . ومن ثم نتبين الحق الواضح كيف أن تلك الأرملة أعطت الفلسين اللذين كانا لها لاغير . وإذ لم تحزن لذلك ولم تكتئب مدحها الرب لفضلها ولأنها لم تعتبر حاجة الغنى بل التفتت إلى حيث الاعتناء والاجتهاد . لأنه متى كان لنا شفقة وتحنن على المساكين لايعيقنا عائق الاحتياج عن مواساتهم وبعكس ذلك متى عدمنا الشفقة والبشاشة لاتفيدنا ثروتنا أصلا ولا اتساعها . ومن هذه الجهة يكون عقاب الأغنياء القليلى الرحمة أشد مرارة وبؤساً من الفقراء الحريصين لأن سعتهم فى الغنى لم تجعلهم مترائفين ومحسنين وودعاء ولم تصرلهم راحة فى رحمة المساكين . ولا تقولن لى أن أناسا كثيرين سمحوا بصدقة وعطايا وافرة . فأجيبك أنهم إذافعلوا أعظم صدقة وحسنة وهم لم يهبوها كما يجب حسبما نص به الرسول الإلهى . أن من يرحم فليرحم بطلاقة وبشاشة لايمكنهم الفرار من العقاب المستأنف . فإذا كان الأمر هكذا فهل يمكن لغنى أن يخلص . نعم بأبلغ الإمكان ألم يكن إبراهيم غنياً وأوفر ثروة من أكثر الناس . فإن اختبرت غناه فانظر الآن إلى فرط ربح محبته للغرباء . قال الكتاب الإلهى عند انتصاف النهار ظهر الله لإبراهيم بهيئة ثلاثة رجال عابرى طريق وهو وقتئذ رابض بأزاء البلوطة السوداء . فلما تبينهم سارع حالا مبادراً لاستقبالهم واقتبلهم ببشاشة مسروراً . ورحب بهم باكرام وحبور جزيل . ومع هذا لم يكن يعلم أن القادم إليه هو البـــارى تعالى . ولكن كيفما اتفق أنه سجد لهم قائلا . ياسادتى ألا تتنازلون متفضلين إلى منزلى الوقتى ولو كنت غيرأهل لذلك . أشاهدت ماصنعه الشيخ المكرم عند انتصاف النهار وقت الظهيرة حيث لم يكن ساكناً تحت سقف بل كان ذاك الغنى الحسيب أبو الآباء إبراهيم الجليل القدر والشأن كغريب وعابر سبيل إذ ترك بيته وإمرأته وأولاده وغلمانه وخرج باسطا شباك رحمته ليقتنص محبة الغرباء لئلا يفوته فأئت أو يهرب منه غريب أو عابر سبيل من غير أن يضيفه فى منزله . فانظر ماذا صنع إبراهيم . فإنه لم يرسل عبده فى تنفيذ أغراضه مع أنه كان له ثلاثمائة وثمانية عشر رقيقاً . وذلك لعلمه أن جنس العبيد ذو اهمال وكسل . فلعله من تهاونه ينعس متكاسلا فيفوته الصيد ويتجاوز عنه الغريب وهو لايشعر بمروره . فلهذا باشر هذا الأمر بذاته . فكان هو بنفسه يمضى ويجلس على قارعة الطريق فى حر الهاجرة . انظر إبراهيم هذا وتأمل هذا الذى هو بالحقيقة غنى . قل لى أيها الغنى المتمول هل تتنازل إلى أن تنظر إلى فقير ولو شزراً . وياليتك ترد

جوابه أو تكلمه أو تعزيه إذا لم ترد أن تتصدق عليه . ويقول نهض إبراهيم وسجد لهم وهو لم يعرفهم . ولو كان يعلم من هم لماكان هذا فعلا مستعجباً لكونه خادم الله ويجله . ولكنه بعدم معرفته أياهم أظهر أن اشتياقه لمحبة الغرباء زائد جداً . ثم أنه دعا سارة قرينته لتشاركه فى محبة الغرباء معاً بالسوية . إن كان صوماً أم صدقة ام غير ذلك من الفضائل الأخرى . فقال لها انهضى وانخلى واعجنى خبزاً جيداً لنقوم بضيافة هؤلاء المحبين الذين ارسلهم الله لنا . أما سارة المحبة للغرباء فلم تخالف ماقاله ولم تقل مايقلنه أكثر نساء زماننا هذا لأزواجهن . ماهذا أصابنى منك . العلى طحانة ام خبازة حتى اعجن لك خبزاً . أنه ليكفينى غناى وجهازى . ها الخادمات كثيرات . لم لا تأمرهن بذلك . ألعلك تريد أن تستخدمنى . أما سارة فلم تقل هكذا بل مع أنها كانت بالحقيقة غنية بادرت للحين وأكملت ما أمرها به زوجها . قل لى أين تجد اليوم مثل هذه المرأة فى النساء اتراهن يتنازلن أن يعملن بمقتضى أمر بعولهن . لا أظن أنما تجد ايديهن مزينة بالذهب الثمين فقط ولاتحتوى إلا اغتصاب مال الفقراء وهى مملوءة من الاستكثار والطمع .أظهر يد سارة لترى ماهى حلالها وزينتها . أنها لم تكن متحلية إلا بالرحمة ومحبة الغرباء ومملوءة من الرأفة والشفقة على المساكين . قال لها إبراهيم هلمى مسرعة واعجنى ثلاثة أكيال دقيق منخول بالمنخل الدقيق . وأما هو فبادر مجداً إلى زريبة البقر وتشاطر التعب ليقدسها الأكيال الآلهية ونحر حالا العجل المسمن وانقلب الشيخ بنشاطه كشاب . وشوقه الزائد إلى محبة الغرباء كان يعضده ويقويه . وكنت ترى سيد عبيد متعددة حاملا عجلا وثقله لم يؤذيه . لأن نشاطه فى مآربه كان يخففه عليه . ترى ما الذى قاله الضيف الحاضر . أنه قال أن إبراهيم مستحق أن ينال مجازاته عن قبوله الغرباء واستقباله لهم بالرحب والسعة . أنى سأجىء فى العام المقبل مثل هذا الوقت ويكون لسارة ابن . أرأيت محبة الغرباء وأية ثمرة أينعتها تلك المائدة الدسمة الزاهية . وكيف أن العنقود قد نضج قبل أوانه . هكذا هى أثمار الرحمة دائماً . فلهذا لاتخالن أننا متى أعطينا من مالنا صدقة للمساكين أنه ينقص ويتبدد أنما يتضاعف متكاثراً وينموا زائداً . لأن مال الرحوم لايشوبه النقص ولا الفناد بل يتكاثر أضعافاً . فالمشهور أن الربح إما أن يكون من متجر وإما أن يكون من بذار . وقد يتفق أن الأمرين كليهما قد يفقدان مع ربحهما . لكون الذى يسافر فى البحر يعانى فى مسيره شدائد كثيرة . ومثله الفلاح قد يناله مصائب متعددة فى بذاره . إما من عدم الغيث والأحتراق وإما من كثرته . وإما

ذاك الذى يضع ماله فى يد المسيح فيصان من كل آفة وبلية لأنه لا يجسر أحد على أن يختلسه من يد المسيح بل يبقى دائماً إلى الأبد ويأتى له بأثمار كثيرة نضرة . ولعلم البارى تعالى أن من يثمر ههنا يحفظه بعد الممات ليعطيه هناك غنى جسيما . فكما أن أحد الناس إذا أخذ شيئاً من آخر لا يحتقره بل يعوضه خيراً عن خيره . هكذا السيد المسيح فإنه مزمع أن يؤدى أكثر مما أخذ . فإذا كان البارى تعالى من غير أن يأخذ يمنح العطاء . فكم بالحرى لو أخذ اتراه لا يعطى ؟ اسمع ما يقوله سليمان الحكيم . من يرحم مسكيناً يقرض الله . اشاهدت أمراً اعجب من هذا . وفائقاً على إدراك العقول أن واحداً يأخذ وآخر يصير مديوناً من جرائه ويهتم فى أن يفى دينه . ولهذا لم يقل الحكيم من يرحم مسكيناً يعطى الله بل قال يقرضه . لئلا يظن ظان أن الوفاء يكون بسيطاً وخالياً من الربح . والبارى تعالى اعلم بطمعنا وعدم شبعنا لأنه دائماً يطلب الأكثر. فلما تقدم عرفانه تعالى بأن المتمول لا يقرض مسكيناً من غير ضمين أو رهن أو صك تسليم . ورأى أنه لا أحد يقرض المسكين بدون هذه لأنه يلاحظ الربح فقط ولم يكن من يقرضه من باب التحنن والرحمة . والفقير ليس له شيء من هذه كلها . فلا رهن لديه يرهنه . ولا ضمين له يتكفل به . ولهذا لم يجسر أحد أن يقرضه . فلما رآه الله فى شدة هذا عظم مقدارها من قساوة الأغنياء وجفائهم ابرز ذاته إلى الوسط ضميناً وصار كفيلا للفقير ورهناً لمن يقرضه فقال حينئذ الحكيم . من يرحم مسكيناً يقرض الله . أننا نرى الأغنياء يحتجون بأنهم يقرضون الحسنى الوفاء والكثيرى الربح فى العطاء يعتذرون بأن المساكين عسرو الوفاء ومعاملتهم ردية . فياللعجب كيف أننا نترك البارى تعالى الحسن المجازاة والوفاء . ذاك الذى يفينا حقوقنا عوض الواحد مائة وغفران الخطايا . ونقرض اناساً لا يفونا رأس مالنا على الأقل من كل ما نعطيهم إياه . قل لى أى ربح يفينا البطن الذى نجتهد لأجله ونكد لخدمته وهو يفسد جميع أموالنا ويصيره قذراً ونجاسة . أو أى اكرام يمنحنا المجد الفارغ والكبرياء . ما هو إلا الحسد والحزن والعداوة المفتتنة ، وأية نتيجة ينتج لنا البخل والشح . غير الهموم والحرص الردى أو ماذا نربح من الزنى والنجاسة . ذاك الذى يهيء لنا نار جهنم التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت . فهؤلاء نصيرهم مديونين لنا والله لا نستأمنه . فتباً لنا ولعقلنا حيث أننا لا نضيع الربح فقط بل سوف نفقد رأس المال أيضاً ونجنى عقاباً مخلداً . فلم أيها الأخ لا تعطى من يوفيك حقك بالكمال بل يصلك أكثر منه . العلك تقول أنه يتباطأ عليك فى العطاء . وكثيراً ما نراه يعطى فى هذه الحيوة الحاضر . وحاشاً الله أن يكذب إذ هو القائل . اطلبوا ملكوت الله وبره وهذه الأشياء تعطى لكم . وكلما أبطأ البارى فى اعطائك يكون ربحك زائداً . ولنا قياس

فى هذا أولئك الذين يقرضون . فإنهم يحبون أن يبطىء غرماؤهم فى الوفاء ليتضاعف ربحهم
لأن الذى يفيهم سريعاً يحسم عنهم فوائد قرضهم . تأمل كيف أنه لا يثقل علينا أن يبطىء
الذين نقرضهم فى الوفاء بل نخفض لهم جناح الدعة ليزداد ربحنا . وإذا اقرضنا الله شيئاً
نتضايق ونأخذ فى اللجاجة . من يرحم مسكيناً يقرض الله . فيالعظم محبتك للبشر وتحننك
أيها الرب الاله لكونك تقترض منا نحن عبيدك الاذلاء لأجل رحمة المساكين . ولكن متى
كفينا حقنا يا الهنا . يقول الرب أتطلب بذلك منى عهداً وميثاقا . فاقول له متى ذلك فيجيبنى
إنى افيك دينك بربحه . متى جلس ابن الإنسان على سدة مجده يقيم الخراف من عن يمينه
والجداء عن يساره . ويقول لمن عن يمينه . هلموا يامباركى أبى رثوا الملك المعد لكم قبل
إنشاء العالم . ترى إلى من من المسيحيين يوجه هذا الخطاب ليس إلا للرحماء . فيقول لهم
إننى جعت فأطعمتمونى وظمأت فأرويتمونى وعرياناً كنت فكسوتمونى فلماذا أيها السيد
المسيح لم تذكر فضائل أخر غير هذه بل بدأت الخطاب بالرحمة فقط . فيجيب حينئذ الرب
الاله قائلا . إنى لا أدين الخطية بل أحكم على القساوة . لأنه قد كان لكم دواء جزيل
الثمن شافياً لنفوسكم ومخلصاً . أعنى به الرحمة التى تمحى بها خطاياكم فأهملتموه وتركتم مثل
هذه الإحسانات الجسيمة والمجازاة العظيمة المقدار . لأن الله لم يعطك الغنى لتصرفه فى بذخ
المآكل والمشارب وفى الأعمال التى تخالف ناموسه وشريعته بل لتوزعها فى طريق الرحمة
وفى الأعمال الصالحة المرضية لله . العلك تظن أن الذى تهبه هو من مالك . كلا . بل إنما
تعطى مما أؤتمنت عليه من أجل المساكين . وسلمنا أنه كان من مالك طارفاً أو تليداً والله
من تحننه عليك أمرك أن تعطى منه صدقة . اتظن أن هذا شىء مخصوص بك وأنك أنت
المتفضل به . وتصير محبة الله للبشر سبباً لعدم الشكر له . افما كان الله قادراً على أن يسلب
هذا المال من يدك ويسلمه لمن لا يفعل هكذا . ولكنه من كرمه واتساعه قد تركه تحت
سلطانك لتفعل منه إحسانات وخيرات للمساكين . فلماذا لا تهب منه صدقة لأحد .
فكأنك غير مؤمن بانك ستأخذه أيضاً . وكيف يمكنك أن تتوهم هذا فى ذهنك . لأنه
تعالى إذا كان يعطى لمن لا يهبه شيئاً فكم بالحرى يعطى من أخذ منه أولا . ولأجل هذا
سمح الله وخولك واعطاك ثروة أكثر من الغير لا لتصرفها فى الأشياء الباطلة والأمور
الردية كالزنى والعصيان والسكر والشراهة أوفى ثياب غالية الثمن وفى أشياء مضمحلة بل
لتوزعها على المساكين والمحتاجين لأنك ستلج الجحيم معاقباً بالجزاء المؤلم إذا إذخرت
لذاتك ما هو فوق حاجتك الضرورية ثم انك بذرت ما آذخرته واضعته بالأمور الردية غير

النافعة . ولقد رأيت كثيرين بالغوا فى قساوة لا توصف من قبل توانيهم وأعرضوا عن الجائع والمسكين قائلين له . أيها المسكين انى ناء عن منزلى وعبدى ليس معى ههنا لابعثه معك ليعطيك غذاء . فياله من عدم تحنن وقساوة . ويالها من جسارة وكسل . ولقد كان من الواجب عليه أن لا يتهاهل فى شأنه ولا يتهامل ولو بعد منزله مسافة عشرة أميال لأن أجره بذلك يكون متضاعفاً . فإنك إذا أعطيت رحمة تنال اجراً واحداً . وإذا احتملت مشقة بالعطاء تنال أجراً آخر لأجل تعبك فلنعجب إذاً من فعل أبى الآباء إبراهيم الذى كان فى داره ثلاثمائة وثمانية عشر مولى ولم يأمر أحداً منهم أن يذهب إلى القطيع بل هو بنفسه عانى أمر خدمته إذ كان هرما نحيفا فاسرع عاجلا نحو الماشية وأخذ العجل كما بينا سابقا . فانظر لهذا ولا تخجل مستحيا من أن تخدم المسكين بيديك وأنت رجل معتبر . فإذا كان السيد المسيح مبدعك لا يستحى من أن يمد يده ويتناول الصدقة المعطاة للمساكين فكيف أنت يا حيوانا ناطقا تستحى أن تمد يدك وتعطيه جزءاً يسيراً من الفضة أو كسرة من الزاد . فبالحقيقة أن فعلك هذا هو عين الحياء والخجل . وإذا كان لأجل كأس ماء بارد تمنحه للضعيف تنال ملكوت السماء فكيف إذا لو دعوته إلى التمتع بغناك وجعلته شريكا لك على مائدتك وأرحته بشفقتك . قل لى كم من الاثمار الخيرية كنت تكسبه . فالأولى بنا أن لا نأنف من أن نخدم المساكين ونريحهم لأن أيدينا تتقدس بواسطة خدمتهم . وإذا رفعناها فى حال الصلوة ينظرها البارى تعالى مباركة فيتحنن علينا ويعطينا سؤلنا تاما . إن الذين يهبون الصدقة هم كثيرون أما الذين يخدمون المساكين بذواتهم ويعانون ذلك بشوق واشتهاء فقليلون ويحتاجون بذلك إلى نفس قوية وشجاعة . اخبرنى إذا كان أحد يساعدك فى الأمور العالمية ويتقدمك فى المحاكم وغيرها ويتعب معك فى وقت الشدائد والمخاطر افما كنت تستقبله متى رأيته بابتسام وبشاشة وتظهر له الفرح والابتهاج وتهديه التحف والذخائر وتصير له كالعبد الرقيق . بخلاف ما إذا رأيت المسيح آتيا فإنك تستخف باستقباله وتتقاعد عن خدمته . فالحق أقول لك . أنك إن لم تستقبل الغريب كأنه المسيح لا تكون قد استقبلته أصلا . فإذا كان كأس ماء بارد يعطى عنه الأجر والثواب فماذا يكون أجر الذى يعطى الفضة والأمتعة . فمن المستحيل أن لا يكون له شيء . فإذا كانت الإحسانات والصدقات هى هناك نعمة الله من غير نقص فكم بالحرى ينال الأجر من الحاكم العادل من يعطى الامتعة والمقتنيات وباقى الأشياء الصالحة . وإنى لأعرف جيداً انكم مراراً كثيرة سمعتم عن هذه وأمثالها وتعلمتموها لكى تعملوا ولو خيراً قليلا . والله يقويكم لتفعلوا أكثر من هذا . أننا فى جهل عظيم وقلة أدب لأننا إذا أردنا أن نفحص

عنها بكد واجتهاد وتتمنى أن يكون أرضا جيدة ومثمرة . وأما الملك الذى هو عوض عن هذه الأرض الفانية فنشاهده وتجاهنا ولا نختار لنا فيه أماكن ومنازل لنشتريها وننتظر منها أثمار أتعابنا . قل لى أيها الإنسان . أترى كنت تبنى لنفسك منزلا فى هذه المدينة إذا قال لك أحد أنها بعد ستة أيام تدك وتهدم . كلا . أما مدينة هذه الدنيا فسوف تهدم . وأما المدينة السموية أورشليم العليا فلا يخشى عليها . فإذاً لايجب أن نختار البناء فى هذه الدنيا التى مآلها ومرجعها إلى الخراب . ولا تخرب مدنها ومنازلها فقط بل العالم أجمع . ومالى أخبر عن خرابها ونحن سنموت قبل سقوطها . فالأفضل لنا أن نبنى فى السموات منازل وأماكن وهناك لانحتاج إلى بناء ماهر لأن أيادى الفقراء هى التى تبنى وأما البناء فليس كهذه المنازل التى نراها بل هو ميراث ملكوت السموات . لأن الرحمة تصعد الإنسان إلى علو شامخ وتسبب له دالة بليغة عند الله . فكما أن الملكة إذا آثرت الدخول إلى بساط الملك لايجسر أحد من الحجاب أن يمنعها أو يسألها عن المكان الذى تريد الذهاب إليه بل كل رجال بلاط الملك يستقبلونها بابتهاج . هكذا من يعمل الرحمة والصدقة يمثل أمام الملك وهو على عرشه بدون عائق لكون البارى يحب الرحمة حباً شديداً وهى تقف بالقرب منه . ولذلك قال الكتاب الالهى . قامت الملكة من عن يمينك . ولذلك لأن الرحمة هى مفضلة عند الله فهذه الرحمة هى التى جعلت البارى تعالى أن يصير انساناً لأجل خلاصنا . ولهذا متى طلب إلى أبيه لأجل الذين يعملون الرحمة يؤهلهم إلى نعمة العطاء . أما دالة الرحمة فهى عظيمة واكرامها أمام الله تعالى جسيم جداً لكونها لاتمحو خطايا المحسن الرحوم فقط بل تنقذه من المنون . فإذا قلت كيف تحقق أن الرحمة تسود على الجميع وتغلب الموت ونحن نرى الجميع يموتون ولا يمكن لأحد أن يفلت من كأس الحمام . فلا تشك أيها الأخ الحبيب بل تأمل الأمور بامعان لترى مقدار قوة الرحمة وكيف أنها تقهر المغية وتعلو عليها فاسمع أنه كان فى مدينة يافا جارية عذراء وكانت تعمل صدقات كثيرة مع الجميع وأسمها طابيثا . فكانت تعمل عملها المعتاد من غير فتور ولا أهمال وتواظب اصطناع الرحمة بلا تقصير . تكسو الأرامل والايتام وتفتقد الفقراء والأرامل وتعزيهم . فأصاب هذه الجارية داء عضال وتوفيت . فما الذى صنعه حينئذ أولئك الأرامل وباقى المساكين الذين كانوا ينالون منها الخير والإحسان . أنهم لم يدفنوها بل أرسلوا على الفور واستدعوا بطرس الرسول . فلما وأفاهم وأسرع الأرامل إليه واستقبلنه باكيات وأخذن يرينه الإحسانات والصدقات التى كانت تعملها نحوهن تلك الجارية . لأن الواحدة كانت تريه ثوباً سترتها به . والأخرى قميصاً . وأخرى سنبلا وغيرها حذاء . وما أشبه ذلك . فلما أبصر بطرس تلك

الصدقات المتنوعة ورأى عبرات الفقراء واليتامى تنسكب جثا على الأرض وصلى متوسلا من أجل الأرامل . ثم التفت إلى الجسد المسيحى قائلا . ياطابيثا انهضى . فنظرت بحدقتيها وأبصرت بطرس حاضراً فجلست حينئذ . أما بطرس فأمسك بيدها وأنهضها ودعا الأرامل والحاضرين وسلمهم أياها حية . أرأيت أيها الحبيب قدر أحسان الرحمة وحسن مجازاة الأرامل لها . لانهن عوضنها عن جميع ماأعطتهن من المنح والمواهب . لأنه لايعظم مقدار الصدقة لوفور المقتنى ولزيادة الغنى بل بسبب اشتياق المانحين ورضاهم . فبالحقيقة أن أقدام القديسين بهية . وليس أنهم يباركون بيوتاً يدخلونها فقط بل يقدسون الأرض التى يطأونها بأخمصهم ويمنحون المؤمنين خيرات عظيمة وينيرون العمى الطبيعى ويشفون من الأمراض والأوجاع المزمنة ويشددون تراخى الكثيرين . ولهذا لما داست قدما ايليا النبى بيت تلك الأرملة التى أحيا أبنها أظهرتا أحسانات عجيبة فائقة العقول . أن قدميه جعلتا بيت الأرملة بيدراً مفعماً من الحنطة وصيرتا أناء الزيت معصرة ونبغ على الفور فى البيدر طريق حديث مستغرب . وهو زرع وحصاد معاً . فإن قلت وبأية طريقة كان ذلك . أجبتك . أنها أضافت ولى الله بحفنة دقيق فاستغلت من طحين بذرته دقيقاً ناعما بخلاف المشهور وبورك لها فى أناء الزيت ففاض لها بزيت كثير ولم تحتج إلى بقر وآلات لتفلح أرضها ولا استمطرت لأجل ذلك أوطلبت رياحا لنمو زرعها ولا أحتاجت منجلا أو بيدراً لتلقى فيه أكداس حصيدها ولا هواء مناسبا لتذرى ماتدرسه من غلتها ولا رحى تطحن بذلك برها . بل وجدالجميع فى لحظة داخل بيتها . هذه هى مواهب القديسين ومنحهم . فانظر كيف أن اقدامهم تهب الهبات الجسيمة ولئلا نسهب فى الخـــطاب يـكفيك مالخصناه لك من النزر اليسيز عن مواهب القديسين . والحاصل أننا بمقدار ما نـكرمهم يمنحوننا المواهب والصلات . وبمقدار مانستخف بحقوقهم يسببون لنا عقابا سريعا وناراً ملتهبة أبدية . ولعل المعترض يقول . أن ذاك كان بطرس . وهذا ايليا فأية مناسبة فى هذا . فما هذا القول ياانسان . ألعل بطرس وايليا لم تكن لهما الطبيعة التى لنا . أما ولدا فى هذه الحيوة مثلنا . ألم يغتذيا كاغتذائنا . أما تصرفا فى أمور العالم مثلنا . أما تزوج البعض من القديسين وولدوا أولاداً وبنين . أما تعلم البعض منهم أيضا صنائع عالمية أما كان بعضهم فى عمق الشرور وغوره حتى كان بعضهم عشارين وبعضهم مضطهدى بيعة المسيح لـكنهم حين تابوا نالوا من الله النعم الغزيرة حتى أن البعض من هؤلاء الرسل اقاموا أمواتا . والبعض فتحوا اعين العمى . والبعض طهروا برصاً . والبعض شفوا مخلعين . والبعض

أخرجوا من الناس شياطين وطردو ووهبوا المرضى أنواعا من الشفاء لا تحصى عداً . ولو كان لنا زمان لامكن أن يكون لنا الجواب عن واحد فواحد من المذكورين . وإذا فحصت عن طريق العيشة المرضية والتصرف بها تجدها . وحتى الآن أيضا الذين يريدون أن يبتعدوا عن هذه الشرور يمكنهم أن يظهروا طريقة الطاعة . فإن قلت وما هى الطريقة . اجبتك .ان السيد المسيح لا يمنح الغلبة واكاليل على الإطلاق إلا للذين نصبوا أمامهم ناموسه وسار بمقتضى وصاياه الشرعية . ولهذا لم يقل هلم يامباركى ابى رثوا الملك المعد لكم من قبل انشاء العالم لأنكم اجترحتم العجائب والآيات الباهرة . بل لانى جعت فاطعمتمونى وظمئت فسقيتمونى وكنت غريباً فاويتمونى . وأما عدم اجتراحنا العجائب فلا يضرنا منه شيء ولا يطلب منا الجواب عنه عندما يفحص عن الخطايا التى ارتكبناها ولو كان تقويمها من نعمة الله . إنما يطلب منا أن نسلك بالمحبة لاغير ونعتاض عنها بالاكاليل الثمينة ولو لم نجترح عجيبة وأما السيرة الرديئة المخالفة للنواميس الشرعية فلا يمكننا الهرب والفرار من العقاب والإنتقام عنها . فلهذا لا يجدينا اجتراح العجائب نفعاً كالفضائل . لأن الفضيلة وتفيدنا وتفيد قريبنا ونسيبنا كالرحمة والصوم والصلوة وباقى الفضائل الأخرى . ولكن الرحمة هى مقدام الفضائل ولها القوة المطلقة . لأنك إذا صمت مثلا وأنت عديم الرحمة لا يفيدك تعب صيامك شيئاً بل تكون كالمهذار والسكير بل أبلغ . لأن القساوة وعدم الشفقة والإنسانية أصعب من هاتين الخصلتين السيئتين . . ومالى أذكر الصوم بل إن حفظت الطهارة والبتولية التى لا يوازيها فى الشرف الباهر أعظم الفضائل الأخرى لأنك بها تضاهى الملائكه بالطهارة الذين هم فوق حفظ النواميس الشرعية لتسامى طبائعهم وشرفهم فسوف تقف خارج الخدر السماوى إذا لم تكن عندك الرحمة . أما ترى العذارى البتولات كيف انهن يطردن من حضرة الختن السماوى لعدم اقتنائهن الرحمة بسريرة نقية . فالملخص من هذا أنه لا يمكن لأحد ليس عنده رحمة أن يجد صفحاً عن سيئاته . فإذا كان فى هذه الحيوة الزمنية لا يستطيع أحد أن يعيش منفرداً بلا علاقة مع غيره . لا الصانع ولا الجندى ولا الفلاح ولا التاجر بل الجميع يتعبون لأجل احتياج الأكثرين وخاصة لجيرانهم . فنحن بالأولى نهتم بالأمور الروحية . فلهذا كان جيداً للإنسان أن يعيش لفائدة الكل لا لذاته وحدها متغافلا عن الآخرين لأن الإنسان الذى هذه السجية سجيته ليس بإنسان بل بهيمة . لكونه يكنز لذاته فقط . وهو يشبه الأعمى الذى يخبط فى الأرض خبط عشواء تارة يسير إلى فوق وطوراً إلى أسفل . ويماثل الطماع الذى يتوهم أنه لا يمكنه الاكتفاء بما اقتناه ما لم يخترق

الدنيا باسرها . فتراه كل حياته فقيراً لايستعطى مع أنه جاد فى الطمع واكتساب الغنى .
فلذلك كل من أحب أن يكون غنياً يجب أن يصير فقيراً بالرحمة ليتمكن من الغنى هنا وهناك
فيوزع مازاد عن احتياجه على المساكين ليذخر لنفسه هناك غنى لا يضمحل وكنزاً فى السموات
لا يفنى وأن رأيت هذه الأشياء بعد ظهورها أنها عسرة الحصول وقليلة فانظر الفلاح
كيف لا يمكنه أن ينال غلة وافرة ما لم يتقدم يبذر جميع ماعنده حتى أنه فى بعض الأحيان
يقترض حنطة ليزيد بها ما يزرعه . فلماذا أنت أيها الأخ الودود لاتواسى المحتاجين وتبذر
عندهم زرعك لكى تحصد منه ثمراً جزيلا روحياً باقياً من غير نفاذ . فإن قلت كيف
استطيع أن أفعل هذا وأنا ذو أولاد وبنين فأود أن يكونوا بعدى أغنياء وذوى ثروة واسعة
ومضمون كلامك يجعلهم فقراء متسولين . وهذا خلاف مرغوبى . اجبتك حقاً يقيناً أنك
ولو تركت لهم جميع مقتناك لما وضعتها لهم إلا بمكان غير مصون ويكونون هم من
جرائها غير محفوظين . ولقد كان الأليق بك أن تجعل لهم البارى تعالى مؤازراً ووارثاً
ووكيلا . فيكون لهم هذا الأرث الثمين أفضل من كنوز كثيرة . فمن هذه الجهة إذا اردت
أن تخلف لأولادك غنى كثيراً . فاتركهم لله وديعة ليعتنى بهم ويكون هو وليهم . ألعل
الله ماخلقك . نعم فإنه برأك مركباً من نفس وجسد ووهبك حيوة وعافية تكرماً منه
وتفضلا . فإذا رآك مع هذا مظهراً له التكريم والتعظيم الواجب ومحباً للغرباء والمساكين
بالمحبة التى هى خاصة بتحننه فكيف لايمنح أولادك مايحتاجونه ويفتح أمامهم باب غناه
وحنوه . انظر ايليا البار ذاك الذى اغتذى من يد الأرملة بشىء يسير من الدقيق ولكنه
لما شاهد فعل تلك الأرملة الشفوقة إذ أنها فضلته على أولادها ورأت أن الأفضل لها أن
تموت هى واولادها جوعاً وتضوراً من أن تتغافل عن غريب وتهمله . فللوقت صير النبى
منزلها بيدراً ومعصرة . فميز هذا بعين بصيرتك وانظر مقدار التكريم والبشاشة اللذين
يظهرهما السيد أكثر من ايليا . وإذا كان مرادك أن تترك أولاد أغنياء موسرين فاجعل
البارى تعالى مديونا لهم لانهم ولو أخذوا مالك من بعدك لا يعرفون كيف يحفظونه ولايدرون
لمن يعطونه . ولكن إذا اسبقت أنت واقرضته لله بأيدى الفقراء والمساكين يصان كنز
غناهم ولايسلب منهم فيما بعد . وأما هم فيحصل لهم الجزاء الوافر بسهولة وخاصة لأنه
منك لأنك قد صيرت البارى تعالى مديونا لك وهو تعالى يحب الذين يقرضونه أكثر من
أولئك الذين لا يكونون مديونا لهم . فاذا أردت أن يكون الله صديقا لك فاجعله مديونا لك
ولاولادك من بعدك . لأنه لايفرح المقرض بالمستدينين منه كما يفرح الله بأن

يكون مديونا لأحد . وأما الذين لايقرضونه شيئاً فإنه يهرب منهم ويمقتهم .
بخلاف الذين يكون مديونا لهم فإنه يعتنى بهم ويودهم . فلم تأمن الأغنياء
على صحتها . ودائعك مالك والمسيح حاضر . أعنى المساكين والفقراء .
فانه يتناولها منك ويحفظها بازدياد ويعوضك عنها اضعافاً كثيرة . ولا يتجاسر احد أن
يختلسها من يد المسيح . وليس انه يحفظ لك ما تعطيه فقط بل ينقذك بسببه من اخطار
كثيرة نفسانية وجسدية . أننا نرى الناس الذين يحفظون لنا شيئاً من الودائع يظنون أنهم
قد فعلوا لنا فعلا جميلا يستحق أن نعطيهم اجرة لاجله . أما السيد المسيح فيعترف بأنه
أخذ منك ويعطيك عوضاً عنه مع اجرة جزيلة ولهذا قد اعطاك مالا لتعطى منه الآخرين
فان وهبت شيئاً من مالك للمسكين يبقى محفوظا لك حفظاً وثيقا . لكن إذا طمعت بالمال
وحدك تكون خاليا منه صفر اليدين وإذا وزعته على الغير تكون قد ربحت مالك وذخرته
وكما أن الأب إذا اعطى ولده كمية من الدراهم يأمره بالاحتفاظ عليها جيداً لئلا يسلبها
منه احد ثم يهبه بعدها عبداً ايضاً ليقوم على حراستها بزيادة . هكذا البارى تعالى فإنه يقول
لك . أعط المحتاجين مالك لئلا يختلسه احد منك إما ظالم وإما لص وإما الشيطان نفسه.
كما فعل وقتا ما مع ايوب البار . وأما الموت بذاته . ولهذا المعنى يقول لنا سبحانه . أنك
مادمت تحفظه . أى مالك . فلا تأمن عليه من مصيبة تدهمه لكن ان اوصلته إلى بيد
الفقراء والمساكين فانى احفظه لك باسره حفظا تاما من غير نقص لانى الهك ولم آخذه
لكى اتلفه بل لازيده وارده مضاعفاً . حتى إذا حضر ذلك اليوم الذى يكون فيه القصاص
والدينونة يكون مصوناً لك عندى . لانه فى ذلك الحين لايمكن أن يقرضك احد أو يرحمك
بوجه ما . فعلى م ايها الغنى تتعب باطلا وتخفى ثروتك لئلا يأخذ منها الفقراء والبائسون .
وإلا م تتذمر مقطبا وجهك عندما يلتمسون منك شيئاً . ألعلك من مالك تنفق عليهم انما
هم يبتغون مال الله أبيهم لامالك لأن الغنى لم يولد معك . فالذى اؤتمنت عليه أده . لم تؤمر
أن تاخذ فقط . كلا بل أن تهب بسعة وسرور . لماذا تدفعه إلى الأرض خرساء ولم تعطنيه
بيدى كما أقول لك . أفما يكون صانع الأرض عندك أمينا أكثر من الأرض العديمة الحس.
ألعلك تجيبنى بأنى قد منحت هبات كثيرة . فأجيبك نعم . وإنما ليس كما يجب إذ الرسول
يقول : أن الله يسر بالمعطى المسرور . وبها تستطيع أن تؤدى جوابا فى ذلك اليوم ولو لم
يكن لك شيء . وبها يمكنك أن تتخذ لنفسك معيناً وصديقاً لم يكن لك قبل ذلك .
ولعدم هذه البشاشة والسرور لايمكنك أن تؤدى لله جوابا البتة . ولو وهبت الخيرات

الجزيلة . لانه مع هباتك هذه الجزيلة ربمـــا يوجد أناس كثيرون لم تصل اليهم هباتك فيكونون جائعين متضورين . فلهذا لا يفتخرن الغنى متعظما متكبراً فى زعمه انه يهب صدقة وافرة . ولا الفقير بأنه يعطى قليلا . لأنه قد يحدث مراراً كثيرة أن الفقير يعطى صدقة أكثر من الغنى . فالعطاء لا تتميز أنواعه من حيث الكثرة و القلة بل من حيث قوة الضمير ومن حيث قوة الغنى وعظمته وسلطة المعطى . مالك ايها الغنى تتسع فى الهبات والمنح لمن يطربك بمدح متجاوز الحد . وتفرغ نحوه العطاء كينبوع جار لاجل مدح باطل لاغير . وانت بذلك مسرور بابتهاج . وإذا تصورت فقيراً ترتعد مفاصلك خوفا لئلا يشملك الفقر مثله . اعط أيها الإنسان الفقير ولا تعط الذى يرقص لئلا تهلك نفسك ونفس الراقص بمالك . لكونك تصير سببا لهلاكه بتكريمك اياه بالهبات الوافرة لأن أصحاب المجون لو عرفوا أن مثلك لايحتاج إلى ملاعبتهم ومجونهم وان بضاعتهم قد رميت بالكساد لرجعوا بصفقة خاسرة وتركوا هذا الفعل الشيطانى ونجوا من الهلاك الذى راموه بسببك . فالاعمى متى رحم يبصر من يرحمه ويقوده بيده ويذهب به إلى ملكوت السماء . فذاك الذى كان يعثر ههنا وهناك ويتراءى فى الحفر قد صار لك مرشداً ومرتقى تصعد به نحو السماء . ومتى صنعت صدقة ولم ترد اظهارها للناس فلا تخف . انه لن يبصرك باصر ولو رمقك العالم بأسره لانك لم تفعل ذلك رغبة فى مدح باطل . لأن السيد المخلص لم يقل لاتفعلوا صدقتك أمام الناس فقط بل الا تتظاهروا بها أمامهم . فيا لعظم مرتبة الفقراء لكونها تصير خدر الله والبارى تعالى يختفى فيه . فالفقير يمد يده متسولا ولكن الله هو الذى يقبل صدقتك فمتى . داهمتك خسارة ام اصابك حزن ام مرض ام سرقة وظلم ام مصيبه من المصائب المداهمة فاعط عنها صدقة واشكر الله الذى امتحنك بهذه التجربة . وستعاين فيض النعمة التى تتقاطر عليك من لدن البارى جل وعلا . وهذا الربح الروحى ولو كان يسيراً هو ناقع جداً لكونه يقى من الضرر الجسدى مدة الحيوة بأسرها . وإن شككتم فجربوا واختبروا فستعاينون مجد الله وعنايته بكم . فيا للكسل الفظيع والجهل المركب والقساوة المفرطة لأننا نصرف حياتنا بأسرها فى المآثم والشرور وإذا افعلنا وقتاً ما فعلا محموداً نعمله كالعبيد الجهلة غير الشكورين لكوننا نبحث بحثاً كليا ونفتش على ربح الهبة المعطاة بمخاتلة . أعنى أننا نخيل فى عقولنا وآرائنا قائلين . هل ترى يكون لنا اجر عما نعمله . ألم تعلم أيها الإنسان ان الأجر الأعظم ألا نصنع شيئاً طمعاً فى جزا أو ثواب بل يجب أن يكون جميع ما نفعله مجرداً لاجل السيد المسيح لارغبة فى رجاء أجر أو ثواب . لاننا حين برانا الله منذ الابتداء لم نكن

بذاتنا حاصلين على شيء من الخيرات بل البارى تعالى وهبنا خيرات متعددة متنوعة الكميات . ألا يهب الله ربوات الأجر والثواب ههنا وهناك لاولئك الذين يكابدون الاتعاب والمشقات ويحتملونها بصبر لاجل اسمه . بلى . أما نحن فقد نجود بقليل من الذهب لاجل ذواتنا . لكن بشدة وتعسف . أما الله محب البشر فقد جاد علينا نحن المجرمين بابنه الوحيد . ونحن مراراً كثيرة نعانى شدائد كثيرة عسرة لأجل محبة أصدقائنا وخلاننا حتى أننا كثيراً ما نقبل بسببهم الخسارة الجسيمة ونحتمل أشياء أخر غير هذه لاجلهم . وأما لاجل محبة الله فلا نسمح بأقل شيء من الفضة . فكيف لايكون هذا العمل قساوة رديئة وجهلا غير محتمل إذ اننا لانرتضى أن نرفض الاشياء الفانية لاجل محبة يسوع الذى قدم نفسه للموت فدية عنا وسفك دمه الكريم بسببنا نحن العديمى الشكر والكنودين . بل نعرض بناظر ناعنه متى رأيناه عرياناً أو جائعاً أو غريبا . فمن ياترى يستطيع أن يفتدينا من ذلك العقاب المزمع والنكال المؤلم . ليس احد إلا الله تعالى . ونحن الذين يحيق العقاب بنا . لانه لو اراد كل واحد منا أن يضع فى ذاته أمر الدينونة المرهبة والقضاء المقسط لما صيرنا ذواتنا مسجونة فى سعير نار الجحيم . فالمسيح قد وضع ذاته للموت عنا . والفقير يموت تضوراً ونحن نرى ذلك ونميل وجهنا عنه ونهرب منه . وأولى من ان أقول فضة ومقتنيات أقول . أنه لو كان لنا ربوات من الانفس لوجب علينا أن نقدمها اجمع لاجل الله . ياليت شعرى لو احضر احدنا كمجرم ليعلق ويموت افما كان يهب جميع ماله لكى ينجو فضلا عن أن يموت قتلا . وقد يحسب ذلك منة عليه . فلنعقل الآن ونفهم هذا المثال . لاننا إذا كنا نجذب فى طريق المجرمين ليذهبوا بنا إلى نارجهنم التى لاتطفأ أفما كنا نسمح ولو بنصف مالنا لنخلص من ذلك العذاب الابدى . إنما ترانا نتشبث بذلك الغنى الملتم من الظلم فى الاشياء الباطلة ولا نتوق إلى أن نعطى الأشياء التى ليست لنا . فأى جواب يكون لنا وأية مسامحة نحوز فى هذه الدنيا ونحن مزمعين أن نفقد تلك الحيوة الأبدية . فإذا كان بعض الناس يعطون جميع أموالهم ليحصلوا على وظائف وقتية وسلطات زائلة مع أنهم سوف يتركون هذه السلطات والمراتب ويفارقونها حتى أن البعض منهم تزول عنهم قبل مماتهم . ويضيع الإكرام الحاصل لهم بواسطتها . وآخرون أيضاً لأجل كرامات وقتية يضيعون حياتهم باطلا . ومع إننا نشاهد هذه الأمور كل حين ترانا نتوق اليها ونعتنى بتحصيل المجد الفارغ والكرامة الزائلة . ولأجل هذه الأمور الدنيئة نحتمل نحن البشر شروراً عظيمة جداً . وأما ذاك المجد الثابت الأبدى فلا نعطى شيئاً يسيراً لنمتلكه . فأى شر أعظم وأكثر شقاء من هذا أننا لا نستطيع أن نقتنى هذه الأشياء

المضمحلة أيضاً بل سوف نتركها ههنا فيأتى غيرنا ويأخذها قسراً عنا سواء أردنا أم لم نرد . ويفتخر هو بها . فتباً لهذا الجهل المركب والسكر الفظيع . إن ماسيختلسه غيرنا منا أضطراراً ورغماً لا نعطيه للمساكين ونحن على قيد الحيوة ليكون لنا ذخراً وكنزاً محفوظاً بعد الممات . ولكننا عوضاً عن هذا الرأى السديد والتدبير الحسن نرغب فى أبتياع العبيد والأماء والخيل الجياد المسومة بالسروج الموشاة الثمينة واللجم المذهبة . وفى الوقت نفسه نرى المسيح يسعى عرياناً جائعاً يستعطى على الأبواب والأزقة باسطاً يده وليس من يرحمه أو يرق له فلا نرثى لحاله ولا نعطيه صدقة . بل نطرده بشراسة وحنق كأننا وحوش ضارية . فأية قساوة أشر من هذه . فالبارى تعالى يرسل المساكين الينا قائلا لهم أذهبوا إلى إخوتكم ليعطوكم مما أعطيتهم من الغنى والثروة الجزيله . أما نحن فلا نكتفى بأن لا نعطيهم بل نشتمهم ونطردهم معيرين منا . أيها الأخ المسيحى تأمل وأنظر ما أعظم مانستحق من الأمور الهائلة المريعة نحن الذين نفعل مثل ذلك فإن كنت ترسل عبدك إلى عبد آخر من عبيدك ليأخذ منه فضة من مالك . أما ذلك العبد فلم يكفه إنه لم يعطه الفضه بل شتمك أيضا . أفما كنت تنتقم منه إنتقاما شديداً وتجازيه شر جزاء عن مخالفته أمرك وشتمه أياك . فإذا كان الجنس البشرى لا يحتمل مثل هذه الأعمال ويراها فظيعة . فكم بالحرى البارى تعالى سوف يغضب علينا . فإذا كنت لا تشاء أن تعطى الفقير الذى يسألك شيئا فلماذا تطرده وتعيره وتمرمر نفسه وتؤلمه . فلو عرف ذلك المسكين أنك ستشتمه وتهينه لما سعى اليك بحزنه وكآبته . ولعل الغنى يجيب قائلا . أن هذا الفقير قليل الأدب ذو وقاحة فيجرى فى إثرى صارخا . ماذا تقول ياهذا . أنظر نفسك عندما تجلس أمام المائدة كيف تأمر خادمك بأن يسرع فى إحضار الأطعمة . وإذا أبطأ فى عمله أو تأخر عنك قليلا تقلق المكان وتزعجه مع إنك عالم حقيقة إنه ولو تأخر فى سعيه لا يعدمك لذة المآكل . فلماذا لا تقول عن نفسك إنك عديم الأدب والوقار أنت الذى صرت بنهمك كالوحش الضارى . بل توجه الكلام نحو المسكين مفتريا عليه بقولك إنه عديم الأدب ذاك الذى يخاف من الجميع ويبتغى مايسد به جوعه . فيا لعظم هذه القساوة وويحا لها من عدم رأفة . أيها الإنسان إنك إذا شاهدت منزلك قد وكف وكفا يسيراً تبادر حالا إلى إحضار المعلمين لئلا يدهمك معظمه . وأما المسكين فتراه وهو متكىء فى مخازن التبن وأكثر الأوقات يكون ملطخا بالطين والحمأة وأنت تتغافل عنه معرضا . ترى أى وحش نفور متى شاهد هذه القساوة وقلة الشفقة لا يشمله الحزن والكآبة ويصير وديعاً مستأنسا . وقد نرى أيضا بعضا . ليس أنه الفقير متى

كان باكيا بل يشتمه قائلا أنه كسلان متوان لا يحب الشغل . فاظن أنك أنت الذى تشتغل باعتناء أنت الذى تجلس نهارك كله فى ساحة الأكل والشرب الذى هو خارج عن اللياقة . وأما شغلك الذى تعمله فهو نفس الظلم لأنك تختلس تعب الغير بعنف وطمع . وقد كان الأحسن لك أن لاتشتغل بهذا الإستكثار والشتم . ومع هذا كله إذا رأيت مسكينا بائسا تقول أن هذا الشاب معافى وليس مريضا . إلا أنه لا يشتغل ويحب أن يقتات من دون تعب . فقل هـذا الكلام لذاتك ووجهه إلى نفسك وخاطبها قائلا . كيف أبقى تحت هـذا الخطر المبين ولا أعمل ما أمرنى الله به مع إنى معافى . ومع هذا تدين المسكين وتبكته بأنه قليل العمـل فى الصناعة . ولكن البارى تعالى سيدينك من جراء أعمالك السيئة . لكونك تخطف وتهدم بيوت الفقراء والمساكين . ولعلك تقول إنه كذوب متصنع بفقره . فأقول لك . ومن هذه الجهة هو مستحق الرحمة . لكونه سقط فى مثل هذه الشدة حتى أضطره الأمر أن يفعل مثل ذلك . وأما نحن فلم يكفنا أننا لاندبره ونعتنى به . بل نوبخه بتلك الأقوال السمجة ونقول له . أما أعتنينا بك مرة وأثنتين بالمآكل وغيرها . إن هـذا لعجيب فلماذا لا تقول لبطنك إنى أمس أشبعتك فـلا تطلبن اليوم منى طعاما آخر بل تشبع جوفك وتفعمه فوق ما يحتاج حتى يكاد يتمزق إمتلاء والمسكين يسأل كفافه وانت تطرده . فكيف إذاً تتوق إلى أن يستمع الله لك فى الصفح عن هفواتك متى تضرعت إليه . وانت تتغافل عن الفقير البائس ولا تعطيه شيئا من الخيرات التى أعطاكها الله . ومع هذا تروم أن تاخذ الأشياء التى ليست لك . ياليت شعرى أليست هـذه الأعمال مستحقة للثلب والمذمة . فالذين يطربونك بالمدح الكذب المصنع تطعمهم بسرور ولا تعد ذاك خسارة البتة وإذا رأيت فقيراً مقبلا نحوك وهو يتضور جوعا وقد أضر به البرد والتعب فـلا يكفيك أن تنكب عنه معرضا بل تأخذ فى تعنيفه ومذمته وتلومه قائلا . لماذا لا تشتغل آتشاء أن تأكل من غير تعب . قل لى ياهذا أترى من شغلك حصلت مالك أم هو ميراث أبويك . فلماذا تعير أخاك المسكين وتهينه . فإن قلت إنى لا أعيره هذا لكن عديم الشغل كسلان يتصنع فى بطالته بطريق الاحتيال أجبتك . مالذى تقوله أيها الانسان . ألا جل كسرة خبز تعطيه أياها تعنفه بقولك متصنع ماكر . حتى إذا أعطاه أحد ثوباً تقول إنه يذهب الآن ويبيعه قل لى . أيمكنك أياهذا أن تحوى كل ما تحصله عندك . فلماذا تتكلم باطلا . ألعل كل مستعط هو كسلان ذو وقاحة . ألم يوجد أحد فى شدة من مغاطب البحر وأهواله . أو لم يوجد أحد مظلوما

من حاكم ظالم باغ . أو لم يوجد أحد متضرراً من سرقة أو سبى . أو لم يوجد أحد مغلوباً من حريق نار . أو لم يوجد أحد منهوكا من مرض مزمن وشدائد مستصعبة . فنحن لا نلاحظ هذه العوارض الممكنة بل متى رأينا فقيراً نائحا من شدة فاقته وصارخا من ألمه شاخصا نحو السماء وهو عريان نتكلم عنه للحين بالباطل قائلين انظروا صراخ هـذا المرائى الكذوب . أما تخشى ياهذا من قولك أنه مراء كذاب . وقد كان الاليق بك ألا تمنح المسكين شيئا من أن تذمه بافتراء وتنهره بالإهانة وما كفاك هذا بل تتجنى عليه بالظلم قائلا أن هذا عنده شيء كثير وهو يتظاهر بأن ليس عنده شيء . فأعلم أن هذه المذمة ليست لذاك بل لك ايها المفترى لأن المسكين الحزين عارف بأنه سوف يلتمس صدقة من أناس مثلك فاقدى الرحمة والتحنن . فلهذا يضطره الأمر أن يتخلق بالخلق الوضيع المنكسر ليمكنه أن يستميل أناساً مثلك عديمى الرحمة ويلين قلوبهم الحجرية الصلبة . لأنه لو تكلم بالكلام اللـين المنخفض فقط لما أمكنه أن يجتذب أحداً إلى الحنو والشفقة عليه . فتباً لها من قلة شفقة . وتعساً لها من قساوة . ولقد ضللنا بذلك ضلالا مبيناً لأننا إذا رأينا مسكيناً يستعطى وهو بوجه بشوش بهج . نقول عنه بأنه مراء . لكونه يتظاهر لنا بأنه شريف الجنس أصيل الحسب وبهذه الطريقة يريد أن يخدعنا . وأن رأيناه بحالة الأنقباض والتعاسة نحنق عليه وننسب إليه المكر والغش والدهاء . فبعداً لها من غلاظة وعدم استحياء فلم تهين الفقير ياهذا وتكسر قلبه . فإن شئت أن تعطيه فاعطه والافاصرفه بحبور ولاتهنه أمام الناظرين أما كفاك انك لاترحمه حتى تمنع الذين يرحمونه عن رحمتهم له . أما تعلم ياهذا أنه عندما يسمعك الغير تقول عنه بأنه كذاب ماكر يمنعون احسانهم عنه وعن غيره من المحتاجين . لأنهم يقيسون باقى الفقراء على مضمون كلامك . لماذا يرونك اعضاءهم المهشمة بادية أليس ذلك لترحمهم . ولوكنت رحوماً عليهم شفوقا لما اضطرهم الأمر أن يتصنعوا هكذا . ولوكنت تصدق خبرهم وفاقتهم ومصائبهم لما تخلقوا بهذا الخلق المحزن . فمن ذا الذى يرضى لنفسه أن يكون هكذا شقيا مسكينا أو يكون هكذا نائحا منتحبا وسط الأسواق بين جم غفير من الناس وتكون أولاده وأمرأته عراة مكتئبين . هل يوجد شيء أشد من هذا الفقر الفظيع . ومع هذا ليس أنهم لايرحمون فقط بل يهانون ويذمون كأنهم عديمو الأدب . وأنت ياقاسى الطبع تختلس ماليس لك ولاتعد نفسك عديم الخجل وتنسب صفاتك إلى أولئك . لكونهم يطلبون منك جزءً يسيراً من الخبز . ألم تسمع المسيح يقول . من يطلب منك فاعطه . ومن أحب أن يقترض منك فلا تعرض

بوجهك عنه . عجبا كيف لايعد هذا منك غير لائق حين تستعمل النهم والشراهة وتنعكف على الانهماك فى المآكل والمشارب المتنوعة إلى أن ينسدل جنح الظلام المدلهم على الأمم . وتحضر أصحاب الاغانى الموسيقية والملاهى ليترنموا أمامك بصوت رخيم مطرب . وترقد على المفارش اللينة وتتوسد الوسائد الموشاة . وتتنعم حياتك كلها بعيشة الترفه والسعة . وإذا رأيت الفقير الواهن القوى مرتعداً من جراء عريه جائعا تلوى عنه معرضا وتقطب وجهك وتغض عنه نظرك . ومالى أذكر عريا وارتجافا وقد وجد البعض الفقراء من الذين اضطرهم الأمر من سوء مسكنتهم وشقائهم إلى أن يعموا أعين أولادهم وأطفالهم . وذلك لقساوتنا وغلاظة قلوبنا الصخرية . ونحن لم نشفق عليهم ولانتحنن ولا نرثى لحالهم حين نراهم فى حالة العرى والذل وقد شملت الأوصاب والعاهات كل أجسادهم حتى لم يمكنهم أن يستميلونا بهذه المصائب والمحن إلى أن نشفق ونرثى لمصائبهم ولا أن يردونا عن القساوة إلى الرحمة لهم . فهذا هو الذى جرأهم على أن يفعلوا بأنفسهم هذا الشر العظيم المقدار ليسكنوا شدة اضطرام جوعهم والتهابهم . واستصوبوا أن يعدموا ضوء هذا العالم ولا أن يموتوا من جوعهم المفرط . فبلاشك أن الرحوم هو الإنسان العظيم والرجل الكريم الفاعل الخير ببشاشة واشتياق من غير تقطيب ولا حزن . كما يقول الرسول . أن الله يحب المعطى المسرور لأنه يعطى باستغناء من غير دمدمة ولاتذمر . ولايحصل له الارتياح فى الاعطاء إلاإذا ظن فى فكره الصالح أنه لايعطى بل يأخذ . وقاس فى عقله أنه هو الكاسب الرابح . وأنه هو المحسن إليه . ولايعدما يعطيه أنه خسارة وذاهب سدى . لأن الذى يصطنع الرحمة مع الآخرين ينبغى له أن يبتهج مسروراً . ولا يأسف على عطيتـــــه . أفيجب عليك ياهـــذا أو يليق بشأنك أن تحـــزن لزوال حزن من اردت أن تزيل همـــه وحزنه بعطيتـــك . فاذا كنت تحزن بسبب ازالتـــك حزن الآخر فذلك دليل بين على غلاظة قلبك وقساوته وتكون قـــد أظهرت على نفسك أمارات الجفاء وعدم الشفقة . ولقد كان الاصلح لك أن لا تنفى حزنه من أن تعطيه بكراهية وعدم شفقة مالك أيها الانسان هكذا صغير النفس ومتضجر . العلك تخاف فقراً ونقصاناً من ثروتك فان كان اعتقادك انك متى اعطيت صدقة تحزن مكتئبا فالاولى بك ألا تعطى . وإن لم توقن معتقداً ان ما تعطيه سيضاعف لك فى السموات فلا تعط . العلك تؤثر المجازاة ههنافى الأرض . فاعدل عن هذا ودع الرحمة تكن رحمة لامجازاة . ولو رأيت كثيراً من الرحومين نالوا الجزاء ههنا من الله . لكنهم لم ينالوه مطلقا على وجه الاستكثار ولهذا اكثر الناس

لا ينالونه هنا . لأن الذى يطلب الثواب والمكافأة هنا فجزاؤه هناك نذر يسير . فاذا كان الأمر كذلك فلا تنظرن نقائص الفقير قائلا . أن الفقير الفلانى هو شرير ماكر فلا يسوغ لاحد أن يصطنع معه معروفا . والاخر ذو عيب فهو مرذول مهمل . بل أنظر فقط مجرد فاقته ووجوب تعزيته ايا كان . ولو كان مستحقا للقتل والانتقام وقد اخذ ليعلق فى المشنقة وسألك صدقة فاعطه باشتياق وسرور . وإذا رأى السيد المسيح صنعك هذا يحسبه لك ثوابا مضاعفا كأن الخير الذى فعلته مع ذلك المجرم قد وصل له . اياهذا من جراك على مذمة الفقراء والاستخفاف بهم . العلك تعلمته من الكتاب الالهى . حاشا . انما امرت أن لا تذمهم بل ترحمهم ولا أن تفحص عن بطالتهم وكسلهم وشرورهم . بل أن تسعفهم على مسكنتهم وشقائهم . وتضمد جراحهم وتعزيهم . وتنهض بيديك المطروحين منهم والمهشمين . وتقوم بخدمتهم كالواجب. ومتى احببت ان تصنع معهم الجميل فلا تطالبن منهم تصرفا حسنا وعيشة غير المذمومة وهذا هو الجهل الصريح لاننا لاجل كسرة خبز نمنحها لمسكين نريد أن نبحث عن سيرة حياته . اترى إذا كان الفقير شريراً فاتكا ولصا سارقا وفاعلا لرذائل مختلفة وسالك قوتا لقوام جسد أو شيئا يسيراً من الفضة للنفقة . أفما يحسن لديك أن تعطيه سؤاله اليس هو مخلوقا من الله مثلك . أنظر كيف أن سيدك يسوع المسيح يشرق شمسه عليه وأنت لا تجعله اهلا لغذاء يوم واحد . أما سمعت بذاك الاب العظيم والخليل المحترم ابراهيم ابى الآباء كيف نال المدح والثناء الجميل من الله تعالى والناس لأجل محبته للغرباء . وخاصة لاستقباله أولئك الرجال الثلاثة الذين لم يكن يعرف من هم . وقد كانوا الله ذا الاقانيم الثلاثة . لما ابصرهم بادر للحين مسرعا واستقبلهم وخرلهم ساجداً وهم يقول ياسيد بصيغة الأفراد لا بصيغة الجمع . ثم أنه بادر بالكلام قائلا . أن وجدت نعمة فى اعينكم فلا تتجاوزوا عن عبدكم . فتعلم من هذا ولا تفحص باستقصاء لأن استقبالك للغريب هو لأجل السيد المسيح . وإذا امعنت الفحص والاستقصاء دائما فسيفوتك رجال كثيرون ذووفضل وتضيع أجر محبة الغرباء وليس أننا ملتزمون فى الرحمة الاعتناء للقريبين منا والمشاركين لنا فى الإيمان فقط بل لغير المؤمنين أيضا . ومتى شاهدناهم يعانون الشدائد والاهوال فلا تفكر إلا فى أننا كيف نرحم لاغير وأن نحظى باستحقاق أجر المساعدة . ولكن لا أدرى من أين نشأت هذه العادة الموجهة . وهى أننا متى رأينا علمانياً مغلوبا عاجزاً متواضعا لانمد إليه يدنا بالكلية لمساعدته ولا ننقذه . وإذا رأينا راهبا مقبلا من أقصى الفيافى والقفار نقوم بحق استقباله برغبة واتضاع ونضيفه ونعتنى به كأنه أحد

القدسين . لكننى اقول لك انك متى رأيت يونانيا أو يهوديا أو رجلا آخر غير مؤمن واقعا
فى شدة ومصيبة يجب أن تفعل معه الخير بلا فرق. لأن ذاك الذى يفتش على الرهبان ليفعل
معهم الخير دون غيرهم سوف يشك بهم أخيراً ويذمهم أيضا ويحتج عليهم بانهم إما ليسوا
بصديقين وإما أنهم لم يجترحوا له عجائب ولا آيات. وبسبب هذا الفحص الردى لا يمكنه
أن يتفق مع أحد ويضيع أحسن الرحمة وينقطع عن هذه الصدقة الجزئية رويداً رويداً على
تمادى الزمان . أما أنت ياهذا فإذا رأيت حماراً ساقطا تقيمه من دون أن تعرف صاحبه
وإذا كان هذا بالحيوان واجبا . فكم بالحرى يجب أن تعتنى بالإنسان ولا تفحص عنه
من أى مكان هو ولا إلى من ينتسب بل يكفيك أنه مخلوق مثلك . يونانيا كان . ام
يهوديا . أم غير ذلك . فيجب أن تساعده وتعينه . أفليس جهلا مفرطا وكبرياء نافخة .
انك متى شاهدت أحداً عائشا عيشة بذخ واسراف تمدح فعله وتشهد له بأنه عاقل رزين .
وإذا رأيت آخر عائشا عيشة مكربة عبوسا ضيق الأخلاق تطعن فى حقه قائلا : أنه إنسان
شرير . ولشره تصيبه هذه المصائب والرزايا . فمن اين إذاً رحمتك تسمى رحمة إلا لأنها
تصيب المستحقين وغير المستحقين . لأننا إذا بحثنا عن غير المستحقين وأهملناهم فالمستحقون
أيضاً يمتنعون عنا ولا يمكننا أن نجتذبهم . وأما عطاؤنا فإذا كان متواصلا دائما لغير
المستحقين فبالضرورة يقبل إلينا المستحقون أيضا . فإذا كنا لا نكرم عبيدنا ولا نطلب
نجاحهم إلا بعد الفحص والتدقيق عنهم فالبارى تعالى يفعل بنا هكذا يوم مجيئه . ومتى طلب
شركاؤنا فى العبودية أن نؤدى لله جوابا فسوف نعدم حينئذ الشفقة الآلهية ومحبة الله للبشر .
لأن من آثر ان يصطنع الرحمة ويقبل الغرباء لا يلزمه أن يبتغى فضيلة ولا سيرة صالحة بل
ينظر إلى مجرد اسعاف الفقراء وسد جوعهم . متى رأيت فقيراً فلا تهرب منه ولا تعرض
عنه نظرك إلا مالا يعنيك. بل تذكر قول النبى القائل. طوبى لمن يفكر فى شأن المسكين
والفقير لأن الرب سينقذه فى يوم السوء . أنك تقول فى نفسك لو كنت أنا المسكين مثل
الأعمى أو الأعرج أو المظلوم فماذا كان يصيبنى . أو كنت اصير سائلا مستعطا والناس
يعيروننى ويهزأون بى . فإذاً إفهم هذا . كيف أن ذاك شبيهك وهو من هذه الطبيعة
وشريكها مبتلى بهذا الضر وأنت حرمته . والبارى تعالى أعطى الجميع على التساوى سواء
كان غنى أم فقراً . وأنت بتشامخك لا تعد الفقير من بعض كلابك لأنك تشبع الكلاب
دائما والفقير فى أكثر الأوقات يرقد صائما . انظر كيف صار الحر اقل قيمة عندك من
العبد . فإن قلت أن أولئك يعملون جميع اشغالى ولوازمى . اجبتك أن الفقير كذلك بل

أكثر من عبيدك . لأنه سوف يوقفك يوم الدينونة المرهبة خالية من كل ديونة وينقذك من ذلك النهر المخيف الجارى . اترى عبيدك يمكنهم أن يفعلوا معك خيراً مثل هذا . أما بلغك قصة الجارية الشفوقة حين تجرعت كأس الحمام وماتت فمن الذى انهضها وأعادها حية . ألعل عبيدها المحدقين بها أم الذين كانوا يخدمونها . كلا . بل المساكين هم الذين أحيوها . فكيف يمكنك أن لاتتنازل إلى أن تجعل عبد الله الحر بمنزلة عبد من عبيدك الأرقاء . فإذا كنت تتغافل وتغض الطرف عن الفقير الذى هيئته وكآبته وحالته التعيسة تكفى لتجعلك تحزن عليه . فكيف إذا يمكنك إذا وقعت فى مصيبة أو خسارة وتضرعت إلى الله أن يستجيب لك ويغيثك . وإذا كنت لاترحم المسكين ولا تشفق على الذى لم يضرك بشىء ولا سبب لك خسارة ولا ترثى له عندما تراه فى تعب أو جوع أو معذباً من الجوع والعرى والبرد فى الشتاء . فكيف تأمن على نفسك وترجو المسامحة والعفو من البارى تعالى الذى تخطىء اليه يوما فيوماً . ولقد قيل . أن الذى يصم اذنيه لئلا يسمع تضرع الفقير لا يسمع الله تضرعه أيضاً . لأنه كما نكون نحن نحو المساكين إما رحومين وإما عديمى الرحمة . هكذا البارى تعالى يكون نحونا . فالرحمة والصدقة والصلوة والصوم وباقى الفضائل التى يفعلها المسيحى هى ضحية عظيمة لدى الله لكن بشرط أن تكون ممتزجة باتعابنا الخصوصية نقية من وضر أنواع الطمع والاختلاس . لأن الضحية المتصفة بهذه الصفات الذميمة لايقبلها الله . وضحية الظلم لاشك أنها ممقوته أمامه ومرذولة . لأن الضحية التى على هذا النسق نجسة رجسة وفيها كفاية لأن تحرك غضب الله عوضاً عن أن تسكنه . وسميت فضيلة الصدقة رحمة لأنها تمنعنا عن أن نضر اخوتنا المشاركين لنا فى الإيمان وتحملنا على رحمتهم والشفقة عليهم . فالذى يختلس من تعب الآخرين ويعطى غيرهم ليس أنه لم يرحمهم فقط بل قد اضربهم وجار عليهم بالظلم والحيف . والذى يهتم بطريقة يستغنى فيها فذاك لم يزل فقيراً محتاجا . والذى لايشاء ذلك فتراه يتنعم فى هناء وسرور وبهجة لأن الغنى ليس للذى يطلبه بل للذى ينكب عنه معرضاً وهذا هو الغنى الحقيقى . وأقول لمحبتكم أيضاً أنه قد يوجد غنى مختلس دائماً ماليس له ويوجد غنى يمنح صدقة واحسانات للمساكين من اتعابه ومشقاته . فالواحد يجمع والاخر يبدد لكنه يستغنى . والواحد يبدد فى الأرض والآخر يزرع فى السماء . ولكن غلة الزارع فى السماء تكون اشرف واغنى من غلة ذاك الضعيف الدنى بمقدار شرف جمال السماء وفضلها على الأرض . والأغرب من هذا أن الخاطف المختلس لا يكفيه أن

الذين ظلمهم يلعنونه ويجدفون عليه فقط بل الذين لم يظلمهم أيضاً فانهم يذمونه ويمقتونه لانهم يشاهدون الذين قد ظلمهم وجار عليهم فيحزنون وإن عثر به الزمان وأحدره عن مجده وكرامته وسلطته أو اغتاله الدهر بمصيبة أزرت به، شمت به الجميع وسلقوه بالسنتهم قائلين انه لحسن ماقد أصابك أيها النجس اللئيم والعديم الرحمة والشفقة وترى الأصاغر والأكابر يذمونه ويستحسنون مصيبته ويطعنونه بكل سهم من الذم والقذف. وأما المسيحى الرحوم فليس أن الذين يرحمهم يمدحونه ويصلون لأجله فقط بل الذين لم يصبهم منه شيء يحبونه ويطلبون إلى الله من اجله لكى لا يصيبه شيء من الضرر ويعتدون رحمته إلى أولئك كأنها واصلة اليهم. وإذا اعتراه شيء من الشر والخسران يكتئبون لاجله ويحزنون لحزنه ويسألون الله بابتهال وخشوع من أجله لكى يكون له مساعداً ومنقذا من كل ضرر وأذى أشاهدت الرذيلة كيف تجعل غير المظلومين مضادين ومحاربين للظالم والمحب الفضة. وكيف أن الرحمة تجعل الذين لم يرحموا منه أصدقاء له. فمن الواجب عليك ياهذا أن تعتق ذاتك أولا من قباحة الخطف والاختلاس وانعطف حينئذ إلى فعل الرحمة والصدقة، واكفف يديك عن الطمع واضبطها من الظلم. وحينئذ تفعل الرحمة. لأننا إذا سلبنا الفقراء بأيدينا وكسونا الآخرين من هذا الخطف نفسه. فالى أى مكان يمكننا الهرب من العقاب الأبدى. لأن هذه القضية تصير سبباً لكل خطيئة ورذيلة. فالرحمة التى تفعلها على هذا النوع كان أفضل لك أن لاتعملها، فكما أن قايين إذ قدم لله ضحية من باكورة زرعه حرك الله للغضب عليه هكذا الذى يعطى رحمته من تعب الغريب فإنه يغيظ الله ويحمله على الغضب عليه. الصدقة هى صناعة مفيدة جداً ومنجدة لاولئك الذين يفعلونها. لأنها حبيبة الله إذا لم تظلم منا فإن قلت وكيف نظلمها. اجبتك أنها تظلم منا إذا صنعناها من خطف ومن ظلم، لأنها متى كانت نقية بريئة تمنح دالة جزيلة لفاعليها ويمنحهم الله صفحاً عظيما بواسطتها. وبهذا المقدار الصدقة قوية وذات سلطة حتى أنها تحل القيود والاغلال وتبدد الظلام وتخمد سعير نار جهنم وتؤهل فاعلها لأن يتشبه بالله. لقوله تبارك وتعالى كونوا رؤوفين مثل ابيكم السماوى لأنه رؤوف. فلهذا لا نرذل شرف نفوسنا وخلاصها لأنه قد يوجد طرائق كثيرة بها نرضى ربنا إلى حين مماتنا ولقد توجد نفس تنتفع من الصدقة وتخلص بواسطة وثيقة يكتبها عند موته. ولكنها ليست نافعة للإنسان كما لوفعلها فى حياته. لأن عمل هذه الوثيقة يكون عن اضطرار وعجز. فان قلت وكيف طريقة هذه الوصية، أجبتك اكتب فى أوان موتك للمسيح نصيباً من مالك مع وارثيك. لأنك

فى حال حياتك لم تكن تعوله كالواجب فاستعض بقليل الآن عند موتك . لأن ما تصرفه فى طريق الله لا يكون بلا منفعة ، فاعط من تعبك وتعب الغير . ولكن كم كان أحسن لو أعطيت هذا فى حال حياتك . فافعل الآن عند موتك وإن لم تفعل هذا أيضا فاعلم يقينا أن الله الآب لا يجعلك أن تكون وارثا مع المسيح . فلن تجد حينئذ هناك صفحا ولا غفرانا لأنك لم تعمله فى حياتك حتى الآن وأنت ماض إليه لم تصرف من أجله بعض ماليس لك بل سيأخذه الغير أمامك بدون رضاك . فإذا كان الأمر جاريا على هذا المنوال فاجتهد فى أن تهبه ولو شيئا قليلا لقوام نفسك . ولا تكن هذا عدواً لذاتك . فلم أيها الإنسان لا تشاء أن تعطى الأشياء التى تستغنى أنت عنها . كم رأيت أناسا لم يؤهلوا عند موتهم لتوصية شىء من ذلك ولا استطاعوا أن يقوموا أحوالهم فى ذلك الوقت بل لبثوا خرسا مبهوتين لا يتكلمون لأن الملائكة المرهبة المفزعة قد أتتهم لتختطفهم ولخوفهم لم يستطيعوا أن يتكلموا البتة . وأما أنت فترى أن البارى تعالى قد ابقاك منتبها بعقل صاح وذلك لتقويم أمورك وتدبير مقتنياتك كما يجب . فمالى أراك ساهيا عن هذه التقويمات ومتغافلا وما بالك لا تفعل منها شيئا البتة من أجل نفسك ولا من أجل منزلك ولا من أجل جسدك . فإذاً بماذا تجيب الله . لعمرى أنه لا يمكنك الإجابة لأن الله منحك نعمة هذا مقدارها وأنت متغافل عن إحساناته ومع هذا لا تشاء أن تتحنن على المحتاجين . ولقد كان الأليق بك أن تصنع صدقتك فى حياتك وإن لم تشأ ذلك فافعل فعلا صالحاً لخلاص نفسك ولو كان عند موتك لأنه أن لم يحصل لك التقدم والكرامة فى رتبتك مع الخراف التى عن اليمين فقلما يكون يمكنك الوقوف صحبتهم بحيث لا تقف مع الجداء التى عن اليسار . وإن لم تفعل ماقلته فلا يمكن لأحد آخر أن ينقذك . فالآن أية حجة لك لأنك لما كنت حياً كنت تظن أنك غير قابل للموت والفساد ولهذا كنت تحفظ مالك وتصونه لئلا يدنو أحد منه . وأما الآن فقد تحقق عندك انك من المائتين وستذهب إلى هناك . ولكن أحسن الظن بذاتك بما سأشير به عليك وأقبل ما أقوله لك لأنه أمر عظيم جداً ومفعم خوفاً ورعدة ومن واجباتنا أن نقوله إذ هو مهم وضرورى وهو أن تحسب السيد المسيح مع عبيدك . فإن عتقت عبيدك من ضيقة الجوع والعرى والسجن والاغلال تكون قد عتقت سيدك . ولو أرعبتك هذه المقولات جعلتك مرتعداً ولكن متى ذهبت إلى هناك فتسمع أقوالا مخيفة مرهبة أكثر من هذه وترى العقابات الرهيبة التى لا تضمحل . فأى جواب عساك تجيب به وبمن تستغيث لينقذك وينجيك . إلى من تدعو ليساعدك . ألإبراهيم . إلا أنه لا يسمعك لأنك لم تصر مثله محباً للغرباء

ورحوماً أم لابيك . فهذا محال لأن هناك لا يوجد مساعد ولا مسعف البتة . ولو بلغ الإنسان هناك أعظم درجات القداسة وأشرفها فلا يمكنه أن يتخلص من تلك الحالة المخيفة . فيا هذا إن كنت فظاً قاسياً عديم الرحمة والتحنن فاشفق على مرتبة الذى يسألك . وأن لم تخف وتستح من المرتبة فتحنن على مصابه . وإن لم تجذبك المصيبة إلى الحنو فارحم من باب خساسة الطلبة أو ضرورة الحاجة أو سهولة العطية . وإن لم تستملك هذه الطرائق كلها إلى الرحمة . فعلى الأقل إفعلها رغبة فى عظم تلك الخيرات الموعود بها . وإن كان هذا أيضاً لا يجتذبك فأية مسامحة إذاً ترجو من الله متى قدمت عليه . لا لعمرى ، لأن مثل هذه التنبيهات الكثيرة لم تستطع أن تنهضك من تغافلك عن المساكين . وليسمع هذا القول أولئك المتناولون الأسرار الرهيبة . إذا كان المسيح نفسه لا يشفق على جسده متى تناولته ولا على دمه متى احتجت أن تشربه . وأنت لا تشاء تعطيه كأساً من الماء البارد . فويحاً لك وبؤساً عليك . فأى غفران تستحقه من الله . لا شىء . لأنك تنال من الذخائر غير الفاسدة باكرام جزيل . وأنت تمسك عنه الأشياء الفاسدة وتحزن عليها . افعل هذه لتنال صفحاً عن خطاياك . ويجب عليك أن تفعل هذه ضرورة بسبب تناولك هذه الأسرار الالهية . يقول الرب هو لى لأنى سيدك والهك ، وإذا تممنا هذه الوصية نكون قد أطعناه . أفليس أمراً عظيما ومستهجناً أن تأبى إعطاء جزء يسير من القوت لله الذى قدم إبنه الوحيد لكى يموت لأجلك . قد بذل نفسه فدية عنك وذبيحة ولم يشفق عليه أبوه مع أنه أبنه ووحيده أيضاً . وأما أنت ففى أكثر الأوقات تراه ساقط القوى مضنوكا من الجوع والعرى يسألك أن تنفق عليه مما له . فتأخذ ماله وتنفقه على نفسك وتبذره تبذيراً قبيحاً بلا فائدة ولا نفع ، فهل يوجد جهل أعظم من هذا أو عدم شكر أمر منه . إن المسيح أسلم لأجلك ومات ذبيحة . وقد مر بك الآن جائعاً سغباً فلم تعطه مما له لأنك لو أعطيته لانتفعت ولكنك قد صرت عديم الحس كالحجارة الجامدة . لأن هذه النصائح والمواعظ لم تستطع أن تجتذبك من وهدة هذه القساوة الشيطانية وغلاظة هذا القلب المتصلب . لأنه يقول إذا لم ينل المسكين بسببك شيئاً ولو كان يسيراً فارحمه بالنظر إلى شدة فاقته وإن لم ترحه بذلك فاشفق عليه وارحمه وتراءف عليه لأجل ضعفه أو لأجل سجنه . وأن لم تفعل هذا أيضاً فاعطه لأجل حقارة طلبه إذ لم يطلب منك مائدة فاخرة متنوعة الأشكال . بل يسألك كسرة خبز يابسة وسترة عرى ببعض خرق ورثة وكلام تعزية لا غير . وإذا كان قلبك لا يلين بعد ذلك كله ولا يرق بل تزداد توحشا

ونفوراً كالأسد الضارى . تحنن لأجل ملك السموات وصر شفوقاً ورحوماً رغبة فى الجزاء وطمعاً فى الثواب . وإن لم تطمع أيضاً فتحنن لأجل الطبيعة البشرية . وارث له حين تراه عرياناً وتفطن فى السيد المسيح الذى صلب عرياناً لأجلك . فها هو يقول لك إننى لا أطلب منك أن تخلصنى من الفقر الذى أنا واقع فيه ولا أن تهبنى غنى وثروة بل خبزاً فقط وثوباً بالياً وتسلية يسيرة . وأما إن وقعت فى سجن وقيود فإنى لا أبتغى منك أن تفى دينى وتخلصنى بل أن تأتى إلى وتنظر كيف أنى مربوط لأجلك . فيكفينى هذا الخير الذى نلته منك على هذه الصورة ولأن الله يقول . إننى قادر على أن أكالك بدون أن تفعل رحمة . ولكننى أريد أن أكون مديوناً لك لكى اسبب لك ثواباً عظيماً ويكون تكليلك مشاعا على رؤوس الملأ . وإنى أحب أن اقف فى الأبواب وأبسط إليك يدى واقتات منك وأسر بهذا كثيراً ومتى اجتمعت المسكونة كلها يوم الدينونة المرهبة أمجدك فى جميع العالم واظهرك أمام جميع المديونين لك فينظرونك وهم وقوف يسمعون. واقول ها هو ذا الذى كان يعولنى ويكسونى ولا أخجل مستحياً من قولى هذا بخلاف ماتظنونه أنتم . لأنكم إن أكلتم من أحد شيئاً تستحيون أن تخبروا به أحداً وتسترون أنفسكم لئلا يعلم أحد بأمركم . وأما أنا فبما إنى محب لكم محبة شديدة انشر مافعلتموه بتقريظات بهجة . ولو سكتم عن ذلك فإنى أظهره بلا خجل قائلا . كنت عرياناً فكسوتمونى وجائعاً فاطعمتمونى . وافرح مبتهجاً بجماعة المحسنين إلى لأنهم صاروا وارثين الملك السماوى . فإذا رضختم لهذه الأقوال وحفظتموها فى عقولكم . أيها الأخوة الأحباء فلنجتهد بغاية الحرص بكل قوتنا على خلاص نفوسنا لننال الخيرات الأبدية بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد والقوة مع أبيه وروحه القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة الخامسة عشرة

(الأسرار المقدسة لغير مستحقيها)

أيها الأخوة الاجلاء إنكم جميعاً لفى فرح اليوم وأنا وحدى أوجد بينكم حزيناً . وسببه أنى حين تفكرت فى اللجة الروحية . أعنى رأفة الله وحنوه وتأملت غنى كنيسة

المسيح غير المحصاة أعنى بها كثرتكم انتم الذين اجتمعتم فى هذا الهيكل الإلهى . ثم رجع إلى الفكر أيضاً أنه متى انقضى هذا العيد السعيد تمزق هذا اللفيف المجتمع ونسوا حضورهم إلى هذه الكنيسة دفعة أخرى فيتنغص عيشى عند ذلك وينجرح قلبى من تألمه . لأن كنيسة الله لها مثل هؤلاء الأولاد الكثيرين وهى لا تستطيع أن تحظى بهم فى كل يوم بل متى عرض عيد فقط . فياليت شعرى كم كنا نتهلل ونفرح مبتهجين لو كنا نرى محافل الكنيسة كل يوم مزهرة باجتماع المسيحيين . فلنتأمل من الملاحين الذين يسافرون فى لجة البحار ويدبرون سفنهم كيف أنهم يجتهدون بكل نوع من الأتعاب ليبلغوا الميناء ويجوزوا معظم الأمواج . فهكذا نحن دائماً فى لجة عظيمة متكاثفة ونجهد أنفسنا محاولين مقاومتها ولكننا متزعزعون ومضطربون من الاهتمامات الدنيوية والأمور العالمية . وعواصف الحيوة تضربنا بشدة وأمواجها العظيمة تلاطمنا وتصدمنا صدمات متواترة ، ونغرق تارة فى تيار الأسواق وأخرى فى لجة المحاكم . وتحيط بنا ربوات من الهموم والأتراح . ولقد يوجد أقوام لايلجون الكنيسة فى عامهم إلا نادراً . أما تفقهون ياهؤلاء أن الله كما وضع الميناء للبحر ملجأ للأمن والسلامة كذلك وضع بيعته ملجأ لارتجاج المدن والقرى . وذلك لنتحصن بمعقلها من غوائل الهموم العالمية ونتال بها هدواً وسكينة وننجو من القلق والأضطراب لأننا إذا وصلنا إلى ميناء هذه الكنيسة ذات السلامة لا نخشى شدة تلاطم الأمواج المضادة . ولا نهرب من اللصوص البحرية . ولا من مضرة أحد من الناس الأشرار . ولانخشى شراسة الوحوش الكاسرة . ولانبغت عند اضطراب الرياح الزعازع . لأنها هى الميناء الحقيقى المخلص من تلك الأهوال المذكورة . وها انتم شهود بذلك . لا أنا فقط . لأنه إذا فحص أحد ضميره فى الكنيسة وجده هادئاً مطمئناً لا يشوبه كدر ولا غضب يزعجه . ولاتتقد فيه شهوة جسدية . ولايضمر حسداً يذيبه . ولاعظمة وتشامخ يفسده . ولا مجد فارغ ينفخه . بل جميع هذه السجايا الوحشية قد ذللتها تلاوه الكتب الإلهية وأخمدتها وأثبتت فى نفس كل منكم بواسطة الاستماع والاصغاء صوتاً الهياً به تلجم جميع الآلات الوحشية . فإذا كان الأمر هكذا نافعاً . أفلا تكون قد ركبت متن الجهل والغواية وجلبت على نفسك دينونة هائله أيها النازح عن هذا الميناء الأمين أعنى بها كنيسة الله . فأى تنزه أفضل من هذا . أو أية شركة تبتغيها أصلح من هذه الشركة . ألعلك تعتذر محتاجاً بمانع المسكنة فتقول أن المسكنة قد صارت

لى مانعاً يعقنى عن هذا الاتفاق والاتحاد الجيد . فأجيبك أنه لعـــذر فارغ لا يليق أن تظهره . ألم تعلم أن الأسبوع هو سبعة أيام . وقد قسمها البارى تعالى بيننا وبينه ولم يأخذ لذاته القسم الأعظم ولا جعل القسم شطرين متساويين واستبد هو بالإشراف منهما . بل قد وهبك منها أيها المسيحى ستة أيام وخصص لنفسه يوماً واحداً فقط . وذلك لـكى تتفرغ فيه من كل الأنواع وتصغى بسمعك إلى ما يتلى من الـكتب المقدسة الإلهية . وأنت لاترضى بذلك بل تفعل كما يفعل اللصوص الذين يسرقون أوانى الـكنيسة المقدسة الإلهية لأن هذا اليوم الربانى المخصص لاستماع الـكتب الإلهية تتجاسر فتخطفه وتبدده فى وهدة الاهتمامات العالمية الباطلة . ومالى أقول يوماً كاملا بل أفعل فيه كما فعلت الأرملة بالصدقة إذ أعطت فلسين وربحت ثناء مفرطاً . هكذا أنت اقرض الله منه ساعتين فسيرسل لك ربحاً غزيراً من الخيرات . وإن كنت لاتحب الانفصال من الموانع العالمية ولاتشاء أن تصرف جزءاً يسيراً من النهار فى ما لله . فاحرص حينئذ حرصا جيداً لئلا يضيع ربحك واتعاب حياتك لأن الله الفاحص القلوب والـكلى قادر أن يمزق فى لحظة واحدة ما جمعته من المقتنيات فى أعوام كثيرة . وذلك متى أهس . لأنه تعالى يقول إرهابا لأمة اليهود حين كانوا يحتقرون الهياكل التى بأورشليم . إنكم ملأتم بيوتكم أمتعة منتخبة وأنا بددتها كريح صرصر فاضمحلت . هكذا يقول الرب . قل لى أيها الأخ إذا كنت فى كل عام تأتى إلى هنا فى بيعة الله مرة أو اثنتين . فأى شىء نستطيع أن نقول لك فى هذه المدة الوجيزة . اترى لأجل النفس نعظك فى هذه اللحظة . أم لأجل الجسد . أعن البقاء وعدم الموت نخبرك أم عن الملكوت . أنوضح لك عن عقاب جهنم الدائم . أم عن طول أناة الله وغفرانه لنا . أنريك سر التوبة . أم سر المعمودية المقدسة . أنخبرك عن غفران الخطايا ومحو السيئات . أم عن الخليقة العليا والسفلى . أعن الطبيعة الإنسانية . أم عن جوهر الملائكة ورؤساء الملائكة . وعن شر الجن ومكرهم الخبيث . أم عن اختراع الشيطان وخداعه . وعن الاعتقاد المستقيم الرأى . أم عن الارطقات الضالة المضلة . أخبرنى عن أمر لازم يلزم المسيحى لاطلعك عليه فى هذه البرهة الوجيزة . ولـكن بالحقيقة أن هذه المذكورات وأكثر منها يجب على المسيحى أن يعرفها ويحيط بها علما وأن يرد الجواب لـكل من يسأله عن هذه الأشياء رداً مقنعاً . ولـكنكم أنتم لايمكنكم أن تجيبوا بأقل شىء من هذا لانكم لم تتعلموها . وما ذلك إلا لعدم اجتماعكم ههنا حتى انكم إذا حضرتم إلى هنا فى بعض الأوقات واجتمعتم لايكون

حضوركم بصفة ورع وعبادة روحية بل إنما يكون على سبيل عادة العيد وسنته . فحقاً أقول لكم لو كان كل منكم متشوقاً إلى تلك المقولات التى قيلت سابقاً لحكم على نفسه بأنه يجب أن يأتى إلى ههنا يوماً فيوماً دائماً ويصغى لتلاوة الكتب اصغاء شافيا بحرص جزيل . فإذا كان اهتمامك هكذا فلا يشك فى أنه يتقن جميع ماسبقنا فقلناه من الضروريات اتقانا محموداً . إنكم عندما تريدون أن تضعوا بنيكم وعبيدكم عند أرباب الصنائع ليتعلموا مهنة ما دقيقة لاتسمحون لهم فى المجىء إلى المنزل البتة . بل ترسلون لهم مايحتاجونه إلى منزل المعلم من غذاء وملابس وغير ذلك من الضروريات . وذلك ليداوموا الممارسة والمداولة مع المعلم فى صدد ما يتعلمونه بأكثر حرص وأجزل نفع ولكى لا يعيقهم عن نشاطهم عائق همّ أو حاجة . فإذا كنتم هكذا تعتنون بأولئك المتعلمين صناعة فنية فكم بالحرى يجب أن تعتنوا بأنفسكم لأنكم تتعلمون صناعة ليست بحقيرة بل هى أعظم وأفضل من كل صناعة وحكمة . وهى انكم كيف ترضون الله وترثون ملكوت السماء . فما أعظم هذا الجهل المركب لأنكم ترومون أن تقتنوها بغير استعداد واجتهاد متصل . فاعلموا أيها الأخوان الأحباء أن أقتناء هذه الفضيلة المحكمة يلزم لها اعتناء ونصب عظيم . اسمعوا ما يقوله الرب الأله فى إنجيله الصادق . تعلموا منى فأنى وديع ومتضع القلب . وعلى لسان النبى يقول أيضا هلم أيها الأولاد واسمعونى فاعلمكم خوف الرب. وأيضا يقول اصغوا متفهمين إنى أنا هو الله . فلذلك تلزم الضرورة من يشاء أن ينال هذه الفضيلة أن يحب الله كما يجب ويصغى إلى العلم اصغاء متشوق . ولئلا نضيع نهارنا كله فى توبيخ من لا يؤثرون المجىء إلى الكنيسة كل يوم فلنعطف مقالنا نحو عيد الظهور الآلهى ويكفى ماقلناه سابقا . وقصدنا فى هذا أن نشفى داء المستسيرين فى الكسل والتوانى . لأننا نرى كثيرين يعيدون الأعياد المفروضة ويحتفلون بها ويعرفون أسماءها . وأما الأسباب الموجبة لذلك فلا يعرفه الجميع . أعنى مثل هذا العيد الحالى المقول له الظهور الآلهى . أما ظاهره فمعروف وأما كيفية هذا الظهور والسبب فى تسميته ظهوراً وهل هو واحد أم إثنان فلا يفهم ذلك احد منهم . فيا لعظم الهزء الذى يستحقه أولئك الذين يعيدون مثل هذا العيد فى كل حول ولا يعرفونه حتى أنهم لايفهمون سببه ولا أصله البتة . فتلزمنا الضرورة حينئذ أن نعلم محبتكم أولا . هل الظهور واحد ام اثنان ، إن الظهور ليس بواحد بل اثنين الأول هوهذا الذى نعيده كل عام فى مثل هذا اليوم . والثانى هو المزمع أن يصير عند انتهاء العالم . فاسمعوا مايقوله بولس الرسول فى صددهما فعن الأول يقول لقد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس تأديبا لنا حتى

إذا جحدنا الكفر والشهوات العالمية نستسير بالعفة والعدل مع حسن الإيمان فى هذا الدهر الحاضر . وأما عن الثانى فإنه يقول ، ذاك الرجاء المطوب وظهور إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح بالمجد العظيم المنيف الذى تنبأ عنه يوئيل النبى قائلا ، هاهو ذا الشمس المنيرة تستحيل إلى الظلمة والقمر يتحول إلى الدم قبل مجىء يوم الرب الظاهر الممجد . ولم يسم اصطباغه ظهوراً ، ولم يسم يوم ميلاده بذلك أقول أنه مذكور عن هـــذا اليوم الذى اعتمد فيه المخلص ، أنه فى مثل هذا اليوم ظهر للجميع بأنه ابن الله ، لأن السيد المسيح لما ولد لم يظهر أمره فى ذلك للجميع بل أنما ظهر بعد اصطباغه ، لأنه قبل ذلك كان الأكثر يجهلونه إلى ذلك اليوم ، وكيف كان أمره مجهولا عند الأكثرين بأنهم لا يعرفونه ابن الله . اسمع مايقوله يوحنا السابق الصابغ . أنه كان ماثلا خلا لكم ولم يعرفه أحد . وليس بعجيب إن لم يكن يعرفه الآخرون إذا كان مثل يوحنا الصابغ نفسه لم يعرفه إلى ذلك اليوم . فاسمعه أيضا كيف يصرح عدم معرفته أياه قبل ذلك بقوله . وأنا لم أكن أعرفه لكن ذاك الذى أرسلنى لأعمد بالماء هو قال لى إن الذى ترى الروح هابطا عليه هو ذاك الذى يعمد بالروح القدس . ولقد قدس الله طبيعة الماء يوم ظهوره . وهذا يرينا عظمة عناية الله بنا إذا عدلنا بواسطة هذا العماد التقديس الداخلى وتجديد القلب . ولقد أوضحنا لكم ظهور الرب الثانى مثبتا من أقوال الرسل والأنبياء فوجب علينا الآن أن أعلمكم لماذا اقبل المسيح إلى الصبغة وأية صبغة قبل . لأن هذا ضرورى لنا أن نعرفه كما عرفنا السابق من كلامنا . ويجب علينا أن نفسره لمحبتكم بإيضاح وتفهيم . لأنكم من هنا تستدلون على معرفة ذاك . إعلموا أن معمودية اليهود كانت معمودية أيضا . ولكنها كانت تطهر الأدناس الجسدية لا الروحية كالخطايا . لأنها لم تكن تخلص ذاك الذى زنى أو سرق أو فعل فعلا ما منكراً من آثامه . بل كانت تطهر ذاك الذى اقترب إلى جسد مائت أو أكل طعاما نجسا أو خالط أبرص وما أشبه ذلك . كما يقول الله فى كتاب اللاويين على لسان موسى النبى فليستحم بماء طاهر . وإذا بقى الإنسان نجساً إلى المساء يطهر مساء . لأن خطيته لم تكن حقيقة عظيمة ولا نجاسة مؤثرة بل كان الذين يتنجسون يحسبون غير كاملين . فكانوا يتطهرون بالمعمودية اليهودية . أعنى بها الأغتسال . وذلك حذراً من الوقوع فى ماهو أعظم من ذلك . لأن معمودية اليهود لم تنج الإنسان من الخطايا النفسانية . بل من الأدناس الجسدية فقط . وأما معموديتنا فليست هكذا . بل هى اعظم شرفاً من تلك وأجل نعمة . لأنها تنجى الإنسان من آثامه وتطهر النفس وتنقيها وتهب نعمة روحية . وأما معمودية يوحنا فكانت أرفع شأناً من معمودية اليهود وأوضع قدراً من

معموديتنا . فهى حينئـــذ كالجسر المتوسط بين برين والممر من تلك إلى هـــذه فتتميز عن معمودية اليهود بكونها لم تجـــذب الناس إلى حفظ الأجساد وطهرها كما كانت تلك . بل إنما كانت تنصهم فقط وتحثهم على تغيير عوائدهم وأن ينهضوا بذواتهم من الرذيلة إلى الفضيلة . بحيث تكون لهم رجاء خلاص حتى أستقلوا بأعمالهم الصالحة . لا كالاصبغات المختلفة وباقى المياه المطهرة . لأن يوحنا لم يأمرهم بغسل أثوابهم وأجسادهم للتطهير . بل كان يأمرهم قائلا . أثمروا ثمرة تليق بالتوبه ومن هنا يظهر أن معمودية يوحنا أرفع رتبة من معمودية اليهودية وتتميز عن معموديتنا كون صبغة يوحنا لم تكن تمنح الروح القدس ولا تهب صفحاً وغفراناً للمعتمد بواسطة النعمة . بل كانت تحث الناس على التوبة عن سيئاتهم من أن تمحو خطيئة . ولهذا كان يقول جهاراً . أنا أعمدكم بالماء للتوبة وذاك يعمدكم بالروح القدس والنار . تذكر هذا يوم البنديكستى الذى هو العنصرة حين لا حت تلك الألسن النارية المنقسمة على جمهور الرسل واستقرت على واحد فواحد منهم . وأن أردت إثبات حقيقة معمودية يوحنا أنها غير وأنه لم يكن لها قوة الروح القدس ولا تفيد صفحاً وغفراناً فسيظهر لك مما أقوله عن بولس الرسول . إنه حين التقى مع البعض من تلاميذ يوحنا سألهم قائلا . هل أخذتم الروح القدس منذ آمنتم . فأجابوه قائلين كلا . ولا سمعنا أن الروح القدس موجود . فراجعهم الرسول فى السؤال قائلا . وبم أعتمدتم . فأجابوه بمعمودية يوحنا هى للتوبة فقط وليست بصبغة الغفران وأخيراً عمدهم . فاسمعوا الآن يوحنا كان يعلم الشعب أن يؤمنوا بالذى سيأتى بعده . أعنى به الرب يسوع المسيح . ولما سمع هؤلاء باسم المخلص أعتمدوا . وحين وضع بولس الرسول يده على رؤوس المعتمدين أستقرت عليهم ساعتئذ نعمة الروح القدس . أشاهدت معمودية يوحنا كيف أنها غير كاملة . ولو لم تكن هكذا لما أعاد بولس تعميدهم ولا كان وضع يديه المقدستين على رؤوس أولئك مبتهلا أن يكملهم الروح القدس . فصنيعه هذا أوضح لنا عظمة معمودية الرسل . وأن معمودية يوحنا أدنى رتبة من معموديتنا . ولقد علمنا بمعونة الله تعالى من هذه القياسات المذكور كيفية الإختلاف الكائن بين الصبغات الثلاث . فبقى علينا أن نعلم أيضاً لأى معنى أعتمد المسيح وبأية معموديه كان أصطباغه . وهذا ضرورى لنا أن نقوله الآن ونزيل أشكاله . لأن المسيح لم يكن محتاجاً أو أن يعتمد بمعمودية اليهود . ولا أخيراً بمعمودية يوحنا ولا بمعموديتنا لأنها تغفر الخطايا والسيد المسيح كان عديم الخطايا بالكليه ولم يكن محتاجاً إلى تطهير ماء . حسبما يقول الكتاب الإلهى . إنه لم

يصنع خطية البتة ولم يوجد فى فمه غش . وأيضاً من منكم يوبخنى على خطية . لأن جسده المقدس لم يكن خالياً من الروح القدس . ذاك الذى تجسد من الروح القدس فإذا تقرر أن ذاك الجسد الطاهر لم يخل من الروح القدس نتج حينئذ أنه لم يكن فيه خطيئة البتة .
فإن كان الأمر هكذا فلم أعتمد . أجبتك أن الضرورى أولا أن نعلم بأية معمودية . ثم بعد ذلك نبحث عن سبب إعتماده . إعلم أن المخلص لم يعتمد بمعمودية اليهود . بل بمعمودية يوحنا . ولم كان إعتماده بهذه لا بغيرها . ذلك لتعلم أنه لم يعتمد لأجل غفران الخطايا . ولا لاقتبال نعمةالروح القدس . ومعمودية يوحنا كانت عارية من هاتين النعمتين كما برهنا أولا . لأن سيدنا يسوع المسيح لم يأت إلى الأردن لغفران الخطايا . ولا لاقتبال الروح القدس كما هو ظاهر من كلام يوحنا الذى قاله لرفع توهم الحاضرين هناك حينما ورد المخلص نحو يوحنا لئلا يظنوا بأن ورود المسيح اليه كان لأجل التوبة مثل باقى الناس الذين كانوا يذهبون اليه . اسمعوا مقال يوحنا ذاك القائل للساذجين أثمروا ثمرة التوبة . وكيف وجه خطابه نحو السيد المسيح قائلا . إنى أنا المحتاج أن أعتمد منك فكيف أنت تأتى إلى . هـذا ما قال يوحنا مبرهنا عن ذلك بان ورود المسيح اليه لم يكن بسبب ما كان الناس يأتون اليه لأجله . أى لأجل التـوبة . أو لأجل مغفرة الخطايا . لأن السيد المسيح كان خالياً من دنس الخطيئة وغير مشارك لها . وكان بهذا المقدار طاهراً حتى إنه كان أطهر من المعمدان ذاته بما يجل عن كل قياس . فإن قلت فلم كان اعتماده إذا لم يكن لأجل توبة ولا لغفران ولا لاقتبال نعمة الروح القدس . أفلعله لأجل أسباب أخر غير هذه اعتمد . أجبتك نعم لأجل سببين آخرين . فالذى قاله يوحنا هو عن معمودية السيد المسيح لكى يعرفه الجميع حسبما أشار إليه بولس الطوباوى بقوله أن يوحنا عمد الشعب معمودية التوبة ليؤمنوا بالذى يأتى بعده ، أعنى السيد المسيح ، فهذا كان قوام معموديته . وهذا كان موضوعها . لأنه كان غير ممكن ليوحنا السابق أن يقصد بيت كل واحد من الناس ويبشره بالسيد المسيح أنه ابن الله فآمنوا به . وكان مع ذلك يضع شكا فى قلوب الشعوب أن لا يؤمنوا بشهادته . ولكن مضيه نحو الأردن واعتماده من يوحنا عياناً تجاه القائمين عند شاطىء النهر الذين رأوا السرظاهراً عند اعتماده . أى هبوط الروح عليه بهيئة حمامة وصوت الآب يهتف من السماء شاهداً على حضور الروح القدس هو الذى رفع كل شك وأشكال عما شهد به الصوت الصارخ . ولقد قال مع ذلك عن ذاته قائلا . وأنا لم أكن أعرفه مثبتاً بذلك شهادته . لأن يوحنا كان

نسيباً للمسيح بحسب الجسد فأعلن بما نص به لرفع توهم من يتوهم أن يوحنا يشهد للمسيح بسبب القرابة له . وقد دبر الروح القدس أن يوحنا يتربى فى القفر منذ نعومة أظفاره وكل شيء عرفه من لدن الله وعظ به . ولهذا تكلم قائلا وأنا لم أكن أعرفه . فمن أين إذاً تعرفه يا يوحنا . فيجيب أن ذاك الذى أرسلنى لأعمده هو قال لى . ما الذى قاله لك. هو أن الذى تشاهد الروح هابطاً عليه ومستقراً فوقه كالحمامة هو الذى يعمدّ بالروح القدس والنار وهذا هو السبب الداعى لاتيان الروح القدس . وليس اتيانه إلا لكى يوضح للجميع أن الذى ينزل عليه الروح شبه حمامة هو المبشر به . فهذا كان سبب أتيان السيد للاعتماد . أما السبب الثانى الذى قاله السيد ليوحنا فهو أن يوحنا قال للمخلص إنى أنا محتاج أن اعتمد منك فكيف أنت تأتى إلى . فأجابه المخلص قائلا . دع هذا الآن لأنه يجب علينا أن نكمل كل بر وعدل . أشاهدتم دقة تمييز هذا العيد ورأيتم اتضاع هذا العيد ورأيتم اتضاع هذا السيد الخطير . فإلى ماذا يشير بقوله نكمل كل بر وعدل وهو يشير بهذا . أن العدل هو إتمام كل الوصايا كما هو مذكور . إنهما كانا صديقين سالكين بوصايا الرب من غير عيب ولقد كان من الواجب أن البشر بأسره يجتمعون على إتمام هذا العدل . ولكن إذا لم يوجد أحد يتمه أو يضاعفه أتمه السيد المخلص بحضوره . فإن قيل وأى بر يحصل فى اعتماد المخلص . أجبت . أن هذا بالحق هو البر إذ الذى اختتن وقدم لله ذبيحة وحفظ السبوت وأكمل الأعياد اليهودية يجب أن يعتمد من السابق الحضور ويسمع وعظه وتعليمه ويزيد على ما فعله استماعه للنبى واحتياج الاعتماد منه . وزد على ذلك أن مشيئة الله تدعو جميع الناس إلى الاعتماد . اسمعوا ما يقوله يوحنا المعمدان . إن الذى أرسلنى لأعمد بالماء . وهذه الجملة دليل واضح على إرادة الله . وكذلك المسيح يقول إن العشارين والجموع تمموا إرادة الله باعتمادهم يوحنا ابن زكريا . وأما الكتبة والفريسيون فخالفوا إرادته لأنهم لم يعتمدوا منه . فإن كانت الطاعة لله براً فالبارى تعالى قد أرسل يوحنا ليعمد الشعب والمسيح قد اكمل باقى الوصايا الناموسية فبقى من العدل حينئذ أن يتمم هذه الوصية . فوصايا الناموس مثلا مقدار مائتى دينار وهى علينا دين مستحق وكان الواجب أن تفيها الطبيعة البشرية ولما لم تفها استحوذ الموت والبوار علينا لالتزامنا بحفظ هذه الوصية . ولما انبعث السيد المخلص ووجدنا معتقلين أدى الدين الذى علينا وأراحنا من وفائه ولهذا لم يقل أنه من الواجب أن نفعل كذا وكذا بل قال أن نتمم

العدل . فكأنه يقول إنى أنا هو المولى المتصف بكل صلاح فيجب على أن أفى الدين عن أولئك الذين لم يقتنوا شيئاً ليفوا به دينهم . فهذا السبب الذى دعا السيد إلى الاعتماد الذى أتم به الناموس كله ومعمودية يوحنا والتى قبلها . ولهذا المعنى انحدر الروح بهيئة حمامة دليلا على موضوع الصلح والسلام . لأن علامة صداقة الله فى عهد نوح وقت الطوفان كانت حمامة لأنها اتت إلى السفينة وفى فمها غصن زيتون اشارة على محبة الله لجنس البشر وتخليصه أياه من ذلك الطوفان العرمرم . ولم قال بشكل حمامة ولم يقل جسد حمامة فلنفهم هذا باستقصاء أنه يدل بذلك على صفات الحمامة التى هى الوداعة . لأن الرجل الروحى يلزمه أن يكون عديم الشر وديعاً وفاقد الغش كما يقول السيد المسيح . إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال لايمكنكم أن تدخلوا ملكوت السماء ولأن الروح القدس يوافى منذراً برحمة الله إلى أقاصى المسكونة . وأما السفينة المذكورة فإنها انقذت أنفساً فى ذلك الوقت من الغرق العظيم ولكنها بعد ذلك بقيت على الأرض غير مصونة . وأما هذه السفينة الروحية أعنى بها الرب يسوع المسيح . فإنه لمـــا نقض العداوة المترتبة عرج إلى السماء . وهو عن يمين الله الآب بالجسم الكلى الطهر والنقاوة . لكن يا أيها التائقون إلى استماع الأقوال الإلهية أنه لما تقدمنا بذكر الجسد السيدى الالهى ساغ لنا أن نستطرد بالتكلم عنه يسيراً . وبعد أن نخاطب به لمحبتكم نتم كلامنا . والسبب الذى حملنى على هذا هو عرفانى بأناس يسارعون فى الأعياد إلى المائدة المقدسة الرهيبة . أعنى بها القربان الإلهى اسراعاً اعتيادياً من غير اكتراث . هؤلاء الذين من أجلهم أنا أنشىء الآن كلامى . كما انشئته مراراً عديدة فى صددهم . ولقد كان يجب عليهم أن لايترقبوا الاعياد فى تناول الأسرار بل أن يفحصوا ضمائرهم وافئدتهم باطناً وظاهراً وعند ذلك يدنون إلى المائدة الإلهية لأن الذى . لايستحق هذه الأسرار لايكون فى العيد أيضاً أهلا لها . وأما النقى القلب والطاهر السريرة الذى اقلع عن جرائره السيئة بواسطة توبته النصوحة فذاك ليس مستحقاً أن يتناول الجسد الالهى فى العيد فقط بل فى كل وقت واوان هو جدير بان ينال هذه الأسرار الرهيبة الممنوحة من الله . ولكننى لا أعرف حقيقة هذه القضية . وهى أن الاكثرين يترقبون حلول العيد ليسارعوا جميعهم إلى الأسرار الرهيبة وهم غير مستحقين لها مع أنه لايليق لأمثالهم أن يشاهـدوها باعينهم . وعلينا أن نمنع الذى نعرفه بهذه الصفة عن التقـدم إلى الأسرار . وأما الذى لا نعرفه فسنتركه تحت مشيئة الله العارف خفايا الناس باسرها . ولكن سنفرغ جهدنا اليوم فى تقديم هـــذه الخطبة المنبهة للكل . ولماذا منبهة ؟ لأنه ولا واحـد منكم يتقدم إلى هـــذه الأسرار بخوف

ورهبة بل إنما تردون إلى هذه المائدة باضطراب وتشويش واستشاطة . تتكلمون كلاماً سمجاً غير لائق . تزدحمون مع بعضكم . يدين أحدكم الآخر . وتفعلون نقائص أخر لا تحصى كميتها . وقد تكلمنا عن هذه الشؤون مراراً كثيرة فما نجح كلامنا . ومع هذا فإننا لا نكف عن الكلام والتوبيخ تأملوا مكان الجهاد كيف أن المتقدم فى الحرب والجهاد متى جاوز وسقط السوق وهو واضع على رأسه أكليلا ثميناً ومتسربل بالاثواب الموشاة قابضا على قضيب محلى يتصنع الناس بالأدب والسكينة أمامه إذ يسمعون صوت المنادى منذراً بالصمت والسكينة . أفما يظهر لكم أيها المؤمنون والتائقون إلى مشاهدة الأمور الروحية الالهية . أنه أمر قبيح وعار فظيع أن نكون صامتين هادئين فى المكان الذى يوجد الشيطان فيه مزدهيا . والاضطراب والقلق والضوضاء فى المكان الذى يدعونا المسيح إليه . نستكن فى الأسواق هادئين . ونضج فى الكنيسة بصراخ واضطراب فيا للعجب من اجتماع هذا التناقض . فى اللجة سكون . وفى الميناء الأمين ارتجاف ورعدة . لماذا تضطرب أيها الإنسان . قل لى بم تهتم . أترى الأشياء الوقتية تهمك الآن . ولقد كان واجباً عليك فى هذه الساعة أن لا تحسب لك شيئاً موجوداً على الأرض وأن لا تظن انك بعد مقيم على الثرى . وأن لا تعد نفسك بانك قائم مع البشر . ألعل هذه الأمور بأسرها ليست شأن الضمير الصخرى . ولا نعتقد اننا نحسب ذواتنا عند تناولنا الأسرار الألهية مقيمون على الأرض . ولا نعتقد أننا مسرورون فى تلك الساعة مع الملائكة . ومعهم مرسلون لله الألحان السرية والتراتيل الشهية البهجة . أو ليس لهذا المعنى دعانا المخلص أننا نأكل جسده ونشرب دمه والقصد بذلك اتحادنا معه ونمشى فى السماء متبخترين ونتعالى متطائرين وخافقين بأجنحة الروح القدس . ونحن نعرض عن هذه الهبات النفسية ونرضى أن أقول لكم من أين تنشأ هذه الأعمال والأنزعاجات . هى لأن لا أحد يمنعكم ويحفظ الأبواب لئلا تخرجوا لأنكم تنفصلون من القداس الآلهى قبل أنتهـائه وتتسللون فرداً فرداً وتذهبون إلى حيثما تهوون وهذه الحالة والصفة هى علامة عظيمة على التهاون والأحتقار . فماذا تصنعه أيها الإنسان بإحتقارك لهذه الساعة الرهيبة حيث سيدنا يسوع المسيح حاضر بها والملائكة منتصبة قدامه والمائدة المقدسة موضوعة وأخوتك وقوف وقد أخذوا مصافهم بورع . وأنت مع ذلك يا أيها الغبى تغادر هذه جميعها بجراءة وجسارة منكباً . أحسب أنك دعيت إلى مائدة بعض الرؤساء العظام : فترى لو أكتفيت شبعا قبل الآكلين معك فى العشاء أفكنت تستطيع أن تنهض عنهم ماضيا فى سبيلك وحدك . كلا . بل أنما كنت

تلبث منتظراً إلى أن يقوم المتكئون معك . وأما ههنا حيث الذبيحة الطاهرة الربانية فإنك تجترىء على أن تنزح عنها قبل ختمها واتمامها وتغادرها ماضيا إلى المهمات الجسدية . فترى أي صفح ترجو أن تنال . وأي جواب يمكنك الرد به . أتريدون أن أقول لكم من يشابه مثل هؤلاء الذين يخرجون من الكنيسة قبل أوان فراغ القداس الألهى والصلوات الشكرية . فأنى سأوقع لكم التشبيه والمجانسة واريكم المقابلة الكلية . ولو كان قولى هذا ثقيلا جسيما . إلا أنه ضرورى المقال نظراً لتوانى الأكثرين وضجرهم ، اعلموا أن ذاك العشاء السرى الذى حصل فى ليلة آلام المخلص التلاميذ الأحدى عشر تناولوه واستكنوا فى المكان رابضين ، وأما ذاك المنكود الحظ اعنى يوداس الشقى فخرج للحين مسرعا افما هذه مشابهة تامة بالحقيقة إنها بغاية الموافقة والمناسبة لأن ذاك الماكر الملحد لو لم ينفصل عن مائدة السيد المسيح لما تسبب له أن يكون مسلماً . ولو لم يتميز من زمرة التلاميذ الأفاضل لما طوح بنفسه فى المهالك واضاع حياته ذاك المفعم من كل شر ونفاق ، ولو لم يترك تلك الحظيرة الألهية لم يصادفه الذئب الجسور الشارب الدماء ويفترسه ، ولو لم يعرض عن الراعى لما صار مأكلا للوحوش الضارية ، احتطتم علماً بالصلوة الأخيرة التى تتلى بعد القداس الإلهى أوان الفراغ ، انها رسم ومثال لتلك ، فلنفقه يا اخوتى هذا ونتصفحه بتأمل ولنرتعد من قصاص على مثل هذا الخطأ الجسيم ، فإذا كان سيدنا له المجد منحك ياأيها الإنسان الغبى جسده المقدس مأكلا وحيوة ، أفما كان الأليق بشأنك أن تعطيه المكافأة اللائقة وأن تشكره شكراً وافراً على النعمة التى حزتها من لدنه . وأنت لاتشاء أن تقوم بمكافأته ولو بالكلام . حتى إذا أكتفيت بالغذاء الجسدى لا توجه فكرك فى أن ينعطف نحو الصلوة التى هى الغذاء الروحى . تلك التى تصيرك شريكا للخليقة المحوطة وتجعلك شبيهاً بالنورانيين . من حيث أنك إنسان وضيع ذو طبع بسيط حيوانى . فكيف لا تصبر متمهلا لتشكر المحسن إليك قولا وفعلا . فمن يسلم بمثل هذا ألا يؤهل لعقاب ونكال مفجع . لاأفوه بهذا لكى تمدحوا مقالى . ولا أنشئه لاضطرابكم وازعاجكم . كلا . بل لترضخوا بفطنة متقدة إلى هذه الأقوال المذكورة فى ميقاتها ولكى تظهروا الأدب اللائق والورع والسكينة والاعتبار لهذه الأسرار الالهية. وهى لا تدعى أسراراً إلا لكونها كذلك . وحيثما كانت الأسرار فهناك الهدوء والسكينة . فإذاً الضرورة تدعو أننا لانقدم إلى تناول هذه الأسرار الروحية والمائدة المقدسة إلا بورع فائق وخشوع واتضاع لنستميل بهذه الصفات المؤثرة تعطف البارى تعالى إلى محبتنا ووداده بزيادة ونمحص أنفسنا من كل

الأوضار والادناس لنفوز بتلك الخيرات السرمدية التى نرغب فى نوالها باجمعنا . بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر . ذاك الذى له مع أبيه وروحه القدوس العزة والسجود . الآن وكل أوان والى دهر الدهور آمين .

المقالة السادسة عشر

(الصلاة بداية الخير)

الصلاة هى بداية كل خير . وسبب لكل خلاص . وميناء الحيوة الأبدية . ولكن وا أسفاه على هذه المزية التى لايدركها أحد من الناس ولا يفهم كنه حقائقها المحمودة . وأنا لسبب فوائد هذه الصلوة الوافية أشاء أن أجرد إهتمامى بحسب إقتدارى وقوتى وأشرع فى شرح وجيز بليغ يوضح كمية قوة هذه الصلوة وكيفية النفع الحاصل منها لاولئك الذين يصلون بقلب منخشع . ونوجه كلامنا وخطابنا نحو أولئك الذين تعودوا أن يقطعوا مفازة حياتهم بالصلوة النقية واستمروا على التعبد لله بنشاط وافر وحرص كلى وهم يصغون إلى الصلوة بميل واستراق سمـــع ويضعونها فى عقولهم باهتمام جزيل . وأما أولئك الذين يستسيرون باهمال وتراخ وقد اقفرت نفوسهم من حسن التلاوة والصلوات بأسرها ولا يشعرون بخسارة الزمان الغابر فإنهم يعدمون ذواتهم فى بقية حياتهم ذاك الخلاص البهج : فلنشرع الآن أولا فى أن نبين حقيقة هذا الأمر وهو كيف أن الصلوة هى شىء عظيم من حيث أنها مناجاة البارى تعالى . لأن الذى يصلى بالحقيقة يناجى ربه . فانظر إلى مقدار كرامة هذا الأمر وشرفه . فمناجاة البارى تعالى قد يفهمها الأكثرون ويعقلونها . وأما توضيح شرف هذه الكرامة الناتجة من قبل الصلوة فلا يمكن لأحد أن يوضحها أيضا لفظياً . لأن هذه الكرامة تفوق جلال الملائكة الذين يفهمونها بأسرهم . وحين يقدم هؤلاء النورانيون تضرعات الانبياء وتسابيحهم وعبادتهم للسيد المهيب يشملهم الخوف والارتعاد ويسترون وجههم وأرجلهم ويحجبونها بورع جزيل . فاضطرابهم الذى لايمكنهم بعده الهدو والقرار هو دليل واضح على رهبتهم وخوفهم الكائن بهم . ومن هنا ينتج أن فعلهم هذا ليس إلا لتثقيفنا وتهذيبنا عند صلاتنا لكى نذهل عن الطبيعة البشرية . وبواسطة هذا الحنين والاشتياق والخوف المستقر بنا نعرض عن الملاهى الدنيوية ولا نميز تفاصيلها بوجه ما بل

نمثل كأننا بين جماهير الملائكة متعبدين كتعبدهم وبيننا وبينهم عموم وخصوص . فمن وجه نتحد معهم بالصلوة وننفصل عنهم بالطبيعة والتصرف والحكمة والعقل وغير ذلك . إذ أن الصلوة هي أمر مشترك بين الملائكة والبشر ولا يوجد ما يفصل إحدى الطبيعتين عن الأخرى في حال الصلوة . لأن الصلوة هي التي تميزك عن الحيوانات غير الناطقة ، الصلوة هي التي تجعلك شريك الملائكة ويمكنها أن تصعدك إلى التصرف معهم والامتثال بعيشتهم والاقتداء بطرائقهم وكرامتهم والمضاهاة لشرفهم وحكمتهم وفهمهم . وتلتزم باجتهاد مدى حياتك إذا كنت مجتهداً في صلاتك لله . فأي شيء تراه أفضل للإنسان وأسمى شرفاً من أن يكون مخاطبا لله تعالى . أو أي شيء أبر فعلا . وأعظم زينة وبهاء . أم اغزر حكمة وحزما من هذا الفعل البهي . فإن كان الذين يتسامرون مع أولى الحكمة والفلسفة يستفيدون منها ويتفلسفون من محادثتهم فماذا نقوله الآن عن أولئك الذين يخاطبون البارى تعالى في صلاتهم فما أعظم الأمور المفيدة والعفة التي تهبها الصلوة والطلبة . وأن اجترأ أحد وقال . أنها جرثومة العدل وأساس الفضل فلا يغلط بما قاله . لأنه خلواً من هذه لا يمكن لإنسان اتقان فضيلة ترشده إلى ينبوع الإيمان القويم . وكما أن المدينة التي لا سور لها تؤخذ من محاربيها بسهولة لعدم وجود المانع . كذلك النفس فإنها إذا كانت غير محصنة بالصلوات والابتهالات ترضخ إلى وساوس ابليس الرجيم بسهولة فيصيرها مخزنا للخطايا والشرور . لأن الشيطان من شأنه خزاه الله أنه متى رأى نفسا في مبدأها مسيحية بالصلواة والتضرعات لا يجسر أن يدنو منها خوفاً من القوة والشجاعة الكائنة فيها من الصلوة . لأن الصلوة توطد النفس وتقويها أكثر من تقوية الخبز الجسد . وأيضاً أن الذين يجتهدون في صلواتهم أمام الله لا يرضون لأنفسهم بأن يعملوا شيئاً آخر غير الصلوة لله . وذلك من شدة خجلهم واستحيائهم من الذين يخاطبونه كل وقت . ويندبون حيل الماكر الطاغي وصنائعه ويصورون في عقولهم واذهانهم مقدار قباحة هذه الأمور وكيف انهم حينما يخاطبون الله تعالى ويتضرعون إليه ليمنحهم العفة والطهارة ينعطفون بعقولهم وأفكارهم نحو الشيطان المارد ويقبلون بأنفسهم تلك اللذة النجسة ويمنحون الشيطان فسحة في الدخول إليهم ذاك المحجوب من الله بواسطة الصلوة ويدعون الأرواح الشريرة تطأ تلك النفوس التي حجبت بنعمة الروح القدس وأظهر البارى تعالى فيها جزيل نعمة ومحبته للبشر وعنايته بهم . اسمع ياهذا أنه غير ممكن للانسان أن يقوى على المفاوضة الالهية خلواً من نعمة الروح القدس . ومتى تألق شعاع هذه النعمة في أفق لبنا وساعدنا اضطرامه على الجهاد الروحي والاتعاب التي نعملها . فلنبادر

مبهرولين ونبتهل إلى الله بقلب متخشع وصلوة ممتزجة بالشوك الآلهى والأرتياح الروحى .
أنه لأمر جسيم وشيء يفوق الطبيعة الإنسانية أن يخاطب أحد السيد الإله العظيم جلاله
وحيثما كانت الكرامة العظيمة والخطيرة فهناك يكون قد حل الروح القدس اضطراراً .
وذلك ليقوينا ويعضدنا ويعلمنا مقدار عظمة هذه الكرامة الجزيلة . ومتى شعرت بأنك
اقتبلت فعل الروح القدس وأنت عازم على المخاطبة مع البارى تعالى فلا تعط الشيطان فى
ذلك فرصة أو تمنحه سبباً لأن يدخل إلى النفس التى قد تقدست منذ هنيهة من الروح القدس.
وكما أن الذين يتقربون إلى مجالسة الملوك ويصادقونهم ويناقشونهم بالمسامرة . والمذاكرة
ويحصلون من ذلك على كرامات وافرة فهم لايتنازلون إلى التكلم مع فقير حقير . هكذا
الذين يخاطبون الله فى صلاتهم فأنهم لايرتضون لذواتهم أن يخاطبوا على أى وجه اتفق ذاك
الكافر الملحد . ولا شك أن ذاك الذى يتعبد للشهوات الرجسة ويخدمها هو نديم الأبالسة
وعشيرهم . لأنه يحب جنونهم ويصبو بقلبه نحو شرهم وكفرهم . كما أن ذاك الذى يحب العفة
ويخدم العدل يخاطب الملائكة ويتوق إليهم ويحرص على الوصول إلى عظمتهم . وإن خطر
لأحد أن يقول عن الصلوة أنها أعضاء النفس وأوصالها فإنه لايخطىء عن الحق . لأنه
مقول فى ضميرى فكما أن الجسد مثبت لأعصاب وبها يتقوى . فهو تارة يمشى وتارة يقف .
وهـــو حى يلمس كل ملموس وأعضاؤه منظومة على نسق الترتيب . مادامت الأوصال
والأعصاب موجودة . ولكن متى قطعت تلاشى الجسم وانتثر عقد نظامه وسكنت حركاته.
كذلك النفوش فانها بواسطة أوصال الصلوات تنضم وتثبت وتسلك فى سبيل العبادة الحسنة
باسهل مرام . وأن أقفرت ذاتك من الصلوة فتكون كالسمك الذى يخرج من الماء . فكما
أن السمك يعيش فى استكنانه بالماء . هكذا أنت . فأنك لن تعيش إلا فى الصلوة . وكما
أن ذاك يعوم على وجه الماء بسهولة ورشاقة ويمضى حيث شاء . هكذا أنت فأنك بواسطة
هذه الصلوة ستلج السموات وتحوز القربى من الله تعالى . ولقد كانت كافية هذه الأقوال
التى انشأناها فى أيضاح قوة الصلوة المقدسة . ولكن الأولى بنا والأفضل أن نأتى بالنص
الآلهى والأوامر التى وضعها السيد المسيح ليظهر بذلك سعة الغنى والأيسار الذى تهبه
الصلوة لأولئك الذين يريدون أن يتصرفوا بها مـــدة حياتهم كلها . قال السيد له المجد
موضحاً بذلك وجوب الصلوة الدائمة بقياس ومثل . أنه كان فى بلدة رجل قاض لايخشى الله
ولا يستحى من الناس . وكان فى تلك المدينة أرملة مظلومة . وكانت تأتى إليه كل يوم
قائلة انصفنى من خصمى . وأما ذاك القاضى فلجوره لم يرد أن ينصفها من خصمها .

فطالت التردد إليه فى هذا المعنى زماناً طويلا . ثم أن القاضى رجع إلى ذاته قائلا . أنى وأن كنت لا أخاف الله ولا أستحى من الناس . ولكن لئلا تأتى إلى هذه الأرملة أو تقلقنى ينبغى أن أستخلص لها حقها . قال الله تعالى اسمع مايقوله قاضى الظلم أترى البارى تعالى هكذا لاينتقم لمختاريه الداعين له ليلا ونهاراً ويطيل أناته على مسألتهم . كلا . بل أنه ينتقم لهم من غرمائهم بسرعة . فلنفقه أيها الأخوان الأحباء بالحكمة المخيفة ضمن كلام الروح حسب مقدرتنا ولنلج لجة معانى هذه الكتب الألهية التى هى داخل عمق الحكمة الروحية . كما يلج الذين يطلبون الجواهر الثمينة قاموس البحر ويستخرجون منها المعادن الجزيلة القدر والقيمة ويدفعونها لقاطنى الصحارى . هكذا نحن فلنبادر حسب أمكاننا ومقدرتنا ونستخرج لكم الكنز الصالح وندفعه لكم فإنه يزين نفوسكم ويزخرفها أكثر من الحجارة الكريمة لأن تلك الحجارة تزين أكاليل الذين يلبسونها وتوشيها . ولكن حسنها زمنى وبهاؤها هو فى هذه الحيوة الحاضرة فقط وأما هناك فى السماء فلا قيمة لها . وأما ذاك الذى يتذكر بنفسه كلمات الروح فإنه يوقر ههنا ويصرف حياته بالعصمة والأحتفاظ . وبعد انتقاله يقابل المسيح يوم الدينونة بوجه بهج طلق وبدالة لا توصف . لأنه يكون مفعماً من كل فضيلة ومبتعداً عن كل رذيلة . ترى أى كنز تبرزه حينئذ وتستخرجه عن عمق الكتب الألهية ولكن لا يمكننا أن نستقصى أعماق الحكمة بأسرها إلا ماهو بحسب أمكاننا . فنقول أن ربنا له المجد لما شاء اجتذاب الناس إلى الصلوة وأراد أن يظهر المنفعة الحاصلة منها للنفس ابرز لنا مثالا قاضياً متصفاً بالظلم والشر قاسياً قد ابتعد عنه كل الصلاح وخلع الحياء ونفى خوف الله من جنانه . ولقد كان البارى تعالى قادراً على أن يمثل لنا بقاض صديق رحوم ليستفحص عن رحمة الصديق ويجعله قياساً لمحبة الله نحو الجنس البشرى ويبين به قوة الصلوة واقتدارها . لأن الرجل الوديع الرؤوف يصغى إلى المبتهلين إليه ويستمعهم . فكيف إذاً أصغى البارى جل اسمه نحو محبيه البشريين الذين لاتحصى كمية محبته لهم . ولم تتجاوز هذه المحبة عقولنا فقط بل أنها فوق طول عقول ملائكته . فلقد كان يحسن بفعله لو قدم مثالا قاضياً عادلا . ولكنه لم يشاء ذلك بل أورد مثاله بقاض كافر جائر وبظالم ماقت للجنس البشرى لنعلم من هذا أنه نحو المتضرعين إليه يكون أنيسا وصالحا ووديعاً . ونحو الآخرين يكون صارماً قاسياً وعديم الإنسانية شريراً . فينتج من هنا أن كل طلبة وابتهال لها قوة أن تستميل بأيسر مرام تلك الطبيعة الوحشية . وذاك العقل الكثيف المظلم بالشر وتنقلهما إلى محل الشفقة والرحمة . أورد لنا المسيح هذا المثل . ذلك لئلا يحتج أحد بقوله :

أنه لايعرف قوة الصلوة ولا يدرك اقتدارها . فلهذا المعنى أحضر البارى تعالى ذكر هـذا القاضى الخبيث الشرير وأوضح لنا كيف أن توسل أرملة قاصرة استطاع أن يلين قلبه ويستميله إلى محبة البشر التى هى خارج طبيعته . ومن هذه القضية يميل بنا السيد المسيح نحو أبيه ذاك الصالح الرؤوف والوديع المحب البشر الذى يتغافل عن الجريرة والأثم ويصفح عن معظم الخطايا . ذاك الذى يهان منا كل يوم بالشتائم ويحتملها . ذاك الذى يشاهد الذين يكرمون الشيطان ويقربونهم وهـو صابر بتحننه . ذاك الذى يستهينون به ويجدفون على ابنه الوحيد الجنس بألفاظ متلونة وأقوال متنوعة مع ربوات من التشنيعات والشرور . وهو لذلك صابر لم ينتقم . فذاك الذى هو بهذا المقدار يجدف عليه ومهان منا يحتمل الأهانة والشتائم صابراً . ومتى رآنا متضرعين إليه ومتوسلين حسب الواجب ترى لايرحمنا بسرعة . حاشا . بل اسمعوا قوله . قاضى الظلم . انى وإن كنت لاأخاف الله ولا أستحى من الناس . أقضى لها ماتبتغيه منى لئلا تقلقنى فى ترددها إلى وتزعجنى حينا فحينا . فما قولك أيها الإنسان . اشاهدت ذاك الذى لم يستطع خوف الله أن يثنيه إلى الانصاف قد أمكن الابتهال أن يجذبه إليه . ووعيد الله الذى كان عارفاً به المزمع أن يعاقب العاتى لم يمكنه أن يذلله ويصلح فساد ضميره . والأرملة بتوسلها وابتهالها روضت ذلك الفظ الأخلاق وصيرته وديعاً بهذا المقدار . فكم بالحرى ذاك المحب الانام يمنحنا كل خير وصلاح على الدوام . لأنه تبارك وتعالى يشاء أن يرحم لاغير ولا يشاء أن ينتقم . ومع أنه أثبت العقاب والقصاص لفوائد كثيرة لأجلنا . وبواسطة هذا الوعيد المرهب بالعقاب أعد خيرات وافرة وارتياحاً عظيماً . حتى إذا كنا بين الخوف والرجاء نساعد من الجهتين . أما الخوف فيصدنا عن ارتكاب الفحشاء . وأما الرجاء فيحثنا على عمل الخير والفضائل . وإنى لاعجب متذهلا كيف أن فكرى لم ينفصل من ذلك القاضى الظالم . بل إنه لم يزل معانياً تلك الوداعـة الخارجة عن طبيعته . ثم مع هـذا أميل النظر والتأمل نحو محبة الله للبشر التى لا تحد ولا تدرك . فإذا كان الذى من طبعه لايمكنه أن يصطنع أمراً محموداً تاب لوقته ورحم تلك التى كانت تتضرع إليـه بتوسل . فماذا تظنون فى الصلوات والتضرعات ، كم من المساعدة توافينا من السماء بواسطتها . ومن تأمل قوة الصلوات وشعر باقتدارها يعرف كمية الخيرات التى ينالهـا أولئك الذين يثابرون على الصلوة والطلبة إلى الله دائماً . فمن منكم يحمد احسانات البارى تعالى ما لم يمنح نور الشمس ، وإشراق القمر . وشعاع الكواكب وهبوب نسيم الصبا . واصناف المآكل

المتنوعة . واتساع الثروة الفانية . وسعة الحيوة الحاضرة . وغير هذه من الخيرات لجميع الناس على حد سوى . صدّيقين كانوا أم ظالمين . مؤمنين أم كافرين . وذلك لشدة مودته لنا وترأفه علينا . فإذا كان الذين يتضرعون إلى الله ولا يستميحونه يرحمهم هكذا ويرضيهم كل يوم . فإذاً كم من الخيرات ينال منه أولئك الذين يسلكون فى طريقه ويثابرون حياتهم كلها على الصلوات والابتهالات . فهلم يامعشر المؤمنين نتأمل كم من الصديقين استطاعوا بصلواتهم أن يستنقذوا مدناً . وبعضهم أنقذوا الأمم وسائر المسكونة بذواتهم . وأنا أذكركم بهم واحداً فواحداً . فأول تذكارى هو بولس الطوباوى . وهو أهل للتذكار ابتداء . لأن هذا السعيد الذكر لم يكن يروى من الصلوة المتواترة وخدمة الله . ذاك الذى كان أباً وجداً لجميع عبيد السيد المسيح . ذاك الحافظ المسكونة . ذاك الذى خلص جميع الأمم بصلواته وتوسلاته الدائمة . ذاك الذى أشار نحونا قائلا . إنى لهذا اجثوا بركبتى إلى أبى ربنا يسوع المسيح . الذى إليه تنتسب كل قبيلة فى السماء وعلى الأرض أن يعطيكم غناء رحمته لتقبلوا إلى المسيح بالإنسان الداخل بواسطة الايمان الكائن فى قلوبكم وافئدتكم . اشاهدتم قيمة هذا القول والدعاء الذى تضمنه أن يجعل الهيا كل البشرية هيا كل نقية ومنازل طاهرة لمقر المسيح بها . فكما أن الحجارة الثمينة والصخور المرمرية مع رونق الذهب يتألف منها بيوت للملوك مشرفة . هكذا الصلوة النقية فإنها تصير للإنسان مقراً للمسيح مكرماً . لأنه يقول فى أثناء كلامه . ويسكن المسيح فى قلوبكم . فبأى المديح والتقريظ يمكنك أن تمدح الصلوة التى تصيرك هيكلا لله العلى وتجعلك منزلا ومقراً لذاك الذى لم تسعه السموات . فإنه يوافى إليك ويلج داخل نفسك ويقطن بها أيها المصلى . ولأنه تعالى يقول . أن السماء كرسى لى والأرض موطىء لقدمى . فأى بيت تبنون لى يقول الله . وأى مكان مقرّ راحتى . فلنتأمل إذا ببولس كيف أنه يبنى بيتاً للرب . وبأى نوع وهيئة هو ؟ ليس إلا من جوهر الصلوة ومادتها . لأنه يقول . إنى اجثوا بركبتى لدى أبى ربنا يسوع المسيح . لكى يقطن المسيح فى قلوبكم باسعاف الإيمان . ويمكننا أن نطلع على قوة الصلوة واقتدارها من جهة أخرى . وهى أن بولس ذاك الجلد المجاهد الذى كان يخترق المسكونة كأنه بأجنحة شديدة القوادم وعانى شدائد ومصاعب مختلفة الضغط فى الحبوس . احتمل جراحات هائلة . غل فى القيود والسلاسل مضنوكاً . وبالجملة أنه قضى حياته بكل ضيق وغم وشدائد لاتوصف وأخيراً وهب له اجتراح العجائب والآيات . طرد شياطين . أقام أمواتاً .

شتى مدنفين ومع هذا لم يكن له رجاء فى مساعدة العالم وإغاثتهم إلا بالصلوة فقط .
وبها كان يوطد المسكونة ويشدد دعائمها وأساساتها . لأنه كان بعد أن يجترح العجيبة يبادر
مسرعاً إلى الصلوات كالمجاهد الذى عندما فرغ من صراعه وعراكه بادر لأخذ أكليل الظفر
والغلبة . لأن اقامة الموتى وباقى الفضائل الأخرى كانت له بقوة الصلوة . لأنه كما أن الاشجار
لاتنمو وتثمر إلا بالماء . هكذا حيوة الصديقين فإنها لاتنمو إلا بالصلوة . ولهذا كان بولس
الطوباوى يأرق ليلته ساهراً فى هذا العمر الفانى ويسقى أغراس نفسه السعيدة بالصلوات
المتواترة . وكان يحتمل معها بأيسر مرام كل الاتعاب التى تصيبه . حتى أنه كان يسلم جسده
الطاهر إلى أنواع الجراح والجلد كالطرد الثابت غير المتزعزع . وبهذه الصلوة زلزل أساسات
السجن فى مكدونية . وبهذه حطم القيود والأغلال كالضرغام الزائر وبهذه اقتنص السجان
بشص بشراه من بحر الجهل والضلال الطامى . وبهذه أوهى قوى الابالسة ومزق شراستهم.
ولقد احطنا علماً بمـــا نص عليه الرسول الإلهى ضمن رسائله قائلا . اصبروا دائماً فى
الصلوات . وأيضاً يقول . واظبوا على الصلوات بشكر . وفى مكان آخر تمموها . صلوا
لأجلى لاعطى لساناً طلقاً ودالة وافرة ، لكى أتكلم جهراً علانية وأفصح عن سرائر
الانجيل المقدس . ماذا تقول يا بولس . أبهذا المقدار الصلوة عظيمة حتى أنها تمنحنا
جسارة أن نتضرع إلى الله فى شأنك . فأى جندى يجسر أن يستميح الملك فى شأن زعيم
الاجناد الأكبر ورئيس المتقدمين . فأظن أن لا أحد من المتقدمين يمكنه ذلك . وبالحقيقة
أيضاً أنه لا يوجد زعيم متقدم فى بساط الملك وديوانه كما أن بولس الطوباوى متقرب إلى
الله . ومع هذا فالصلوات ترفعنا وتؤيدنا بكرامة هذا عظم مقدارها حتى أننا نجسر على التوسل
إلى الله فى امر بولس الشريف المكان . وبقدر ما أن الصلوة تمنح تشريفاً وخيرات
لممارسيها بمقدار ذلك تسبب مضرات وأخطاراً لمن يتهاملون فيها أو يتغفلون عن تتميم
واجباتها . أنظر إلى ذلك الطوباوى بطرس أحد الرسل الحواريين المختار من السماء . كيف
أنه نجا من ضيق السجن بواسطة هذه الصلوة . ولقد كان ممكناً له أن ينجوا بواسطة فضائله
وفوائده التى كان العالم مزمع أن ينالها منه فيما بعد . ولكن أسرع من هذه الفضائل
كانت فضيلة الصلوات التى قدمت عنه فى البيعة المقدسة حتى انفتحت له أبواب السجن وخرج
بأمن وسلام . ولم يكن شيئاً بغير قصد أو بالصدفة ما نصه البشير لوقا قائلا . أن صلوة
متصله كانت تقرب من جميع الكنائس لاجل بطرس . بل قصد البشير فى ذلك أن يرينا كمية
قدرة الصلوة فى السماء حتى أنها استطاعت أن تنجى من إشراك الشدائد مثل بولس وبطرس.

اللذين هما أركان الكنيسة المقدسة ودعائمها وهامتا الرسل المشرفين المختارين من العلاء وأسوار المسكونة بأسرها . وحافظها مطلقاً براً وبحراً . أخبرني ياهذا عن موسى الطوباوى حين انقذ العبرانيين فى معركة القتال أليس أنه تشاطر أسلحة الحرب بينه وبين تلميذه . قلد تلميذه آلة الطعن والضرب وولاه فى مقام الصراع والملاحمة . واعتقل هو سلاح الصلوة وشرع فى محاربته أعداءه . والغلبة التى لم يكن العبرانيون يقدرون عليها بطعنهم وضرابهم كان هو يقوى عليها بصلاته ويكون الظافر الرابح فأراهم أن الصلوة أكثر اقتداراً وعوناً من آلة الحرب والكفاح وأوفى عزماً من الأبطال الصناديد والأموال والغنى . وأن صلوة الصديقين لأكثر قوة من الكتائب والمواكب المتعددة . والدليل على هذا . أن جميع الجيوش والعساكر والمحاربين كانوا فى طمأنينة وهم يرجون خلاصهم وظفرهم من النبى . لأنه كلما كان موسى يصلى كان العبرانيون يرجعون على أعدائهم ويظفرون بهم . وعندما يكف من صلاته كانوا يغلبون وتظفر بهم أعداؤهم . فليكن صنيعنا إذا على هذا المنوال. ونوقن أننا متى صلينا وابتهلنا نحطم سهام الشيطان . ونكيده وننجو من حبائله ومكيداته . ومتى سهونا عن ذكر الله وتغافلنا عن صلاتنا . فإن الشيطان خزاه الله يظفر بنا ويسطو علينا بتحيره . تأمل اسباط العبرانيين حين ارتكبو الخطأ قدام الله وكفروا به وعزم البارى على تدميرهم وإهلاكهم كيف أن موسى بصلاته النقية نجاهم من البؤس والرجز الذى كان موافياً لهم . أو ليس بهذه الصلوة وحدها استحق موسى العناية الآلهية والمناظر الربانية . وكم خيرات قديمة وحديثة تقومت بها . فمن صير موسى يجيز حياته كلها على الأرض كأنه ملك سماوى غير الصلوة . هذه هى التى اخمدت حدة النار . هذه هى التى ذللت الأسود الضارية وبدلت شراستها بخلق أنيس وديع . هذه التى صيرت أتون بابل على الثلاثة الفتية برداً وسلاماً حين كانوا يصلون وسط اللهيب المضطرم . أما سكن دانيال بصلاته فى قعر البئر غضب الأسد الذى كان معداً ليفترسه فهذه فضائل الثروة التى أظهرها قديسو الله . كما هو واضح لى اقتدارها فى كل الناس لأنها تنجى كل من تصادفه فى شدة وضيق وتخطفه من بحر الشرور المحيطة به . فالصلوة هى سبب الخلاص ومسببة لعدم الموت الخاص بالنفس. وهى سور الكنيسة الذى لايمكن أن يهدمه جميع مجانق الأعداء . وهى السلاح الواقى والمرهب لكل أجناد المحال والعون المنجد لذوى الإيمان المستقيم . هذه هى التى أولدت صموئيل النبى من أمه العاقرة . ولكن لما برزت الصلوة إلى الوجود رز معها المولود وحل ارباط عقرية والدته . وأينعت هذه الصلوة ثمرة ذات رونق عظيم وبهاء وذاع

صيت صموئيل النبى حتى إلى السموات . وعز عن أن يوجد له نظير ويماثل وغاير بجسده على الأرض سيرة الملائكة فى السماء . وهذا هو اعتقادى فى الصلوة . أن سنبلها يجب أن تكون بمثل هــذا الشرف والمزية وأن تفوق كل شىء فى الصلاح ولقد كان ينبغى لهذه الثمرة اليانعة بالصلوة أن تفوق الجميع فى الفضيلة وتكون أفضل القديسين المتقدمين قبلها . كما تفوق السنبلة المثمرة على باقى السنابل . تأمل داود أيضاً ذاك الذى بواسطة هذه الصلوة أقام حروباً عديدة صعبة ولم يكن رجاؤه بأسلحه وآلات ولا بالقنا والقواضب بل كان متكلا على قوة الصلوة ومتكئاً على دعامتها وبها كان المظفر الغالب وبهذه الصلوة مزق حزقيا الملك جيوش العراقيين وشتتهم أيدى سبا . لأن أولئك كانوا يستعينون على هدم سور المدينة بحيلهم وصناعاتهم وهو كان يستنجد عليهم بصلاته ويوطد بها سور مدينته بزيادة ووقف الحرب عنه بلاسيف ولاسنان . ماعدا الصلوة فقط . لأن الجنود كانوا رابضين بأمن وسلام وسيوفهم لم تفارق الأغمدة . ولم تتكلف أن تشرب دماً البتة . ومن حيث أن الصلوة وحدها أخرت المضادين وأرجعتهم مخذولين . هــذه الصلوة هى التى خلصت أهل نينوى وكفت عنهم الغضب وأمسكته بعد أن كان منحدراً عليهم من السماء لأجل تلك الشرور التى صنعوها مدة حياتهم من أمور سمجة وافعال رديئة . فلما ولجت هــذه الصلوة داخل مدينتهم أحالت الجميع وصيرتهم ذوى عفة . وعدل . وصدق . وأتفاق . ورحمة . لأنها فى وفودها عليهم جلبت معها جميع الخيرات . كالملكة مثلا . فإنها إذا أحبت أن تدخل مدينة تصحب معها جميع غناها ضرورة . كذلك الصلوة فإنها متى أستقرت فى نفس فاعليها تتلوها جميع الفضائل . والصلوة للنفس كالأساس للجدار . ولنجعل هــذه الصلوة فى ذواتنا إبتداء كل شىء كالأساس والقاعدة وحينئذ نؤلف فوق هذا الأساس العفة والوداعة والعدل والاعتناء بالمساكين مع باقى النواميس الروحيه . لأن التصرف غير الموافق والجحد لوصايا المسيح هما موت للنفس لا محالة . فينتج من هنا أن التعبد بإخلاص والأصرار على حفظ وصايا المسيح ونواميسه حيوة للنفس . والصلوة نفسها مسببة لنا التعبد وحفظ الوصايا والتصرف البار . فإنها تجمع كل ذلك لنا جمعاً عجيبا وتسمره فى أنفسنا . وكلما رمت أمراً محموداً فاجعل إبتداءه الصلوة . وإذا شئت أن تحفظ عفة وبتوليه . أو أن تضبط الغضب . أو أن تعيش بوداعة . أو أن تبتعد عن الحسد وتحب السلام . أو أن تفعل أمراً ما من الصلاح . يجب عليك أن تبدأ أولا بالصلاة على ما نويت . لأن الصلاة إذا كانت مقدمة على الموضوع وسابقة له فإنها تطهر نفس ذاك الإنسان وتدبره

كما ينبغى . فيقبل حينئذ طرائق العادة فى ذاته بسهوله . ويكون عمله بأسره حسبما تقتضيه مشيئة البارى تعالى . لأن الذين يطلبون من الله العفة والوداعة والسيرة الحسنة لا يمكنهم أن يحصلوا عليها إلا بالصلوة والتضرع . لأنه تعالى يقول . أطلبوا تجدوا . أسألوا تعطوا . أقرعوا يفتح لكم . لأن من يطلب يجد . ومن يسأل يعطى . ومن يقرع يفتح له . لأن من منكم إذا سأله أبنه خبزاً يعطيه حجراً . أو يسأله سمكة يعطيه حية . فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تمنحوا أولادكم ما يحتاجونه منحة جيدة . فكم بالحرى أبوكم السماوى يمنح الروح القدس للذين يسألونه . فإذا كان سيد البرية بأسرها يحثنا تأديباً ويلزمنا بمثل هذه الأقوال ويؤيدنا بمثل هذا الرجاء الثابت فلمَ لا نصلى اليه مبتهلين . فيجب علينا إذاً أن نسمع نص وصاياه دائما . ونسأله أن نستسير مـــدة حياتنا بالتسابيح والصلوات . وخاصة أن تشغل عقولنا فى التعبد لله والتمجيد له . فيكون ذلك لنا خيراً من الهموم الأخرى العالمية لأننا إذا عشنا واستقمنا على هذه الوثيقة فسنعيش عيشه لائقة بالبشر . فمن لا يصلى إلى الله ولا يهوى مناجاته دائماً فهو لاشك ميت فاقد النفس وقد عدم عقله بالكلية . لأن أول دلائل الجهل أن لا يفهم الإنسان عظم الإكرام . ودلائل العقل هى أن يتوق إلى الصلوة ويشعر بنفسه إن لم يصل يكن كأنه ميت . فكما أن الجسد الخالى من نفس هو مائت، هكذا النفس العاربة من الصلوة فإنها مائتة شقية منتنة فإن قلت وكيف يمكننا أن نصف نفوسنا بالميتوته متى نأت عن الصلوة . أجبتك . هاهو ذا دانيال العظيم فى الأنبياء يعلمك قائلا : أنه فضل الموت والبوار على أن لا يفتر عن صلاته ثلاثة أيام فقط . فلم يرض النبى بذلك ولا أستصوب ترك الصلوة . لئلا تبتعد عنه معونة الله . لأننا بدونها لا يوافينا شىء صالح . وكل الأمور الثقيلة وكل التجارب التى تصيبنا يدفعها البارى تعالى عنا وينقذنا منها إذا رآنا محبين للصلوة ومنعكفين على الإبتهال اليه ومنتظرين خيراته وأنعامه لتفد علينا وتوافينا . فمتى شاهدت يا هذا . إنساناً يكره الصلوة ولا يميل اليها محبة واشتياقاً ولا يتقد قلبه بحرارتها وسعيرها ليلا ونهاراً . فاعلم يقيناً أن نفسه عديمة النشاط والصلاحية . وإذا رأيت أحداً مسلماً ذاته لعبادة الله من غير شبع وتضجر . وإذ عرض له عارض منعه عن توالى صلواته وعد ذلك خسراناً له . فثق بهذا وأحسبه ناسكا حقيقياً . وقل أيه راسخ فى الفضيلة لأنه هيكل لله . ولقائل من المتكاسلين الذين لا يعتنون بالصلوة يقول . ألم يقل الله أن ليس كل من يقول يارب يارب يدخل ملكوت السماء بل الذى يعمل مشيئة أبى الذى فى السموات . أجبتك . أن أعتراضك مسلم به لو كان قولى أن الصلوة وحدها كافية لخلاص الناس . ولكن قولى لم يكن هكذا .

هل تقريرى كان لأجل الصلوة بإنها رأس الفضائل كلها وأساس هــذه الحيوة الزمنية وثباتها . فلا يحتجن أحد بمثل هذه الأقوال كسلا وتهاونا . أعلم ياهذا يقيناً . أن لا الصلوة ولا العفة وحدها تستطيع أن تنجى الإنسان خلوا عن باقى الأشياء الصالحة . ولا الرحمة أيضاً . ولا الأنعام . ولا غير هذه من الفضائل . بل يجب أن تكون هذه جميعها فى أنفسنا لان الصلوة كما ذكرنا سابقاً هى أصل كل الفضائل وكما أن الأساس يثبت المنزل ويقيه. هكذا الصلوة فإنها تهذب حياتنا كلها . وبدون الصلوة لا يمكننا أن نحصل على خير لخلاصنا . فلهذا أيها الأخوة السامعون لهذه الأقوال المثبتة من الكتب الإلهية . والذين قد علموا أن كل القديسين قد نجوا بواسطة هذه الصلوة وورثوا النعيم الأبدى . فلا يجب أن نتهاون متكاسلين فى هــذه الصلوة الإلهية ولا ننهمك فى المهمات العالمية والاحتفالات الباطلة .خاصة وقت الصلوة العمومية والتراتيل الملحنة والترتيب الكنائسى ولا نعتذر بأن لنا أشغالا ضرورية . لأن الحجة لا تنفعنا البتة كما لم تنفع الآخرين الذين كان لهم عذر واضح وجلى . أسمع مقال السيد فى الإنجيل الإلهى وهو أن إنساناً صنع وليمة حافلة ودعا اليها الأكثرين وأرسل عبده آوان العشاء ليقول للمدعوين . هلموا إلى الوليمة لأن كل شىء معد مهيأ . فأخذ كل منهم يعتذر متمنعاً . فالأول قال إنى أشتريت حقــلا والضرورة تدعونى بان أخرج اليه لأتأمله . والآخر قال إنى أشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماض لأختبرها .والآخر قال إنى أقترنت بزوجة فلا قدرة لى على المجىء. فغضب عند ذلك رب المنزل وقال . حقاً أقول لكم أنه ولا واحد من هؤلاء المدعوين يأكل من عشائى . فكثيرون هم المدعوون . ولكن المختارين قليلون . أنظروا أيها الأخوة المحبوبون كيف أنه لم يستحق هذه الوليمة السيدية أحــد من هؤلاء المدعوين مع أنهم وجدوا لهم أعتذارات لائقة تعيقهم عن الاتيان . وعلى هذا النسق يفعل باولئك المتقاعدين عن واجبات الصلوة ويعتذرون باعتذارات لائقة . بل الأولى أن يقال بحجج مذمومة وغير لائقة . وأما نحن فلا يجب أن يكون هذا منا البتة بل نكون عبيداً أمناء خاصة إلهنا الحقيقى يسوع المسيح ومجاهدين فى الطلبات والصلوات المتصلة لنستحق الحصول على ذلك الخدر الذى لا يعتريه الفساد بنعمة يسوع المسيح ربنا الذى له مع أبيه وروحه القدوس المجد والقوة والإكرام والسجود الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة السابعة عشر

(فى الفضيلة والرذيلة)

أيها الأخوة الأحباء أنه يوجد أناس منا ههنا ذوو فضائل وجهاد . وهم دائماً محترصون على خلاصهم ويفضلون فضيلة الابتعاد عن العالم على كل الفضائل ويبادرون إلى الصحارى والقفار ويتنسكون هناك . فإن سألهم سائل لماذا تشخصون على المدينة مبتعدين فيهيشون له سبباً واحداً يجيبونه به قائلين . لئلا نهلك مع الكثيرين ولئلا نتوانى فى الفضيلة والجهاد . فهذا هو سبب هربنا من اضطراب العالم . فياليت شعرى بأى مقدار تريد أيها المتعبد أن تكون أفضل من غيرك . أبجلوسك فى قمم الجبال . وأنت تشاهد أخوتك فى تيار العالم يهلكون . فلاشك أن مثل هؤلاء يشبهون قائد الجيوش الذى يترك جنوده وأعوانه فى مقام الحرب واصطدام الجحافل بغير ناصر ليهلكوا أمام محاربيهم ومضاديهم . أين من يصدق الآن بالعجائب والآيات . وأين من يسمع منا نحن المنعكفين على الكبائر والشرور . ولعمرى أن تقويم سيرتنا وحسن تصرفنا أفضل صدقاً من اجتراح العجائب أمام الناس . لأن الخبثاء عند عمل العجائب تداخلهم أفكار شريرة . وأما السيرة النقية والعيشة غير المذمومة فتلجم فم الشيطان الشكس . فمن كان مأواه الأرض وهو يرغب أن يرتفع متنزهاً عنها فلا يمكنه ذلك إلا بعزم النية وحسن الطوية . لا من حيث الخارج فقط . وإذا كان هذا عزمه فيجب عليه أن لا يقطن الأرض بعدها . ولنميز ذواتنا من حضيض الأرض ونرقى بها إلى أوج السماء كبولس الرسول . لأنه ممكن للانسان أن يتجاوز الناس قاطبة متى أراد . فإذا كانت الصنائع والمهن التى هى مقر التعب والنصب يمكن لمتقنها وصانعها أن يفوق بها على أقرانه ويتجاوزهم . فكم بالحرى تلك الصناعة التى لايلزمها مثل هذا التعب . أخبرنى أى أمر أصعب وأكثر خطراً من عمل ذاك الذى يمشى على الحبل كمشيه على بسيط الثرى . وينزع ثيابه ويلبسها وهو منتصب على الحبل كأنه فوق سريره . أو ماذا يكون أشد خطراً وأصعب مراساً من ذاك الذى يضع الرمح على جبهته ثم يركب صبياً فوقه . وغير هذه من أبواب المجون والخرافات التاريخية قصداً منهم أن يطربوا الناظرين إليهم ويجتذبوا نظرهم إليهم لما شاهده منهم اللفيف الملتئم من الأحوال المخيفة

المرجفة . أفما ترى هذه الأمور عجيبة مذهلة وبهذا المقدار مرهبة . حتى أن نظرك فى بعض الأحيان لايطاوعك فى النظر إليها لشدة ارجافها . وأنا أقول لك أن الفضيلة أسهل من هذه الأمور كلها عند اجتهادنا وميلنا إليها ولو كانت نتيجتها الصعود إلى السماء من حيث أن هذا الأمر هو عسر شاق جداً . ولاتقل لى ياهذا . إنى أنا أريد ذلك وابتغيه لكن لا استطيعه . فهذا محال لأننا لم نفرغ جهدنا ونجرد ارادتنا نتعلم ادق الصنائع وأعظمها وعلى كل حال أن الصعود إلى ملكوت السماء أسهل من هذه إذا وضعنا الفضيلة العملية فى محل لائق . وأن آثرت الاطلاع على كيفية الفضيلة بأنها لاتحتاج إلى تعب جسيم ولا يلحقها صعوبة تقويم فى الغاية القصوى . فتأمل المتوحدين المطوبين كيف أنهم استوطنوا ذرى الشوامخ والقفار وتركوا العالم وتعلقاته لأجل الرب وتجلببوا الاطمار الشعرية وكان مضجعهم الثرى والرماد . وكانوا ينهكون اجسادهم بحملهم الحديد الثقيل ومساكنهم أضيق الأكواخ . واحرج الجدران . وضغطوا بها ذواتهم مسجونين لأجل ملكوت السماء ولا يكفى هذا فقط بل كانوا يزيدون تقشفهم بامساك وصلوات متصلة بجوع وعطش مفرطين ويرضون اجسادهم ويوقرونها بشقاء بالغ و سهرير مؤلم . ولا تقولن أن أولئك كان لهم استطاعة حتى ساروا هكذا . لأنك أنت قادر أيضاً على ذلك لو أردت . ألم يكن أولئك أناساً مثلك بل كثير من أولئك كانوا أوهن منك قوى وأوفر منك مالا وأكثر ترفهاً . ولما أرادوا أن يسلكوا هذا المنهج الضنك برغبة قدروا على ذلك . فان قلت أن ذاك الجهاد عظيم وبهذا المقدار عال حتى أنه يبلغ إلى عنان السماء . اجبتك . أنك إذا لم تستطع أن تبلغ إلى عظم ذاك التقويم فاقل ما يكون أصنع النزر اليسير ولا تهمله بالكلية . مثلا إذا لم تستطع أن تمنح جميع مالك المساكين فلا تختلس ماليس لك . وأن لم يمكنك ان تصوم مطلقاً فلا تنعكف على البذخ المفرط والشراهة ومداومة السكر . ألم تر أن السيد المسيح نفسه سلك فى هذا العالم بسيرة قشفة ومات لأجلنا موتاً كريهاً مستصعباً . ونحن مع ذلك نعصاه ونعاديه . فكيف يمكننا أن نحوز دالة فى ذلك اليوم الذى نظهر فيه خالين من كل عمل صالح . أو ما تعلمون أن الجندى متى ظهر بكلومه وجراحه يستبين عند ذلك مفخماً ومشرفاً عند الملك . وأن لم يكن له ما يظهر شجاعته وفروسيته يظهر أصغر من الأصاغر وأقل استحقاقاً من عديمى الإستحقاق . ولقائل يقول . أن هذا الأوان ليس باوان حرب واضطهاد ليتم لنا الجهاد وننال الإكليل . أجبتك . أنه لوكان الأوان على ماذكرنا ترى من كان يموت فى المسيح شهيداً . أو من كان يتهيأ للجهاد

بنشاط أو من كان يبادر للاضطهاد من قبل ذاته . لا لعمرى . وها إنى أراك متمسكا بالاقتناء غير رافض للمجد الزمنى حباً بالمسيح . فكيف اوقن بعزمك أنك صبور جلد على الكلوم والحبوس متهاون بالاحتقار والتعبير وأنك مواظب على الصلوات لأجل أولئك الذين يزعجونك ويولونك الخسران . وانى أراك لاتحتمل واحدة مما ذكرنا . ومع هذا أنت خال من كل اضطهاد وشدة . ولعلك تقول دعنى اتمتع بهذه الحيوة المعذبة فى عنفوان الشبات وعند أوان الشيخوخة اصير مجاهداً حريصاً . أجبتك . هيهات الاستطاعة على العود المثاب . وقد قال ذاك المعظم باسيليوس . أن الشيخوخة لاتزيده إلا نكداً وعجرفه . فإذا كانت مخاطبة الملك الأرضى تحتاج إلى تعب ومعاناة مقرونة بخوف ورعدة . فكيف إذاً أنا وأنت يمكننا أن نعاين السيد المسيح ذاك الملك السماوى ونحن منعكفون على التعبد لمشيئة الجسد ومنقادون لطاعة سيد آخر . أعنى به الشيطان المضل . أترجو يا هذا أن تشاهد السيد المسيح وأنت لم تخدمه فى حياتك كما خدمت الشيطان . ذاك الذى نلت منه نعمة جزيلة وشرفاً عظيما . أعنى المعمودية الالهية وقد جعلك وريثاً لله مع المسيح . فلم تخفض شرف طبيعتك وعلوها ولماذا تتصرف فى سيرتك كالجهول . أما تبصر الذين يهذبون الطيور كيف أنهم يجعلونها تنطق . وبعضاً يروضون الأسد والدب وسباعا ضارية هائلة ويصيرونها وديعة أنيسة حتى أنهم يقودونها فى الشوارع والأسواق وهى لا تؤذى أحداً . فإذا كنت أيها الإنسان تستطيع أن تهذب طباع الحيوان غير العاقل وتصيره وديعاً مستأنساً . فلم لاتهذب ذاتك العاقلة الناطقة . بل تجترىء على تخليقها بخلق شرس وحشى وتجعلها أشر من الوحوش . لأن الحيوان الشرس يوجد فى كل نوع منه رذيلة واحدة طبيعية . وأما الإنسان السيء الأخلاق ففيه رذائل متعددة . ويحتشد فى نفسه شرور الحيوانات بأسرها . فيتخذ من الأسد غضبه وشراسته . ومن الذئب نهمه واختلاسه . ومن الثعلب خبثه ومكره . ومن الجمل حقده وضغينته ومن الجعل والنمل احتشاده وطمعه . ومن الدواب أكلها وسمنها . ويتطرق إلى افعال أخر شريرة غير هذه . فكيف تحكم على مثل هذا بأنه إنسان . ولو كان من حيث العقل والنطق إنساناً إلا أنه رب هـــذه الالام جميعها وسيد الحيوانات البهيمية بأسرها . فإذا كنت يا هذا عبداً لمثل هذه الشهوات المختصة بغير الناطق فكيف أجسر أن أسميك إنساناً وأنت عار عن الشبه الإنسانى وغريب عن الاتحاد بملكوت الله المختصة بالبشر أتدرى من تضاهى بهيئتك ومثالك . فاعلم أنك تماثل خالقك بدليل قوله . لنصنعن إنساناً

على صورتنا ومثالنا . فإذا كنت هكذا شريفاً رفيعاً فلم تخفض شأنك إلى خسة الحيوانات البهيمية فكما أن الذين يتقلبون على الحبال فى ميدان الملاعب والملاهى بخفة ورشاقة متى طمح نظرهم عن موضوعهم يسيراً يسقطون إلى أسفل فيموتون . هكذا الذين يحاضرون فى المناهج الروحية متى توانوا يسيراً يسقطون . لأن طريق السماء أكثر خطراً من ذاك وأضيق مسلكا وأسمى علواً وتشامخاً ألا ترى أن آخره يبلغ إلى عنان السماء . وإذا كان ذلك كذلك فيجب علينا أن نطأه صاعدين بخوف وحرص . وخاصة حين نبلغ إلى باب السماء لأن هناك المخاوف والمخاطر الكثيرة والفحص العظيم والتدقيق الخفى على أدنى خطية وأعظمها من أعدائنا الروحيين الذين يترصدوننا فى أوج الهواء . وأبلغ من هذا جميعه التدقيق على الخطايا التى هى ضد الطهارة . أعنى بها الزنى والفجور . لأن الذين بلغوا إلى ذلك العلو الشامخ يعتريهم الخوف والارتعاد ويحفظون بكل جهدهم بأن لا ينظروا إلى ماهو أسفل لئلا يستحوذ عليهم الغشيان فتكون نهايتهم السقوط . لأنه لا يكفى لذى الفضيلة أن يتقن فضيلة واحدة بل يلزمه أن يتمم جميع وصايا الله باجتهاد كما أن القيثارة لا يكفيها وتر واحد لا تمام نغمتها ولذة لحنها بل يلزمها أن تكون تامة الأوتار لتظهر صناعتها الكاملة . قل لى ياهذا . أية فائدة تحصل لمن قد صام وصلى دائماً وهو لم يرحم المحتاج أو يرحم مثلا لكنه يطلب الاستكثار والاختلاس . فلا شك أن جميع ما يصنعه هذا يجتذب به إكرام الناظرين إليه فيأخذ حينئذ أجراً منهم . ولكن إذا رحم بحكمة واتضاع تكون رحمته مقبوله عند الله . ثم إذا كان أحد صائماً مصلياً بتواضع وخشوع . ولكنه يربى فى نفسه أصل الشرور وأم الدواهى ، أعنى بها محبة الفضة ويكون عقله منهمكا ومعلقاً فى المتاجر والارباح وهو مائل نحو الأمور الدنيوية . فلا شك أن ذاك الإنسان يكون معاقباً ههنا وهناك . إذ المسيح يقول . لايقدر أحد أن يعبد الله والمال أعنى الشيطان. فلما كان الأمر كذلك حسن لدى البارى تعالى محب البشر أن يدبر العالم بوجود الاخيار والأشرار لينحسم بذلك شر الأشرار وتعلن فضيلة الصالحين لتكون نفعاً للمتهاونين عند مخاطبتهم لأولى الفضل المجتهدين ، وكما أن الصالحين يحفظون بالكرامة المضاعفة من الله ولا يمسهم الضرر من الأشرار . كذلك الارديا فإنهم ينالون عقاباً شديداً . لأنه كان يمكنهم أن ينعكفوا ويصيروا صالحين . وأما هم فلأنهم لم يتهذبوا قد افسدوا غيرهم برذائلهم وشرورهم . فالصالحون ممدوحين من الجميع ويستغرب الناس حسن سيرتهم وسلوكهم . حتى أن الأشرار أيضاً يعجبون منهم كقول القائل أن المضاد يعجب من

الفضيلة . وأما الاردياء فما كفى أن الفضلاء يمقتونهم ويشنأونهم بل الأشرار أيضاً يعجبون من مكرهم ونفاقهم ولأنهم ذوو تدرب وحذاقة فى ظلم الغير والأضرار بهم لأنهم لا يدرون أن الأشقياء يظلمهم الأخرين يجعلون شفرة السيف حادة والشرير لا يعلم أنه إذا ظلم غيره يكون قد ذبح ذاته أولا . وليس هو بالردى أن يظلم أحد من أحد . بل الردى هو أن يظلم الواحد غيره . أوان لا يصبر على ظلم من ظلمه . ما أعظم ما ظلم داود من شاول . ولكن من منهما فاز بالظفر . والآخر استولى عليه الشقاء والحزن المضاعف أما كان شاول يضيق صدره حزناً وغيظاً وشراً . وداود كان يزهو بهاء وشرفا ويشرق بثوب الظفر فى الحروب . وحب الله ومودته أبهى من الشمس المنيرة . وذاك الحسود النكد يتمزق جلده حسداً وغيرة . وأما هذا المغبوط المطيع فكان يصبر بهدو وسكينة على جميع الشرور الصادرة إليه من قبل شاول ويستميل الجميع إليه بحسب تدبيره وعزمه . مع أن ذاك راقب داود مراراً ليغتاله ويفتك به . وداود كان مطروداً من أمامه . وحين وقع شاول فى قبضة داود من منهما كان أوهن قوة واقتداراً . شاول ذاك الحسود الحنق . أم داود الذى كان أتم الواجب لو سمح بقتله . ولكنه صان ضده ومحاربه بدون ضرر . شاول كان مدججاً بسلاحه . وداود كان عدل الله له مجناً وسلاحاً ثم انظر إلى هذا الشجاع نفسه . كيف أنه استحال إلى الضعف والجبن عند ظلمه أوريا وانعكس النظام المترتب آنفاً وانتقل الضعف إلى الظالم والقوة إلى المظلوم . لأن أوريا كان ميتاً مقتولا ومنزل ذاك الظالم كان يتقوض بناؤه ولم يقدر هذا الملك الحى المتسلط أن يدفع عنه سطوة ذاك الجندى المائت ، بل استولى التناقض والعكس على تدابير ملكه . فلا تبغط ياهذا إلا من كان سالكا بسيرة صالحة ومتقومة ومترقباً دائماً العبادة الحسنة . ولا تحتقره ولو كان بالحديد مكبلا معتقلا . أو كان رفيقاً لقوم أشرار . أو فقيراً جداً . أو فى المنفى صابراً . أو طرقته حادثه من الحوادث . فهذا أمدحه وطوبه . وأما من تراه فاجراً . أو سدومياً شريراً . أو عاتياً عاصياً . فابك عليه ولو كان متصدراً فى الكرامات والوظائف . أو كان مشرفا بالسلطات الملوكية . أو الدرجات الكهنوتية . أو متقدماً بالحكم على الجمور . فبالحقيقة أنه على مثل هذا يجب النوح والعويل . لأن أى نفس تكون أشقى من نفس هذا المتعبد لشهواته فبالحقيقة أنه لو حكم العالم بأسره لما وجد أشقى منه . فما الذى ينفعه العالم إذا كان غنياً فى جسمه فقيراً فى نفسه . فلنتأمل يا أخوتى إذا حضر الموت قائلين ماذا نفعل أن لم نخلص ذواتنا وغيرنا فمن أين يكون لنا رجاء الخلاص متى جذبونا إلى دينونة الله المريعة .

وأى جواب نؤدى لله فى ذلك الوقت المخوف ونحن قد أغضبنا الله خالقنا . وقد كان مراد السيد المسيح أن يصيرنا ملائكة عوضاً عن الناس . وأما نحن فقد نقلنا ذواتنا من دائرة الإنسان إلى دائرة الشيطان المارد . وذلك لتبعدنا عن نهم البطن والسكر وشهوة الجسد والشراهة فى محبة الفضة وشراسة الغضب كالافعوان ونحن ذوو بطر كالحمير . وحقاً أن هذه الصفات جميعها ليست من صفات الإنسان بل خصوصيات البهائم والوحوش الضارية . وكما أننا إذا توانينا فى خلاصنا وأعمالنا الشرور نعاقب بلا رحمة . هكذا إذا أجتهدنا على خلاصنا وفعلنا الصالحات نصير ذوى فضائل وخيرات ولن يقوى أحد على أن يصدنا ويمنع إجتهادنا . وأن أردت أن تعلم إذا كان البارى تعالى أثبت النواميس والشرائع فى العوالم إثباتاً طبيعياً ليمتاز بذلك الخير من الشر فتأمل أولئك الذين يرتكبون الكبائر ويفعلون الرذائل كيف انهم يهربون من تسميتهم بالأسم الردى والكنية السيئة بان يقال لأحد منهم مثلا يافاسق كيف أنه يستشيط غضباً ويخجل من ذلك مستحياً . أو أن يقال للناكث فى يمينه يا ناكث . فكيف أنه يعتد هذه الصفات شتمية له . وهكذا باقى الخطايا كيف أن فاعليها من وصفهم بها يخزون ويخجلون . فإذا كان أفتعال الخطية جيداً فلم تهرب من أن تسمى به . ثم قل للعفيف يا أيها العفيف . وللبتول يا أيها البتول . فإنه يسر عند اعتزائه لفضيلته . لأنك إذا قلت للصديق ياصديق . وللرحوم يارحوم . فإنه يكال بهذا اللقب والتسمية ويتيه متباهياً بلقبه . ولو كان البعض منهم يفرون من هذا المديح والاسم الصالح من قبل ورعهم ونسكهم لكن النفس من ذاتها تطيب وتبتهج بذلك . وأيضاً إذا أراد أحد أن يحدث شراً فلن يمكنه أن يشهره علانية أن لم يتصنع فيه بوجه الفضيلة . كالكاذب مثلا فإنه يؤكد كلامه الباطل بقوله أنه ليس يكذب . وقصده بهذا إظهار فضيلة الصدق حتى أنه إذا حضر أمام القضاة والحكام يتصنع تجاههم بالرياء ويتزيا لهم بشعار الصدق لتتم مكيدته وحيلته فى افتعال الغش والبهتان والتمويه على القضاة المتشرعين . ومثل ذلك الواشى وشاهد الزور . فإنه متى حضر مجلس القضاء لا يشهد فى الشىء على ماهو عليه . بل إنه يشهد بالعكس ويتظاهر بأنه شاهد صدقاً . وإنك ترى أكثر الجبابرة المفترسين يصوبون آراءهم وعقولهم فى طلب الأستكثار . وإذا سألهم أحد بالرفق فى حال الفقير أو المديون لهم لكى لا يظلموه ولا ينتقموا منه فلن يسمعوا . ومثل هؤلاء تكون أنفسهم متحدة بالشرور اتحاداً مساوياً . ويحفظون الأسم الصالح لهم اختلاساً . وأيضاً إذا شفع أحد عند آخر فى شأن رجل مذنب

إليه فلا يفتتح كلامه بالصدق الكائن . بل يوارى المذنب بالفضيلة ويقول لذاك الذى يستشفعه أن فلانا رجل صالح ذو فضائل جمة وصيت حسن وشهرة بالإحسان والكرم . وذلك ليثنى عزمه بالمديح فيعدل عن مجازاته بالشر . أفشاهدتم كيف أن الرذيلة تغلب من مدح الفضيلة فلهذا يأنف كل إنسان أن يلقب باسم الشرير ولو كان شريراً لأن الطبيعة دائماً تميل إلى ما يخصها ولو كان الضمير مفسوداً . ولهذا لا يقال أن فلانا من طبعه جيد وردىء . لأن الإنسان لو كانت جودته طبيعية لما استطاع أن يصير رديا . وبالعكس أى لو كان من طبعه رديأ لما قدر أن يكون صالحاً إنما هذا موكول على السريرة . ولو لم يكن الضمير والطوية يصيران الأشرار أخياراً لما وهب لنا البارى تعالى المحب للبشر إرادة مطلقة . بل كان الناس أما أخياراً واما أشراراً لاشتراك الجنس البشرى فى وحدة الطبيعة ولكن ليس الأمر هكذا . بل كل منا بكسله وتوانيه يفبذخلاص نفسه ويجعل ذاته مقفرة من المحبة الألهية . فلا ينسبن أحد السبب إلى غيره لئلا يمنع من اجتناء الفضيلة . بل كل واحد يقول عن نفسه . اننى من تهاونى فعلت ما فعلته من الخطأ . وما بالى اقول فلاناً وفلاناً . فالشيطان نفسه لا يمكنه أن يمنع السعى فى منهج الفضيلة . بل عليه أن يغوى السالكين فيها ويعيق سعيهم بتوان وكسل . ولكن لا يستطيع أن يمنعهم غضباً وجبراً . كلا بل إذا خفظنا ذواتنا بتيقظ لا يمكن لأحد أن يضرنا نفساً وجسداً . وإذا توانينا فى حسن سيرتنا ولم نحافظ عليها تهافت الرذيلة من غير مغو ولا مشير . حسنة هى الفضيلة بذاتها وعجيبة ولكن متى كانت محاطة بالموانع والصعوبات تكون أكثر كرما وأوفر تعجباً . لأن الفضيلة تزين المكان وتبهجه لا المكان يزينها ويزخرفها . ونرى أنه بفضيلة واحدة يتقوم الكثيرون والأشرار يطردون . بخلاف الرذيلة فإنها تفسد الجميع . وإذا كان واحد مقاوماً لفضيلة بين جمهور وأشرار فلا بأس عليه من ذلك . وإذا كان إنسان وحد مستسيراً بحسب إرادة الله يمكنه أن ينقذ العالم بأسره من غضب الله وسخطه . وهذا انظره فى قضية نوح الصديق حيث كان موجوداً فى ذلك العالم الكائن قبل الطوفان الذى كان كله مفسوداً وهالكا . ماعدا نوح البار وحده فإنه خلص ولم يغرق فى مياه الطوفان . وكذلك موسى الكليم فإنه بذاته وحده قدر أن يستخلص العبرانيين من قبضة فرعون . وأقول لكم أيضاً كلاماً مبرهنا لمحبة الله لنا . وذلك أنه متى فقد الصديقون من هذه الحيوة وعدمنا توسلهم عنا فى صفح خطايانا فإن الله يقبل أيضا هؤلاء القديسين بعد انتقالهم كما قال البارى تعالى لحزقيال . هوذا افتقد مدينة أورشليم وأساعدها لأجلى ولأجل داود عبدى ذاك الذى كن

قد توفى وعفاه الرمس منذ زمان قديم . ألاحظت الآن مقدار هذه الفضيلة التى كانت لأولئك القديسين الاصفياء . لأنه لا يكفى أن تكون أقوالهم وأجسامهم مكرمة فقط ، بل أسماءهم وخلقانهم التى يتجلببون بها . فها وشاح ايليا قد شق الأردن وشطره . وأحذية الفتية الثلاثة قد وطئت سعير نار الاتون وأخمدت نار لهيبها . وقضيب اليشع النبى قد حول المياه وغيرها . وعصا موسى الزعيم قد شقت البحر الأحمر . وحين ضرب بها الصخرة تفجرت منها المياه وأزالت أوام الشعب الظامىء إلى الماء . وخلقان بولس الرسول صحح الله بها الأمراض وشفاها وظل بطرس حجز ورود الموت نفسه . ورماد أعضاء الشهداء القديسين طرد الأبالسة وقواتها . وبهذه السلطات كانت الأولياء تجترح العجائب والمعجزات . فأى بؤس كان يشمل ايليا حين يرى نفسه عارية من الأثواب الموشاة وأخاب ملتحفاً بالثوب الملوكى المفوف وهو عبد للآلام . وأى نفع تفيد السعادة الخارجية الجسدية والأشياء الباطنة فقيرة شقية . وأى ضر يتأتى من الفقر الظاهر إذا كان الداخل كنزاً مفعما من الخيرات فبولس ذاك الضيغم الجرىء حين صاح فى السجن ارتجت أساساته وسقطت عنه السلاسل والاغلال منحلة من ذلك الصوت لاغير . ومالى أقول أنه أسد كاسر بل ابلغ من ذلك . لأن الأسد كثيراً ما يقع فى احبولة الصياد فيقبض عليه . وأما قديسو الله فإنهم متى اعتقلوا تتضاعف قوتهم . وسطوتهم بهذا المقدار مرهبة حتى أن الأرواح الشريرة ترتعد منهم ومتى قرع أسماعهم صوت هؤلاء الأصفياء يولون الادبار ويهربون . ولا كهربهم من الصاعقة المبرقة . فأى لسان طلق ومنطق عذب يقدر أن يصف أصوات بولس الهاتفة فى المسكونة وتقويماته المستحسنة الممدوحة . فحقاً أقول لكم . أنه لا الانبياء ولا البطاركة القدماء . أعنى الآباء . ولا الصديقون . ولا الرسل ولا الشهداء استطاعوا أن ينالوا مانال هذا المفضل فى ذاته . لأنه قد احتشد فضائل الجميع وجهاداتهم . وليس فضائل البشر بل قد فاق طغمات الملائكة ونحن الذين من جبلته وطبيعته لا نجتهد ولا نكمل النزر اليسير من تقويماته لنماثله ونضاهيه . قد عجبنا من إبراهيم أبى الآباء حين أراد أن يضحى ابنه لله تعالى على المذبح . واسحق اندهل منه عجباً حيث أنه لم يضمر الشر كما لم يضمره يسوع المسيح ابن الله ربنا . ولكن حقاً لم يفه هذا ولا أبوه بكلمة نحو أبيهما . وأما السيد المسيح فأشار نحو أبيه قائلا فى شأن صالبيه . يا أبتاه لا تقم لهم هـــذه الخطيئة . فاسحق لم يقل مخاطباً أباه . لا ترتكب هذا الأمر المتجاوز الشريعة . لانى أنا ابنك الوحيد المحبوب منك فلم تبتغى أن تقدمنى ذبيحة لله ولا تذبح بدلا عنى كل غنمك وماشيتك . أولست أنا ابنك

الحبيب الذى أحبته . فلم تقل تلك النفس المغبوطة البطريركية شيئاً من هذا . بل صبرت على كل ذلك بشهامة حتى الموت . ويعقوب ابنه أيضاً ماثل صبر أبيه . وداود المغبوط قد حاز الطوبى لوداعته . وايليا اتقد بالغيرة الالهية لأجل اسم الرب المبارك . ولكن قل لى من منهم وازى بولس وضاهاه فى مناقبه . ذاك الذى حصر جميع هذه الأشياء فى ذاته . كم مرة ضحى نفسه لله ذبيحة وهو جائز فى البر والبحر وباقى الامصار وطوى كل أرض بزغت عليها كالطائر الجواب . تارة يقاد مسحوباً . وتارة يطرد مرجوماً مهاناً . فتراه كل يوم بميتة مختلفة المذاهب . ولا تزال غيرته تتقد اضطراماً . ولا غيرة ايليا النبى. وأن عرضت بذكر يوحنا السابق بأنه يأكل العشب وعسل البر. أجبتك أن هذا لم يكن القوت الضرورى يحصل له لاشتغاله فى طريق الوعظ والكرازة . وبالنظر إلى أفعاله وسمو سيرته وجهاده حكم العقل بأنه لا يوجد حينئذ فرق بين الملائكة والناس . ولا فصل يمتاز به النوع الروحى عن النوع الجسمانى . لأن ذلك المثلث الطوبى لم تكن له طبيعة أخرى غير طبيعتنا ولا نفس نفس مميزة بنوع ما عن باقى الأنفس . ولا قطن عالماً غير هذا . ومع هذا فإنه تجاوز الناس بأسرهم ووطأ المحزنات التى لفحه شررها ولم تحزنه البتة . بل كان يجذل بذلك فرحاً . لأنها أصابته من جرى اسم المسيح وصار بحسن سيرته كأنه لاحراك له . وبهذا أخمد حرارة الطبيعةوقهرها وكان حاله فى غيرته حال الطامعين فى الاقتناء. كيف أن إنساناً منهم إذا ربح دينارين يجتهد فى أن يربح العشرة . وكذلك يرغب فى العشرين . وهلم جرا . هكذا طريقة أولى الفضيلة . لأن إنساناً منهم بمقدار مايجاهد فى الخير يرغب فى أن يأتى بجهاد أعظم . وهكذا يتهيأ لكل إنسان منا متى أراد فلا يصده عن ذلك شىء . وينبغى أيضاً للرجل الورع أن لايميل مع مدح الناس وتمجيدهم إياه . ولا الرجل الفاضل أن يسبب له عداوة مع الأكثرين لأن الممدوح من الكثيرين أمره بين أن ذلك من قبل فضيلته . وكيف لايمدح مثل هذا إذا كان ينقذ المظلومين من يد الظالمين . ويقوم اعوجاج الخطاة ويمهد سبلهم ويثنى على الأفاضل الأبرار ويكرمهم ولكن لايرضيك ياأيها الفاضل هذا المديح المصنع . بل أحرص فى أن تقتبل المديح المخلص من الله لاغير.ولا تمزجه باطراء الناس . لأنه غير ممكن لك أن تكتسب الثناء الجميل من قاطبة الناس . أو أن لا يثنى عليك منهم جميعاً . لأن الرذيلة لاتزال تقاوم الفضيلة . ولكن لا تستطيع الرذيلة أن تقهرها . وليس فقط أنها لا تقدر أن تسىء إليها . بل أن الفضيلة تظهر بالغلبة ظافرة متى حاربتها الرذيلة . فبالقوة الفضيلة واقتدارها التى توجد فى مقام الحرب فائزة . ولو كان هابيل

مقتولا مجندلا من أخيه قايين إلا أنه لم يزل حياً ولا يزال يشاد بالثناء على اسمه دائماً . ولن يخمد ذكره مع كر السنين والأعوام . وأما قايين فإنه عاش عيشة سيئة أمر عليه من تجرع كأس الحمام . وانحلت مفاصل يديه حتى لم يبق له إمكان أن يضبط بهما الخبز من شدة ارتجافه . ومع هذا لا يزال اسمه مشتوماً فى كل ناد من جميع الناس . وكذلك الذين يخطئون مثله يصيبهم كمصابه فى هذه الحيوة الزمنية. وأما فى المستقبل فلا يستطيع الواصفون أن يصفوا عظم مصابهم . اسمع ما يقوله المسيح سيدنا له المجد . يشبه ملكوت السموات خميرة . يعنى بها الصديقين . ووجه المناسبة التشبيهية هو كما أن الخميرة هى وجيزة وتحيل العجين بأسره إلى ذاتها وجوهرها وهكذا الصديقون فإنهم قليلون . ولكن بموازرة الروح القدس اياهم يجعلون الأشرار أخياراً بحسن فضائلهم . الرسل القديسون قد كانوا اثنى عشر رسولا . أنظر صغر هذه الخميرة . والمسكونة باسرها كانت ضالة عديمة الإيمان والتقويم . شاهد كثرة هذا العجين وعظمه . ولكن تأمل بعد ذلك كيف أن أولئك الاثنى عشر قد جذبوا سائر المسكونة إليهم . وذلك لأن الخميرة والعجين كانا من طبيعة واحدة . وأن رغبت فى معرفة اقتدار القديسين وبسالتهم . فأعلم موقناً أن دالة الصديق الواحد منهم وعزمه أوفر بأساً وتجلداً من اغتصاب الملوك وسلطتهم . اسمع الصابغ يقول لهيرودوس الذى ترك الشريعة . أنه لا ينبغى لك أن تقدم على الزواج بأمرأة اخيك . وكان هيرودوس فى ذلك الزمان ذا جيوش وكتائب كالملك المطاع وذا ثروة ورفعة وسلطة ملوكية . وأما يوحنا فقد كان فقيراً بائسا لا يملك بيتاً ولا مدينة وليس له أثاث ولا امتعة . صواما على الاطلاق يأكل نواضر الأشجار والأعشاب . ولكن هذا المستوطن الصارى والوهاد الذى اضنكه الفقر لم يرهب ذاك القيل المطاع أى الملك ولا أرهبه الجم الغفير المحدق به . بل تقدم إليه بسطوة وبسالة قاهرة . وأمره قائلا لا يحل لك أن تستولى على امرأة اخيك. أشاهدتم الفضيلة كيف أنها تسود على الرذيلة . ولإثبات هذا الحق قيد ولى الله وطرح فى السجن . ولما انتظم فيما بعد مجلس الشراب الشرير والمنادمة السيئة دخلت الصبية راقصة وسط الشرب . فاعجب هيرودوس بذلك إلى أن سمح لها عن نصف ملكه وأقسم لها بأن يمنحها ذلك هبة . ونبذ لأجلها المملكة المتصرف بها بقوله . أنى اهبك ما تطلبينه ولو بلغ النصف من ملكى . تباً لك ولعقلك أيها الشقى وآهاً لك وعليك أيها المسكين هيرودوس . أى حادثة قرعت عقلك فاعمته حتى أضعت تمييزك .

أهذه قيمة ملكك عندك . برقص جارية حقيرة مرة واحدة أبحت لها النصف منه فإذاً لو رقصت مرة أخرى فماذا كنت تفعل . ولكن اطلب من الله ربك الا ترقص مرة ثانية لئلا تختلس منك النصف الأخير وتخلع الملك بأسره فتمسى فقيراً سائلا . أشاهدتم عظم ما يفعله اللهو واللعب والمجون والخلاعة وناهيك من عظمها أنها تجرأت على سفك دم مثل هذا القديس المعظم . أعنى به يوحنا الصابغ لالهنا يسوع المسيح . ترى هل يوجد أشر من هذه الرذيله التى هى مخالفة الناموس . إذ الذين يرتكبون مثل هذه الأمور يسلمون ذواتهم للشيطان اختياراً . فاذا كان الذى أعطى الوزنة الواحدة أعنى الهبة التامة التى قبلها من الله ، ظهر أنه ماكر شرير . وذلك لأنه لم يضاعفها لحاق به عذاب لاتقدر كميته . فماذا يصيب إذاً الذى أفسدها . فبلاشك أنه سيسمع القول شدوا يديه ورجليه والقوه فى الظلمة القصوى حيث البكاء وصرير الانسان . ونحن الذين قد أفسدنا المعمودية المقدسة التى ألبسناها يوم الافتداء واضعنا كل المواهب التى نلناها هبة من لدن الله . فماذا يمكننا أن نفعل فى ذلك الوقت عندما يطلب الجواب منا عن الكل . فأى جواب لنا لنقدمه . أنظر أيها الإنسان إلى قلة معرفتنا حياتنا وعدم تصورها عندنا . وكيف أننا لانلاحظ أن الموت يوافى بغتة كالأحبولة . قل لى . ألعلك تعتذر بأنه يثقل عليك عمل الفضيلة . بل يسهل علينا ارتكاب الرذيلة . كلا أيها الإنسان . إذ افتعال الخطيئة هو متعب ومخيف وعملنا الفضيلة هو الربح الجزيل . ترى هل ينقص الزانى الفاجر خوف ؟ وكذلك السارق ، أليس أنه يكابد العناء إلى حد الموت والقتل . وكذلك أولو الدرجات الكهنوتية . ولكنى متى رأيت كاهناً غير مستحق فلا تذمن الكهنوت من جرائه ، بل فاعل الشر لاغير. ترى أننا نذم الوظيفة الرسولية لأجل يوداس الذى صار مسلماً . حاشا . بل نذم ذاك الضمير الرجس الخبيث . وأننا نرى أطباء كثيرين يقتلون المرضى باعطائهم أدوية خاطئة . أفنذم الصناعة الطبية . لا . بل المتصرفين بها على خلاف اللائق الواجب . وكذلك زعماء الملاحين فإن كثيراً منهم أغرقوا سفناً . واهلكوا أموالا . وابادوا نفوساً . ومع هذا كله لايليق بنا أن نواجه الذنب على نفس الصناعة . بل للمتصرف فيها بالجهل والحماقة . ولقد قال سيدنا له المجد . أنه لا بد ان ترد الشكوك . ولكن الويل لمسببها . وهذا ضرورى أن يطرق الذئب الغنم . ولكن على الراعى أن يكون متيقظاً ليرد الذئب عن خرافه وغنمه . فلهذا اخبر بورود الشكوك . والذى يهلك عند اتيانها لايهلك من جرائها . بل من قبل فتوره وتهاونه . وأن آثرت مشاهدة مانقوله جلياً فانظر الإنسان الأول . أعنى به آدم .

كيف أنه مكث فى الفردوس زمناً يسيراً . وعندما عاين ذاته مشرفاً بذاك النعيم الذى لاينعت ترفع بهذا قلبه وجنانه . حتى بلغ من قدره أن يطلب التأله ويصير إلهاً . وعد ذلك الشيطان المضل أفضل من البارى تعالى المحسن إليه . لأنه لم يشأ أن يتمسك بوصية الله . فترى ماذا كان يفعل لو استقر فى الفردوس مدة زمنية . فإذا كان أحد أصيب ببليه رديئة ثم نجامنها وهو لم يرتدع عن مثلها متعففاً فبلاشك أنه سيوهق باشراك مصائب اقبح وأشر من رذائله السابقة . كذلك نحن فاننا إذا ما تأدبنا من إحدى هذه المصائب فسيصيبنا ما هو شر من هذا كثيراً ولو تأدب فرعون من ضربة موسى الأولى لما أصابه ذلك الغرق الطامى فى لجة البحر الأحمر مع كل فرسانه وجنوده . انظر بولس الرسول كيف أنه اسلم ذاك الذى زنى مع ربيبته للشيطان لتنجو بذلك نفسه . فلا تقل ياهـــذا . أن الذى لايصنع خيراً ولا شراً هو رجل صالح . لأن عدم افتعاله الخير هو نفس الشر . مثلا . لو كان لك خادم لايسرق . ولا يشتم . ولا يحتد فى كلامه إلا أنه سكير فقط . أو كسلان متوان . أو يتصرف بأمور غير لائقة افما كنت تطرده ولو لم يفعل فعلا رديئاً . وكذلك أعضاء جسدنا كاليد مثلا فإنها إن لم تفعل فعلا رديئاً . وكذلك أعضاء جسدنا كاليد مثلا فانها أن لم تفعل شرا . مثل أن لاتشج راسا . ولاتقطع لسانا . أوتفقأ عينا . أوانها لاتفعل خيراً . مثل أن لاتخدم ضروريات الجسد . ولا غير ذلك من الفوائد . افما هى مستحقة القطع . فإذا كان جارياً على هذا المنوال فى الأمور الجسدية . فكم يكون من باب أولى فى الأشياء الروحية . فإنه لا يكفى أن نسقط تحت وقر الوزنه متى ارتكبنـــا الفواحش والشرور . بل عندما لا نصنع الأمور اللائقة ويا ليت كان ممكناً لى أن أنوب عنكم فى كل الفضائل والصلوات والقوانين وانتم تنالون الاجر عنها فما كنت حينئذ ازعجكم بالنصائح والمواعظ فإنى كالوالدة الشفوقة متى شاهدت ولدها معترى بالحمى فإنها تندبه بعبرات سخية قائله . آها لك ياولدى لو كان ممكناً أن تكون حرارتك فى كبدى . وهـــذا ما أقوله لكم . ليته كان ممكناً أن أتالم وأتوجع عنكم حتى انكم تقومون كل فضيلة . ولكن وأسفاه فهذا غير ممكن . ولكن الاجدر بنا أن ينهض الأقوياء منا الضعفاء ليقبلوا نحو البرء والشفاء ويكونوا مختبرين أكثر من الغير . وانتم أيها الضعفاء أهربوا من أولى الكسل والتوانى لئلا يعتريكم منهم ضرر نفسانى واستقيموا بسيرة صالحة مقدسة وكونوا فى هذا العالم بهدوء وورع لتنالوا الخيرات المستأنفة التى تكون لنا جميعنا بنعمة ربنا وإلهنا يسوع المسيح ومحبته للبشر . الذى له المجد والعزة والأكرام والسجود . الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين

المقالة الثامنة عشرة

(فى القسم)

فلا تتهاون أيها الاحباء فى فضيلة النفس . وأية مشقة تحصل لك ياهذا إذا ابتعدت من الغضب والشراسة وسامحت من أحزنك . فالتعب الكلى والنصب الشاق هو أن تذكر الشر والعداوة وعدم المحبة والسلام فإنه يولد فى الإنسان أنواع الأوجاع المرة الفادحة والأوصاب المحزنة . فأىُّ ألم يعتريك إذا لم تفه بكلام سمج ردىء . أو بالفاظ مرذولة . وأية صعوبة تلحقك فى عدم المقاومة والحسد . أو أى ضيق تجده فى ودك لمجاوريك عوضاً عن أن تلذعهم بسم الشتم والإهانة . وأى أمر يضرك إلى أن تحلف أو تحلف غيرك فلا اكبار فى هذا كله إلا من الغضب والرجز فإننا نتحرك إلى القسم ونقسم من غير جبر . ولا إلزام من محزنينا . وعندما تخمد جمرة الغيظ ويسكن اضطرابنا ونميل إلى الصلح والسلام نلقى عند ذلك معتقلين من كلمة القسم . ولكن بعقالات غير منفصلة . وهذا كله يجرى من دسائس الخبيث خزاه الله . لأنه عارف بكيفية الغضب وشدته لأنها تنشب كشواظ النار ويخمد لهيبها بسرعة . وإذا هدأ روعنا وأنزعاجنا ننعكف إلى المحبة والصداقة . ولقصد الشيطان أن يكون هذا اللهيب مضطرماً دائما يربطنا بهذا القسم الثابت حتى ما إذا كففنا عن الغضب والحدة تدعونا ضرورة القسم إلى استمرار اتقاد لهيب الغضب والعداوة . وينتج أحد هذين الشيئين . إما أن نصطلح مع غريمنا فنحنث فى قسمنا . وإما أن لا نصطلح لأجل اليمين فنكون قد جلبنا الذنب على ذواتنا لتذكرنا الشر الكائن بيننا ونحصل من جراء ذلك تحت قانون ثقيل كثيف . إن فى هذا عجبا . كيف أنه إذا كان لنا ثوب موشى ثمين نقيه بحرص وصيانة حتى أننا لانلبسه دائما . وإسم الله الأشرف من كل شىء نتجاذبه بيننا هنا وهناك . فاسمعوا وتفهموا أنه ليس الخطيئة الكبيرة تسبب العقاب فقط . بل الهفوات التى يستسهلها الإنسان أيضاً تجلب لنا عقاباً مؤبداً . فلا عذر للحانثين أمام منبر المسيح . بل يكونون متسربلين بثوب الخزى والعار . فلا تشمئزوا منى لانى أنظم فى سلك محبتكم دور النصائح الثمينة ولو تكدرتم من ذلك . أنى لا أكف عن محاورتكم فى هذا المعنى . حتى تتورعوا فى تصرفكم وترتدعوا عن ذلك وتتركوا عادة الحلف السيئة ولو من قحتى . فإذا كان ذلك القاضى الجائر قد سئم من ترداد تلك المرأة الارملة وأستحى من فحش صنيعه . فقضى لها ماقضاه من أمرها فكيف أنا لاأفعل مثل تلك بل أبلغ . ولكن لاكان منكم أن تدعونى أفعل هكذا . لأن أعمالكم

بمعونة الله صالحة . ولولا العقاب والثواب لكانت أعمالكم كأعمال ذلك القاضى السيئة .
فياليت شعرى لو طلبت منكم منة على أفما كنتم تؤدونها . وإذا كان البارى تعالى نفسه هو
هو الذى يطلبها منكم على سبيل المنة . فأى غر جاهل وأحمق عديم الشكر لايمنحها له .
فأتضرع إليكم أيها الاخوان الاصفياء أن تأخذوا بأيدى أوهامكم تمثال هامة ذاك الغيور
لله . أعنى به يوحنا السابق الصابغ . وهى مقطوعة ومضرجة بالدم السخين . وامضوا بها إلى
منازلكم ومغانيكم وضعوها تجاه أعينكم وبصائركم وافتكروا بها كيف أنها تصرخ نحوكم قائلة .
إبغضوا الفاتك المستعمل القسم . أعنى به الفاسق النجس هيرودس الفجور الباغى . ذاك
الذى لم يمكن للغضب الملوكى والسلطة النافذة أن تحملاه على افتعاله ، أمكن لضرورة القسم
أن تلجئه على قطع تلك الهامة المطوبة المكرمة . وبالحقيقة ياهذا أنه غير لائق بك أن تقسم
متواتراً باسم سيد السارافيم والكاروبيم بغير اكتراث . والله وتالله وبالله . فان ابتغيت دواء
تغلب به داء الحلف المنكر لتنجو به من عادة القسم الباطل . فعلى به لأنى أمنحك دواء يمكنك
أن تشفى به هذا الداء العضال . وهو أنك متى شاهدت نفسك أو أحد غلمانك وأولادك
يقسم بحلف مؤكد دائماً فأمر أن لايطعم طعاماً أصلا . ولذاتك أيضاً إذا كنت متعوداً
الحلف . فمتى تأدب اللسان الجرىء هكذا لا يجسر حينئذ بعدها على الحلف إلا ماقل . لأن
تضور الجوع يعففه عن مثل هذا . وإذا لازمنا هذا الدواء مراراً عديدة لا نحتاج بعدها
إلى نصيحة اخرى . لأنه يزيل أثر الداء بالكلية . وكما أن العبد إذا كان مضروباً مستفحصاً دائماً
لاينقى جسده من أثر الضرب والتهشم . هكذا حال من اعتاد القسم فانه لايطهر من وضر الخطيئة .
فلنهرب يا إخوتى من اعتياد الأقسام الرديئة لنظهر بعد رجوعنا وتقويمنا أفضل وأبهى . فانى
أسألكم يا أمة السيد المسيح بهذا ولا أفتر من سؤالكم بأن تكفوا عن طريق القسم الشاق .
كما أنى لا أكف عن تعليمكم بهذا وتهذيبكم يومى كله . ولو خاطبتكم بهذا المعنى أمس وماقبله . ومالى
أقول نهارى هذا أو غداً . بل فى المستأنف أيضاً فإنى لاأغفل عنكم إلى أن أراكم مستقيمين
كما ينبغى . ولهذا أذكركم بهذا متواتراً ولاجناح على المتكلم . بل على السامعين الذين يكلفون
المتكلم إلى الأسهاب فى الكلام فأية مشقة وألم يحصل لك ياهذا إذا كففت عن القسم .
ماعدا العادة السيئة التى تضطرك إليه . من قوم منكم هذه الفضيلة فليوبخ من لم يقومها لعلهم
من جرى المذمة يقلعون عن استعمال الأقسام . والذى لم يتقنها فلينظر إلى من أحكمها
ويحرص لئلا يصل إلى درجته . فان قلت وأى ضرر يصيب من قد أقسم عن ضرورة
أجبتك . وأى وزر إذا على من لايؤمن فحيثما وجد تجاوز الناموس فلا اعتبار حينئذ

للضروره مطلقاً . إذ الضرورة هى شىء واحد وهى أن لا يصير الواحد عدواً لله . فليتأمل قولى هذا من ليس له ضرورة تحثه على الإطلاق . أدب ياهذا أصدقاءك واضرب غلمانك وأهل منزلك . لأن اللسان متى هذب وأخيف يفر من القسم كفراره من المرارة . حتى أنه إذا ألزمه أحد إلى القسم الزاماً مقتصداً لا يقبل منه أن يسقط فى تلك العادة السيئة . ذكر عن بعض فلاسفة اليونان أنه كان يحرك كتفه الأيمن عند مشيه تحريكا اعتيادياً فأنكر هذا على نفسه وأراد أن يغلب هذه العادة الكثيفة بهذه الطريقة . وهى أنه سلى سيفاً حاداً ووضعه على منكبيه فلخوفه من شفرة السيف روض العضو المتحرك . فافعل أنت هكذا بلسانك وضع عوضاً عن السيف خوف العقاب الأليم فستغلب بلا شك تلك العادة السيئة . لأنه غير ممكن للمجتهد أن يغلب . فأى صفح نجد نحن الذين بعد مداومة هذه النصائح والتعاليم نوجد مقيمين على مداومة الحلف والأقسام . وكيف نرجو أن نصان من المحن والبلايا الواردة علينا ونحن لم نحفظ واحدة من وصايا الله . وبأى وجه نستقبل السيد المسيح فى السحب . وبأى لسان نسأله ونتضرع إليه أن يغفر خطايانا . فكيف يكون هذا ممكنا . أليس عاراً علينا أن نحتمل أمر الملوك الأرضيين. ولو كان ثقيلا مزعجاً وأمر الله تعالى ومشورته بموجب نواميسه لا نتعقله ولا نصغى إليه راضخين بل نحتج قائلين . أن القسم عادة مستطردة ونحن نحلف هكذا على سبيل الإعتياد . فلا نهمل هكذا خلاص نفوسنا بغير افراز . لكن فلنخف الله كخوفنا من الناس والوحوش لأن الله لا يقتنع بسخطه على الحالف فقط . بل يحرق منزله ومقره أيضاً كما يقول اشعيا النبى . هاهو ذا منجل من نار وقد رأيته منحدراً من السماء من يد الرب . فقلت ولمن تبعث به يارب فاجابنى للنا كثين فى أقسامهم الذين يحلفون باسمى باطلا . ولم كان المنجل من نار . ذلك ليحرق به بيت المقسم حتى إذا شاء أن يهرب من الرجز فلا يدعه المنجل أن يبرح من مكانه أصلا . ومتى مات الحانث فى يمينه يوارونه فى الأرض . ولكن شر الحلف لا يمكن أن يدفن مع الجسد بل يحرق منزل صاحبه ويصير عبرة لأولى الألباب حتى يعلم بالسؤال كل من شاهده . إن هكذا تكون ديار النا كثين خراباً فيصير بذلك مثلا رادعاً . كما جرى مثل هذا فى ديار السدوميين حين توغلوا فى الفواحش واستعملوا الخزى أحدهم بالآخر أحرقهم الله أحياء وصاروا عبرة جيلا بعد جيل . ومنظر تلك الأرض إلى الآن يهتف إلينا قائلا . لا تتعدوا الشريعة والناموس كهؤلاء لئلا يصيبكم ما أصابهم قف أيها الإنسان متأملا وأنظر بماذا تحلف لأخيك . فإن كان بمائدة الهيكل المقدسة حيث المسيح

مذبوح فتكون هناك قد ذبحت أخاك بخلاف مايفعله اللصوص والقتلة . لأن أولئك إنما يقتلون الناس فى القفر بموت زمنى . أترى الكنيسة جعلت لكى تقسم بها . كلا . بل للصلوة والعبادة . أم المائدة الألهية المكرمة قامت لأجل هذا . لا . ولكن قامت لأجل حل خطايانا لا لعقدها . فلهذا ارتدع وارتد عن القسم وافتح الأنجيل المقدس وأسمع مايقوله السيد المسيح . وهو أن لاتحلف البتة . وأنت بهذا الناموس الذى يحذرك من القسم تتمم فيه يمينك . فيالها من مذمة . ويا له من جهل فظيع لذاك الذى بيمينه يفتك بالناموس المساعد له وبواضعه أيضاً الناهى فيه عن القسم . انى لا انوح على المقتولين من اللصوص وانعيهم بالمراثى مثلما انوح بعبرات هامية مرتعداً على ذاك الذى أراه آتياً بذاته إلى قرب المائدة الرهيبة وواضعاً يديه على الأنجيل ليحلف به . ولقد كان يلزم المحلف أن يقول لمن أراد أن يحلفه . ما الذى أفعله بك لأن الله قد أمر فى تنزيله ألا نقسم البتة . وهذا الذى يصدنى عنك ولا يدعنى الزمك بأقسام مؤكدة . فيكيفك ياهذا مثل هذا التفخيم والأكرام لله تعالى . الواضع الناموس وفى حفظك لأخيك وأرهابك اياه . لتوضيحك له كمية صعوبة القسم . فاسألكم أنتم الذين قد ذهبتم إلى مدينة انطاكية أن تجيبونى عن تلك العادة الصالحة التى شاهدتموها فيها التى لاتوجد فى مدينة أخرى . لأن الإنسان منهم يرى الأفضل له أن يقطع لسانه ولا يخرج من فمه قسما . فإذا ربح الإنسان واحدا أواثنين بطريق الفضيلة فإن الله يضاعف له الجزاء . وإذا هذب المسكونة بأسرها فكم من الخيرات والجوائز ينال من الله جل اقتدار . فيا للحيرة والأندهال من جرى هذه العادة السيئة . إن اسم الله يجرى على ألسنتنا فى حال القسم بلا قصد ولا أنتباه . فعض لسانك ياهذا عضاً مؤلما حتى يسيل منه الدم . لأنه خير له هذا الألم الجزئى من أن يقع فى عقاب مخلد ويسأل مع ذلك قطره من الماء لترطيبه فلا يجد . ولا يجد تعزية أيضا . وأن عرض لك خسران أو نائبة من النوائب فلا تجدف مفتريا لئلا تهوى فى وهدة الهلاك والعقاب الفادح . العلك بتجديفك تسكن اضطراب ألمك . كلا . بل تضرم عليك نار الألم والأنتقام بزيادة . والشيطان يبذل جهده فى أن يجلب المحن على الإنسان لكى يجدف فيكون له حينئذ مؤازراً فى العقاب والإنتقام. وإذا رآك أيها الإنسان تحمل الخطوب والمكاره بتجلد وصبر يفر اللعين من وجهك هاربا مخذولا . لأنه يرى أنك كل ماتضاعف ألمك وتأسيك تزداد أنت شكراً لله ويضاعف أكليلك. فيكون تعبه عليك حينئذ باطلا هدراً كالكلب الماثل بقرب المائدة. فإن لم يرأحداً يلتفت إليه ويناوله شيئا

يأكله يفر منها سريعاً إلى مائدة أخرى . هكذا الشيطان فإنه ينتظر الشقى كالكلب ليلقى له كلمة تجديف فيتناولها . وإن صبرت على مضض الألم شاكراً فتكون قد خففته بالجوع فيهرب حينئذ عنك كالعبد الآبق . اسمعوا قصة قديمة تتضمن القسم . أنه فى احد الأوقات غزا العبرانيون قوما من الأمم الغريبة . وكان المتقدم فى جيوشهم يوناثان ابن شاول الملك فغاروا على الأعداء واستظهروا عليهم . فقتلوا بعضا منهم وآخرون ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار . والملك شاول لم يرضه هذا . بل آثر أن يصلى نار الحرب بزيادة ليقبض على أعدائه أحياء . فخرج حينئذ المنادى ينادى فى مصاف جيوشه . أن الملك أقسم بيمين أن لا يأكل أحد خبزاً حتى يظفر باعدائه عن آخرهم . كما فعل يشوع بن نون فى بعض أوقاته . ولكن صنيع شاول كان بغير تمييز . ولهذا لم يحفظ أبنه يوناثان قسم أبيه بل طعن بسنان رمحه عسلا بريا وطفق يأكل منه . أفشاهدتم صنيع القسم كيف جعله يعدم حياته . كما فعل ذلك الملك يفتاح . ولأجل قسمه وغش الشيطان له ذبح ابنته الوحيدة . ثم أن الملك شاول أمر بأن يلقوا قرعة ليظهر من وطىء القسم . فوقعت القرعة على ابنه . فقال له ابوه قل لى ماذا فعلت . ها القرعة قد أظهرتك . فقال له حينئذ يوناثان ابنه . أنى قد أكلت بصدر القناة عسلا بريا . وها أنا سأموت من جرائه . فكم من الحزن والتوجع قد أوعب هذا الكلام قلب والده . وكم من الغم والألم استحوذ عليه . وبالحقيقة أن الحلف ينشىء أبلغ من هذا ومكر ابليس نتيجته أردأ . أشاهدت مصرع الأب وابنه فى النزال وعاينت تلك الحرب العوان التى هاجت كانها البحر الطامى وسفك الدماء المنهمر من ربوات القتلى المجندلين على الثرى وهم يشرقون بدمائهم . فهذا كله جرى من قسم واحد لاغير . أليس من أجل ناكث يمين أسلم الله أورشليم لاهل بابل واستولى عليها الخراب من ذلك العهد . فلنبتعد يا اخوتى عن طريق القسم المهلكة لئلا يصيبنا ما أصاب أولئك ولنجتذب إلينا محبة الله الجزيلة لنجيز هذه الحيوة الزمنية بسيرة صالحة ونحوز تلك الخيرات العتيدة بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة التاسعة عشرة

فى التوبة والذين يتأخرون عن الاجتماع فى البيعة وعلى المائدة المقدسة وفى الدينونة أيضاً

كما أن الذين يبذرون زرعهم لا ينتفعون منه إذا بذر على قارعة الطريق هكذا نحن لا نستفيد شيئاً إذا لقبنا بمسيحيين ونحن لم نفعل أفعالا توافق وتناسب تسميتنا بهذا الإسم الشريف . وكفاك بذلك شاهداً ما قاله يعقوب أخو الرب . أن الإيمان من غير أعمال هو مائت . فالضرورة إذاً تدعونا فى كل مكان وزمان أن نواظب على عمل الفضيلة ومتى عرينا منها لا تنفعنا حينئذ تسميتنا بمسيحيين . ولا تعجبن من هذا يا أخوتى . لأنه أى ربح يجده الجندى إذا تجند ولم يكن قادراً على مصادمة الأبطال وخبيراً بأبواب الحرب والكفاح ، وأهلا لأن يذب ويحامى عن حوزة الملك المستظل تحت ظل كنفه ، أفليس هو من هذا تحت خطر عظيم ويرى أنه لو كان ترك الجندية ولم يدخل تحت تدوينها لكان أفضل له وأليق به ومع هذا ما أعظم الجزاء الذى يناله لأنه لم يقم بمقام المجاهدين مع الملك الذى يعيش فى بحبوحة نعمه بل أهمل كرامة الملك ورضى لنفسه بالإحجام عن الطعن والضرب. ومالى أقول الملك . فياليتنا نهتم بأنفسنا التائهة فى قفار الهلاك . فإن قلت أنه يمكننى الخلاص وأنا خائض فى لجة هذا العالم المضرب . أجبتك . ما الذى تقول أيها الإنسان . فسأوضح لك مبرهناً كيف أن المكان لا دخل له فى الخلاص . بل التصرف والعزم مع الضمير المستقيم . ألم تر آدم أنه كان راسياً فى ميناء الفردوس وأدركه الغرق ولوطا كيف كان متوغلا فى لجة مدينة سدوم فنجا منها سليما . أيوب كان رابضاً على المزابل والدمن فحاز إكليل البرارة . وشاول كان محجوباً بالقصور المشيدة ومتمتعاً بالسلطة الملوكية فثوى عن سدة كرامته وأعدم الحيوة الحاضرة والعتيدة . أفشاهدت كيف ظهر بطـــل اعتراضك وانقضت قضيتك المقولة أن الخلاص ليس ممكناً فى مشقات العالم . فبلاشك أن الخلاص فى العالم ممكن وميسر لو كنا نبادر إلى الصلوات المشاعه ونواظب على الحضور فى المجامع الإلهيه . فخذوا لكم فى ذلك قياساً مطابقاً أولئك الذين يرغبون فى الوظائف والمراتب الحكميه . كيف أنهم يلازمون بلاط الملك ولا ينفكون عن المثول لديه ويجعلون لهم فى ذلك وسائط ومترجمين ليحصلوا على ما يطلبونه . فهكذا كونوا أنتم . وإنى أوجه خطابى نحو أولئك الذين لا يبادرون بالاجتهاد

إلى الصلوات الإلهية ونحو أولئك الذين يلغون بكلمات باطلة ساعة القداس الرهيبه والمائدة السرية . يا هذا أما وعدت الكاهن حين قال. فلترفع قلوبنا مع عقولنا نحو العلاء . بجوابك له . هاهى أمام الرب شاخصة . أما تخاف مرتعباً إذ توجد كاذباً فى هذه الساعة المرهبة . فيا للعجب من كون المائدة مهيأة وحمل الله قد قدم لأجلك ذبيحة ، والنار الروحيه قد أشرقت من مطلع المائدة الرهيبه . والكاروبيم محدقون بها . والسارافيم ذوو الستة أجنحه يتطايرون وهم يحجبون وجوههم خوفا والقوات العلوية بأسرها المنزهة عن الأجسام تبتهل مع الكاهن فى شأنك والنار الإلهيه منحدرة من فوق لأجلك . والدم الكريم مسفوك فى الكأس من الجنب الطاهر لتطهيرك . وأنت تلتهى عنها غير خائف ولا مرتعد . أما كفاك أن الأسبوع مائةوثمانى وستين ساعة ، وساعة واحدة اختارها البارى لىمنها لذاته وأن تطمع فى أن تصرف هذه أيضاً فى الأشياء الباطلة والضحك والخلاعة والمكالمة الدنيوية . فقل لى يا هذا بأية دالة واستحقاق تقترب إلى الأسرار الإلهيه ، أبهذا الضمير الدنس ترى لو كنت حاملا بيديك زبلا أفكنت تجسر على أن تلمس ثوب الملك أو تدنو منه . لا لعمرى . ولا تظن ياهذا أنه خبز وخمر ، كلا . وأنه كباقى الأطعمه مستحيل إليها . فلا يكونن هذا أبداً لكن كما تفعل النار بالشمع كيف أنها تذيبه من وجهها ولا تبقى له أثراً هكذا آمن بأن هذه الأسرار الالهيه تتحد فى أقنوم الجسد . ومتى جسرت على التقدم إليه فلا تحسب أنك تتناول من يد إنسان . حاشا . بل لاشك أنه من يد السارفيم بالمعلقة الناريه تلك التى رآها أشعيا النبى عياناً ، وأيقن أن ما تناوله بها إنما هو الجسد الإلهى لا غير وتكون كأنك قد قربت بشفتيك نحو الجنب الطاهر الإلهى وتناولت منه ذاك الدم المخلصى الذى شربته . فلنداوم أيها الأخوة على الصلوات البيعية العموميه ولا نتحدث فيها بما هو باطل ، بل لنكن ماثلين بورع وارتعاد ، منكسين عيوننا إلى أسفل ، ومرتفعين بنفوسنا إلى مافوق ونردد الزفرات من قلب خاشع ، ونصرخ ولكن من غير صوت . أنظروا المجدفين على الملك الأرضى . ذاك الكائن الزمنى الملموس المضمحل كيف أنهم يمثلون أمامه بوقار وسكينة وخوف . فن هنا أتخذ لك يا هذا مثالا محموداً ونموذجاً حسناً . ها أنا أتضرع إليكم متوسلا أن تقفوا لدى الله ورعين كوقوفكم تجاه منبر الملك الأرضى ، بل أبلغ من هذا لأن وقوفكم هو لدى سدة ملك السماء والأرض . ولنردد هذا المقال على أسماعكم متواتراً . وهو أنكم متى دخلتم فلتكونوا على ما يرضى الله ، أى أن لا نضمر الحقد فى صميم لبنا ، حتى إذا ماتلونا صلاتنا لانكون نلعن أنفسنا . بقولنا اترك لنا هفواتنا كما نترك لمن لنا عليهم . فحقيقة يا إخوتى

أن هذا النص مخيف لمن يضمر الحقد والضغينة . ألم يكن هذا القول مرجفاً يا أخواتى لمن يقول لله أيها السيد الإله إن كنت تركت لغيرى فاترك لى . وإن حللت فحل ، وإن غفرت فاغفر . وإن مسكت فامسك . وإن كان مع قولك هذا لم تصفح عن القريب فاعتقد أن الله أيضاً لا يصفح عنك . لأنه بالكيل الذى كلت به يكال لك أيضاً . إصغوا إلى هذه الأقوال وتأملوا فى ذلك اليوم الرهيب وصوروا فى أذهانكم أجيج تلك النار المستعرة وذلك النكال الفادح الفاضح . ولنكف بما نتأمله عن تلك المناهج المضلة ، لأنه توافينا ساعة يخرب فيها نظام موسم هذا العالم فلا يجد أحد منا حينئذ وقتاً ملائماً للجهاد . لأن المتاجرة بعد تقوض هذا العمر هى غير ممكنة . ولا يتيسر لأحد أن يعود فيكلل بالظفر بعد انهدام هذا الملهى المشهور . لأن هذا الزمان هو للتوبة ، وذاك للدينونة والمناقشه . هذا للجهاد والتنسك ، وذاك للأكاليل والتيجان . هذا للتعب والنصب ، وذاك للراحة والطمأنينة . هذا للمشقات والأثقال ، وذاك للمكافآت والجزاء . فاسألكم يا إخوتى أن تستيقظوا وأناشدكم بأن تصغوا إلى زواجر العظات بشوق وارتياح ، كفى ماعشناه فى تصرف الجسد ، فلنعش إذاً بما يخص الروح ، حيينا باللذات والترفه . فلنحى الآن بأحكام الفضيلة . أضعنا زماننا بالتوانى ، فلنحرص الآن عليه بالتوبه ، لم إذاً تتكبرين يا أرض ، ولماذا ترتفع يا رماد ، فعلى م تشمخ بعقلك يا إنسان ، وإلى م تتفخم ببهاء رونقك ، بماذا تؤمل من ربح العالم ، ومجده الخادع ، وما هو رجاؤك من ذاك الغنى المضمحل ، هلم بنا إلى المقابر لنرى تلك الأسرار المودعة هناك وننظم طبيعتنا كيف هى ممزقة عن عظام نخرة ، ورمم متلاشية فإن كنت حكيما رصيناً فتأملها قائلا . أين هو الملك المطاع . أين الرعية المطيعة . من هو السيد ومن هو العبد . من هو الحكيم ومن هو الجاهل . أين يوجد رونق الشباب اليانع النضر . أين ذاك المحيا الزاهى الذى كان عليه ماء الرونق والبهجة . أين تلك الالحاظ الفاترة . أين تلك الشفاه المنعدمة . أين ذلك الأنف الاقنى . أين بهاء تلك الوجنات المضرجة . أين ذاك الجبين الصلت . كلها قد تبددت كالدخان واضمحلت كالغبار وانحل تركيبها كالرماد ولم يبق منها سوى نهش الدود والنتن والصديد . فاذا ميزنا هذه أيها الأخوة بأفكارنا وذكرنا فيها مرجعنا ومصيرنا . فبلا شك كنا نرتد عن طرقنا الضالة المهلكة نحن الذين اشترينا بالدم الثمين . ولهذا ورد الينا سيد البرايا من السماء إلى الأرض . وعندما وجد بيننا لم يكن له موضع يسند إليه رأسه . فيا للعجب الباهر كيف أن ديان العوالم قد مثل فى مقام الدينونة وكيف أن عين الحيوة يذوق طعم الموت

وكيف أن الخالق يلطم من عبيده وبرياه . وكيف أن غير الملحوظ من جماهير السارافيم يلقى الآن متفولا عليه من العبد اللئيم وأنت تتهاون فى شأنه وتلبث محتقراً ، مَنْ ذاق خلا ومرارة لأجلك وطعن بحربة ووضع فى قبر لخلاصك . ألا تعلم أيها المسكين أنك لو سفكت دمك لأجله لما قضيت أقل جزء من دينك . لأن الدم السيدى هو غير دم العبد فتقدم بطلب التوبة قبل خروج النفس لئلا يفاجئك الحمام فتلقى غيرمشفى بطلب التوبة لأنها لاتجدى نفعاً إلا إذا كانت على الأرض . وأما فى الجحيم فلا وجود لها . فلنعش إذا للرب مادام لنا زمان للتوبة . ولنعمل الصالحات أمامه لنتمتع بهذه الحيوة الوقتية الزمنية ونفوز بتلك الخيرات الراهنة الابدية بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة العشرون

(فى الوعظ الدائم)

أيها الأخوان المكرمون أننا لقد وبخنا سابقاً أولئك الذين يغادرون الصلوة مع فروضهم ونوافلهم ويترددون خارج كنيسة المسيح . فهلم بنا الآن نوبخ أولئك الذين لم يأتوا الكنيسة . إذ أنهم داخلها ويكلم أحدهم الآخر عند قيام القداس الرهيب بوساوس شيطانية من جهة أمور عالمية مضمحلة . والبعض أيضاً يذم الذين يقرأون ويرتلون حسداً . فتهان حينئذ الأقوال الإلهية بمثل هذه الأعمال . ماذا تفعل أيها الإنسان. الكاهن ينهاك بقوله . فلنرفع قلوبنا نحو العلاء . وأنت تلهو عنه ضاحكا وتفوه داخل البيعة السيدية بما يقبح ذكر . أما تجزع مرتعداً فى حال تهاونك بالأشياء الموقرة من أن يلج العدو منزل نفسك المتهاونة . وذلك لأن باب بيتك يلقى غير موصد . أعنى أن عقلك لايحتفظ بنفسك . فلهذا يجب علينا أن نذرف الدموع بغزارة . لأنه بعد أن كان لنا القربان المقدس والحظوى بالمعمودية المقدسة وبعدأن كان لنا ذاك الانتظام فى الرتبة مع المسيح جسر الشيطان مقتدراً على أن يخطف الغنم من حمى الحظيرة خطنة الذئب النهم ويعدهم فى صحبته . فيا أيها المتأمل هذا المصاب المفجع أما يحق لك أن تذرف الدموع دما . فأى جواب يعطيه مثل هؤلاء . اجبنى . ترى لو وجدت بيت أحد مجاوريك تضطرم فيه النار ، أفما كنت

تبادر بكل جهدك إلى أخماد تلك النار المتقدة ولو كان ذاك عدوك . فاذا كان فعلك هذا لا يكون من صداقة يكون خوفاً على بيتك لئلا تشب فيه النار بانتشابها ملتهبة من بيت جارك فتحرقه أيضاً . فلهذا الأمر نفسه يجرى من الشياطين الأشرار . فاجتهد إذاً أن تفعل هكذا عندما يحصل لأخيك بؤس ونكد من شر الشياطين واغتيالاتهم . فبالحقيقة أن مكر الشياطين وطغيانهم أشد من شواظ النار وحريقها . فاقم لك مع ذلك حارساً على باب نفسك لئلا يطرقها الشيطان سحراً ويفاجئها بغتة حين يجدها مفسودة متقاعدة عن خلاصها . ومتى توسمت من دسائس الشيطان غشاً وختلا فاجعل السيد لك ملاذاً وملجأ واسرع إليه هارباً مستعصماً به . حتى إذا عاين الشيطان تيقظ نفسك وحرارتها وتأمل ثبات عملك ورصانته نكص عنك بالخزى راجعاً . وإذا تبين منك دلائل التراخى والتهاون ورآك غير معصوم من نعمة الله وانك صفر من العون من كل جهة فإنه يفاجئك مفاجأة الضيغم الضارى ويدخل عليك بأسرع من وميض البرق ويفعم نفسك مضرة وشروراً . بخلاف ما إذا القاك قائماً على نفسك متيقظاً وعاينك ناهضاً بنشاطك نحو السماء ومتمسكا بحبل الرجاء فإنه لا يجسر أن يحدق بك بناظره البتة . وأن كنت يا أخى قد أصبحت متهاوناً بحقوق اخوتك فأقل ما يكون إحزن على ذاتك واغلق باب نفسك لئلا تلجها الأفكار السيئة المبذورة من الأبالسة الأردياء وبادر إلى الطلبة والتوسل. لأنه لا يمنع اقتحام الشياطين مانع مثل الطلبة والصلوة الناشئة من صميم الفؤاد وخالص اللب . وأن آثرت أن تطلع على كمية الخير والفضيلة المحصلة لك النجاة متى استطعت أن تربح أخاك وتخلصه . فاسمع ما يقوله الله على لسان النبى القائل . أن من يخرج شيئاً كريماً من حقير فإنه يكون كفمى . يعنى من يستخلص اخاً آخر من غواية عدم الإيمان وينتشله من ظلمة الخطية إلى نور الحق والفضيلة والعفة فإنه يضاهينى ويماثلنى . فإذا كان سيدنا والهنا يسوع المسيح الذى هو ذاته طبيعة الله القائمة الجوهر غير الموصوفة والمدركة تنازل إلى هذا الانحطاط المفرط وجرع كأس الموت الشنيع فوق الصليب وصبر على غير هذه من اللواحق البشرية بأسرها . وذلك كله لاجلنا نحن العديمى الشكر ليستخلصنا من قبضة الهلاك . فكيف إذاً لا نحنو على مشاركينا فى الطبيعة والإيمان الذين هم بالحقيقة أعضاؤنا . وكيف لا نكون عليهم رحومين ولهم محبين ونعتنى بهم أعتناء مجهداً لنستخلص منهم من فم الشيطان وننقذهم من حبائل مكره وخداعه . فإذا كان فى القرى والضيافات المضمحلة يفتقد الصديق صديقه بجزء ما من المأكل والمشرب اللذيذ . وبهذا الصنيع تستبين علامة المحبة العظيمة وتظهر

دلائلها . فكم بالحرى يجرى هذا الأمر نفسه فى الأشياء الروحية . مع هذا يعطى من الثناء والمديح أعظمه وأجله . وإذا فعل الجميل والأحسان مع قريبه وما اعتاض عنه بالثناء والأمتداح فليفرح . لأنه حاز أجراً زائداً من الله . وكما أن الناظر فى صورة ابن الله أو صديق مموه بالألوان والصباغ وهى عديمة الحس والحركة . وفى نظرة إلى هذه الصورة المموهة يظن بنفسه انه ناظر بواسطة تلك الصورة الجامدة إلى ذلك المائت والفاقد الجثمان الحقيق ويتملأ من ذاك المشوق إليه بالنظر لا غير ، هكذا نحن فإننا متى قرأنا أخبار القديسين وتواريخهم وشاهدنا محاسن تقويماتهم ، فليس أننا ننظر إلى تمثال أجسادهم كأُولئك . بل أننا نخاطبهم ونتأمل صور نفوسهم فإنه لا شك أن الذى نتعلمه منهم هو صور نفوسهم وتمثالها . فكما أن الأطباء لا يلزمون المرضى بأن يأتوا إليهم بل هم يمضون اليهم ويأسون أسقامهم ، هكذا أخبار القديسين فإنها تداوى أنفسنا من دنفها عند ما تطرق أسماعنا . داو أنفس أخوتك المتوجعة بداء آلام الخطية كمداواتك لنفسك ، واعلم يا هذا علماً جلياً أن مدى حياتنا الوقتية هو نزر يسير ، فإننا إن لم نربح هذا الكسب النافع النفس والمساعد لها ههنا وهناك . لا يحصل لنا هناك خلاص نفسانى البتة ، لأنك كما أنقذت نفساً من رق الخطيه تكون قد نبذت عن كاهل نفسك أوساقاً وقرة من الخطايا العظيمة وستوجد يوم الحشر مكللا . لأنك انقذت نفوساً من العقاب يوم الدين وخلصتها . فاذا كانت تلك العذراء النقية الملقبة غزالة تلك التى كانت تكسو الأرامل والايتام من عمل يديها وكانت تواسى بالرحمة والصدقة المساكين كل يوم بسعة وانبساط . حين ماتت نالت الحيوة من انسجام عبرات أولئك الذين رحمتهم . فاذاً أيها الأخوة ما أعظم مقدار ما تفعله دموع أولئك الموعوظين منك والمستخلصين بنصائحك وعظاتك والناجين باستشارتك وعنايتك . فكما أن أولئك الايتام والأرامل اللواتى أحدقن بالجارية المسجاة وأعادوها بعد مماتها حية . هكذا أنت سيحيط بك أولئك الذين نالوا منك المنح والهبات الخلاصية ويجعلونك فى ذلك الوقت حاظياً بالمحبة البشرية من لدن الديان العادل ولا يكفيهم هذا فى مجازاتك . بل يختلسونك من ذلك النكال المؤلم الابدى. لأنه على قدر بذل الصدقة للمساكين تكون الاكاليل الوافرة المجملة . وعلى قدر عظم الأجر يكون حسن الجزاء للنفس لأن خيرات الله وصلاته وافرة المنح والهبات . ولكن لا يستطيع أحد أن يحصل عليها إن لم يخلص قريبه أولا . ولهذا أشار بولس الطوباوى بقوله . لا يسأل أحـد ما يوافقـه بل ما يوافق الغـير . أخاه

لأن الذي يوافقه هو نفسه يوافق أخاه . فكما أن الظالمين متى حضر يوم الدينونة والمجازاة يخجلون من أولئك الذين ظلموهم ويخزون منهم إذ ينظرون إليهم حسبما يقول الكتاب الإلهي عن ذاك الغني القاسي حين كان يشاهد لعازر في حضن ابراهيم . إن أولئك الظالمين يعودون بالخزي والخجل على أعقابهم إلى العذاب الاليم ولا يمكنهم أن يخاطبوا أولئك المظلومين أبداً . هكذا الموعوظون فإنهم متى خلصوا ونجوا من ذاك العقاب يسر معهم أولئك الذين علموهم وأرشدوهم سروراً لا يوصف وتكون لهم الدالة الكبرى مع أولئك الفائزين . ولا تقل ياهذا مالي ولذاك الغريب النائي عني حتى أعظه وأثقفه . أليس أنه مسيحي مؤمن ويتناول الأسرار الإلهية ويأتي إلى الكنيسة لاستماع القداس الإلهي . فبالحقيقة أن ذاك هو أقرب إليك من كل الإخوة والأنبياء . تأمل اللصوص السارقين كيف أنهم لا يعاقبون ويموتون موتاً ودياً وحدهم بل وموافقيهم أيضاً ينالون مثل ذلك بعينه . فعلى هذا المثال أيضاً يعاقب المؤمنون مع الكفار والملحدين . لأنه كان لهم قدرة على انقاذ الكافر من كفره وخطيته وهم من تقاعدهم عن ذلك أهملوه إلى أن هلك . فيصيبهم لأجل هذا مصاب الكافرين بعينه. فنحن ملتزمون إذاً أيها الأخوة في أن يخلص كل منا اخاه حتى نستقبل المسيح يوم الدينونة بوجوه بهجة ثابتة وبدالة جزيلة لا توصف ونقدم له تلك الهدايا التي لا يوجد أفضل منها . وهي أنفس الخطاة والضالين التي بواسطة وعظنا وتهذيبنا رددناها إليه . فلأجل هــذا لا يشمئز خواطرنا ياإخوتي من أولئك الذين نعلمهم ونحتمل أثقالهم ولو جلدونا واماتونا قتلا ونكالا بل نكون باذلين كل جهدنا في استنقاذهم واستخلاصهم ألم تروا المرضى والمدنفين إذ يشتمون الطبيب ويطردونه والطبيب يتمنى برء الشاتم لا غــير هكذا نحن لا نشتهين تائقين إلا ما فيه صحة الشاتم والمهان فقط . فياللعجب من هذا الجهل المركب كيف أننا نعتني بمداواة الأجساد وشفائها ونفرغ الوسع في الاعتناء بها . وأما خلاص أنفس الهالكين من أخوتنا فلا نعتني به ولا نصغي إليه بعقولنا . ونرى الشرور تصيبهم وتصدمهم من كل جهة . وأخيراً يحيق بهم عقاب مخلد ونحن نعرض عنهم منكبين . فما بالك ياهذا هكذا ترى أخاك خابطاً في ديجور الخطية متهافتاً في وهدتها لجهله وغباوته يهمل ذاته في التواني والعصيان وأنت لاتشاء أن تمد إليه يداً لتجذبه من وهدة الهلاك . لماذا لم توبخه وتؤنبه . ولماذا لاتنتهره وتزجره عن الخطأ . ألعلك تخاف على خاطره لئلا تغيظه . آهاً لك أنك تفضل اكرامه وتمليقه على خلاص نفسه . ليت شعري ما الذي تجيب به يوم حشر الأجساد أمام منبر المسيح المهاب . أما سمعت الله تعالى آمرا اليهود بقوله . أنكم إذا رأيتم حيوانات أعدائكم مشرفة على السقوط فلاتدعوها

تهلك . وإن رأيتموها واقعة فى حفرة فاصعدوها منها . فإذا كان الله قد أمر اليهود بأن لا يهملوا دواب أعدائهم فكيف إذاً نحن نرى أنفس أخواتنا يوماً فيوماً معقولة منهوبة من العدو الماكر ونعرض عنها غير ملتفتين إليها فيالها من قساوة جسيمة وخلق وحشى كيف أننا لا نساعد الناس بمقدار ما أولئك مأمورون فى مساعدة الحيوانات فلاشك أن هذا التشامخ والأعراض هو الذى قوض مبانى الخيرات وهدمها . هذا الذى أفسد نظام حيوة البشر وقلقل دعائمها . فكيف لا يكون هذا والبعض منا لا يقبل التوبيخ متى عمل النقائص والمعاصى . والبعض منا لا يوبخ الغير متى رآه مذنباً لئلا يثقل عليه متى وبخه. وقد أهمل بعضنا بعضاً حتى أمست أخلاقنا وحشية لايقبل الواحد منا كلام الآخر . أتشاء أن تهذب أحداً فمتى رأيته مهملا خلاصه فابك إلى الله وتضرع إليه فى شأنه وأصحبه على انفراد وأرشده إلى ما يرضى الله ودبره بتضرع وخضوع كما كان يفعل بولس الرسول حيث يقول . لئلا عند مجيئ يذلنى الله . وأنى لأنتحب معــولا على أولئك الذين تقدموا فأخطئوا فى النجاسة والطماثة ولم يتوبوا فافعل أنت هكذا وأظهر صدق الوداد للاثيم وانسه ودبره تدبيراً لائقاً بالجسد وأحذر أن تدينه بأنه قد أخطأ وسقط . بل أسجد له على الأرض وقبل يديه ورجليه ولاتستحى من هذا . لأنه سهل عليك إذا كان لك غيرة حارة فى شفاء نفس . كما يصنع مثل ذلك حذاق الأطبــاء فإنهم إذا رأوا المرضى لايقبلون دواء يتوسلون إليهم ويقبلونهم بأفواههم لكى يتناولوا منهم مركبات أدويتهم . فعلى هذا النسق يجب أن يكون فعلك فى خلاص النفس . ولاتكف عن الاجتهاد فى خلاص أخيك ولا تسأم منه ولو ألجأك التعب معه إلى حد البوار بل دبره بما يصلحه وأحسن استشارته حتى يكف عن شره وينكص عن إصراره تائباً . ومهما تفعله مع الخاطىء يعده الله لك شهادة عظيمة . ألم يستشهد ذاك المعظم السابق يوحنا المعمدان لأجل حفظ النواميس الإلهية لئلا تحتقر وتهان . ومن جرائها قطعت هامته المقدسة . فاجتهد ياحبيبى لأجل الحق الواضح ولاتكسل إلى حد الموت والرب المطلع على كل شىء هو يؤيدك ويعينك لأن رجلا واحداً ذا غيرة إلهية يكفى لتثقيف جمهور غفير، ولا تقل أنه ليس بينى وبين أحد الإخوان خصام ولا مناقشة ، لأننا نحن المسيحيين ليس فينا مضادة إلا للشيطان ، وأما البشر فإننا ممتزجون معهم ومتداخلون كأننا أعضاء جسد واحد وعلى الخصوص مــع المؤمنين منهم أفلسنا نحن جميعاً من طبيعة واحدة وقاطنين فى مسكن واحد ، أما للجميع غذاء واحد معلوم يفتقدونه ، أما للكل سيد واحد وهو الله تعالى الواحد الممجد ، أما بلغتهم بشارة الإنجيل

المقدس وناموس الله ، فهذا لا احتجاج لنا بهذا الكلام السمج بل يجب أن نظهر العناية الأخويه والتدبير اللائق نحو بنى طبيعتنا ونتممها بالمحبه التى هى رأس الفضائل ، ولا يستطيع أحد النجاة بدونها فلهذا لا تفتر يا أيها الأخ الحبيب أبداً بل كن ناصحاً ومعلماً لأخيك ولو قذفك وأرهبك بالمضرة والخسران فاخفض له جناح الحنو وأطل عليه أناتك ، إلى أن تربح خلاص نفسه ولو بالغ فى معاداتك ، ولكن إفرح يا هذا ، إذ البارى تعالى نفسه هو لك محب وصديق ، ليس ههنا فقط ، بل يوم البعث والنشور أيضاً ويهبك المنح الوافرة فافتعال الرحمة هو خير عظيم وتعليم الجهلة واستنقاذهم من ضلالة الكفر وظلمة الخطيه ، هو أعظم فضلا من ذاك ، لأن النفس ثمينة جداً ولن يوازيها العالم بأسره ، ورجوع نفس واحدة إلى طريق الحق والصواب أفضل من ربوات من الأموال التى تعطيها رحمة ، فمن استطاع أن يعمل مثل ذلك فهو كبولس وبطرس ، إلا أنه لا يتكبد تلك المصاعب والمشقات التى كان أولئك الرسل القديسون يعانونها لأن زماننا هذا زمان الأمن والسلامة فلا يحتاج فيه إلا إلى سعى واجتهاد فقط ، ومالى أقول أنه كبولس ، مع أن ذاك الذى يهدى نفسنا من ضلالة عدم الإيمان فهو يخلص نفساً من الموت ويستر خطايا كثيرة كقول يعقوب الرسول فيجب عليك ياهذا أن توضح ماتفسره لنا كتب البيعة المقدسة الإلهيه حتى فى المنازل والمجامع لكل صديق أو قريب ، ولو لم يقنع منك بعد يوم أو يومين ولا أصغى إليك فلا تخف لأن أجرك محفوظ عند الله ، وإذا لم يمكنك أن تخلص الجميع فستخلص القليل . فالرسل وإن كانوا لم يقنعوا الجميع بأن يؤمنوا بالسيد المسيح قد أنذروا العالم أجمع وربحوا أجر الجميع ، فهكذا أنت . فإنك إن لم تستطع أن تهدى مئة فعليك بخمسين وإذا لم تقدر على ذلك فلا تهملن الواحد . لأن الثواب لا يكون على إتمام الفضائل . بل على حسب نية الذين يقصدون أن يكملوها . ويمنح الله الأكاليل على حسب هذه النيه . ولهذا متى رأيت أحداً محتاجاً إلى شفاء روحى أم جسدى ، فلا تقل فى نفسك أن فلاناً يجب عليـــه أن ينفيه من وضره ويشفيه . لأنى أنا رجل علمانى ذو امرأة وأولاد . وهذا أمر واجب على الكهنة والرهبان . أجبنى ياهذا لو صادفت وعاء مملوءاً ذهباً فهل كنت تحدث نفسك بقوله لِمَ لمْ يأخذ هذا الكنز فلان وفلان ، كيوحنا مثلا أو ديمتريوس . أترى كنت تقول كهذا القول . لا لعمرى . بل كنت تبادر إليه كالذئب الخاطف قبل كل أحد . فمثل هذا ليكن صنعك مع إخوتك الساقطين . وضع فى عقلك أنك قد وجدت كنزاً ثميناً جداً . وهو اعتناؤك بذوى الأحمال الثقيلة : فأى شىء أفضل من هذا . فإنه لا الصوم والإمساك . ولا الإضطجاع على الحضيض . ولا السجود على الركبتين . ولا شىء آخر أعظم من هذه الصنمات يمكنه أن يوازى

إعتناءك بأمر خلاص أخيك . ألعلى أنا أقول هذه الأقوال . ها البارى تعالى بذاته يقول بفم رسوله إنك إذا أنقذت إنساناً من الضلالة تخلص نفساً من الموت . وينبغى لك أن تحذر إخوانك قبل السقوط فى الخطية وأن تحرضهم على حفظ الطهارة مع باقى الفضائل لتسبب للسامعين بهذه المناقب الحميدة خلاصاً جسيما . وإن أدركتهم وهم واقعون فى حفرة الخطأ فحثهم أن يرجعوا إلى الله فى طريق التوبة . وبمثل هذه المزايا تربح الأجر والثنـــاء الجميل من الله مضاعفاً . واعلم ياهذا متأكداً أن حذاق الأطباء الماهرين يحذرون المرضى المدنفين من الأطعمة المهيجة للداء والمآكل المضرة ويأمرون بابعادها عنهم ولا يسمحون بذلك حتى ينالوا البرء والشفاء . وأن تغافلوا عنهم من هذه الجهة وأهمل المريض هذه الوصية ولم يحفظها وآل أمره إلى اشتداد المرض فالأطباء لا يتركونه فى تلك الشدة إلى أن يرد كأس الحمام بل يعتنون به اعتناء شديداً ويبذلون جهدهم لينقذوه بصناعتهم من ذلك الداء العضال . كذلك أنت يا أيها الطبيب الروحى . فأنك إذا كنت غيوراً على تقويم أخيك وتثقيفه فاحرص على تهذيبه ولا تغادره مهملا بل ابذل نفسك دونه حتى الموت . ولا تستغرب هذا . فانظر كيف أن سيدنا يسوع له المجد قدم نفسه للموت عنا . أفلا تشاء أنت أن تعزى أخاك ولو بالكلام فأى جواب لك أمام سدة المسيح يوم الدينونة الرهيبة عن هلاك تلك الأنفس التى تغافلت عنها . قل لى ياهذا . لو رأيت أحداً اخذ ليشنق بالحكم العادل ورأيت نفسك أن لك سلطة على استنقاذه من أيدى الفاتكين أفما كنت تبادر مجتهداً فى أن تسبب له الخلاص والنجاح من ذلك القتل . فكيف إذا لا تأخذك الحمية كذلك حين تشاهد أخاك مقوداً بزمام الغضب ومجتذبا بيد الشيطان إلى وهدة الهلاك مع أنك قادر على أن تفيده كلمة خلاصية ونصيحة مفيدة بها تنتشله من تلك الحفرة الجهنمية وتستخلصه من أيدى أولئك الأعوان الوحشيين وأنت لا تفعل ذلك . فأى صفح وغفران تنال من قبل ذلك الحاكم العادل . وأن قلت أنه ذو سلطة واقتدار أكثر منك فاظهر لى أمره ، فإنه افضل لى أن اخاطر بحياتى فى موارد الموت من أن أدع مثل هـــذا يلج داخل ابواب الكنيسة ، ونحن نرى البعض يحسبون هلاك الآخرين تعزية عن أعقابهم . وهذا نوع آخر من انواع الشر والخبث أجيبونى ياهؤلاء ، من منكم ذهب إلى بيت أحد المسيحيين ورأى هناك كتاباً لخلاص النفس فأخذه وقرأ المكتوب فيه وانتفع منه بشيء . فحقا اقول أنه لا يمكن أحداً منكم أن يقول ، أنا قـــد ذهبت وقرأت وانتفعت بل فى الغالب إذا ذهبنا نجد أكثر البيوت مشحونة بآلات الطرب والملاهى ، كالنرد والشطرنج وغير ذلك من أنواع الملاعب كالقمار والميسر الذى يكون

بقطع القراطيس الملونة بالأصباغ . وإذا اتفق وجود كتاب عندهم يضعونه فى سبيل الحرص ويقفلون عليه لئلا يروه بعدها . وتكون غاية جهدهم فى استماع الأنغام المطربة . ويقضون نهارهم أجمع بالإنتقال من ملهى إلى ملهى . والبعض أيضاً إذا وجد عندهم كتاب يفتخرون بحسن خطـه وضبط حركاته وشكلاته واعرابه . وأما من حيث القراءة فإنهم لا ينتفعون منه نفعاً روحياً البتة . بل يتظاهرون بالأفتخار وسعة الغنى والكرامات ويصرفون اجتهادهم طول حياتهم فى هذه الأشياء وما شاكلها . وقد تمادوا فى كبريائهم حتى اننى لم أعد اسمع قط أن أحداً منهم استفاد من المدارس والمكاتب شيئاً . بل أنما يفتخر كل منهم بأن كتبه ومصاحفه قد كتبت بمـاء الذهب وتوشت بأنواع الزخارف . أنظر ذاك الخصى الذى عمـده فيلبس الرسـول . الذى مع أنه كان منهمكا فى المهمات الشاقة ولم يعرف الكتابة وحسن التلاوة حتى أنه لم يكن يفهم معنى ما يقرأه لم يكف عن القراءة وهو جالس فى مركبته . وبهـذا المقدار كان حريصاً مجتهداً حتى أنه كان يعتنى بالتلاوة فى الكتب وهو راحل مع الركب فى الطريق . مع أنه لم يفهم ما يقرأه فياترى كيف كان اجتهاده حين كان فى بيته . إنما هذا أمر بين أنه متى جاع أحد واشتهى الطعام بلذة يكون ذلك دليلا واضحاً على صحة جسده وعافيته . هكذا الذى يكون تائقاً إلى تلاوة الكتب الالهية . فإن اشتياقه لها دليل على عظم اجتهاده وصحة نفسه. ولأجل هذا نحن لا نبرهن لكم أحيانا الأشياء الغامضة ولا نحل لكم المشكلات لتفهموها ، وذلك لئلا نعودكم فى كل وقت على أكل الطعام ممضوغاً مهيأ . بل إننا نطلعكم على المعانى مغلقة لتعتنوا أنتم بفتح مقفلها فيما بينكم على سبيل المذاكرة . ونفعل معكم هكذا كما يفعل الحمام بأفراخه . لأنه مادامت أفراخه فى أوكارها يقوم بمساعدتها ويعولها بفيه كما هو مشهور . ومتى استطاعت الخروج من عشها وأمكنها الطيران والانقضاض على المآكل لا تعود أماتها تطعمها شيئاً من القوت بفمها . بل إنما تأتيها بحب الحنطة وتبذره أمامها على الأرض وتحثها على أكله والتقاطه . فهكذا نحن نفعل بكم . لأننا نأتيكم بالغذاء الروحى بافواهنا وندعوكم إليه ونحل لكم منه المشكلات والمستغلقات من المعانى . حتى إذا ما اوشكتم على تناوله وتقويتم بحفظ بعض المسائل نلقى الكلام حينئذ لديكم مبهما لكى توضحوه بذاتكم وتبينوا معانى الكتب الالهية بحسب اقتداركم . كما يصير مثل ذلك فى المرضى والسقماء . فإنهم يضعون بين أيديهم أنواعاً مختلفة من المآكل . حتى إذا ما أبى المريض هذا يرضى بالآخر . وأن لم يقبل الآخر يشتهى غيره إلى أن تغلب كثرة الألوان

والأطعمة عدم اشتهائه . وهكذا نفعل بكم ، لعلمنا بتنوع أشكال المائدة نشفى داء عدم الاشتهاء الكائن فيكم اعنى نفعل بكم مثل هذا إذا كنتم مرضى بالروح فإننا نضع بين أيدكم الغذاء الروحى . اعنى درس الكتب الروحية والنموذجات المنصوصة المقدسة لتكون لكم دواء يشفى أمراض نفوسكم بأيسر سبيل فلهذا اتضرع إليكم واسأل محبتكم بأن لاتسأموا من تهذيبنا اياكم ولا تملوا من زجرنا وايقاظنا لكم . ولو جاز الملل لحق لى أنا أن أمل . لأنى أنا المتكلم وانتم السامعون والمتكلم أولى بالملل من السامعين . ومع هذا فإنى ألازمكم بالزجر والعظات دائماً وأنتم غافلون وأجذبكم بحبال التنبيهات وانتم متقاعسون ولا تذعنون إلى مافيه نجاتكم ونجاحكم . أما تفهقون أن المتهاونين فى أمور خلاصهم والمتضجرين من استماع الكتب الالهية يدعوهم الكتاب الالهى بالبرايا غير العاقلة ويسلب عنهم النوع الإنسانى . انظروا كيف أن التهاون أضاع شرف الإنسانية . فاسمع ياصاح هذه القصة القديمة شهادة على النص المذكور . اعلم أن اشعياء النبى العظيم ذا الصوت الجهير ذهب فى أحد الاحيان إلى اليهودية وأقبل إلى أم المدن والقرى أعنى بها مدينة أورشليم ووقف فى أحد شوارعها فاحدق الناس به يمينا وشمالا فاخذ يوضح لهم صفة الذى لا يصغى إلى النصوص الالهية ولا يهوى استماعها . فجعل يهتف بصوت عال قائلا تجاه الجم الغفير الذى أحدق به . أيها الرجال الاسرائيليون . إنى قمت بينكم ولم أجد إنساناً . ولقد دعوت وما من سامع . ثم أنه وجه خطابه نحو الاستقصات العنصرية قائلا . اسمعى أيتها السماء واعقلى أيتها البسيطة إنى لهذا اتيت . ولقد أرسلت من لدن الله إلى أناس ذوى عقول فوجدتهم عديمى النطق والحس فلهذا اضطرنى الأمر أن أخاطب المواد الفاقدة الحس غير المتنفسة وأخاطبها من جهة توبيخ الإنسان الذى لم يلتفت إلى شرف مرتبة الطبيعة الناطقة . ومثله أرمياء النبى فإنه هكذا كان يقول . ترى إلى من أتكلم . فلماذا يا أيها النبى المتأله اللقب تقول هكذا . ولماذا تسأل قائلا مع من أتكلم . وها أنت شاخص بهؤلاء الناس المحدقين بك . فيجيب قائلا . الحق أقول لكم . أن هـــذه الكثرة التى أراها ليست إلا جمهور أجساد فقط . لأن اذانهم صم لاتسمع . فهى غير مختونة . لأن النوع الإنسانى لايطلق على من له جسد بشرى وصوت ملفوظ بمقاطع الحروف . بل على من فيه الروح الإنسانى والعقل المنير وها أنا أعرف أن فيكم اناساً كثيرين تثقل عليهم قراءة الكتب واستماع العظات النصوحة ويرغبون فى السكوت عوضاً عنها ويرضون به . ولكن قل لى ما الفائدة من الصمت عن النفع فلو أنى لازمتكم بالصمت والسكوت ولم أزعجكم وأردعكم بالكلام والتنبيه لما امكننى أن اخلصكم من ذلك العقاب العتيد . فسكوتى عنكم يرجع جانب

العقاب . وليس ذلك لكم فقط . بل لى أنا أيضاً . وما المنفعة من أننا لانردف الفعل بالكلام متى سمعناه . وما الربح أيضاً فى أننا نسر بزخرفة المقال ونكتئب عند الفعل . ليس ربح إلا أن نطرب الاسماع ونعذب النفس . فالأليق بك يا هذا أن تحزن ههنا من أن تزج هناك فى أتون العقاب المؤبد . فلا تصعب عليكم هذه الأقوال يا أيها السامعون . بل اقبلوها بتقريظات ومدايح لائقة . وأن وجد بينكم إنسان فيه ضعف وفتور عن استماعه نصائح الكتب المقدسة وتنبيهاتها . ولذلك لايقبل كلامنا . فإنى أقول له . إنى أنا لا أشرح لكم نواميسى بل اتلو عليكم كتباً منزلة من السماء من لدن الله وأنا مؤتمن على هذه الخدمة والوظيفة لكى اعلم بهذه النصوص المسطرة تعليما اضطراريا لأجل منفعة أنفس السامعين . فلا ترغبوا منى ياهؤلاء فى حلاوة الأستماع وطلاوة المنطق فقط بل احرصوا أن تقبلوا الأنتهار والزجر بلذة. لأن المتكلم والسامع يحصل لهما العطب المزرى معا إذا اخفيا النواميس الألهية واضمراها ويدان المعلمون كما يدان القتلة عندما يوارون أحكام الله رياء ومكراً . ها بولس ذلك الشاهد المحق الصادق . ذاك الذى الوذ دائماً بحمى نفسى المقدسة أكثر من الجميع . ذاك الذى أقواله ونشائده نبوات إلهية ونواميس وضعية . لأنه لم يتكلم بما نشاء بل المسيح متكلم فى فيه وهو الذى يحرك لسانه للانشاء . فإنه يقول اننى لبرىء من دم الجميع . ولم يابولس السعيد لأننى لم أرسل إلا لكى أقول وأعلم بجميع مشيئة الله . وحقاً يا اخوتى أنه لو لم يقل الجميع . بل أنه كان يعلم بجزء المراد لما كان بريئاً من دم الذين آمنوا بل كان يدان القاتل . وذلك بحكم عدل وقسط . لأن القاتل يقتل جسداً ترابياً لا غير . وأما المعلم الذى يأخذ بالوجوه ويحابى فى تعليمه ويجعل السامعين من جرى ذلك متكاسلين فإنه يجعل نفسه عرضة للعقاب والانتقام الذى لا نهاية له . فإذا كان المعلم المرشد واقعاً تحت هذه المخاطر والمصاعب . فأى قاس وغير شفوق يجترىء على ذم المعلم المنبه على رجز الله وسخطه متواتراً . وكم عقاب يستحوز عليه ويعتريه . ولكن إذا سكت وأخفيت سيئاتكم بسكوتى تتذمرون على لأجل ذلك . وذلك بعدل وحق . لأننا إذا صمتنا هنا عن ردعكم فلابد أن تعلن هناك آثامكم . فاية منفعة نجمت إذاً من السكوت . لانفع . فالذى يقصد نفع السامعين وأفادتهم ولا يملق بالمدح المصنع ينجو من الدينونة المريعة . ثم ينال الأكاليل الذى لاينتظره . والذى لا يصمت عن ذلك ولو ذم وقذف يحصل له ضد ذلك . ترى لو سكت داود عن مبادرة جوليات لما خوله السكوت تلك الغلبة العظيمة ولا تركه يبرز إلى مصادمة ذلك البطل

الجبار فى حومة الميدان . فها أنا قد خاطبتكم مراراً كثيرة وأتقدم الآن قائلا لكم . إننى بعد هذه لا أعزى أحداً أيضاً . بل إنى أحذر وأوبخ . فمن أراد أن يسمع فليسمع ، ومن لم يرد فلا يرد .وإن كنتم بعد هذه لا تحتملون مرارة التوبيخات فإنى لا أعود أيضاً أريكم وجهى ولا أظهر لكم فى شيء ولا أدعكم أيضاً تميلون عن هذه الطريق . ولا أعتنى بمرضى الأنفس ولا أكترث بهم كثروا أم قلوا فما هو اللازم من هذا . فإن تلاميذ ربنا كانوا إثنى عشر : فاسمع ما يقول المسيح لهم . أتؤثرون المضى أنتم أيضاً . فإذا كنا دائما نلاطفكم بالكلام ، ونتلافى خواطركم ، فإلى متى لا تتقومون ولا تنتفعون . فإن قال قائل . يا معلم أخاف من شدة الإلحاح والإبرام أن ينتقلوا إلى هرطقة من الهرطقات الكثيرة أجبته . أف لهذه الكلمات لأن استماعها غير نافع البتة« قل لى أليس أن مؤمنا واحداً يصنع مشيئة الله أفضل من ربوات من مخالفى الناموس وغير المؤمنين . ترى ما هو الأجود عندك ؛ أن يكون لك خدام كثيرون البعض منهم قتلة والبعض لصوص . أم أن يكون لك واحد صالح حسن الأخلاق .فالذى له ميل إلى الإنفصال عن الديانة البهيه فأنا لا أريده البتة لأنه كفاهم كفراً ، أنهم تفوهوا بهذه الألفاظ سيئة وقد أتلفوا جميع الصالحات التى فعلوها بقولهم أنهم سينتقلون إلى أهرطقه ما ويعدلون عن الصواب إلى الخطأ فإذا كنتم ساقطين بمثل هذه الأمراض والبلايا ومتهشمين فكيف نطلبون منى بأن أتنازل معكم قليلا وقد تنازلت معكم أكثر من مرة واثنتين . بل مرات وإلى متى أتنازل ألعلكم تطلبون منى ذلك على الدوام. فلا يكون منى هذا البته. فها أنذا أوصيكم وأشهد أمام الله بما قاله بولس الرسول أنى إذا ما أتيتكم ثانية فلست أشفق أيضا أما تعملون يا رعية مباركة أنكم متى حضر الديان ، وامتثلت جميع العوالم أمام منبر المسيح ينتظرون الدينونة المرهبة . تقفون أنتم على بعد نائين وأتقوم أنا فأدان عنكم وتلقون على كل العقوبات لأجلكم . فما بالكم تنتحبون وتكتئبون من مرارة الكلام المغيظ ، وأنتم بواسطته تنجون من العقاب والإنتقام . وبهذا الخجل الزمنى تخلصون من الخزى الأبدى ، ومع هذا نحن يا أخوتى بأجمعنا تحت القوانين الشرعيه ، ولن يقدر أحد أن يبرز نفسه ويقول بأن له قلباً نقياً عفيفاً ، ويا للعجب من أننا نرى أنفسنا دنسة غير طاهرة ولا نحاضر نحو المسيح المخلص القادر على تنقيتها وشفائها لتكون غير مدانة عند إتيانه ، وأنا أعلم أن هذا الكلام يؤلمكم ويحزنكم ، لكن ألا تعرفون أنه إن لم تكن العقاقير مرة لذاعة لن تشفى الجراح المتقيحة ، وكان ينبغى لى أن أضع على هذه الجراح والبثور مركبات أمر من هذه إلا أنى أراكم لا تحتملونها ، وأنا متضايق جداً من هذه الجهة ولكنى سأبسط لكم يدى

وهذه المقولات فيها كفاية فتثقيف التائقين إلى الإستماع . وإن بقيتم بعد هذه غير متهذبين فستقعون فى قبضة ذلك الديان العادل أعنى به السيد المسيح . وأنتم تعرفون بأن الوقوع فى يد الله مخيف ومرهب والذى يشرع فى إتقان وصيه واحدة من وصايا الإله فهو جدير بأن يتمم بقية الفضائل عن آخرها . كمحبى المقتنيات فإنهم بمقدار ما يحتشدونه من المقتنيات تتضاعف رغبتهم فى جمعها . فلهذا أتضرع إليكم متوسلا أيها الأحباء بأن تفطنوا بكلماتى هذه فى هذا المحفل فقط . بل أن تتذكروها فى المنازل والأسواق وفى كل موضع جزتموه والهجوا بذكرها فى المحافل وأوضحوا غوامض معانيها لجاهليها ويا ليتنى أصحبكم فى تصرفكم دائماً إلا أن ذلك غير ممكن لى . فاجعلوا عوضاً عنى تذكار أقوالى فى مجالسكم وأنديتكم حتى على الموائد . وظنوا بى كأنى بينكم حاضر . وأكرر لكم هذه الأقوال التى طرقت اليوم مسامعكم . والهجسوا بهذه الوصية التى أوصيتكموها الآن وادوا المكافأة عنا بما يلزمكم . وأقول لكم أيضاً . أنه أن اجترأ أحد بأن يعيب هذه المقولات ويشناها فاحجموا عنه وسدوا آذانكم عن استماع فحش كلامه وتمثلوا بقول النبى القائل كنت أطرد ذاك الذى يقع بأخيه خفية وإن سنح لك بأن تنشىء أقوالا سمجة فاقطع الكلام ووصد مدخل المقولات السيئة لأننى أرضى منك بأن تتفوه بكلام سمج قذر . فأى ربح يحصل لك إذا بحثت عن فلان بأنه شرير خبيث . إنه يتأتى لك من هـــذه الأقاويل الدنيئة ضرر فاضح . لأنك تؤثر التنقيب عن خطايا الآخرين وسيئاتهم ، وخطأك الذى أنت متغول فيه لاتتصوره بعقلك ، فالأفضل لك أن لاتعرف شيئاً من أن تعرف الشرور والخبائث وتطلع عليها ، وأنى لأعلمك أيضاً انك متى رأيت أحداً له اهتمام بل يصنع أوانى مكرمة للكنيسة أو زينة مزخرفة فى جدرانها وصحن فنائها ، فلا تقل له بعد شروعه فى ذلك بأن يبيع هذه كلها ويمنحها صدقة للمساكين لئلا تعيق نشاطه فى مشروعه . ولكن قبل مايبتدىء بذلك إذا استشارك فى فعله فحسن له أن يعطى جميع ما يصرفه فى هذا الصدد للفقراء والمساكين ليهضم فى عينيه افتخار هذا العالم وفرحه ، لأن هذه الأشياء لاتبقى مؤبدة على مدى الزمان . بل لابد أن يعرض عليها التلاشى والإضمحلال وتزول محزناتها ومفرحاتها كزوال الظل ، فكما أن الغريب عن وطنه يكون دائم الحنين والاشتياق إلى وطنه ، هكذا أولئك الذين يشتاقون إلى مواهب الوطن السماوى ، وكما أن الساعى فى طريق يجتهد إلى أن يبلغ غاية سعيه ، هكذا نحن فلنجتهد فى الخيرات المستأنفة حتى نبلغ إليها ، ونحسب ماعشناه من هذه السنين القليلة أنها كثيرة مديدة بالنظر إلى تلك الخيرات المعدة وقولى هذا لا ينتج منه ذم هذه الحيوة الوقتية . كلا . لأن هذا العالم أيضاً عمل الله وابداعه ، ولكن قصدى بهذا أن أحثكم على محبة الفردوس والإشتياق إليه ، وحرصا لكم بأن لاتتعكفوا

نحو محبة الأشياء الأرضية ، لئلا تستميل أجسادكم إليها فتلاشيها ولئلا نتشبه بأولئك الصغيرى الأنفس الذين يقولون بعد أن يعيشوا سنين كثيرة أن مدى عمرنا كان قليلا . حقاً أنه لايوجد أقل فهما وعقلا من هؤلاء . لأنهم يقدمون إكرام هذا العالم الزائل على تلك الخيرات السماوية المعدة لأحباء الله تعالى التى ما رأتها عين ولا سمعت بها أذن . ويهوون التقلب بعواصف أمواج هذا الشتاء المرة . أعنى بها العيشة الكريهة المذاق . وبولس ذاك الرجل المطوب لم يكن اجتهاده هكذا . بل كان جهاده موجها خلاص البشر خوفا من أن يعدم ملكوت السماء التى نرجو جميعنا بأن ننالها بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة الحادية والعشرون

(فى الموت وانتهاء العالم)

إننا نفحص يا اخوتى دائما ويبحث كل منا كل وقت ليطلع على معرفة انتهاء العالم متى يكون وكيف يصير . ولكن ذاك الحزوم المفرق . أعنى به بولس الطوباوى يشاء أن يحسم مادة هذا الفحص غير اللائق وغير النافع للناس بقوله . أما من جهة تلك الأوقات والأزمنة فلا حاجة لى بأن أكتب إليكم عنها . لأنه لافائدة لنا إذا علمناها وتحققناها أنها تقع بعد عشرين سنة أم ثلاثين أم مئة . فأى نفع حصلت عليه بعد معرفتك بذلك . ليس هذا إلا بحثا فارغا . فلماذا تبحث كثيراً أيها الإنسان عن انتهاء العالم وتنذهل من ذلك متحيراً أليس أن انتهاء العالم هو أنتهاء حيوة كل إنسان وموته . ولكن كما أننا فى باقى الأشياء غير عارفين ولا مختبرين هكذا نحن فى هذا الأمر . لأننا نهمل ماينفعنا ويوافقنا ونهتم بالأمور الغريبة عنا غير المناسبة لنا ولا نستقصى عن ميقات موتنا وموت كل منا متى يكون وروده . وعلى حسب ظنى أنه خير لنا نحن البشر أن لاندرك وقت موتنا وحسن جداً أن يكون أوان موتنا غير معلوم ولا معين . وأنه يفاجئنا كالسارق بغتة . لأننا لو عرفنا متى نموت لما كان أحد يسير بصلاح البتة ولا يتقن فضيلة من الفضائل اللازمة . بل كان يحتشد الرذائل المتعددة فى ذاته ويضمر فى نفسه قائلا . أنى سأتوب عند ورود ساعة الفراق وبالحقيقة ياأخوتى أنه كان يموت ويذوق الحمام وهو لايحصل على توبة ولاعلى تثقيف . فإذا كان الآن خوف الموت يرجف أنفس الجميع لأنه غير ظاهر ونحن نفعل هكذا . فماذا كان يفعل كل منا من الشرور لو

عرف زمان موته. فحتما أنه كان يقتل ويفتك بكل عدو له ويهلكه ، وأخيراً يبادر إلى الموت المعين فى ميقاته . مع هذا هلا وجد رجل جبار يصنع الشرور والقبائح ظن بنفسه أنه سينال بعد ذلك أجراً . وأما الذى يكون مترقباً للموت بالمرصاد فحقاً أن سطوة الموت لاتريعه ولايعتد بالحمام ولايحسب ذلك موتاً ولو نظر المائت مسجى أمامه ولايصغى إلى شقشقة كلام الجهل والحمق المسموع من الكثيرين لأنه يهجس فى نفسه دائماً بتلك الأكاليل المعطاة من الله للصالحين . فكما أن الفلاح الذى يبذر حنطته لا يفرح كثيراً إذا ما رآها ماتت فى الأرض وتلاشت . ويشوبه لذلك حزن وغم البتة . هكذا الانسان الصديق فإنه يجذل كل يوم مسروراً . لأنه محلى بالفضائل والمناقب الحميدة ويترقب كل ساعة ملكوت السماء . وما هو ملكوت السماء . هو السيد المسيح نفسه . فلهذا لايعتريه حزن عند ورود الموت، ولا انزعاج . لأنه عارف بان الموت مهيع الانتقال إلى السماء وسبب الأكلة والتيجان . ولذلك يبنون الأجداث والمدافن تجاه المدن والقرى لكى نفطن بضعف طبيعتنا وزوالها إذا نظرنا قبورنا وأرماسنا نظراً جلياً متواتراً . ولهذا تسمى مدرسة التواضع . حتى إذا آثر أحد أن يمضى إلى مدينة عظيمة ليتخذ له من هناك مرتبة حكمية أو وظيفة كهنوتية . فقبل أن يلج المدينة وينال مايبتغيه يجد القبور والمدافن على أبواب المدينة مفعمة حماة ودوداً وعظاما نخرة . حتى أن ذاك الرجل الذى يريد أن يقترن بامرأة أيضاً . يصير الاتفاق على المهر والصداق قبل أن يعقد عقد الزواج وتصير كتابة أمر المقدم والمؤخر . أعنى ما يكون قبل الموت وبعده . وهو لم يبصر المرأة بعد . فيكون اهتمامهم باحزانهم قبل أفراحهم ويحسبون أمر الموت أما للعروس أو العريس . ويوقعون القضية على هذا النص . إذا مات الرجل قبل المرأة أو المرأة قبل الرجل . يكون الأمر كذا وكذا . حتى أنهم يحسبون أمر من لم يولد أيضاً بقولهم . إن ولد لهما ولد ذكر ومات . حتى إذا توفى أحدهما لاينسى ماكتبه أولا . ثم أنه ينوح قائلا . لم أكن أظن أن أمراً كهذا يصيبنى. فإذا لهذا الأمر كانت غاية انتظارى . وهكذا سرور هذا العالم مفعم دموعاً وأحزانا وهكذا كنت مستعداً لأن أفقد قرينتى . ما الذى تقوله أيها الانسان . ألعلك منزه عن مصاب حوادث الدهر وآلامه . أما بلغك بعد تلاشى الطبيعة البشرية المفسودة وانحلالها . فعد إلى ذاتك ياهذا وراجع عقلك وافحص ضميرك وافقه موقنا أنك عن قليل ستسقى كأس الحمام . فان قلت كيف من قد كان شابا حسنا . وهاهو الآن مضغوط فى قبر ضيق وقد ألم به الدود والنتن واستحال إلى البلى والتراب . أجبتك . لهذا ينبغى لك أن تجذل بزيادة

ولا تحزن مكتئباً وانظر إلى ذاك الذى يشاء أن يجدد بيتا واهياً خربا . كيف أنه يخرج منه أولا أولئك القاطنين به . ثم يشرع فى تقويض أركانه ويعيده فيما بعد بيننا مكينا أبهى رونقا وجمالا مما كان سابقاً . فترى هل يسوء هذا الفعل أولئك الساكنين به . كلا . بل يضاعف سرورهم وفرحهم . لأن القديم صار حديثاً والبالى مكينا . فهذا الأمر نفسه يفعله البارى تعالى فى الإنسان فإنه يخرج النفس من هذا الجسد الذى هو البيت البالى ليعيد بنيانه للنفس . ويجعله اشرف مايكون بهاء وأكثر أكراما ومجداً . ثم أنه تبارك وتعالى يدخل النفس ثانية إلى ذاك الجسد الابهى والأفضل مما كان . أعلم أن آدم أولى الجبلة حين خلقه البارى تعالى لم يدر أنه من الأرض مخلوق . لأن وجود النفس كان بعد تأليف الجسد لئلا يرى آدم صنع الله به . ولكن عند البعث والنشور يوم القيامة . فإنه يطلع على ماكان أولا . وترانا نرتعد من الموت وتستحيل نضارة وجوهنا ولو لم نبصره بذواتنا . فإنه يكفينا ماشاهدناه فى غيرنا حين مات وانحل تأليف هيكل جسمه وصار رماداً . أفما شاهدتم ياهؤلاء أولئك الظالمين المتكبرين حين طاف بهم كأس الحمام وتركهم صرعى لا يستطيعون حراكا البتة . كيف أنهم ثووا أذلاء محتقرين . وإنى لأعجب كيف أننا عندما نتوجه نحو المقابر والأجداث نتجاذب أطراف الأحاديث عن ذكر الموت ووروده وننظر نحو الأرماس قائلين . أننا سنلج هذه المقابر ونصير عظاما نخرة منتنة ونتداول الحديث بأمر الموت وما يتعلق به . وعند إيابنا من محل الأموات نأخذ فى تنميق الكلام غير اللائق ونهتم بأمور غير ضرورية ناسين ضعف طبيعتنا وسوء احتقارها . فتباً لها من شقاوة وبؤساً لها من جهالة فظيعة . فيالذل حياتنا ومسكنتنا . ألم تنظروا الشيطان كيف يلهوبنا مستهزئا . ونحن نحقد ونختلس ببغى وغباوة ونفل شروراً لا تعد ولاتوصف . فمن جهة نتحكم بافراز . ومن جهة نحارب الله باعمالنا ولنرجع إلى صدد ماكنا به سابقاً . قل لى ياهذا . لماذا تنتحب كثيراً على المائت المدفون . إلا أنه كان باراً ذا تمييز وحزم . فإن كان الأمر هكذا فالأليق بك أن تفرح بكونه مات سريعاً قبل أن يفسد الشر خيره أم كنت تبكيه لأنه كان يانعا ظريفاً مؤدباً . فالأولى بك أن تواصل الشكر لله وتمجده دائما . لأنه انتخبه مبرراً من كل خطية واختاره ليسبحه مرتلا مع الملائكة . ولست أقول لكم لاتحزنوا على امواتكم بالكلية . بل قولى لاتحزنوا حزنا مفرطا بلا قياس ولا ترتيب . بل يكون حزنكم كما حزن السيد المسيح على صديقه لعازر وهمل عليه

قطرات الدموع . ولم يكن ذاك منه بصراخ وتصويت خارج الترتيب والنظام . فإن أردت أن تنال تعزية وسلواناً فتفطن بذلك المائت . كيف أن الله أخذه إلى ملكوته وهو الآن يمرح هناك بابتهاج فيحصل لك بذلك الفرح والسرور فلقد ولدت ياهذا فى العالم وتكونت انساناً . فلا تطلبن الدوام ههنا وعدم الموت . ومتى أراد الله أخذ أحد منا فلا تتألم لذلك كالعبيد الآبقين العديمى الشكر والسارقين أمتعة ساداتهم . لأن الله إذا أخذ منا مقتنى . أو كرامة أو مجداً . أو جثماناً . أو هذه النفس عينها يكون قد أخذ ماله لامالك . وإذا أخذ أبنك يكون قد أخذ عبده . فإذا كان حكمنا لايجرى على ذواتنا فكيف يجرى على مالله . فإذا كنت ياهذا لاتستطيع أن تتسلط على نفسك لأنها ليست ملكا لك . فكيف إذا المقتنيات التى هى منفصلة عنك تزعم أنها لك . والأمر ليس كذلك . فكيف تجسر أن تصرف مالغيرك على شهوتك ومرادك الردى . فإذاً لا تقل أنى أنا أصرف مالى . بل قل مال الغريب . لأن المال الذى لا يكون فيه حصة للمساكين يكون غريباً عن مقتنيه . أنظروا إلى تركيب أجسادنا كيف أن كل عضو يتصرف بعمله المختص به فالأيدى تخدم فى الضروريات . والفم يمضغ الطعام . والجوف مقر للمأكل والمشرب وهو ملتزم بضبط المواد الواردة إليه دائماً . والعين تقبل الضياء والأشراق وتنير الجسد كله ولا تحصر النور كله فى ذاتها وتبخل به على الجسد . وكذلك الأرجل فإنها تسعى وهى حاملة هيكل الجسد من فوقها ولا يمكنها أن تسعى بدونه . وكل عضو من المذكورات يباشر عمله المخصوص به بالضرورة . فإن لم تعط أحداً جزءاً من مالك أو من صناعتك فأنك تخسره وتهلك ذاتك . وعلى حسب ظنى ياهذا . أن المساكين لو أرادوا الاستغنام والخطف كالاغنياء ليصيروا الأغنياء فقراء مثلهم بسرعة كلية قل لى ياهذا ما الذى أضعته ؟ أولداً وحيداً كنت تحسن تهذيبه وتربيته باهتمام وبساطة رجاء بأرثه لك عند هرمك . فاشكر الله الذى أخذه لأنك بهذا تضاهى ابراهيم . فكما أن ذاك قدم أبنه ضحية لله لاتمام أمره . هكذا أنت فانه متى أخذ ابنك ولم تحزن متجراً بانفصاله منك وشكرت الله ربك على ذلك . فحقاً أن أجرك يكون كابراهيم ذاك الذى أخذ أبنه بيده ليذبحه ضحية لله . وأن غادرت النوح والنحيب المتواتر بمجد اسم الله من الناس لاجلك وتكون عند الملائكة ممدوحا ويمنحك البارى أكلة المواهب لأجل صبرك واحتمالك . ولا تحسب أن ابنك هو مفقود . حاشا ، بل إنه محفوظ به . وهو الآن فى يد الله العزيزة . وقد صرت الآن بالحقيقة أباً لابن حى لا مائت . وها فمه الآن يتكلم بكلام أعظم بهاء وفصاحة

وعيناه تنظران البعد المستغرق والأشياء المستغربة . وقدماه تجولان فوق السحب مع الملائكة وجسده ذاك الذى كان قابلا للفساد سيقوم متألقاً كالشمس المنيرة ومتوشحاً بعدم الموت والفساد تأمل أب الآباء إبراهيم . ذاك الذى لم يبصر ابنه أمامه مائتاً . بل إن الله أمره قائلا قم اذبح إبنك ضحية لى . ولم يشق هذا الأمر عليه ولا اعترض بقوله . ألعلك منحتنى ابناً لأصير به قاتلا وتشيع أخبارى بأنى ذابح إبنى . أما وعدتنى يا إلهى أن من هذا الغلام تمتلىء المسكونة جيلا بعد جيل . فهل يمكن أن تجنى ثمرة من أصل مقطوع . فلم يقل إبراهيم الطوباوى مثل هذه الكلمات لله . بل رضخ مطيعاً عند استماعه كلام الله القائل خذ إبنك المحبوب إسحق واذبحه ضحية لى فى أحد الجبال التى أبينها لك ولم يفش إبراهيم هذا السر لأحد من بيته . لا لامرأته ولا لغلمانه . بل تركهم فى سفح الجبل مع الأتان وارتقى إلى قمة الجبل والغلام يصحبه . ثم إنه وضع الصبى على الحطب وجرد سكينه وهم بذبح إبنه الوحيد . فهل أبصر أحد أبا وكاهناً معاً . وهل رأى ضحية الله من غير دم ومحرقة من غير نار . وبالحقيقة أن ذبح ابنه لم يكن بشفرة حديد . بل كان بشفرة نشاط وغيرة ليكون بذلك مؤدبا ومعلماً لنا بأن لا نستصوب تقديم كرامة الأبناء على أوامر الله . بل إننا نقدم النفس بعينها له . وأما إسحق ذاك الفتى المطواع فإنه أطاع أمر الله وظهر خروفا للتضحية . ولم يفه نحو أبيه بحلوة ولا مرة . لأنه كان غلاما عاقلا رصينا راسخا فى عمق الطاعة . وكان وقد بلغ من عمره نحو أربع عشرة سنة . وهو فى عنفوان شبابه وصباه ليت شعرى هل اعتبرتم جميعاً ورع هذا اليافع وصبره حين كان يعقله أبوه وهو لم يتحرك ولا عير أباه موبخاً بشىء البتة . بل كان يحتمل ذلك بتجلد وصمت كالحمل الوديع . وسيق كالمسيح إلى الذبح كأنه كبش . ولم يسمع له صوت ولا غيظ أمام الجزار . ولا يقولن لى أحد ، إن إبراهيم مع هذا الأمر كان خالياً من الحزن والتحرق على حشاشة كبده . فكيف يمكن يا أخى تصديق هذا المقال . ونحن نرى أحيانا لصوصا مساقين للقتل ، فترتعد من ذلك فرائصنا حزناً وخوفا ، وتنهمل الدموع من أجفاننا . فكيف إذاً لا يكون إبراهيم آسفاً على نجله المحبوب منه حين هم أن ينحره بيده ، فحقاً أنه تكبد الحزن البليغ لذلك . وأى وحش ضار أو عدو حنق إذا شاهد هذه الحالة لا يتمزق حزناً وتأسفاً ، ولكن إبراهيم كان محتملا الحزن والكآبة بصبر لإتمام وصية الله . فاسألك يا أخى أنك متى دفنت ابنك أو نسيبك فلا تندبه بما هو خارج عن اللائق والواجب ولا تمزق ثيابك حزنا وغيظا بل تذكر إبراهيم حين أزمع أن ينحر إبنه لمحبة الله ويذوق ثكله . إنه لم يذرف عليه دمعة ولا تنهد بزفرات مؤلمة . وكذلك أيوب البار . فإنه

حزن على بنيه كما هو واجب على كل أب ، ولكن ليس خارجا عن الواجب كما نحزن الآن ونتصنع بأمور غير لائقة كالوثنيين الذين ليس لهم رجاء قيامة . ألعلك تقول إنى لا أدرى أين يوجد الآن ابنى . فلماذا تقول لا أدرى . فان كان صالحاً وعاش عيشة حسنة فى العبادة فمكانه معروف ومعلوم . وإن كان شريراً ردياً تقول لى أنه يحق لى أن أندبه وأنوح عليه لأنه كان خاطئا ومات قبل أن يتوب ويتناول الأسرار المقدسة . فأقول لك إفرح لذلك أيضا لأنه قصر عن السعى فى سبيل الآثام ولم يزد بعدها فى الشرور المتفننة أكثر مما مضى ، وساعده الآن بما استطعت وأعنه بما يجب . ولا يكفى أنك تبكيه فقط بل تضرع إلى الله من أجله بالصلوات والصدقات وقدم عنه كلما يمكن تقديمه كما جرت عادة المسيحيين فى تذكار الأموات . سواء كانوا صالحين أم خطاة . ولماذا تشكك فى ذلك ولا تؤمن أنها تصير تعزية عظيمة للمعاقبين وتخف أثقالهم. فاحذر الشكوك ياهذا . فيجب أن لا نبكى مطلقا على جميع المائتين من غير تمييز وافراز . بل نبكى خاصة على أولئك الذين وافاهم الموت وهم متمسكون بالغنى وذهبوا مع الأجيال الماضية . وهم لم يفعلوا الصدقة مع المساكين من غناهم تقدمة عن أنفسهم . فعلى مثل هؤلاء يجب أن يناح ويبكى . ولنذرف عليهم العبرات يا أخوتى بانسجام . لا يوما واحداً ولا اثنين بل حياتنا بأسرها ولنسعفهم حسب مقدرتنا . ثم اننا نتضرع لآخرين أن يصلوا لأجلهم ويقدموا عنهم تضرعات متصلة . ولا شك أنه بعد هذا كله تصير لهم تعزية يسيرة . ثم انى أقول لمحبتكم من جهة خوفنا الشديد من الموت فان ذلك لا يأتى إلا من عدم اتصال محبتنا بالمسيح اتصالا لا يشوبه انفصال . ولا نهتم فى شأن تلك الخيرات المستأنفة . ولا شك أن الذى يخاف العقاب لا يخاف الموت البتة . كالأطفال الذين يخافون من الأوجه المشوهة المفزعة . وأما النار فلا يرهبونها. كذلك نحن فاننا نرتاب من الموت ونرتعد منه جبنا . لأن لبّنا ليس نقيا ولا خالصاً . فلو كان ضميرنا صافياً بسيطاً لما كنا نرهب الموت ولا الجوع ولا الفقر ولا اغترام الدراهم ولا ما يشبه ذلك . ضع فى عقلك أيها الإنسان أن حيوة هذا العالم كالطيف فى المنام . أو كالظل المتنقل . أنظر قصور العظماء ومغانى الكبراء كيف أنها خاوية خالية وقد انقلبت بكر الدهور والعصور ولم يبق منها إلا الأطلال والآثار التى ينعب فى أرجائها البوم والغراب . ليت شعرى كم من الشرور كان يفعل هؤلاء فى حياتهم . وهاهم الآن لايسمع لهم صوت . ولا تذكر أسماؤهم . كم من الظالمين الجبابرة الأشداء قد جلسوا على الحضيض. والمتواضعون تقلدوا الملك والسلطان . وأظن أن هذه المقولات أيضاً لا تقنعك يا هذا لتقويم سيرتك وإصلاحها . ولكن اسمع ما أقوله لك وتفطن فى ماأقدمه لك قياساً . ترى لو كنت راقداً وأنت تغط فى منامك وليس لك

قدرة على أن تدفع عن نفسك شيئاً البتة . اليس دبيبة صغيرة من حشرات الأرض تقدر أن تهلكك . فلا تشك بهذا بل تفطن فى هذه . لا فى عنفوان السجية البشرية . وفى منفعة التأمل بهذه تعجب لا من ذاك الذى يتلع بعنقه شمخاً و يمشط شعره ولحيته ولا من ذاك الذى يتجلبب بالثياب الثمينة المفوفة ويمتطى الأفراس المسومة والمزينة بالآلات الذهبية والفضية ولا من ذاك الذى يتبعه على أثره خدم وغلمان كثيرون . بل أنظر متفكراً فى نهاية هؤلاء وإلى أية حالة يصيرون . وإذا تفطنت فى هذه الأحوال فاهرب من المجد الفارغ والكبرياء والتشامخ . وإذا عجبت من لهو هذه الأشياء الزمنية الظاهرة فأقول لك أن هذا هومن نص الكتب المقدسة الذى هو أبهى من هذه الأشياء بأسرها . لأن هذه الكبرياء الغاشة ليس لها سوى تمويه رونق على وجهها . نعجب من انتهاء طبيعتنا ، ولكن إذا توسمنا حقيقتها نجدها حمأة وغباراً ونرى فساد قوامها قبل انحلالها ، وعليك يا ولى المجد الفارغ فإنه متى عرض لأحدهم مرض مسبب للموت والهلاك فانظر وهم فى حال النزع وتأمل أين هو مجدهم ذاك الواهن الباطل ، أين تلك الجموع التى كانت محيطة بهم والذين كانوا يتبعوهم ويبعدون الناس يميناً وشمالا ليوسعوا السبيل كى يمر جوادالسيد المعظم ، أين تلك الثياب الموشاة بالذهب والمضمخة بالطيب والمسك الخالص. أين المادحون المقرظون ، أين الموائد وآلات العزف والأغانى ، أين التقهقه والاستغراق فى الضحك ، أين الجسم الغض الممتلىء والعيشة السهلة اللينة ، فكيف حال ذاك الجسد الذى حاز مثل هذه المعيشة البهية والإكرام الفائق ، أمض إلى اللحد وأنظره وهو موعب نتناً والدود يتناثر من جوارحه وأعضائه ، وردد الزفرات وتأمل الحسرات ، فيا ليت الإنسان خسر، تكون هذه الحالة التى تراه بها فى القبر ، ولكن يا أخى تذكر ما وراء هذا من ذاك الدود الذى لا انتهاء له ، والتوبيخ غير المحتمل ، والظلمة القصوى المدلهمة ؛ وتلك النار التى لا تطفأ ، وذان العقاب الأبدى الذى لا انقطاع له ، فما دمنا هنا لا يكون للخير والشر نهاية ولا غاية وأما إذا بلغنا إلى ذاك العالم السفلى فبلا شك يكون العقاب غيره متناه ولا يسعفه جزء ما من التعزية والصبر ، وتلك حالة لا يمكن أن يصفها أفصح الألسنة أو يذكر كيفيتها ملخصا . أين تستبين تلك الزينة الباهرة ، أين ذاك الأطراء والمديح والتبخل ، أين كثرة المقتنيات والأموال المجموعة ، أنها لعمرى قد تبددت إلى الأبد وهى لا تجدى هناك نفعا ولا ربحا ، حتى أن ما يصرفونه فى تجهيز المائت ربح ما من تلك الثياب الفاخرة بل تكون سببا لنابشى القبور لكى يطرقوهم سحراً وينزعوا عنهم تلك الثياب الثمينة فيستحقون من جرائها ذاك العقاب المؤلم . ويكون المائت سببا لذلك . فلماذا لا تنتبه يا أيها الإنسان

حين تسمع أن المسيح نفسه نهض من رمسه عرياناً . وأيضاً لم يقل انى كنت مائتاً فدفنتمونى . بل قال إنى كنت جائعاً فاطعمتمونى إلى آخر النص المعلوم. فأى جواب نحصل عليه لنحتج به حين نزين أجسادنا التى هى مأكل الدود . ونتغافل عن السيد المسيح عندما نراه جائعاً ظمآنا . وغريباً عريانا . بل منبوذاً فى الفراش يجود بنفسه . وأن قلت أن تلك الملابس اللامعة وتلك الفرش والوسائد المذهبة إنما هى زينة للمكان ولتظهر علامة غنى المائت . فأقول حقاً أن هذه كلها ضحكة للناس لامدح إذا كان الغنى والفقير متساويين فى الموت . وكلاهما يرسلان للمقابر على حد سوى . وكفاك بذلك شاهداً حين ندفع الجسد مأكلا للدود ونرجع قائلين . أين تلك الزمر الكثيرة والاحتفالات . أين تلك الاجواق والازعاجات . أين تلك الشموع المذهبة التى فى أيدى الكهنة أين محفل النساء وصراخهم وندبهم قد عبرت جميعا وجازت كأضغاث أحلام . وطالما سمع باذنه التعزية بطول عمره وعدم الموت فظهر الآن كذب هذا الادعاء وبطلانه . وأنه لا يوجد أحد غير قابل للموت والفساد . أتعظوا أيها الاحباء بصفة المائت وانتبهوا لهذا السر العظيم . واقلعوا عن آثامكم . وانظروا وارتعدوا . وتأملوا واعجبوا . وشاهدوا ولا تعجبوا . ولا تستغربوا هذا متى رأيتم ملكا أو رئيسا مائتا . لانكم متى نظرتموه وهو مسجى طريح فاقد الحس والحركة فلا تتحققون أنه هو ذلك الملك أو الرئيس . لأنه يرتعد أيضا من الموت ويخشاه كالفقير ، بل أكثر ، وتراه عند ورود الحمام بائسا خائفا ، ويتقلب فى تلك الساعة ذليلا حقيراً ، ذاك الذى كان بالأمس يرجف العالم خوفا ورهبة ها هو اليوم مضطرب مختلج الاعضاء والجوارح وقد اضمحل منه بأسه وهانت سطوته عندما عاين تلك الملائكة المرهبة المفزعة ، وذهل عن سلطانه وجبروته حين شاهد تلك المناظر المريعة والعساكر المخيفة وعند سطوته وأقتداره كدخان مضمحل ، وحين يتوسم تلك المناظر الوحشية تتشوه سحنته وتستحيل نضارته ، وعند مايسمع أنه قد قضى ببعد نفسه وازدجارها يرتعد كالقبضة أمام الريح ويجهر بالبكاء قائلا ، ويلى ويلى أين هى سلطتى ، وأين عظمائى ، سحقا لى لأنى أرى ههنا ترتيبا آخر حاضرا ونظاما خلاف ما كنت أعهده ، وقوة أخرى شديدة وسلطه أخرى عظيمة صارمة . وملكا آخر غير متزعزع ولا منتقل ، وسلطانا آخر مخيفا مفزعا ، لاموت بعده ولا فناء وجيشا آخر مفزعا مذهلا ، فهذه ونظائرها يراها المائتون عندما توافيهم غصص المنون ، وأشياء أخر غير هذه ينظرونها مخيفة جداً . وكثيرا ما يثبون من فراشهم ليهربوا من ورود

الموت والبعض منهم يحرقون باسنانهم . والبعض يصفقون باكفهم . والبعض يحملقون باعينهم وهم يهذرون بخوف وازعاج الملائكة والشياطين الذين يبحثون عنهم بتدقيق . ويخاصم بعضهم بعضاً فى شأنه . ويدينون نفس ذلك الإنسان الذى هو فى حال النزع . فكم من الصلوات يحتاج فى ذلك الحين . وكم من الخيرات الجزيلة والدموع المنهملة يلزمهم حينئذ ليرافقوا تلك النفس القائمة فى مقام الخوف والوجل . فإذا كان أحدنا متى أراد الذهاب إلى بعض المواضع البعيدة يبحث عن رفيق يرافقه فى طريقه ليستأنس به . فكم بالحرى يلزم لأولئك الراحلين فى ذلك الطريق الضيق الحرج من يرافقهم ليحفظهم من أولئك اللصوص الأشرار الأردياء أعنى الشياطين الذين لا يبغون مالا يختلسونه . بل نفساً يعاقبونها . فلايوجد لهم فى ذلك الحين رفيق صالح منجد سوى الصلوات والرحمة والمحبة الحقيقية . فهذه فقط تقدر ان تخلص تلك النفس . ونعم الرفقاء الفقراء البائسون لأنهم يرشدون النفس إلى سبيل الملكوت ويعودون بنا إلى الله ونحن فائزون مع باقى الأعمال الجيدة والفضائل . فلنجتهد يا أخوتى بكل مقدرتنا لنظفر بتلك الخيرات المزمعة بيسوع المسيح ربنا . الذى له المجد والعزة والإكرام والسجود . مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة الثانية والعشرون

(فى التواضع والعدل)

الإنسان المتكبر هو جاهل وغبي أيها الأخوة وليس له إله ويضاهى ذاك الفريسى المتعظم فى ذاته . بل الشيطان نفسه ذاك الذى من تشامخه وتغطرسه سلب عقله وتمييزه حتى أنه تجرأ بوقاحة على أن يساوى نفسه بالله . فلهذا بعد أن كان نوراً استحال إلى ظلام . وبعد أن كان ملاكا انقلب شيطانا . هذا المتكبر بعينه فإنه يجعل ذاته صالحا باراً وحكيما مفرزاً وذا حزم ويحسب باقى الناس لدى عينيه كلا شيء ويهضم من قدرهم ويسخر بهم . ومن صفاته أيضا أنه إذا سقط فى خطية لايتوب ولا يستغفر عنها حتى لايتضع من هذه الجهة . والجهل المركب الكائن فيه لايدعه يفعل شيئاً يستغفر به عن ذنبه كالشيطان نفسه .

وإن لم يتب عن جرمه وإساءته . فلا شك أنه من الهالكين ويشمله العقاب الأبدى مع ابليس قرينه ونسيبه . وهــذا الداء العضال الذى هو المجد الفارغ كائن فى كثيرين ، لأن من طباعه أن يكون متعظما وجسوراً حاسـداً . وأما ذاك الانسان المتضع فانه وأن أذنب فى أمر مايرجع حالا تائبا بسهولة ويبادر إلى حمى الله وعدله . وذلك من صحة عقله وحسن تمييزه وخصوصا إذا اقترن العدل بالتواضع . فإنه يتصرف حيثما شاء من غير خطر ما وسيرتقى إلى أعلى السموات ويمثل لدى عرش العلى صحبة الملائكة بدالة مفرطة . فإذا كان الذين يعترفون بزلاتهم وهفواتهم باتضاع تحصل لهم دالة لدى الاله لا توصف . فكيف إذاً الذين يصنعون الخيرات الكثيرة وهم يتضعون مع ذلك بأنفسهم . فكم من الاكلة قد هيىء لهم لاجل اتضاعهم . أعلم ياهذا . أنك لو أتقنت فى حياتك كل فضيلة وعملت كل عمل صالح . مثـل رحمة وصلوة وصوم وغيرها من الفضائل ولم يكن فيك اتضاع فتعبك كله يكون باطلا وسدى . لأن الاتضاع لمثل هذه الفضائل هو كالأساس الوطيد . لأننا خلواً من هذا الاتضاع لانستطيع أن نكمل واحدة من الفضائل . ولو كان عفة . أو طهارة . أو تهاوناً بالغنى والفضة . أو فضيلة من الفضائل الاخر . فجميع ذلك يكون غير نقى ومدنساً ومرذولا أمام الله . لأنه لم يفعل بالاتضاع والمحبة . ولهذا السبب يرانا البارى تعالى مركبين من طبيعتين . أعنى بهما الجسد والروح . حتى إذا سقط الإنسان من علو الكبرياء والتشامخ ينظر إلى حقارة جسده فيتضع . ويترنم حينئذ مع النبى . ما هو الإنسان فإنه شبه الباطل وكالظل تعبر أيامه . ومتى شاهدت فى ذاتك أموراً غير لائقة لكرامة الله التى وهبتها لحوله وانقلها نحو غيرة القوت السموية . فشرف الإنسان هو شىء خطير. ومعرفة أحدنا أصله ووطنه وابتداء تكوينه هو خير عظيم . وهذه المعرفة تكفى للتعليم ولاكتساب التواضع . لأن التأمل فى هذه الآلام البشرية يستطيع أن يهذب العقل الطموح ويسكنه . تفطن أيها الإنسان فى ضعف طبيعتك . ويكفيك هذا فى اقتناء الاتضاع دائماً لأنك تعرف حينئذ انك تراب ورماد والموت قريب منك ومرافق لك . آدم خلق من تراب ولكن لم يبصر الله عندما خلقه . لأنه لم يكن فيه كفاءة أن يكون شاهداً على أعمال الله المصنوعة . ولئلا يفتخر بنفسه عل أعمال الله العجيبة فيتشامخ . ومع أنه مملوء تواضعاً على حسب مقدرته تكبر ولم يعرف الله الذى براه وأنعم عليه . بل أهانه . فلو أنه نال شيئا يفوق طبيعته فمن كان يقدر

أن يحتمل شدة تكبره الفائق القياس ولأجل هذا لما خلق البارى تعالى نوع الإنسان أثبت فى خلقته قوات عظيمة باهرة وأوجد بازائها أشياء دنيئة حقيرة . حتى يرى تلك الأشياء القوية الشريفة التى فيه فيمجد الصانع لها متعجبا . ثم أنه يعطف نظره إلى تلك الأمور الدنيئة التى فيه فيتضع ويتذلل . اعطاه لسانا ناطقا ليسبح به ويترتل بالنغمات الالهية ويبرهن به على حسن نظام الخليقة وعظمة البارى تعالى ويتكلم به فى شأن السماء والأرض ليعجب من صنع الله تعالى ويمجده على تكوين هذا اللسان الذى هو عضو صغير بمقدار أصبعين يستطيع أن يتكلم فى شأن السماء والارض ولئلا يظن بنفسه أنه شيء عظيم فيفتخر بذلك متكبراً قد أبلاه اوقاتا بأمراض متنوعة مثل كلوم وبثور وغير ذلك ليعلم بأنه مائت ولو تكلم عن أمور عديمة الموت . وليعرف قوة المخبر عنه وضعف المخبر . ثم أعطاه حدقة صغيرة ليرى بها الخليقة الملحوظة المستغربة ويعجب من قوة الصانع لها وعزه واقتداره ويمدحه على أعماله وعجائبه . ولئلا يتشامخ بها أيضا اضعفها الله مراراً كثيرة بالرمد وهطل الدمع وبالعمى أيضا . فإذا كان بعد هذه العوارض والامراض التى تحدث له وتوهى قواه يتناساها ويتخيل بأنه شيء عظيم حتى أنه يتكبر على صانعه وموجده من العدم . فكيف إذاً لو عتق من هذه الامراض الموهنة فمن تراه كان يحتمل كبرياءه وتعظمه . اصغ ايها الإنسان ولا تتكبر على من تجتمع معه . ولا تستح من أن تخدم الغريب . ولا تقل من هذا ومن ذاك . فبقدر مايكون الإنسان حسيبا وشريف الجنس ويرى ثقيلا عليه أن يغسل رجلى الغريب ويخدمه يكون عند ذلك كريما ممدوحا ومشرفا إذا فعل . ومع هذا لم يفعل أمراً عظيما ولو كان شريفا وعظيما . أليس أنه يخدم من هو نظيره فى العبودية . وكفاك ياهذا أن لا تعتد بحسبك وجلالة شأنك واعتزائك إلى النسب الشريف متى نظرت رب المجد الذى هو السيد المسيح حين غسل أقدام تلاميذه . ولا يوجد أكثر تواضعا وفضلا من ذاك الذى لايفتخر بماله وثروته . وليس فى الغنى المزمع أن يحصل عليه أيضاً . ولا يوجد ذو حسد وغيرة مثل ذاك الذى يستغنى بعد عسره . ومتى تكبر بثروته المحدثه يسقط . ويكون سقوطه مضاعفاً . وأما ذك الذى يجيز حياته كلها فى الوداعة والاستئناس فيحسم بصارم تواضعه هام الحسد والأغتصاب ويحتفظ باموره باستيثاق . هكذ هذا الشر الردى هو عظيم . أعنى به الطمع فى الغنى الزائل المضمحل . لأنه لاينفعنا ليس فى المستأنف فقط بل فى هذا العالم الحاضر أيضا . فإنه يسبب لنا الخطأ والعثرات . فلا نفتخر أيها الأخوة بثروتنا وغنانا . ولا بشيء غير هذا . فإذا كان المفتخر

بالفضائل الروحية والتقويمات الآلهية يهلك معاقبا . فكيف إذاً حال من استعمل هذا الأفتخار فى الآلام الجسدية . فبلا شك يعاقب أكثر من ذلك كثيراً . فلنصغ إلى طبيعتنا هذه المفسودة ونتفطن فى عظم خطايانا ولنختبر ذواتنا ونعلم باننا زمنيون زائلون . ويكفينا هذا فى قضية التواضع . لأنه من هذا التأمل يعرف الإنسان ذاته أنه ليس بشىء ولا توجد طريقة تقرب الإنسان إلى الله وتجعله صديقا له مثل أن يعد ذاته أنها أصغر من الجميع لأن السيد المسيح يقول . هلموا إلى باجمعكم وتعلموا منى فانى وديع متضع القلب . أنا هو ابن الله . أنا ملك السموات والأرض . أنا العظيم جلاله . ولو لم اكن متواضعا ووديعا لما ولدت فى مذود الحيوانات العديمة النطق . أنا الذى له العالم بأسره وكل غنـاه والقصور الملوكية لو لم أكن متواضع القلب وصبوراً لمـا كنت بذلت ظهرى للسياط ومت لأجل المأسورين : لو لم أكن متواضعا وعديم الشر لما كنت أنا غير المديون وفيت الدين عن أولئك الذين كان يلزمهم وفاءه ولم يفوه . ألم أكن متواضعا ووديعا إذ اذنبتم أنتم وأنا جلدت ومت . ألم أكن متواضعا إذ أنا السيد أتضرع إلى عبيدى من غير أستحياء أن يصنعوا خـيراً وصلاحا . لئلا يلزمنى الغضب بعقابهم . فاعجب ياهذا من تواضع السيد المسيح عندما تفطن فيه وأتضع أتضاعه . وضع فى عقلك هذا التأمل مفكراً به . كيف أن سيدك هبط من أعلى السموات إلى أقصى الارض . وأنت من الارض تنحدر إلى الجحيم . فبالحقيقة أنك إذا تصورت هذا لايمكنك بعدها أن تمدح ذاتك . بل الاولى بك أن تضحك على جهلك . لانك ترى نفسك أنك لم تفعل شيئا من التواضع البتة . وإذا كنت متضعا أكثر من الناس فلا تشمخ لذلك ولا تستصغر الآخرين لئلا تضيع بافتخارك هذا تعبك وكرمتك ألم يكن اتضاعك للنجاة من المجد الفارغ . فإذا سقطت فى الكبرياء من جرى الاتضاع كان أفضل لك ألا تتضع . وأننا نرى كثيرين يظهرون لنا أنهم صالحون وفضلاء وهم شر وأردأ من الجميع . ولـكن فلندع مثل هؤلاء ونشرع فى التكلم عن السالكين بحسب إرادة الله . وهم الذين يعملون الأفعال الصالحـة بأسرها ويهملون التواضع الذى هو رأس الفضائل وأساسها . فلهذا أهملهم لـكى يعرفوا أنهم ليس بقوتهم أتقنـوا تلك الفضائل الصالحة . ولـكن بنعمة الله التى كانت تلاحظهم . فالوديع ليس هو الذى يظلم من أحد الاقوياء ويصبر على ذلك بوداعة . بل الذى يظلم من أناس محتقرين أدنياء غر معتبرين ويصبر على إساءتهم إليه . أنظر محبة الله لجنس البشر . وتأمل كم من الادوية يعطيها لعبيده لاجـل شفائهم . اسحق كان مطروداً من ملك جرار

وكان يظلم من أتعابه فلم يحزنه ذلك البتة . ولا هتف نحو الله بشيء . ولم يقل له أن هؤلاء القوم لا يدعونى أسود على الآبار التى فتحتها . وقد صرت قفراً ممحلا . ولا قال إنى قد عدمت معونة الله . بل احتمل جميع ذلك بوداعة وطول أناة وصبر على تلك الشدائد والمحن ولأجل هذا نال المعونة العلوية أضعافا . والتعزية الكثيرة . لأن الرب ظهر لإسحق ليلة ما وقال له أنا هو إله إبراهيم أبيك . وأنا الذى صيرت أباك هكذا ممجداً محترما فى العالم كله ولهذا لا تخف فإنى معك . وسأكثر زرعك لأجل إبراهيم والدك . لأن له على مكافأة كثيرة . لأنه سمع قولى وأكمله . وكذلك أنت تكون مباركا محترما ومطاعا وحسن السيرة كأبيك . أنظرتم كمية نعمة التواضع وكيف أن البربر بواسطتها أتوا إليه معتذرين مستغفرين حين عرفوا أن الله معه . ولننظر أيضاً يعقوب بن إسحق حين كان مطروداً من أخيه العيس وهاربا منه ذاك الهرب الذى أمسى منه فى مكان يسمى حاران . وتوسد حجراً صخريا تحت رأسه واستغرق فى نومه . أنظر هذا الإتضاع العجيب . شاهد هؤلاء الرجال القدماء كيف كان مسيرهم ورحيلهم . كأبى الأسباط يعقوب كيف توسد فى رقاده حجراً . ذاك الذى ربى فى منازل الفخر والمجد والغنى ورضى بعد ترفه أن يضطجع على الحضيض. ولهذا استحق فى ذلك الحين أن يبصر سرائر الله المخيفة والمعجبة . أعنى تلك السلم الإلهيه التى عاينها يعقوب . والملائكة يصعدون وينحدرون عليها ، والله هو الذى كان يمسكها . هذه التى كانت رسما للسيدة والدة الإله مريم البتول . وقال الله ليعقوب أناهو إله إبراهيم وإسحق أبيك فلا تجزع بل آمن فقط أنى أنا معك فأكون حافظك فى الطريق التى أنت ذاهب إليها ، وقال له أيضا مكرراً الكلام ثانيا وثالثا . وهو أن تتخذنى رفيقا لحفظك . فاحرص يا أخى متى أردت أن تجعل أعمالك عظيمة فلا تضع فى عقلك عظمتها بل اعترف أن نعمة الله هى التى قومتها ، لئلا تصير الله مديونا لك بفعلك هذا ، لا لأجل فضائلك فقط ، بل لحسن موالاتك له أيضا فان آثرت أن تكون متضعا فلا تظهر اتضاعك بالكلام والهيئة فقط بل بالفعـــل أيضا ، ولا تكن مع هذا متواضعا ، ومع الآخر وحشا شرسا . بل ليكن اتضاعك متساويا مع الجميع ، سواء كان صديقا أم عدواً ، عظيما كان أم حقيراً . فهذا هو الإتضاع الحقيقى ، والمقبول لدى الله . لأن ذاك الذى يتلون فى اتضاعه . ويكون تارة متضعا وتارة متكبراً ، ويغلب من قبيل الغضب وحدته المرة ، فلا شك أنه يضيع جميع فضائله . إعلم يا هذا أنك إذا أردت أن تظهر أعمالا عظيمة فلا تترفع متعاليا . وإن حفظت قولى هذا تكون حينئذ عظيما مشرفا ، لأننا متى شعرنا بذواتنا أننا خطاة نكون حينئذ صديقين كما فعل العشار ، وإذا زعمت برأيك أنك ذو فضائل جمة تكون هناك عديم الرأى غير مختبر ولو كنت مختبراً

لأن الله عرف أن يضاد المتكبرين . وعلى مثل هذا القياس يمنح الرب الإله نعمته للمتضعين الذى له المجد والعزة والإكرام إلى الأبد آمين .

المقالة الثالثة والعشرون :

(فى النفس والرجاء)

إن الذين لهم أعمال صالحة وهم غير مؤمنين بالله كما يجب يضاهون الأجساد المائتة المكفنة بأثواب حسنة رفيعة . ولكن لا حسن لتلك الأجسام فى التنعم . فأى نفع إذاً يحصل للإنسان متى كان له نفس هالكة مضمحلة وهى موشحة بالأعمال الصالحة . لأن الأعمال الصالحه لم تجعل إلا لرجاء المجازاة بالأكاليل . وإذا كنت لا تعرف ياهذا من هو واضع الجهاد فلأجل من أنت تتعب مجاهداً . ولكن كما أن الناس يهتمون أولا بحياتهم وفيما بعد يهتمون فى شأن غذائهم . هكذا يجب علينا أولا أن يكون لنا رجاء الحياة بيسوع المسيح . ثم أننا نتغذى بالأعمال الصالحة . فكما أن الذى لا يقتات بمأكل لا يمكنه أن يعيش . والذى ليس يحيا لا يمكنه الإغتذاء . كذلك صانع الفضائل . فانه بلا إيمان وعدل لا يمكنه أن يحيا ، ولا يستطيع أن يظفر بملكوت الله من غير أعمال الإيمان . اللص حين آمن تبرر فلا تقل ليس لى وقت لألوذ بالتوبة . لأنى عشت فى الإيمان فقط . وتغافلت عن الأعمال الصالحة . فنفد منى رجاء خلاصى . حقاً إن كورنيليوس قد شهد له فى الصدقات وتواتر الصلوات إلا أنه لم يكن يعرف المسيح . ولكن عندما رأت عين الحق أعنى به الديان العدل الذى لا يخفى عنه شىء أن أفعاله جيدة إلا أنه عديم الإيمان . ولهذا السبب كانت أعماله ميتة . أرسل الرب حينئذ ملاكا ليمتدح أفعال ذلك المجاهد جهاداً عظيما . ويكلله بالإيمان فخاطبه الملاك قائلا : ياكورنيليوس إن صلواتك وصدقاتك قد صعدت أمام الله عرفا زكيا . فقم وأرسل إلى يافا رسلا . واستدع سمعان المدعو بطرس . وهو عندما يفد عليك يلقنك كلام الله الذى بواسطته تستطيع أن تخلص أنت وجميع أهل منزلك معك . وهذا هو الحق يا أخوتى . لأنه لم يكن له من إتقان الفضائل خلاص البتة إلا بواسطة أعمال الإيمان أيضا . إسمع هذه القصة دعا أحد الرؤساء العظام إلى مائدة أحد فلاسفة اليونان . وعندما ذهب الفيلسوف إلى هناك رأى بلاط ذلك الرئيس يلمع من ترصيع الذهب وأرضه ومائدته مزينة بأنواع الزخارف الذهبية ، فأشار الفيلسوف نحو ذاك الرئيس قائلا إننى لا أمدحك على هذه الزينة التى زينت

بها منزلك لأنك لم تدع إلى هنا شباناً وأحداثا فقط . بل شيوخا ضعفاء أيضا فإنهم متى أرادوا أن يبصقوا لا يجدون مكاناً لائقاً سوى وجهك ليبصقوا فيه لأنه وحده خال من الذهب . أفشاهدت كيف أنه يكون هزءاً للناس ، فأى عذاب ونكال يصيب ذلك الإنسان الذى يزين جسده من الخارج . ويتغافل عن نفسه . وهى عريانة مجروحة بأنواع الخطايا والرذائل ، يا إخوتى إن أضاع أحد مالا غريبا منه . يمكنه أن يدفع لربه عوضا عنه بيتا أو عبيداً ، أو غير ذلك من الأمتعة . ولكن إذا أضاع نفسه لا يمكنه أن يؤدى عنها نفساً أخرى ليستخلصها ولا المسكونة بأسرها إذا ملكها . ولأجل هذا أعطانا البارى تعالى عند تكويننا من كل شيء إثنين . أعطانا حدقتين ، وأذنين ، وقدمين . حتى إذا تلف الواحد نستغنى عنه فى قضاء أغراضنا بالآخر . أما النفس فأعطاناها واحدة لا غير . فان أضعفنا . فبأى شيء نعتاض عنها بالحيوية . وإن النفس متى وهقت (انغمست) فى محبة الفضة أو المقتنيات لا يمكنها الخلاص بسهولة كالطائر فإنه متى وقع فى الفخ لا يمكنه النجاة بعد ذلك . فمثل هذا يصيب محب الفضة . فالنفس متى يئست من خلاصها مرة واحدة لا تنقلب من وهدة جهلها إلى طريق الفهم والنجاة البتة . بل تلبث على كل حال فى شهواتها الرديئة . حتى يؤول امرها إلى الهلاك ويعدم خلاصها . فكما أن الخنزير يسر بخوضه فى الحمأة المنتنة . هكذا النفس المتوغلة فى العادات السيئة . فإنها لا تستدرك قباحة الخطيئة ونتنها البتة . وكما أن الأرض التى لا يتعهدها الغيث لا تنضج بها الثمار ولا يينع زرعها كذلك النفس غير المستنيرة من المصاحف الالهية ، لا تينع ثمراً روحياً . وكما أن الأرض التى لم يلق فيها زرع تنبت شوكا وقرطباً . كذلك النفس التى لم تهجس بذكر الموت دائماً . تتوق إلى الأشياء الزائلة الرديئة . وكما أن الحمى تولد فى الجسد عطشاً مفرطاً . كذلك الكبرياء تجفف النفس وتحرقها . وبواسطة التشامخ تحصل الشهوات القبيحة . وكما أن الذى يتغافل عن جرح صغير يفسد بعده بجراح عظيمة . وينتهى أمره إلى الموت والهلاك . كذلك يصيب النفوس المتهاونة فى الجزئيات . فإنها تقع فى الكليات . أعنى أولئك الذين لا يعترفون بالخطايا الصغيرة تتولد فيهم الخطايا العظيمة . ألم تر أن الله أعطانا جسداً من الأرض هيولياً لنصعده إلى السموات . لا لنهبط بالنفس غير الهيولية بواسطة الجسد إلى الأرض . ومن الأرض إلى الجحيم . فياللعجب من هذا . كيف أننا نحب الأشياء الوقتية ونتوق إليها بأجمعنا . وتلك الأشياء العتيدة الأبدية لانصغى إليها بعقولنا . بل نحرص على الملذات الجسدية دائماً . ونغادر نفوسنا تتضور من الجوع الروحى . ونرى

كل يوم مصائب متعددة تصيبنا الأحزان والخسران الدنيوى والأمراض الجسدية . نفرغ كل جهدنا فى أن نداوى هذا الجسم المتألم وأما النفس فنراها متوشحة بكل رذيلة ونجاسة قذرة فنغفل عنها متهاونين . وندفعها مع الجسد إلى العذاب الأليم غير المتناهى. فمن يعطينى دموعاً مترادفة . ونوحاً موجعاً لأندب باكياً على هذا الجهل الكائن فى أنفس البشر . ويا ليتنى كنت أعطى برجاً شامخاً فى العلو لأصعد عليه وأرقب جميع أفراد البشر . وأعطى مع ذلك صوتاً جهيراً ينتهى إلى أقاصى المسكونة . لأصرخ نحو أبناء البشر قائلا . إلى متى يا بنى البشر تثقل قلوبكم . لماذا تحبون الباطل وتبتغون الكذب . ليت شعرى هل يوجد شىء أردأ من هذا وأقبح فعلا . وهو أننا نعتنى بجسدنا متى اعتراه مرض ما. ونبادر إليه بالأطباء عندما نراه متوعكا . وننفق فى شفائه كرائم الفضة والذهب ونحتمل من أجله كل تعب ومشقة . حتى يفارقه الألم والحزن المضنى . أما هذه النفس الشقية فنراها يوماً فيوماً مريضة واقعة فى الاباطيل . وهالكة من كل جهة . ونحن لانشفق عليها بأدنى تعزية . ولا نرثى لها فى شىء . ومع ذلك نزعم برأينا وبما يقتضيه العقل والتمييز . أن الذى لا يداوى جراحه هو قريب من الموت والبوار . لا الذى يأسو جراحه . لأننا إذا رأينا أحداً يقطع أو يكوى أحد أعضائه . نقول أنه سيبرأ من ألمه . لأننا لانلاحظ ألم الحريق أو القطع . بل ننظر إلى نفس الشفاء الصادر من ذلك . كذلك النفس إذا اعتراها شىء من التأديب تتحسن صحتها وعافيتها . وأما الخطاة الذين لا يصيبهم ههنا شىء من العقاب والتأديب . فيجب علينا أن ننوح ونندب عليهم ببكاء مر لعدم تأديبهم . وأما ذاك الذى يكون له رجاء صالح وهو موقن ومهتم فى شأن تلك الخيرات المستأنفة . فمن هنا يذوق خيرات ملكوت السموات . لأنه لا يوجد شىء من الخيرات يجدد النفس ويجعلها بهية لامعة مثل الرجاء الصالح فى الخيرات العتيدة . ونرى كثيرين يبذلون كل أجتهادهم وأهتمامهم فى زينة الجسد وينفقون غناهم بأسره فى زخرفته . وأما النفس فيغفلون عنها ويدعونها تتضور جوعاً وعطشاً واشتياقا إلى كلام الله . ونحن مع ذلك لانصبر على تعب وغم . ولا نمنح الصدقات لتقويم أنفسنا وتهذيبها . فبالحقيقة أننا إن لم نفعل هكذا فسيحيق بنا عذاب أليم فى الجحيم الابدى . وكما أن أولئك المسجونين فى سجن تعتريهم الكآبة دائماً . ويشملهم الخوف المرجف . خاصة يوم يمثلون فى مجلس الحكم . وعندما يبلغهم صوت القاضى يتمزقون فرقاً . حتى أنهم يصيرون كالموتى . هكذا النفس فإنها إذا أشرفت على الانفصال من الجسد وأوشكت أن تمثل فى دينونة المسيح المرهبة الفاقدة المحاباة فإنها تجبن من ذلك وترتعد

كالقصبة وتختبر نفسها . هل يمكنها الفرار من أيدى الملائكة . لأنه فى ذلك الوقت يقف بها اخصامها ويوبخونها . إذا كانت اختلست من أحد شيئاً . أم رغبت فى الطمع . أم عادت أحداً سواء كان بحق ، أو بغير حق أو ارتكبت أمراً ما مكروهاً ، ألم تعرف ياهذا أن انفسنا لا تصير عديمة الموت مالم تصر أجسادنا كذلك عديمة الفناء والموت ونمتعها بتلك الخيرات السرمدية ، تأمل بهذا يا أخى وانظر كيف أن السموات مفتوحة مهيأة لاستقبالك ، وقد وهبها الله لك مجاناً ، وأنت كالمسمار المثبت فى الأرض ، فياله من تهاون يحق كل شتيمة ، فلم لا تصغى إلى هذا بعقلك مهتما ، فلا تبدلن يا هذا السموات بالأرض تلك التى كلنا نبتهل فى أن ننالها بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر ، الذى ينبغى له كل وإكرام وسجود ، إلى أبد الدهور ، آمين

المقالة الرابعة والعشرون

(فى العقاب الأبدى غير المتناهى والدينونة العادلة الرهيبة)

يا أيها الذين تركتم أباطيل هذه الحيوة الزائلة أحرصوا ، أحرصوا ألا تميلوا بقلوبكم إليها ، فإن الغنى يفنى ، والمجد يضمحل ، والجمال يزول متغيراً كالظل المتنقل ، وكل شىء يذهب ، وشرخ الشباب باطل ، وجميع الأشياء مثله ، ولهذا بالشبه يسلك الإنسان ، فباطل هو أن يضطرب وينزعج محزوناً ، لأنه عن قليل يمضى ولا يصحب معه شيئاً البتة ، بل أننا نغادر الجميع ونمثل لدى مجالس القضاء فى الدينونة المرهبة عراة كما ولدنا ، ونهمل تلك الكنوز التى جمعناها ، ونذهب إلى هناك عراة الأجساد اذلاء عابسين مكتئبين خائفين مرتعدين منسحقين ضاوين موجعين ومطرقين بوجوهنا إلى الأرض حياء وخجلا ونحجبها بالخزى والعار ، فهكذا نشورنا ، وهكذا ذهابنا ، وهكذا وقوفنا فى ذاك الموقف المهول ، أى موقف الدينونة والعقاب الذى لا يأخذ بالوجوه ، حيث ترتجف مواكب الملائكة ، حيث تنتصب الكراسى المرهبة ، حيث تفتح أسفار اعمالنا حيث يجرى نهر النار الذى لايطفأ جرياً طامياً ، حيث الدود العديم الشفقة ، حيث الزمهرير القارس ، حيث صرير الأسنان واصطكاكها الدائم ، حيث النوح الذى لاعزاء بعده ، حيث الدموع المنسجمة كالطل ، حيث الزفرات المترادفة بغير سكون ، حيث الضحك مقصى والنوح

ملتبس . حيث الضوء مخفى والظلام الحالك مستحوذ . حيث لافرح بل تنهد . حيث لا تنعم بل دينونة . حقاً يا إخوتى أن ذاك السماع مخيف ومفزع . وأعظم وأرهب منه النظر إلى نهوض الخليقة بغتة ووقوفها مجيبة عما صدر منها من الأفعال والأفكار . ومعاقبة عما أخطأت به ليلا ونهاراً . اضطراب عظيم يوجد فى ذلك الحين أيها الأخوة . وحقاً أن تلك الشدة الكائنة فى هذه الساعة هى عظيمة . حين ينفخ بالصور . وتنتثر الكواكب ساقطة . والشمس تحجب فيظلم ضياؤها . وتندرج الأرض والسماء كالقرطاس . وتضطر قوات الملائكة . وتسارع السارافيم . وتهتف بها الشاروبيم ليقتلعوا مافوق وماأسفل . والسلفيات ترتعد . وتنفتح الأجداث . وتنتشر الأجساد . وتحضر المداينة والمناقشة . فهناك الخوف العظيم والرعدة القاصفة والشدة التى لاتقاس . فياله من شتاء مر . ويالها من عواصف لا تسكن حالة هائلة جداً . وقلق واضطراب لايهدأ . ولنسمعن دانيال النبى قائلا . أنى رأيت فى رؤيا الليل . بأنه قد نصب كراسى مشيدة . وجلس قديم الأيام على كرسى كأنه نار ملتهبة . والملائكة واقفة أمامه الوف وربوات ربوات فى خدمته . وقد جلس للدينونة . وفتحت الكتب والمصاحف ونهر من نار كان يجرى أمامه . ورأيت أنا دانيال هذه الرؤيا فانذهلت وقلق رأسى . آهاً من هذا العجب . إذ النبى العظيم حين شاهد رؤيا الدينونة العتيدة ارتعد فرقاً . فماذا عسى أن نحتمل نحن حين نقدم على هذه الأشياء ونجتمع من مشارق الشمس إلى مغاربها . ونقف خطاة حاملين أثقال خطايانا على اعناقنا وهى ظاهرة للجميع . فترى تلك الساعة الالسن المتكلمة بالالحاد والاباطيل تلتهب فى السعير التهاباً متصلا . ولاتجد من يرطبها . وأسنان النمامين عندما تلمسها الملائكة تنسحق كالخزف . وافواه المجدفين تسد بجمر النار المضطرمة . وايدى محبى الفضة ترتجف كالورقة وتعلق مجردة بألم لايطاق . والأعين التى كانت تنظر شزراً تضحى منفجرة . فاين عند ذاك الانسباء والأهل . أين حينئذ الأب الشفوق . أين حينئذ الأم المتحننة . أين حينئذ الأخوة الأحباء . أين حينئذ الأصدقاء . أين حينئذ أولوا الجيرة . أين حينئذ سلطة ملوك الأرض . أين حينئذ كبرياء الولاة والحكام . أين حينئذ عظمة الرؤساء والمتقدمين . أين حينئذ العبيد والاماء . أين حينئذ المطارف الموشاة والديباج . أين حينئذ الأحذية اللامعة الصقيلة . أين حينئذ الابرسيم الخز . أين حينئذ رونق الذهب البهيج . أين حينئذ رنين الفضة وطنينها . أين حينئذ التختم بالخواتم الثمينة . أين حينئذ المنازل المخصصة . أين حينئذ البساتين والرياض . أين حينئذ الكنوز المذخرة . أين حينئذ المتهاونون بالمساكين .

أين حينئذ مهينوا المحبة الإلهية . أين حينئذ الذين يجحدون وجود العقاب . أين حينئذ الذين يحتسبون أنفسهم أنها عديمة الموت أين حينئذ الذين يضحكون ويقولون أعطنا اليوم وغداً خذ . أين حينئذ الذين يشربون الخمر على نغمات العود والمزمار . أين القائلون لنأكل اليوم ونشرب فأننا غداً سنموت . أين حينئذ القائلون أيضاً لنحظى ههنا بالأشياء الموجودة وأما المستأنفة فالله أعلم . أين حينئذ يزعمون أن الله محب البشر ولا يعاقب الخطأة . فكم من ندامة تستحوذ على مثل هؤلاء القائلين هذه الأقوال . كم يندبون وينوحون ولا أحد يرحمهم . وكم يتنهدون ولا أحد يشفق عليهم . فيقول حينئذ بعضهم لبعض . ويل لنا كيف أننا ضحكنا على ذواتنا فأهلكناها كنا نوعظ ونحن لا نصغى . وكنا نسمع النصيحة ونحن لا نودها . يعلموننا فنتهاون . يوردون لنا الشهادات فلا نصدقها . نسمع تلاوة الكتب ونضل ذواتنا عنها . عادلة هى دينونة الله . وحقاً أن الله عدل . لأننا جوزينا بحسب استحقاقنا . ياله من خسران مفرط . فلاجل لذة وقتية نجسة نعاقب مؤبداً . توانينا وقتاً يسيراً فها نحن نغرق فى تيار نار أبدية . ولأجل مجد حقير زائل سقطنا من ذلك المجد الحقيقى الثابت . ولاجل ترفة جزئى حرمنا نعيم الفردوس الابدى . ولأجل غنى فان مضمحل نفد منا غنى الملكوت الدهرى . نلنا فى الدهر الباطل زمناً يسيراً ولكن أولئك الذين لم ينالوه يسرون الآن جذلين ويتنعمون . ها أولئك الذين آمنوا إيماناً بريئاً من الشك والارتياب . الذين طهروا ذواتهم تراهم الآن يمرحون فى الخدر السموى . والذين بكوا نائحين فهم يجذلون إلى الأبد على الدوام . والذين بددوا غناهم فى الاحسانات فهم يحصلون الآن غناهم بفرح . والذين تهاونوا بالأرضيات . فهم يتملأون الآن بالسمويات . وأما نحن الاشقياء فاننا اسلمنا بعد ذلك كله إلى عقاب مريع باستحقاق. فالآن نحن نصرخ وليس من يرحم . ونتنهد تنهداً مراً وليس من ينجينا وحتى لاأقوال ياأخوتى أننا سنضاهى أولئك الجهلة فى الدهر المزمع أن يوافينا فهلم يا أحبائى نصلى إلى وقت انتهائنا . ونسبق سارق نفسنا . ونسرع مادام لنا زمان للتوبة . لنتعهد نائحين . ونفعل كل رحمة . اتضرع إليكم ياأخوتى أن نرفع أيدينا نحو الذى هو قادر على خلاصنا ونجاتنا ونبتهل إليه قائلين خلصنا يارب لأننا قد هلكنا . ولنحاضر إليه قبل أفول الشمس قبل أن يغلق الباب . ينقضى زمان هذا العمر . لأنه متى إدركنا الليل لايقدر أحد أن يفعل شيئاً ينجوبه . ومتى انصرف زمان الغنى لا يوجد لاحد أكليل بعده ولا اجتهاد ولا البتة ولا رجاء خلاص فلنسرع أيها الأخوة محاضرين . لأنه ينبغى لنا أن نقطع

طريقاً عسر السلوك لابد من أن نسير فيه ونعبره. حتى إذا وصلنا وقرعنا لانجاب انى لا أعرفكم. فلنجد أحضارنا ونستحى من ذلك السيد الذى نهينه دفعات كثيرة. ونغضب على ذلك المحسن إلينا وهو مع ذلك، يجود علينا ويرحمنا. ونتكر أحساناته وهو يتراءف علينا؛ ونحن نتهاون بحقوقه وهو يغذينا ويمنحنا مواهبه ويعتنى بنا ونحن كل يوم نخالف وصاياه ونخجل منه. فلنحجم الآن عن نقائصنا. فان الوقت قد مضى واليوم قد اقترب. وقد حان أن نعطيه الجواب عن كل ما فعلناه. كل زمان حياتنا. إن صالحاً وإن طالحاً. ولنكف عن الاعتناء بالأمور الجسدية والأمور القذرة. ولنقلع عن الشتيمة والشر معاً. ولنفتر عن اهانة كهنة الله لئلا ندان كشاتمى المسيح ولنتفرغ للصلوات الحقيقية بالتوسلات والطلبات. ولنجاهد فى التوبة النصوحة مع الصوم. ولنتزين بعيشة جديدة غير الأولى. ولنعترف أعترفاً خالصاً من كل غش وشر ومكر. لأن هذا الزمان شرير ومحتاج إلى دموع منسمجة وأتعاب روحية. لأنه زمان الارتداد. فلنفكر فى ساعة الدينونة ونتوسل ههنا يسيراً لئلا نبكى هناك بكاء أبديا. ونجتهد ههنا اجتهاداً زمنياً لئلا نعاقب عقاباً مخلداً. فالزمان قصير ياأخوتى. وأما الدينونة فعظيمة. والانتهاء قريب وموفق وأما الخوف والارتعاد فشديد ولا يوجد من ينقذ ويخلص. وكل منالا بدان بطلب الزمان الذى أضاعه سدى فلا يجده الويل لمن لا يؤمن سيسلم فى أيدى ملائكة قساه جسوريين. الويل لمن لا يتوب فانه سيمضى إلى ديان حقيقى. الذى يضيع ذهبا أو فضة يعتاض عنه بغيره. وأما الذى يضيع زماناً موافقاً فلا يجد عنه بدلا. لا نشفق يا اخوتى على أجسادنا. بل نذللها ونقودها بزمام الاتضاع. ولقد سمعتم أن الطوبى للجائعين والعطاش والنائحين الآن فالجسد هو طين وسيأتى زمن ويوم مخيف يضمحل فيه هذا الطين ويعود إلى تراب. ولا عجب من أن التراب يستحيل تراباً. وليستيقظ ملاحظين كيف أن تلك الساعة لابد أن تستعلن ولا مناص منها فلا نضل ذواتنا بذواتنا. ولنفرض أننا لو تعلمنا بالترفه وبذخ المعيشة خمسين أو مائة سنة فليس بعدها إلا الشيخوخة والهرم. وبعدها تتعاقب الأمراض والأوصاب. وبعد ذلك تستحوذ علينا قوى الطبيعة فترد حينئذ الساعة الرهيبة المنتظرة من الجميع فهذا كله نعرفه ونحن مع ذلك نتغافل. فأى خوف عظيم يحصل فى ذلك الوقت أيها الأخوة. وأية رعدة جسيمة تزعج أبصارنا عندما نرى النفس منفصلة عن الجسد. ساعة عظيمة وشدة لا تحتمل يا أخوتى عندما يختنق الصوت ويمتنع اللسان عن أن يتكلم كلاماً فصيحاً واضحاً ونجيل أعيننا ههنا وهناك وهى شاخصة لا تعرف الأخوة والأهل والأصدقاء المحدقين بها. حتى أننا لو عرفناهم لا يمكننا مكالمتهم البتة. بل أننا نسمع ندبهم وعويلهم لا غير.

ونحن لا قدرة لنا على تعزيتهم . ونرى الأولاد محزونين باكين فيكون توجعنا لأجلهم أعظم . ومالى أقول فى تلك الساعة عن الأولاد والأصدقاء . بل اعتناؤنا فى ذلك الوقت يكون بخطايانا واهتمامنا بالصورة التى فيها نواجه ذلك الديان العادل . وبأى سلطان نجيبه وأى غفران وصفح نسأله ونتال منه وبأى مكان تراه يقبلنا . وفيما نحن مفكرون بهذا تقف الملائكة الأشداء بغتة مرسلين من لدن الله الينا . فإذا القينا عند ذلك غير متهيئين ضطرب بانزعاج لا يوصف . ونحاول الهرب من ظهر الفراش فلا نستطيع . فترجع حينئذ لذواتنا وجوه مقطبة وعيون هامية . ونلطم وجوهنا متوسلين ومبتهلين ولا نجد من يسعف . ونقول نفس كل منا عند ذلك ارحمونى ولا تحضرونى أمام الديان وأنا عديمة الثمر ومدنسة ولا تفصلونى من الجسد وأنا موعبة من الإثم والخطأ . بل اتركونى زمناً يسيراً لاتوب وأنوح بتنهد وافعل الرحمة والحسنة أنا التى أضعت عمرى بالشر والفحشاء . فعند ما يسمعها أولئك الملائكة تقول هكذا . يجيبونها بقساوة . أيتها النفس المسكينة أيتها النفس الشقية والمحزونة أنك قد صرفت أيامك كلها فى الكسل والتوانى والآن تؤثرين التوبة والنجاة أنه من المستحيل الممتنع لأن شمسك قد أفلت . واقتضايك من هذه الحيوة قد آن واقترب . وأن الله يدعوك لتدانى بما يستحقينه . أخرجى أيتها النفس الشقيه أخرجى وانفصلى من جسدك لتحاكمى فى تلك النار الأبدية حسب أفعالك ، لأن الخلاص قد نفد زمانه والرجاء قد انقطع منك . وها هو ذا الآن يغشاك عقاب أبدى . فإذا سمعتم يا أخوتى هذه النصوص والأقوال واعتقدتم بأنها حقيقة لا ريب فيها . فلنجاهد قبل اقتراب الساعة ونسرع نحو منهج التوبة . ولا تقل لى محتجاً اننى قد سرقت وفسقت فتكت وزينت فان الله لا يقبلنى . فاحذر يا أخى من هذا أقبل إلى التوبة ولا تقل مثل هذه الأقوال لأن الله يقبل الجميع متى وردوا مورد التوبة كما قبل اللص والزانية والابن الشاطر فلنقرع إذاً بابه بمطارق التوبة . قائلين افتح لنا يا الهنا افتح لنا قد أتيناك نحن الخطاة عبيدك غير المستحقين واليك التجأنا . ونحن مرسلون المجد مع السجود لك أيها الآب والابن والروح القدس من الآن وإلى كل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة الخامسة والعشرون

(فى الغنى والفقر)

متى شاهدت يا أخى أحد الناس ذا ثروة وعائشاً بالتنعم والترفه الخارج عن الواجب فلا تمدحه وتغايره . ولا تذم أيضاً عناية الله قائلاً أن أمور هذا العالم الكائن كلها تصير باطلة . وليست من عناية الله بل من ذاتها . فلا تقل هكذا . بل فكر فى أمر لعازر المسكين وأمر ذاك الغنى الذى بلغ إلى حد السعادة والغنى والتنعم وقد كان نحو ذلك المسكين فظاً قاسياً وعديم الرحمة بالكلية . حتى بلغ به الأمر إلى أن صار أردأ طباعاً من الكلاب وأقل شفقة منها لأن الكلاب شفقت على ذلك المسكين وكانت تأتى اليه وتلحس قروحه . وأما ذاك الغنى الجسور فإنه لم يتصدق عليه ولا بالفتات الساقطة من مائدته ، وأما ذاك المسكين الذى هو بالحقيقة غنى وصل إلى فقر ومسكنة قصوى . وما كفى أنه كان فقيراً غريباً لا يأوى منزلا ، بل كان مع ذلك مريضاً مدنفاً وشقياً متضوراً من شدة الجوع والعطش ، وذلك الغنى قد احتشد غنى فوق حاجته وذاك المسكين لم يكن يملك شيئاً حتى القوت الضرورى ، ومع هذا لم يكن يدمدم على ذاك الغنى أصلا ، ولا يذم تدبير الله تعالى ، لأنه أعطى ذاك غنى وعافية ، وأما هو فجعله بائساً فقيراً مريضاً ، فلم يقل مثل هذه الأقوال على الله البتة ، بل كان شاكراً الله دائماً ، وهل يوجد أردأ من هذا , أن المساكين الذين حاق بهم الفقر إلى مثل هذه الشدة المؤلمة والتعب المفرط يشكرون الله ويسبحونه ؛ وأنت يا هذا تكون خارجاً عن مثل هذه الشدة والمرارة تجدف على اسم الله لأنهم يحتملون المسكنة ويشكرون الله على صنيعه بهم . وهذا كله بسبب محبتك الغنى وميلك الكلى اليه وأظن أن اشتهاؤك للغنى ليس هو إلا لأجل السرور والانشراح على الموائد المتنوعة لا غير ولتكون معتبراً ومخوفا من الجميع . ولكى يمكنك أن تبادى شراً عن شر لمن يحزنك وما أقوله هو حق لأن الغنى لا يصير الإنسان حكيما ورعا . ولا بتولا جيداً . ولا ودوداً للناس شفوقاً . ولا يعد للنفس شيئاً من أقسام الفضيلة . بل الأولى أنه متى وجد جملة فضائل مجموعة مهيأة بددها وأبادها . وازدرع الشرور والكبائر عوضها . أنظر كيف أن محى الفضة لا يشاءون أن يسمعوا أمراً يخص محبة الفقراء والرحمة لأنهم منزجون بأسرهم فى فرح هذا الغنى المضمحل وهذا الشنيع فإنه يقوم فينا شروراً وآلاما رديئة لاتحصى عداً وتأمل شهوته الرديئة وكيف أنها تنفخ الناس بالتشامخ . كالحباب التى تطفو على صفحة الماء عند هطل

الأمطار . فبلاشك أن الغنى ينفخ ويرفع إلى أعظم ما يكون من الكبرياء والقساوة ، ويصير المتمول به أشقى ما يكون . فلنفر من الغنى المفرط يا أخوتى لأنه يختلق فى أنفسنا وحوشاً ضارية فتمزقنا . وكما أن النساء الفاجرات يتصنعن الحسن بالزينة والتزخرف . هكذا الغنى الكاذب فانه يتظاهر بالولاء ويحكم على الشىء الكريم بأنه خسيس دنىء . وإذا نظرت إلى ذاك الثناء والتعظيم المقدم من الناس للرؤساء والمتقدمين تراه ناتجاً عن خوف واحتشام لا غير . ولكن متى كشفت ضمائرهم وأظهرت مكنوناتها تجدها عوض ذلك المديح والأطراء مشحونة عداوة وبغضاً ومضادة وشاهدة أنه متى اعترى أحدهم مصيبة أو محنة مداهمة ترى تلك الكرامات قد انقلبت إلى الشتم والأهانة والشماتة . وقد كانوا قبل ذلك يشتهون أن يشاهدوه فى كل شر ومصيبة . فأى شىء هو الإنسان . ليس إلا حيواناً غير كامل قصير العمر وقتى . وهكذا الغنى مثله . وخاصة قد لقبه بعض فلاسفة اليونان بأنه أعمى لايبصر شيئاً . وأنه أضعف من ضعف الإنسان وأحقر منه . لأنه فى أوقات كثيرة لايعيش بمقدار مايعيش الإنسان . بل أنه يفنى ويتلاشى قبل فناء الإنسان وموته . وهذا الذى أقوله أنتم باسركم تعرفونه من قياسات وامتحانات متعددة جرت على هذا النسق وعرفتم بها حقيقة الغنى الزائل . ورأيتم ذاك الذى كان غنياً . كيف أن غناه فقد وتبدد وهو حى بعد لم يمت ويا ليت ذاك الغنى يضمحل . ولا يبيد معه مقتنيه . فإذا لايحيد أحد عن الصواب متى قال أن الغنى عبد آبق . سفاك فاتك ذابح لسيده ومالكه . وأشر من هذا أنه لايطوح مقتنيه فى المصائب المهلكة . قبل أن يفر عنه هاربا . بل بعد أن يغادره متحرقا يزعجه أيضاً ويزجه فى المحن والتجارب . تأمل هذه المصائب التى تصيب الأغنياء الذين هم هكذا ترى هل بلغ أحد من الأرا كنة سمو مرتبة افتروبيوس وزير مملكة الروم . أو هل وجد أشرف منه . كلا . لأنه فاق فى الغنى والثروة على سائر اغنياء الدنيا . ألم يرتق فى السلطة أعلى مراتب المسكونة باسرها . ألم يرهب الناس ويرتعدوا منه . وأما الآن فانه بالحقيقة قد صار اشقى من القتلة المدانين فى السجون واذل منهم قيمة ومن شدة ماأرعبه من سل السيوف البواتر من الشرط كل يوم ليقطعوا رأسه ضعف ضوء بصره وبقى أعشى لايمكنه أن ينظور الشمس . أترى أمكننا أن نطرد عنه هذه المصيبة ام استطعنا أن ندفع عن هذه المؤلمات التى أصابته بالواجب . كلا . وعندما ساقوه ليقطعوا رأسه . استحال وجهه كالموتى وكان القريبون منه يسمعون قرع أسنانه وصريرها وخفت صوته وتقلص لسانه .

حاشـــية

اعلموا يا إخوتى أن افتروبيوس هذا المذكور كان أحد نبلاء الدولة وكبرائها فى عهد أركاديوس ملك القسطنطينية . وكان معاصراً بطريركية يوحنا فم الذهب المغبوط . فارتقى هذا المذكور إلى درجة الوزارة . ولكنه كان سليطاً عاتياً . ولشدة بطشه كان يقتل كثيرين ظلما وعدوانا ويختلس أموالهم . وتجرأ بعد ذلك على نقض عادة صالحة كانت من عهد قسطنطين الملك المعظم . وهى أنه متى اتفق لأحد المجرمين المساقين للقتل أن يهرب ويدخل الكنيسة البطريركية كان يخلص ناجياً من القتل . فنقض هذه العادة المحمودة ذلك العاتى افتروبيوس . وأقنع الملك أركاديوس بشقشقة لسانه وهذيانه أن يقطع هذه العادة من حكمه . فنادى الملك حينئذ فى المدينة كلها وفى سائر العالم . أنه متى هرب أحد المجرمين وولج الكنيسة لايسمح له بذلك . بل يخرج منها فيقتل . ولكن لم يعلم ذاك الشقى أن الحفرة التى حفرها هو يسقط فيها أولا . لأنه لم يمض إلا أياما قليلة حتى أذنب ذلك الوزير ذنباً جسيما تجاه الملك . فأمر الملك حينئذ بقتله . فهرب عند ذلك إلى الكنيسة لكى ينجو من القتل فأجابه يوحنا الذهبى الفم قائلا . مهلا ياهذا مهلا وانظر إلى الخير الذى عدمته لست وحدك ففط بل العالم كله ، فلا تطمع فى أن الكنيسة تخلصك أيضاً ، تلك التى احتقرتها وخفضت شأنها ، ها خدام الملك والشرطة فى الباب قد أزمعوا أن يجذبوك من هنا قسراً ويقتلوك ، وأخذ القديس فى توبيخه وتبكيته قائلا ، أما كنت انصحك دائماً . وأقول لك أن الغنى هو عبد آبق شرير . وأنت لم تصدقنى . أما كنت أقول لك أن الغنى هو عديم الموالاة رفيق غير شكور ، أما أنت فلا تصغ لكلامى والآن قد تحقق عندك ذلك الأمر ، ورأيت كيف أنه أسد زائر قاتل ، وكيف أنه الآن يرجفك كالقصبة أمام الريح العاصفة ، كم من مرة حذرتك قائلا ، أياك والغنى الذى تحتشده بطريق الظلم والعدوان . وكنت تناقض كلامى وتشمئز من سماعه ، وأقول لك الحق لأنى أحبك أكثر من أولئك الذين كانوا يماقونك بالمديح المصنع الفارغ ، أما قلت لك مرات متعددة أن جراح الصديق وكلومه خير من تقبيلات العدو المصنعة ، وبالحقيقة أنك لوكنت تحتمل جرحى أباك وزجرى لك لما سببت لك تلك التقبيلات المشحونة مكراً ونفاقاً مثل هذا الموت الفظيع ألعلك تدرى من أين أصابتك هذه الرزية التى لاتدبير لها ، فانا أقول لك أنها لم تصبك إلا من عدم أفرازك وتأملك فى تقلب الزمان ومصائب الناس المفاجئة بغتة ، فلو وضعت فى عقلك وبصيرتك هذه الأمور لما وصل بك الدهر إلى هذه النازلة

المفجعة ولا وصلت إلى هذا الانقلاب الردى الذى أنعكست فيه قضاياك كلها ، وهذا جزاء من لا أعتبار له ولا يتعظ من ذاته ولا من غيره .

النص

أنظروا أيها السامعون إلى سطوة هذه السلطة وهذا الأقتدار كيف هى وقتية زمنية ، إلى هذا الغنى المضمحل كيف أنه متلاش عديم القوى وكيف أنه يسلم مستعمليه للقتل والنكال الردىء بلا شفقه ، فبلا شك أن الغنى ردىء لمن يحبون تحصيله بالشر ، فلماذا تتمسك أيها الإنسان بمن لايساعدك فى شدائدك ولا يدفع عنك الأذى متى أصابتك مصيبة ألم تر كيف يهرب عنك ويغادرك فى معظم النوائب . فلو كان له قوة وبساله لوقف قريباً منك وعضدك فى حال الأخطار والنوازل . ترى كم من الذم والإهانة يذمنى الأغنياء بسبب هذه الأقوال التى أخاطبهم بها . وخصوصاً لتوبيخى إياهم على مذمتهم للمساكين وتعييرهم لهم . ولكن أنا لا أبكت الأغنياء الذين يتدبرون بغناهم فقط . بل أولئك الخطفة المختلسين أيضاً لأن ليس كل غنى خاطفاً ولا يعكس . فإن كنت غنياً ياهذا فأنى لا أصدك عما تملكه . ولكنى أؤنبك وأحاجك متى رأيتك نهماً مختلساً . فإن كان مالك فى قبضتك فلا تختلس مال غيرك . وأنا لا أصمت عن الحق ولو عزمت المسكونة بأسرها على صدى . فها أنا حاضرأن شئت أن ترجمنى فارجمنى . لأنى مستعد أن أسفك دمى ولا أدعك ترتكب خطية تهلكك ولاتظنن بأنى أنا أعادى أحداً . كلا . بل أنما غاية قصدى واجتهادى فقط أن يخلص الجميع لأن الجميع أولادى أغنياءوفقراء . وجرنواحد ولدهم . فمن شاء أن يبغضنى لهذه السجية ويغتابنى فليبغضنى . لأنى احتسب مثل هذا كنزاًوأكليلا اظفر به . لأنى لا أرهب من اغتيال أحد أصلا . أنما أجزع من شىء واحد فقط . وهو الخطية . فدع المسكونة باسرها تحاربنى . بحيث أنه لا يوبخنى أحد على خطية ، قل لى لماذا تكرم الغنى وتتعبد له كأنه سيدك ، وهو مع ذلك يسلمك للمنون ، أتشاء ياهذا أن تحوز على ما لا تطيق فراقه ، بل يكون فى حوزتك دائماً فادفعه إلى المساكين ولا تدفنه فى الأرض ، لأن الغنى يا هذا وحش خبيث وطباعه خلاف طباعك ، لأنك إن حفظته يهرب منك . وإن بددته يكن لك وفى قبضتك . فاذا كان أمره هكذا فوزعه ليكون لك . ولا تخفه لئلا يفر منك . وليس هذا بعجيب إذا كنت اليوم غنياً وغداً تصبح فقيراً . وقد غلب على الضحك مراراً كثيرة عند قراءتى تلك المواثيق والحجج إذ أرى احداها مكتوباً فيها . أن فلاناً

تكون له السلطة وفلانا يعطى الرئاسة على كرومى وحقولى ، وفلانا يسود على منزلى وما يلوذ به . وما أشبه ذلك ، فاذا كان الإقتناء لنا . فالسلطان حقا ليس لنا ، ودليل ذلك أنه إذا ما أتانا الموت نغادر الجميع لغيرنا قسراً وجبراً ونمضى كارهين إلى تلك الحيوة الأخرى ونحن عراة مقفرون . بل إنما السلطة تكون لأولئك الذين أهملوا الغنى وأعرضوا عنه ، لأن ذاك الذى يعطى أمتعته للفقراء هو المتسلط على ماله . وهو الذى اقتناه بحسب الواجب وهذا هو السالك فى منهج السلام والسلامة وأما ذاك الذى لم يفعل هكذا فانه يضيع ماله قبل موته إضاعة رديئة . فلماذا يا هذا تحسد مثل هؤلاء وتمدح غناهم . وهم من جرائه يسقطون فى معاطب ومصائب لا تحصى . قل لى ياهذا بأى فضل يتميز الغنى عن الفقير ! أليس الجميع لابسين جسداً واحداً : أليس لهم بطن واحد للمأكل أبكثرة الغلمان والخدام يكون تمييزك يا هذا . وقد كان خادم واحد يكفيك لأغراضك ، بل كان واجباً على كل اثنين أو ثلاثة من الأشراف أن يكتفوا بخادم واحد ، وإن ثقل هذا الكلام عليكم فانظروا إلى من لا خادم له كيف أنه يتمم أموره بسهولة . فلماذا أعطانا الله يدين ورجلين ، أليس لخدمتنا لئلا نحتاج خادماً فى أمورنا . واعلم ياهذا أن جنس العبيد غير ضرورى . ولم يخلق لهذه القضية . ولو كان الأمر كذلك لخلق مع آدم عبد ولكن أنما كان هذا لأجل العقاب والمجازاة عن المعصية وإن اضطررت إلى عبد فليكن واحداً . وإن طلبت الزيادة فاثنين لا غير . فأى حاجة لك فى كثرة العبيد والغلمان . أليطردوا عنك الناس فى الأسواق ولم هذا ؟ ألعلك أنت ماش بين وحوش لتطردهم عنك . لا تخف ياهذا مثل هذا الخوف . وكن فى أمان من أن يعضك أحد منهم متى اقترب منك . أو لعلك تظن ذلك انحطاطاً بقدرك متى مشيت مع جمهور العوام . فيا للعجب المستغرب من هذا الجهل والضلال المبين إذ تقرب من الحيوان غير الناطق وتلاصقه وتستأنسه والإنسان المبروء على صورة الله ومثاله تشمئز منه وتنفر عنه نائياً وتأمر بطرده حتى يمر الحيوان ذو القوائم الأربع فى السعة . ترى هل يوجد شىء يضاهى هذه الغباوة والطغيان . كلا . إعلم ياهذا أن الله رتب العالم بالحكمة والتدبير السديد أعنى أنه إذا وجد أحد أغنى أهل عصره فلابد له من مساعد أدنى منه ليساعده . أنظر كيف أن الأغنياء أيضاً لايستغنون عن الفقراء . ولكى تفهموا ياأخوتى هذا القصد فهماً بيناً فلنضرب لكم مثلا يوضح لكم ما قلناه ، وهو أننا نفرض أن مدينتين إحداهما تحتوى على الأغنياء والأخرى على الفقراء والمساكين لا غير . ثم ننظر بعد ذلك أية مدينة منهما يمكنها أن تتمم أشغالها وتكتفى بنفسها من غير احتياج . فإن مدينة الأغنياء لا يمكنها ذلك . لأنه لا يوجد

فيها أحد من أولى الصنائع والمهن . لا نجار ولا حداد ولا خياط ولا فلاح ولا خباز ولا خادم ولا فاعل ما غير هؤلاء. فمن يا ترى يمكنه السكنى فى مدينة الأغنياء وهى عادمة لمثل هؤلاء ، ولا واحد ؛ لأنها غير مستقيمة على النظام المتعارف وكيف تستقيم وهى ليس لها مثل هذه الضروريات ولو كانت ذات منازل مشيدة وقصور شاخة إلا أنها لا تقدر أن تقوم بطبعها بجميع ما يحتاجه قاطنوها خلواً من فاعل صانع وخادم كالواجب ، ولا شك أن مثل هذا النظام يوشك أن يخرب ويضمحل سريعاً . وأما مدينة الفقراء فحقاً أنها لا تحتاج إلى مثل غنى أولئك الأغنياء بالكلية . فهى إذ تقوم بنفسها وتتمم ضروريتها ، فمتى رأيت ياهذا أحداً يلمع خارجه بأثوابه الفاخرة وهو محتفل بالكرامات والإنعامات ومحتف بالخدام وحاملى الأسلحة فافتح خزانة قلبه فتجد فيه هباء منثوراً ورماداً مبذوراً ، تفطن ياهذا فى الأنبياء الأفاضل كايليا الغيور ويوحنا القاصد السابق . تفطن فى الرسولين العظيمين بطرس وبولس تلميذى ربنا ، تفطن فى ربنا يسوع المسيح نفسه ذاك الذى لم يكن له مكان يسند إليه رأسه اقتد به ياهذا واقتد بحوارييه قل لى ترى لو أحب أحد منكم أن يلج بلاط الملك وديوانه ورأى هناك الاراكنة جالسين وهم محدقون بالملك الأعظم . وحين ابصروك قادماً عليهم نهضوا اجلالا لك واستقبلوك وأكرموك اكراماً جزيلا . ثم أنهم كلفوك بأن تواكل الملك على مائدته أفما كنت تقول لذاتك . حقا انك أسعد الجميع لأنك نلت مثل هذا الإكرام عند أولئك الاراكنة الاجلاء . فكيف إذاً أنت ترتقى إلى السماء وتقف على قرب من ملك الملوك ورب الأرباب وأنت متألق بالبهاء والنور كالملائكة النورانيين وتظفر بتلك الخيرات الراهنة وذلك المجد الذى لا يزول والفرح غير الموصوف عجبا منك ياهذا أنك تتوانى عن مثل هذه الغبطة السارة وتتعاقد عنها كسلا وتهاونا ولا تشأ أن تبذل لأجل هذه الأشياء مالا . فما بالك فى نعيم هـــذه الحيوة المضمحلة تبذل كل ذلك برغبة وفرح وافـــر . خاصة متى آثرت أن تحوز على وظيفة أو رئاسة أو سلطة ما تلك التى تسبب لك فى أكثر الأوقات ظلما أو سرقة لا ربحاً مثل ربح السماء العظيم . فإنك تعطى كل مالك . بـــل تقترض أيضاً عن ذلك من الغير وأن لم يقرضك أحد تجعل أولادك وامرأتك لأجل ذلك رهينة بالكفالة ولا تتهاهل فى ذلك إلى أن تقتنى لك كرامة وقتية زائلة . وكل ما تعطيه فى طريق هذه الرتبة يكون منك بفرح وبشاشة بحيث أنك تحصل على هذه السلطة لا غير . وأما فى شأن الملكوت الذى هـــو منصوب بازائنا دائماً ذاك الذى لا نهاية له نتكاسل متهاونين به . وهمنا ليس إلا فى المقتنيات لا غير . فياله من جهل . ويالها من حماقة سيئة

أن مثل هذه الخيرات الجسيمة معدة لنا ومهيأة . ونحن نعرض عنها ونرغب فى الأشياء الزمنية . ومع هذا نحن متغافلون عن مكر إبليس وضلالته لنا برداءته وخبثه . كيف أنه لأجل أشياء حقيرة زائلة يعدمنا مثل تلك النعم الأبدية والهبات العظيمة السرمدية ويغرر بنا عن ملك السموات بما يعطيه من الطين والحمأة الدنيوية ويرينا ظلا زائلا ليخرجنا عن الحق الثابت ويشخص لنا منامات سيئة ليحثنا بها على ارتكاب المعاصى . فلا تظن يا أخى أن هذا منه خير عظيم بل اقتن عوض هذا خوف الله ولا تخف منه لأن الصديق البار الذى له دالة قدام الله ، ولو كان فقيراً مقفراً فى الغاية القصوى يكفيه أنه بواسطة دعائه تنحل هذه الأمور المكروهة الكائنة . ويكفيه أن يبسط يديه نحو السماء ويضرع إلى الله . فحقاً أنه بهذا تضمحل المصائب وتوجد السلام المبهجة . وأما الذهب والفضة فيكونان عادمى المنفعة ولا يفيدان فى حل الشرور كصلوة ذلك البتة ، ولا يظهر نقصهما وتقصيرهما فى هذا فقط ، بل اعتراهما مرض أو مصيبة من المصائب فهناك يظهر ضعفهما . أين هم ذوى الثروة والمستكثرون الذين يحسبون عقد الربح والفوائد ويأخذون الربا المكروه قدام الله وهم لا يشبعون . اسمع مايقوله بطرس الرسول . ذهباً وفضة لم اقتن . ما ألذ هذا الصوت الحسن فى آذان هاجرى المقتنى . فيالها من نعمة حلوة ، ويالها من غبطة سعيدة ، وهذا الأفتخار من بطرس خلاف المتعارف لأن الأفتخار إنما يكون عندقوم بقولهم ، كم عندى من ربوات ذهب وفضة ، وهذه الأراضى والبقاع المتفرقة كلها تحت ملكى ، وهذه المنازل والقصور المشيدة والعبيد والخدام باسرها تحت سلطانى ، وأما بطرس ويوحنا فبالمسكنة والإمساك كانا يتزينان، وبهذا كان فرحهما وسرورهما ، فحقاً يا أخوتى أن داك الذى لم يحصل على منزل ولا على مائدة ولا على ثوب ، بل هو فاقد الجميع لأجل الله . فان كل شيء فى العالم يكون له . ولنحضر بولس الرسول إلى الوسط شاهداً على كلامنا إذ هو أولى بالتصديق . لأنه قد جاز المسكونة بأسرها وعبرها بالجوع والعطش والمسكنة . ومع هذا كان يجول البلاد ويدخل على الكفار وعابدى الأوثان برثاثته وهم يقبلونه كرسول جليل القدر والشأن . ومع أنهم كانوا غير مؤمنين اضاع حنانيا وأمرأته سفيرة الجميع حتى حياتهما بعينها وحاق بهما البؤس لأنهما أخفيا جزءاً يسيراً من وقف البيعة كما هو معلوم . فالأولى بك يا أخى أن تترك مالك فى شأن الله حتى تصير كل الأشياء الغريبة عنك كأنها لك . ولا تستح من أن تلبس ثياباً رثة . ولاتجزع من جوع وعطش وضر وشقاء . لأنك تكون أبهى وأبهج من أولئك الذين يبذخون بالمآكل

والمشارب الزائدة . ألا ترى أيها الإنسان أن المال الذى أعطاه الله لك هـو لتشبع به الجائع . فلماذا تكون هكذا فقيراً غريباً من مالك . ولماذا يكون كلامك فظاً قاسياً . لماذا تغادر الله وتجرى وراء الربح البشرى . لماذا تميل إلى الغنى المتمول وتحيف على المسكين وتضايقه . لماذا تهمل المانح العطاء وتعدو وراء عديمى الموالات . الله يتوق إلى أن يعطيك هباته . والشيطان مكتئب حزين عند عطائك الله يمنحك مئة ضعف فى الحيوة الأبدية . والشيطان يسبب لك الموت الأبدى . هذا يمقتـك ويشتمك . وذاك يفتديك بالمدايح والتقريظات . هذا يحسدك ويغار منك . وذاك يجذل لك الأكاليل السنية . هذا بكل جهده يقوى عليك ههنا . وأما ذاك فأنت فى قبضته ههنا وهناك . أف لهذا الجهل الفظيع والسذاجة التى لاتفهم بها انعام الله تعالى عليك . أو تعلم أن تسمية المقتنيات بهذا الاسم يدلنا على أن كل واحد منا يقتنيها بحسب احتياجه إليها . لا ليذخرها لآخرين . لأن الخادم ليس عليه إلا أن يحتفظ على مال سيده لاغير . وأما أن يتصرف منه بشىء ليس له بل لسيده الذى له السلطة والحكم على ماله كيفما أراد . وعلى حسب اعتقادى أنه لايوجد أجهل من ذاك الذى يتعبد للمال ويظن بنفسه أنه سيد وهو عبد رقيق لمقتناه ويكون معتقلا فى أسره وهو يتسلط على الآخرين . والاغرب من هذا أنه يسر متهللا عند صيرورته عبداً وأسيراً . فإذا تقت إلى الاستغناء ياهذا فتجلد لما يرد عليك من المصائب والضربات المتوالية . لأن حب الغنى لايتناهى ولا يشبع منه . كما أن المحمومين يشتد بهم العطش ولو شربوا كل مياه الابار لا يروون بل يشتد ظمأهم أكثر . هكذا محبو الاستغناء كلما اتسع بهم غناهم ازداد تحرقهم على احتشاده . لاتغبطن الغنى المتمول ولا تمدحه . بل الأولى أن تعده شقياً حزيناً فالفقير يتمنى لنفسه الأشياء الضرورية بقدر ما يتمنى الغنى الأشياء الزائلة . ألم تعلم يا هذا أن البارى تعالى صيرك غنياً لتسعف المسكين وتعضده . وتصير مالك دواء لحل خطاياك بالرحمة والصدقة وأن تخلص به المتضايقين . ياهذا أن الله لم يعطك المال والغنى لتكنزه وتتمسك به . بل إنما اعطاه لك لتوزعه على أولى الفقر والفاقة فيكون سبباً لخلاص نفسك لا لتحصل منه أنواع الشرور . ترى من وصل إلى حدود فقر ايليا النبى ذاك الذى غلب بمسكنته قوة الأغنياء وقهرهم ، ذاك الذى لم يقتن سوى جبة رثة بالية فقط ، وبها كان يحتقر جميع خيرات هذه الحيوة الوقتية ، ويرى بعينه زينة الذهب كالطين المداس ، حتى أن أخاب ملك الإسرائيليين كان يهابه ويحتشم عند رؤية ذلك البائس المسكين إيليا وعند ما عرج إلى السماء لم يكن له ما يتركه لتلميذه اليشع إلا ذاك الوشاح الممزق ، وكان يقول

علانية ، انى بهذا الثوب البالى ، اعنى به عدم المقتنى قهرت الشيطان ودست هامته ، أتشاء ياصاح أن تغلب الشيطان كغلبته فصر عديم المقتنى مثله لتغلب الآلام الخبيثة بذلك فإن كان إيليا ترك وشاحه لتلميذه عند ارتقائه فالسيد لذكره السجود ترك لنا جسده الفائق القدس ميراثاً وذخراً عند صعوده إلى السموات ومتى أضعنا مالنا وفقدناه لا نأسف عليه بل لنقل تبارك الله المزمع أن يعطينا هناك غنى جسيما أعظم من هذا فإننا إن قلنا هكذا يحسب ماضاع لنا كأننا اعطيناه للمساكين . وإنى لا أعجب من أيوب البار بكثرة رحمته وصدقاته التى كان يصنعها بقدر ما أعجب منه حين سُلِبَ ماله وهو صابر يشكر الله ، قائلا الرب أعطى والرب أخذ ، فإنك إن فعلت هكذا فستقف مع إبراهيم وينادى باسمك مع أيوب البار ، فمتى أضعت مالك من أمر شيطانى أو من لص وسارق فاشكر الله حينئذ ولا تبادر إلى المنجمين والعرافين . فتكون بالحقيقة قد جرحت الشيطان جرحاً أليماً . وهو يرجع عنك مخزيا مخذولا . لأنك لم تجدف فى ضيقتك حسب مقتضى إرادته . ولا يعود يمتحنك بعدهـا البتة لعلمه أن شكرك وصبرك يسببان لك أكاليل الظفر من الله بالبهاء الجميل انظر أيوب كيف أنه بصبره نال جميع مافقده مضاعفاً . فهكذا أنت إذا صبرت فإنك لا تنال ذلك مضاعفاً فقط بل مئة ضعف وبعدها تنال الحيوة الأبدية فى ملك السماء التى نسأل الله أن نحظى بها جميعنا بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة السادسة والعشرون

(فى سابق معرفة الله وعنايته)

لأى سبب أيها الأخوة لم يبد إلهنا السابق المعرفة من الابتداء ذاك الشيطان الغاش الذى أضلنا ثم أخرجنا من الحيوة إلى الموت واحدرنا من الفردوس إلى حضيض الأرض . ثم فيما بعد وأسفاه أنه يهبطنا فى وهدة الجحيم . وإلى ذاك العقاب الأبدى فنجيب عن هذه المسألة قائلين . إن الشيطان لو كان ذا سلطة علينا وأخرج الإنسان من الفردوس قسراً واغتصاباً لكان لك ياهذا أن تعترض بما قلته ويحق لك الجواب عنه ضرورة ولكن حاشا أن يكون للمحال الخبيث هذه القدرة بل هو فاقد هذه القوة بالكلية . إلا أنه يشير بالشر

إلى الإنسان ويحثه عليه ولكن بلا سلطة بل بتملق وخداع ونحن عند هذه يجب علينا أن لا نصغى إليه . ولا نسمع منه وإن سمعنا منه يكون باختيارنا ونكون نحن قد منحناه السلطة علينا طوعاً لا كرهاً . ولكن لا يظفر بالغلبة عليه إلا الشجعان منا فى ضمائرهم . وأما البعض فيغلبون منه بسبب تهاونهم وغفلتهم لا يعاقبون . وحقاً أقول لكم أن الإنسان الشرير ولو دقع فى حبائل الخطاة . وارتكب الكبائر لا يكون مظلوماً من قبل الشيطان بل من توانيه وكسله . وهذا الأمر ظاهر من كثرة الناس الغالبين الظافرين وإذا تورط أحد المجاهدين بعض الأحيان فى معصية ما من مكر الأشرار واغتيالاتهم يكون سقوطه من عدم نظام الزمان والمكان للسببين إظهار شجاعته على قتاله ومكائده . وفى بعض الأوقات تكون أسباب السقوط من أعضاء الإنسان الخاصة بالحواس كالفم والعينين وما أشبه ذلك . لأن الإنسان بمثلها يشتهى الأشياء غير اللائقة . فمن النظر يصدر سبب السقوط لكثيرين فى حفر الزنى . ومن الفم يصدر التجديف على الله والافتراء وغير ذلك من الاعتقاد بالهرطقات المخالفة للايمان الحقيقى فاذا كان الأمر كذا ترانا نجزم بقلع أعيننا . أم بقطع لساننا وأيدينا مملوءة دماً وقتلا وأرجلنا مسرعة فى طريق الشر . والأذنان يقبلان الكذب ويدنسان بهاء النفس حتى هذه المأكولات والمشارب نفسها فلا ينفع الإنسان أيضـــاً شيء . لا السماء ولا الأرض . ولا البحر ولا الشمس والقمر ولا باقى الكواكب بأسرها . وكيف تنفع هـــذه ذلك الانسان الـــذى صار بجملته متقطعاً هكذا بالشقاوة والاهانة . أشاهـــدتم هذا الضحك غير اللائق الذى نريد أن نعطف عليـــه كلامنا . فالشيطان يا اخوتى من ذاته شرير لا من أجلنا صار شريراً . والدليل على هذا أننا لو أردنا، لربحنا منه خيرات كثيرة . وذلك من غير اختياره فياله من عجب مفرط . ويالعظم محبة الله لجنس البشر . بل الأعظم من هـــذا والأكثر تعجباً هو أن الإنسان بواسطة الشيطان وحيله . يصير أفضل مما هو عليه . ويرجع الشيطان عنه خائباً وهو يحرق أسنانه تأسفاً على ما فرط منه فى حق الإنسان من الخير بغير اختياره ويحزن ذ ته بذاته . لانه متى شاهد الخير الذى حصل الإنسان بسببه لا يستطيع أن يحتمله ذاك النكد والقهر ، وكثيراً ما نرى يا اخوتى قوماً يقولون ، أنه لو شاء الله لما كان الشيطان أضل الإنسان الأول منذ الابتداء ، فما الذى تقولونه يا هؤلاء ، حقاً لكم ، أنه لو لم يجر الأمر هكذا لما عرف آدم مزية الخير والانعام الذى كان له فى الفردوس ، ولما كان متنازلا عن طلب المساواة بالله بل الكفر به ، ولما كان عدل عن كبريائه البتة ، لأنه قد تشامخ متعالياً بذاته جداً ، حتى أنه أهّل ذاته لأن يصير الهاً ، فإذاً لو لم يتأدب بالسقوط ، فما

الذى كان يريد أن يفعله بجسارة ، أترى لو لم يوسوس الشيطان لآدم ، أفما كان مزمعاً أن يسقط بالعصيان والمخالفة ، فما بالنا نقول هكذا بزعمنا ، فذاك الذى قبل بسهولة رأى المرأة واطاعها ، فإنه ولو لم يوجد شيطان كان يسقط من ذاته فى معصية الخطية وشيكا ، ذاك الذى قبل الغش من الغير بايسر مرام ، لأنه كان متهاوناً بنفسه من قبل أن يضلوه ، ودليل ذلك أنه لو كان متيقظاً مهتماً لما استطاع الشيطان أن يخنس له بمثل هذا الشر. حتى آل امره إلى مثل هذه النهاية الشريرة المكدرة . اتدرون لأى سبب أمر الله آدم بمثل هذه الوصية . ليس الا لسابق علم الله به أنه مزمع السقوط فى مخالفة الله والعصيان . ولم يعطه هذه الوصية إلا لزيادة الاعتناء به . ولو لم يكترث به لما نهاه عن شيء . بل كان غادره مهملا من غير أن يحتفل به . فلنتأملن يا اخوتى ضمير آدم المتهاون على حسب ماظهر منه أخيراً . كيف أنه لم يقبل وصية واحدة . بل كان آكلا شارباً متنزها . هل كان هذا التهاون يوصله إلى أشر حال ، أم كان يرفعه إلى أفضل حال . ولكن حسب مارأينا . أنه سقط إلى شر عظيم كأنه جاهل عديم الإدراك . حيث أنه أرتفع إلى ذورة الكبرياء والتشامخ من قبل أن يوقن بحصول عدم الموت والأرتقاء إلى مساواته بالله وجهل برجاء لم يكن صادقاً ، وانتظر أن يصير الهاً وهو لم يشاهد أولا ذاك الذى كان يعده بهذه الأشياء ، ولم يختبره هل هو صادق فى مواعيده أم كاذب لأن شدة معرفته بعدم الموت أذهلته عن اختياره ، انظروا الكبرياء إلى أى أحد أوصلت من لم يكن مزمعاً أن يخطىء وانظروا كيف أنه بعد ما أعطى الوصية والنهى أحتقر بجهله الله الذى أعطاه الوصية ، فاذاً لم يوصيه الله لجهل أنه تحت أمر ونهى فواضح حينئذ أن الإنسان لو لم يعاقب عن الأفعال الطالحة ، لما كرم لأجل الأعمال الصالحة ، ومع هذا نرى كثيرين لايؤمنون بالقيامة ويفرون من الفضيلة كأنها سبب الشرور وينعكفون على الرذيلة كأنها مسببة للخيرات ، ومع أن كثيرين ينالون جزاءهم ههنا . كثيرون ظنوا أن أقوال الدينونة كاذبة ، ولكن لاتظنوا أنتم هكذا لئلا يصير الشعب غير المتأدب فى سيرته أشد شراً مما هو عليه ، باحتقاره دينونة الله العادلة ، أنظروا يا إخوتى كيف أن أكثر الذين يخطئون يعاقبون ههنا ، لكن الجميع ليكون القول مصدقاً عند الجميع من جهة المجازات عن التقويمات . وأما عقاب الخطاة قبل الدينونة فإنما يكون تنبيهاً للراقدين فى الخطية رقاداً ثقيلا . لأنه بتأديب الأشرار ههنا يتعفف أناس كثيرون خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب أولئك . وأما أولئك الذين لا يتأدبون

هنا لأجل آثامهم سوف يعاقبهم الله فى وقت آخر . مثل قايين الذى فتك باخيه
فأنه بعد أن عاقبه هنا عاقبه هناك عقاباً أبديا وصار مثلا وعبرة رادعة للعالم بأسره وأحيانا
يعاقب الجميع معا ،كما فعل بقوم نوح زمان الطوفان وذلك لتهذيب الكثيرين ، لأن
البارى تعالى يشاء أن يتوب غير المؤمنين ليخلصوا ، كقوله تعالى إننى لم آت
لأدعو صديقين بل خطاة إلى التوبة حتى أنهم بعد أن نالوا الاعتناء والمسامحة
من الله ورفضوا ذلك وأبوا أن يصيروا أفضل مما هم عليه وأنفوا من أن يعرفوا
الحق فيبتدوا أسقطهم من يده مهملين ، لأنهم أعدموا ذواتهم الحيوة السموية باختيارهم .
أما هو فاعطى الناس جميعاً خيراته فى هذه الحيوه الوقتية ، فإذا كان الله يفعل مع أعدائه
مثل هذا الأعتناء والاهتمام ، فكم بالحرى يفعل مع المؤمنين به والمتعبدين له ، فإن قلت
ولماذا لم يخرج الله الشيطان من وسط العالم ، اجبتك ، إذا كان فى حومة الميدان أحد
المصارعين الأشداء وبازائه اثنان يريدان صراعه . لكن أحدهما كان قد صرف زمانه فى
الأكل الزائد والشرب الكثير ، وهو مائل إلى محبة البطن والنهم والشراهة حتى أنه صار
من عدم القوة كالمخلع . وأما الآخر فكان محتفظا بنفسه . ومجاهداً فى حلقات الصراع . ممرنا
بالتعليم والمواظبة حتى أنه استبان للناس المحدقين به أنه هو الظافر الغالب ، فان شئت أن
تقاتل مصارعك وتحاوره ، فبمن تريد أن تتشبه بالشره المتهاون ، أم بالمجاهد النشيط ،
فبلا شك تشاء أن تتشبه بذلك الذى جاهد وتعب فى هذه الصناعة ، ثم أن المتهاون متى بقى
هكذا أى عديم الجهاد أن يذم من قبل المجاهد عنه ، بل إنما يذم من قبل توانيه ويسقط عن
عدم جهاده فاذاً الضعيف فى ضميره والمتهاون يسقط سريعاً ، ولو لم يوجد شيطان ويرمى
بذاته فى هوة الشرور باختياره ، ولو فحصنا عن جوارحنا وأعضائنا لوجدناها سبباً كلياً فى
الهلاك . ولكن ليست من طبعها هكذا رديئة . إنما نحن من تغافلنا وعدم احتراسنا نجعلها
آنية للهلاك ، فالعين أعطيت للإنسان لكى ينظر بها الخليقة المبروءة فيمجد الخالق الذى هو
سيد العالم . ولكن إذا استعملت استعمالا رديئاً تصير لك سبباً للفسق والزنى-وقد منحت
لساناً ناطقاً لتسبح به الله وتمجده . ولكن إن لم تحرص عليه يكن لك سبباً للتجديف والكلام
السمج . وقد وهبت يدين لترفع بهما الدعاء والتضرع لله والثناء عليه. فإن لم تحفظهما حفظاً
واجباً تكونا لك طريقاً للإختلاس والإستكثار . وهبت رجلين لتسعى بهما فى طريق
الأعمال الصالحة . أعنى فى زيارة المرضى والمسجونين . وللكنائس فى تذكارات الأبرار ،
والقديسين . فإن لم تتقنهما فى الكمال يكونا لعمل الشيطان ومخازيه القبيحة . وهذا قياس
واضح أيضاً فى العقاقير والأعشاب الطبية . فإنها تارة تكون سبب مضرة للمريض حتى أنها

تبلغ به إلى حد الموت والهلاك وتارة تكون سبباً لبرئه وشفائه من إنهاك مرضه . وليس ذلك من خاصة فيها بل من قبل المرض والأمزجة المختلفة . فعلى هذا متى رأينا بعض الأشياء مختلفة النظام وقد اعتراها الخلل والفساد فلا ننسبن ذلك للبارى تعالى . ولا نظن بأنفسنا أن هذه الأمور الكائنة هى بغير عنايته لأن عدم النظام قد يرد بعض الأحيان من اقتضاء الزمان والمكان وبعض الأوقات من الأفكار الرديئة والهواجس الشيطانية حتى أن ذلك المتشوش لو حصل له من يهذب نظامه أحياناً لما قبل ذلك بل استقام على ماهو عليه من النقص . كالعين الباصرة فإنها متى كانت مريضة تكون قاصرة عن النظر الجلى ، ولو كانت الشمس طالعة نصف النهار فلا تبصر مع ذلك إلا ظلاماً مدلهماً . وأما إذا كانت سليمة فإنها تستطيع أن تذهب حيثما شاءت ولوكانت عندغروب الشمس وزوالها . فمثل هذا القياس عين بصيرتنا فإنها مادامت باقية على صحتها تبصر الأشياء على ما هى عليه جيداً . ولكن متى أدلهم عقلنا وانفسد ضميرنا نذهل عن الأشياء المستحسنة النافعة . ولو أنك أصعدتها إلى السماء وأريتها تلك المناظر الإلهية فإنها لا تحسب كل ذلك إلا تشويشاً واختلاطاً لا نظام له ولذلك السبب لا يطلب الله هنا الدينونة من الجميع لئلا ييأسوا من القيامة لأنهم إذا رأوا أن الجميع يعطون جواباً هنا عن أفعالهم وينالون المجازاة يقطعون رجاءهم من الدينونة بالكلية ، وكذلك البارى تعالى لا يهمل الجميع هنا أن يمضوا بغير عقاب لئلا يظنون أن الأشياء كلها كائنة بغير عناية سالفة . فإن وجد أحد لا يعتقد بوجود القيامة ولا يصدقها فليتأمل بناظر عقله كم شىء أبرزه الله من العدم إلى الوجود وجعله كائناً من حيث لم يكن وينظر كيف أن البارى تعالى أخذ ترابا وخلق منه الإنسان . وكيف أنه قبل وجود الإنسان لم يكن أرض ولا تراب، ويعجب بفكره كيف أن الأرض صارت إنساناً . وليفكر فى كيفية ظهور الأرض ، وإبداعها من لا شىء . وعلى أى أساس هى موضوعة وما هو الذى تحت الثرى وليتأمل فى أنواع هذه الحيوانات غير الناطقة كلها كيف أنها أبدعت من هذه الأرض مع أجناس هذه الأعشاب وكثرة هذه النباتات . فهذا كله يجده برهاناً واضحاً على وجود القيامة الكلية الزينة لأنه يمتلىء من هذه الأمور المذكورة تحيراً واندهالا . ترى ما هو صعب على من يوقد سراجا من غير نار ويبنى بيتاً من غير وجود . من ذاك الذى يجدد شيئاً بعد ما كان قد صنعه سابقاً . اعلم ياهذا أننا من ولادتنا أيضاً نجد برهاناً شافياً على هذا الأمر . أفما هو من مادة حقيرة جزئية تلقى فى الحشى القابل للزرع تتصور منها خلقة الإنسان بأوضاعه . سواء كان ناطقاً أو غير ناطق . وقد كان بدؤه عديم الشكل والهيئة . وكذلك الحنطة أليست من

بذرة عادية حين تلقى فى الأرض وتتلاشى ، قل لى من أين يأتى لها الأصل . ثم الساق ثم السنبلة التى هى خزنة الثمرة . ومثل هذا يوجد كثير . أنظر بذر التين الدقيق كيف أنه متى سقط فى الأرض يتأصل له أصل وجرثومة وينبت له أغصان عظيمة ويثمر بعد ذلك ثمراً شهياً. فلماذا لاتستغرب مثل هذه الأشياء بل إنك تعتقد فيها بسهولة وتبحث عن البارى تعالى وتفحص عن تدابيره متفنناً . وتقول كيف يمكن أن يعيد الله خلقة أجسادنا ويقيمها حية كما كانت تُرى أى غفران أنت أهل له أيها المفترى. فإن قلت أيضاً إذا كان الأمر كذا محققاً فلماذا ترك الشيطان الذى هو روح سوء أن يعرقلنا فى حبائل الخطيئة ليرمينا ويدنسنا أجبتك إنما تركه لتكون من خوفك ومن محاربته على حذر ، وتتقى ذاك الضرر العتيد . وتظهر بذلك حرصك وعبادتك وتواظب من جرائه على السهر الدائم . ولا تعجب يا هذا من تركه المحال ليمكر بنا لأن صنيع الله بنا هكذا يدلنا على شدة اهتمامه واعتنائه فى خلاصنا ليوقظنا من غفلة التوانى والكسل . ويعد لنا من كل الجهاد أسباباً لنيل الاكليل ولأجل هذا أبدع جهنم محلا للعقاب والإنتقام لكى يسبب لنا الحصول على ملكوت السماء من خوف العذاب الذى لا يطاق . ومتى صنعت ياأخى شيئاً من الصلاح ولم تنل عنه الجزاء ههنا فلا تتذمر من ذلك ولا تنزعج . لأن جزاءك معد لك بعد الممات فى ملكوت السماء جنة الله الأبدية . وكذلك إذا فعلت فعلا رديئاً ولم ترتدع عنه هنا من حدود الناموس الذى سنه لك أبوك الروحى ، فلاتطب نفساً ولا تقر عيناً وتظن أنك قد نجوت من العقاب أنه سينتظرك هناك على الجحيم الأبدى إن لم تتب ههنا وترجع عن خطاياك بواسطة الأفعال الصالحة . فالكتاب الإلهى يقول . حد عن الشر واصنع الخير وإن رأيت آخرين يرتكبون المعاصى قدام الله ويعيشون بالإختلاس والرذائل المتنوعة وهم مع ذلك أغنياء متسعون بالخيرات الزمنية راتعين براحة ونعيم فلا تحزن لذلك ولا تتذمر على طول أناة الله عليهم . بل تأمل أولئك الأشرار الذين يقطعون الطرقات ويقتلون عابرى الطريق . والذين ينبشون القور ويسرقون . والذين يسقون السموم القاتلة للغير فيقتلونهم . هل ندم الله على إبداعه مثل هؤلاء . كلا . بل إنه عندما يحضرهم لديه ، ويقفون تحت الفحص والمداينة ، فإنه يعاقب حينئذ صانعى الشرور ويكرم صانعى الخير والسلام ، ويدخلهم إلى ملكوته مكللين . فإذا الإنسان من ذاته يسبب لنفسه خيراً أو شراً ، تأمل فى عقلك أيها الإنسان بكل ما أخطأته فى حياتك وتعجب عند ساعة موتك من طول أناة الله عليك ونعمته وعدم تذكره لشر فى حياتك . لأن الله لو أراد أن يعاقب كلا بما جنته يداه من الخطأ لما استقام أمام الجنس البشرى أصلا بل أنه كان يفنى مضمحلا. فلاتتورط يا إخوتى فى هذا الرأى المفسد . بل ياليتنا كنا نهتم بخلاص نفوسنا بقدر

ما يهتم بنا البارى تعالى مبدعنا . ويا ليتنا كنا نهتم عندما تصيبنا مفسدة من الشر بقدر مايهتم البارى تعالى لأن الله جل شأنه لا يهمل الناس ولا يدعهم يتهافتون فى المصائب على التوالى لئلا يحصل لهم السأم والملل . فيهلكون حزناً وتضجراً ولا يدعهم أيضاً يقيمون على الترفه والبذخ . لئلا ينقلبوا متهاونين فى خلاصهم بل ينقلهم من حالة إلى أخرى ويتدبر بخلاصهم بكل فن وطريقة . فكما أن السفينة الخالية من مدبر لا يمكنها الثبات والسلامة بل تشرف على الغرق والاقتحام فى اللجج العميقة وتسير مع كل تيار خاطف . كذلك العالم . فلو لم يكن له مدبر ومرشد لما كان يمكنه الثبوت مدة هذه السنين الكثيرة . قس يا هذا . أن العالم هو فوق الأرض سفينة . وأن السموات التى تظلله قلوع والمسافرين هم البشر والبحر هو اللجة التى تعبرها السفينة . وتأمل فيها تأملا دقيقاً . كيف أن هذه السفينة البديعة النظام لم يعترها غرق ولا هلاك البتة . فلو تركت سفينة فى البحر بلا مدبر وملاحين أفما كانت للحين تهلك غرقا . فالعالم لم يصبه هكذا مع أن له الآن خمسة آلاف سنة فأكثر . ومالى اقول سفينة فى البحر . بل خيمة إذا نصبتها فى كرمك . وتركتها بعد القطاف مهملة لا يسكنها أحد فتخرب بعد يومين وتتقوض أركانها عاجلا . فإذا كان بيت مثل هذا لم يعتن به أحد يخرب ويتلاشى ولا يستطيع الثبوت بعد قاطنيه فكيف يمكن أن تبقى السماء والأرض مدة هذه السنين من غير أن يعتنى بأمرها أحد . وأن يثبتا بغير فساد مدى كر هذه العصور والدهور . هذا محال تأمل رونق السماء وحسن بهائها . وكم لها من السنين وهى لم تظلم ولا اعتراها خمود . ثم اعطف نظرك نحو الأرض وشاهد قواها كيف أن بطنها لا يمل من استخراج هذه الأعشاب والغروس النباتية . وكذلك الآبار والينابيع كيف أنها لم تجف . بل تتدفق مياهها على الدوام بدون انقطاع . وتفطن فى البحر المتدفق . وتأمل الأنهر التى تصب فيها ليلا ونهاراً وهو لا يتجاوز حده . فلهذا يجب علينا أن نقول عن كل واحدة فواحدة من مفعولات البارى تعالى . ما اعظم اعمالك يارب . أنت صنعت هذه جميعها بحكمة . ايجب عليك يا هذا أن تستفحص أمور خالقك وتبحث عنها . قل لى ترى لو رأيت بانياً أو نجاراً يقطع الخشب بحسب صناعته وينشر البعض منها لتتمة أغراضه فهل كنت تعترضه لماذا يفعل بالخشب هكذا . أما كنت تستنقص ذاتك عن هذا السؤال . أو متى شاهد طبيباً يعالج سقيما . تارة يشرح لحمه وطوراً يكويه وتارة يفصده وطوراً يحجمه بمكان مقتم ويضيق عليه من حيث الأكل والشرب . اتراك كنت تماريه فى صناعته وتحاجه . أليس هذا قبيح لنا أن نسلم لمثل هؤلاء فى صناعتهم ولا نستصوب مناقضتهم ولا نعترضهم بقولنا

لماذا تفعلون كذا وكذا بل أننا نصمت عن أمورهم . وحكمة البارى تعالى التى هى فوق عقول البشر لانصمت عنهـــا . بل أننا نبحث عنها وندقق فى أمورها . فالى متى ياهذا تعترض بلسانك . ومتى رأيت أحد يصنع رحمة مع المظلوم أو الفقير تبحث عن أمره قائلا لماذا فلان غنى . فمالك ياهذا بهذه الأمور الربانية . أما تحنى عنقك إلى اسفل وتضع على عقلك حافظاً وتضبط عقلك عن أن يفحص الأشياء الباطلة . ارح خاطرك يا أخى من هذا وتأمل فى لجة خطاياك لا غير لتفهم ذاتك وتبتنيها وإن كان ديدنك أن تحب الفحص والبحث فافحص ذاتك وانظر أى عقاب تستحق وابحث عن تلك الأقوال السيئة التى تكلمت بها . فهذا الذى يجب عليك أن تفحص عنه لا عن أمور الله العالية . لأنك إن بحثت عنها تضاعف خطاياك بأثقل من الآثام الأولى وكيف لا تكون هذه هى ثقيله ومؤهلة لعقابات لا توصف التى نطلب بأجمعنا إلى سيدنا يسوع المسيح الرحوم الرؤوف أن ينقذنا مـــن شرورها لعلنا نهرب من هذه جميعاً ويؤهلنا لملكوته السماوى مع كل قديسيه آمين .

المقالة السابعة والعشرون

(فى التوبة وفى داود الملك من أجل امرأة أوريا)

ها قد حضر اليوم لدينا يا إخوتى ذاك الطوباوى داود وقد رتلت علينا أقوال ذاك المعلم المترنم بالسرور . لأنه متى حرك قيثارته الروحية وأنشد على نغماتها نشائد زبوره يلذ أسماعنا ويلطف عقولنا . ولهذا دبرت نعمة روح القدس أن ترتل أقواله كل يوم من كل نسمة مسيحية لتبتهج من ذاك أسماعنا وتنتفع من ترنيمه أرواحنا . لأنه كثيراً ما يعرض لى التعجب فى ذهنى قائلا لأى سبب يحب المسيحيون زبور داود أكثر من جميع الكتب القديمة حتى الحديثة أيضاً . ويهوون أن يلهجوا به فى أفواهم دائماً . توراة موسى العظيمة المفعمة من كل حكمة تلك التى وضعها موسى العظيم محله الذى أبصر البارى تعالى وجهاً بازاء وجه وأبان لنا فيها جميع ما خلقه الله منذ الابتداء وأنذرنا بوجود الخالق بقوله فى البدء خلق الله السموات والأرض إلى غير ذلك . فإننا بالجهد نتلوها فى الكنيسة كل عام مرة . أو لعلك تعتذر عنها بأنها من العهد القديم . لكن ماقولك عن قراءة الأناجيل

المقدسة التى تنذرنا بحضور المسيح . وترينا عجائبه التى اجترحها . تارة بغلبة الموت وأخرى بطرد الشياطين . والبرص بكلمته طهروا . والكمه الناقصو الطبيعة بطلائه أعينهم بالطين انقلبوا مبصرين . والخمسة آلاف الذين فى البرية من خمس خبزات أشبعهم . واللص أورثه الفردوس . والزانية بغفرانه لها أضحت أنقى من الكواكب ضياء . ومجارى مياه الأردن منه تقدست لتقديس أنفسنا . والآب من السموات شهد له أنه هو الابن الوحيد الجنس وحقاً إن السيد المسيح هو الذى جدد حياتنا واجتذبها فى طريق الخلاص بانذاره لنا قائلا . طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماء. طوبى للجياع والعطاش لأجل البر فإنهم سيشبعون . فهذه النواميس الشريفة كلها نتلوها فى الأسبوع مرة أو مرتين ولكن ربما تقول لى وقولك هوحق : أن التيجان الملوكية والاكلة الشريفة لاينبغى أن تظهر كل وقت ليبصرها الجميع كل يوم . ولكن ما الذى تقوله نحو بولس الطوباوى ففيه السيد المسيح وصياد المسكونة الذى بواسطة رسائله الأربع عشرة اقتنص كل المسكونة حتى كأنه بحبائل روحية كان يصطادهم وأهل للاختطاف إلى السماء الثالثة وأحضر إلى الفردوس وهو حى وتعلم من هناك أسرار ملكوت الله التى لا يمكن لإنسان أن يلفظ بها . وهذا أيضاً نتلو أقاويله فى الاسبوع مرة أو اثنتين . وإذا تلوناها لا نتردد بها بأفواهنا بل إنها متى تليت علينا نصغى إليها بعقولنا فى حين القراءة لا غير . إلاكتاب الطوباوى داود فلا أدرى كيف دبرت نعمة الروح القدس أن ينذر به نهاراً وليلا حتى أن الجميع يتخذونه بافواههم كالطيب الكثير الثمن. فإن كان فى الكنائس والاجتماعات العمومية فداود فى الأول وفى الوسط وفى الانتهاء . وإن كان فى جناز الموتى ومنازل العذارى وصنائع الأيدى فداود هو فى الأول وفى الوسط وفى الانتهاء . فيالها من أمور تفوق الادراك حتى أن الذين لايعرفون القراءة متى أرادوا أن يتعلموا يبتدؤون أولا فى أقوال داود ويحفظونها فى ضمائرهم . وليس ذكر داود فى المدن والكنائس فقط بل هو منشور فى كل صقع وسن وأوان وتشرق أنوار أقواله فى الأسواق والشوارع . فكم من صفوف إلهية ينهضها باجتهاد وافر فى الاديرة . فلا يقوم فى الاديرة طغمات ملائكية يجتهدون فى الصلوة لله ، إلاَّ وداود فى الأول وفى الوسط وفى الانتهاء . فإن كان فى أماكن العذارى المتشبهات بمريم . وفى مناسك الرجال فى القفار المجتهدين فى صلاتهم يخاطبون الله فداود هو الأول وفى الوسط وفى الانتهاء . فكل من كان مستغرقاً بنوم ثقيل من اغتصاب الجسد الطبيعى ويعرض له أن ينهض ليلا فى غير وقته يتلقاه داود للحين . كم تسبيحات ملائكية يقيمها لله من عبيده . فالأرض

يجعلها سماء . والبشر يصيرهم ملائكة . يزين حياتنا بأسرها . ويهيء لنا كل شيء . ينمى الأولاد بالتأديب . يدعو الشبان إلى العقل الرصين . يهب العفة للعذارى يمنح الشيوخ تحفظاً . يستدعى الخطاة إلى التوبة بقوله . اعترفوا للرب فانه صالح . يحفظ المتقومين بطريق التوبة ويحثهم بقوله . خطايا شبابى وجهلى لاتذكر يارب . ينهض المحسن إليهم للشكر ويحثهم بقوله بماذا أكافىء الرب عن كل ما قدمه لى . يدعو الذين أخطأوا إلى الاعتراف أوقاتاً كثيرة بقوله . أن كنت للآثام راصداً يارب يارب فمن يثبت يعلم الطالبين الرحمة من الله بقوله . أرحمنى ياالله كعظيم رحمتك . يثبت المدعوين إلى إلى الكهنوت بقوله لا تطرحنى من أمام وجهك يارب . يفقه المسوقين إلى القضاء بقوله نجنى من بغى الناس يارب . ينذر الخائفين من الأعداء بقوله . أنقذنى من أعدائى يا الله ، ويحث الصبورين والشكورين على الثناء المفرط بقوله . صبراً صبرت للرب فأصغى إلى واستمع طلبتى . فيالها من قيثارة شريفة معظمة . لأنها تجمع بين أنفس العالم كأنها أوتارا ثم تقرع فى آذانهم تمجيد الله وتسبيحه . ولكن إذا كان مثل هذا هكذا جليل القدر وعظيم الشأن وقد زين طبائع الناس ونسخ كلامهم بكلامه وقد اظهر فى الأرض سيرة الملائكة فكيف سمح الله وتغافل عنه حتى سقط فى هامتى الخطايا . اعنى القتل والزنى . ثم بعد ذلك قدم توبة وكلل فى السماء مع الملائكة . وإنى أتأمل هذه القضية وأنا منفرد فى عقلى فأزداد تحيراً وتعجباً فى ذاتى . كيف أن الله سمح بسقوطه فى هاتين الرذيلتين ويضطرب لذلك فكرى كما تضطرب السفن فى البحر إذا كن بغير ربان . وتتجاذبنى الأفكار كما تتجاذب الأمواج السفينة من هنا وهناك . وأقول مع ذلك مفكراً فى ذاتى . كيف هذا الإنسان المتزين بمثل هذه الخيرات المتقلد بالملك والنبوة عبد المسيح وأبوه . عبده بحسب الطبيعة . وأبوه بحسب الجسد حسبما يقول المبشر . كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود . المعظم بالفضائل الباهر المزدان بالأكاليل . المتوشح بالديباج . المتزر بالتواضع بقوله لم يرتفع قلبى يارب ولم تطمح عيناى . ولم أسلك فى العظائم ولا فى المعجبات التى هى أرفع منى . لكنى اتضعت بفكرى . ثم رفعت نفسى إليك كالفطيم إلى أمه . هذا الذى حفظ حدود عدم الشر للغاية بقوله أيها الرب إلهى إن كنت صنعت هذا وإن كان فى يدى ظلم أو جازيت الذين صنعوا بى الشر . ذاك الذى لم يكفه أن يهرب من الكبرياء فقط بل كان يرذل فاعليها أيضاً بدليل قوله . صانع الكبرياء لا يسكن وسط بيتى والمتكلم ظلماً لا يكون مستقيماً أمام عينى . وقوله أيضاً بالدالة أمام الله أحميتنى يارب ولا تجد فى ظلما . وحتى متى اتكلم عن أوصافه الحميدة واثبتها بشهاداته مع أن البعض يقولون . أن

شهد الانسان لذاته لم تكن شهاداته حقاً . بل الأولى أن يشهد بصلاحه غيره ويبين سمو شرفه حتى تكون عنه أولى بالتصديق . أيها القائل هذا اترى يوجد عندك أصدق من الله الشاهد فيه والقائل عنه أني وجدت داود بن يسى رجلا حسب قلبي . فأي شهادة لك أصدق من هذه . وأي صوت أجدر بالتصديق من صوت الله . لكن بهذه الشهادة التي لايشوبها كالتي أعطيت لذلك المتزين بكل فضيلة . المضاهي قلب الباري يكثر التعجب أيضاً كيف أن الله سمح بسقوطه في هاتين الخطيتين المنهي عنهما بقول الله لاتزن ولا تقتل وقد ظهر نبي الله بعد هذه الوصية قاتلا فاسقاً . وقد قرأت هذه السيرة عليكم يومنا هذا . وأما قولي هذا عن النبي المكرم فليس لثلبه لدى الله . حاشاً لي من ذلك . بل لاجعله سبباً لحرصنا وتحفظنا على ذواتنا . وحتى أريك ياهذا أنك إذا اتقنت بعض فضائل أحيانا فاحذر من أن تسقط هكذا . واسمع ما قاله الرسول أن من ظن بنفسه أنه واقف فليحذر من أن يسقط . حتى أن داود نفسه كثيراً ما يقول . لاترفضني عند آخر أيامي . وعند ما كان يصلي كان يقول أيضاً . لا ترفضني يا الهي عند الكبر والشيب فإذا كان الأمر كذلك . فلماذا سمح الله بسقوطه في مثل هذه السيئات . سمح الله به لأجل ثلاثة أمور . وإن رضختم لكلامي وتعليمي بسكون اجبتكم عنها واحدة فواحدة أعلموا أن الأمر الأول هو لأجل الصديقين ليكونوا محتفظين بأنفسهم طول حياتهم مثل النساء وسكان القفار . لئلا يقول أحد منهم أني أكملت فضائل كثيرة وتزينت بسجايا حسنة لدى الله . فها أنا أصوم وأصلي وأسهر بدموع وقد لبست مسحاً خشناً . وقد هزل جسدي ونحل بالنسك . وصرت آمناً لا أخاف كيد شيطان ولا أخشى تجاريبه . فحصلت حينئذ على الاكاليل السنية وتممت عند ذلك أتعابي ومساعي . قف أيها الإنسان عند حدك ولاتضل وتأمل وانظر إلى أسفل ولاترتفع بقلبك وأعلم أنك لم تفعل أكثر من داود النبي . واسمعه بعد هذا كله قائلا . قد ضعفت ركبتاي من الصوم وجسدي تشوه وزوى من الزيت . ويقول أيضاً في يوم حزني لبست مسحاً . وكنت اذلل بالصوم نفسي . واسمعه يقول في صدد السهر . نهضت نصف الليل لأشكرك . ويقول أيضاً سبع مرات في النهار أسبحك . وأسمعه يقول في الدموع تعبت في تنهدي . وبدموعي أبل كل ليلة سريري . وأسمعه يقول في النسك إني أكلت الرماد كالخبز . ومزجت شرابي بدموعي . ولماذا أصف مناقب داود واحدة فواحدة وأثبتها بأقوال .

ها البارى تعالى يشهد له قائلا . أننى وجدت داود بن يسى رجلا حسب قلبى وبعد هذه التقويات كلها سقط فى مثل هذه الورطات . فلا تطمئن بعدها أيها الانسان ولا تركن لذاتك. بل كن منتبهاً فى أمورك كل يوم وافطن بما نصحك به الرسول القائل . من ظن بنفسه أنه واقف فليحذر ألا يسقط . فهذا هو السبب الأول . وأما الثانى فلئلا ييأس الخطاة فى ذواتهم ولا يعترفوا كل حين ولو سقطوا فى مآثم متعددة ويكون اعترافهم عن زلاتهم دائماً . لأنه لاشىء يضر كاليأس . لأن الواقع فى اليأس من جرى أثامه لايرجى له بعدها شفاء البتة . كالمريض الذى حكم الأطباء بأنه سيموت فإنهم لايداوونه بعد ذلك البتة . بل يقولون له أننا لا نأخذ منك أجرة بعد لأن مرضك لايرجى له شفاء . وشر هذا الداء العضال قد قهر صناعة الطب واضعها . فهذا الكلام يقوله الأطباء عندما يحتمون بموت المريض . هكذا أمر الواقع فى اليأس فإنه يعدم نفسه رجاء الخلاص بالكلية ويطوح ذاته فى أعظم الشرور وأرداها . فإذا فكرت ياهذا بأمر ذاك الذى ارتكب أقبح الخطايا وهى القتل والزنى ورأيته بعد ذلك مبادراً إلى التوبة ووجد البرء والشفاء . فسارع مثله إلى الأعتراف والتوبة متى أخطأت مراراً كثيرة ولست أقول هذا لأسبب به سعة وفسحة للمريدين أن يخطئوا . بل لأجتذب الخطاة إلى التوبة . لأن الله محب البشر وهو يمحو كل سيئة عظيمة . فالذى يخطىء يشبه بمن تساقط من مكان شامخ ولكن إذا رجع إلى الله تائباً يشفيه من جميع آلامه . ألعله يوجد أمر أعظم من القتل والفجور وأسمع النبى قائلا عن ذاته حين أخطأ . قلت له أن أعترف للرب بأثمى وأنت صفحت عن نفاق قلبى . والمسيح نفسه لما أتى إلى العالم غفر الخطايا الجسيمة . فاللص ادخله الفردوس . والعشار أقامه انجيلياً . وبولس ذاك المجدف الشاتم صيره رسولا للمسكونة. كل هذا عمله السيد لكيلا تيأس متى أخطأت . بل لأن يقوى فى أن تعترف بزلاتك وتمحوها وتنال عند ذلك الصحة والشفاء . لأن النبى يقول . اعترفوا للرب فإنه صالح وأن إلى الأبد رحمته . فلهذا هو السبب الثانى . وأما الأمر الثالث فهو أن مخلصنا له المجد . لما ازمع الأنحدار إلى الأرض وأحب أن يتخذ له جسداً بشريا ، ويتردد به فى العالم وهو مع ذلك إله فائق القدس منزه عن الخطأ وحده لا غير ، سمح لضمائر الصديقين من جهة التدبيران يسقطوا فى بعض ذنوب بشرية لكن ليس هو الذى اسقطهم . بل أنه ترك ضمائرهم أن تفعل بمقتضى هواها وحسب ارادتها وميلها كمثل بنى اسرائيل الذين اختارهم الله من بين الأمم فإنهم لما لم يثبتوا على ايمانهم وأخطأوا إلى الله قد عاملهم بما يستحقون حتى ونفس انبياؤهم العظام فإن موسى لما لم يمجد الله عندما انفجر الماء من الصخرة

لأمة اليهود العديمى الشكر قال له الله . حقاً أنك لم تبصر أرض الميعاد ولن تدخلها البتة . فكذلك سمح بسقوط داود فى الخطأ ليكون هو وحده بريئاً من الأثم وهو فى الجسد الإنسانى . ألا ترى داود حين كان يعترف باثمه كان هكذا يخاطب الله قائلا لك وحدك أخطأت والشر قدامك صنعت (ولماذا) لكى تصدق فى أقوالك وتغلب فى محاكمتك . ومتى يكون ذلك . يوم تزمع أن تظهر فيه لابساً طبيعتى إذ تجلس من عن يمين عظمة الله . كقوله فى معنى ذلك إجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك تحت موطىء قدميك فى ذلك اليوم الذى يظهر فيه لدينونة العالمين . وهو لابس ذاك الجسد الذى أخذه من طبيعتنا . ففوق هو الجسد واسفل هو جسد . حسب قول القائل . ينظرون إلى الذى طعنوه لكن الذى أسفل أعنى جسدنا ينظرونه موعباً بالمآثم . وأما الذى فى العلاء فيشاهدونه خالياً من كل خطيئة . وهو يفحص ويدين الجرائر والأوزار وإلى هذا يشير بقوله . لكى تصدق فى أقوالك وتغلب فى محاكمتك وما ذاك إلا لكونه لم يفعل خطيئة ولا وجد فى فمه غش الذى له المجد والعزة والأكرام الآن وكل أوان . وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة الثامنة والعشرون

(فى التوبة والصوم وفى يونان النبى ودانيال مع الفتية الثلاثة)

حقاً إن هذا الموسم هو مبهج لنا جداً وأبهج منه هذا الإجتماع الذى نراه منكم أعظم من المعتاد . وأما السبب فى ذلك . فأنا أعرفه جيداً . إنه من بعض تقويمات الصوم المفضل . لكن ليس الحاضر الكائن . بل ذاك الصوم المنتظر . فذاك بالحقيقة هو الذى بواسطته التأمنا إلى منزلنا الأبوى . وانهض المتوانين المتقاعدين سابقاً أن يقبلوا نحو أحضان هذه الأم الشفوقة . فإذا كان انتظارنا له نتيجة فينا هذا الأجتهاد العظيم المقدار فإذاً كم يكون عندنا من الورع والتعبد بواسطته . وصرنا فى ذراه كالمدينة التى يفد عليها عامل مخيف مرهب كيف أن أهل المدينة يرتجون ويباينون الكسل والإهمال فى أمورهم ويقبلون نحو الجهاد العظيم . هكذا هو الصوم لكن لا ترهبوا من تشبيهى الصوم بالحاكم المهيب . لأنكم إذا توسدتم حقيقته تجدونه غير مخيف لنا ، بل للشياطين الماكرين . ودليل ذلك أنك إذا أظهرت مجىء الصوم لأحد المصابين تراه للحين قد صار يابساً جامداً كالحجر الأصم خيفة منه وارتهابا . وخاصة إذا رأى أن الصوم مقترن باخته التى هى الصلوة . وإلى هذا يشير السيد المسيح بقوله . إن هذا الجنس لا يخرج إلا بالصوم والصلوة . فإذا كان يطرد محاربى خلاصنا ويخيف أعداء حياتنا فمن الواجب علينا أن نتوق إليه ونحبه ولا نرهبه بل

يجب أن نخشى بالحقيقة زيادة المآكل والشره والسكر والتخمة لا الصوم المقدس . لأن السكر يقيد أيدينا إلى الوراء ويلقينا فى قبضة اغتصاب الآلام ويصيرنا كالعبيد المأسورين من سيد شرس الأخلاق وسيء الطباع . وأما الصوم فإنه إذا وجدنا معتقلين يحلنا من الأغلال والقيود وينجينا من قوى الآلام المفسدة ويقبل بنا نحو الحرية الأولى والانعتاق الأصلى . وأي برهان لك أعظم من هذا يدلنا على محبة الصوم لجنسنا . كيف أنه يحارب عنا أعداءنا وينقذنا من أسرهم ويوصلنا إلى حريتنا الأصلية فبالحقيقة أن هذا هو البرهان الصريح على شدة محبته لنا . أتشاء ياهذا أن تعلم كمية زينة الصوم للناس وحفظه وثباته لهم فتأمل جنس المتوحدين المطوب العجيب . كيف أنهم يفرون من الأضطرابات العالمية ويبادرون نحو قمم الجبال ويشيدون لهم هناك أكواخا فى هدوء الصحارى ويجعلون الصوم هناك مقتناهم ومسكنهم وشريكا لهم فى جميع حياتهم وأما هو فيجعلهم ملائكة عوض بشر . وليس لهم فقط بل لكل من وجده محباً له فى المدن والقرى يصعده إلى حدود علو الفلسفة . موسى وايليا اللذان كانا مقدامى انبياء العهد القديم المشرفين بضياء الدالة البهية مع جملة فضائل عديدة لما آثر أن يقتربا إلى الله ويخاطباه حسب الإمكان الإنسانى بادرا أولا نحو الصيام وصعدا على ساعديه نحو البارى تعالى . وأيضاً لما أبدع الله الإنسان منذ الإبتداء سلمه فى أيدى الصوم ليضبطه ويهتم بخلاصه كأب محب لأولاده أو معلم ذى حزم . بقوله تعالى لآدم من كل ثمر شجر الفردوس كل فهو لك مباح . أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها البتة . أفليس هذا شكلا من الصوم والإمساك . فإذا كان الصوم فى الفردوس ضرورياً . فكم بالحرى يكون أضر إذا كان خارجاً عن الفردوس وإذا كان الدواء قبل الجرح نافعاً لمقتنيه فكيف إذاً بعده وإذا كان الصوم جيداً لنا قبل معاناة حرب الشهوات لنتخذه لنا سلاحاً ووقاية . فكم بالاحرى والالزم أن يكون بعد العداوة الحاصلة من قبل الشيطان وشهواته . أن معونة الصوم لضرورية لنا جداً ولو سمع آدم هذا الصوت من الله واطاعه لما سمع بعده الصوت الثانى انك تراب وإلى تراب تعود ولكن لما أبى قبول هذه الوصية وناقضها بمخالفته غلب عليه الموت والحزن ونال الحيوة التى هى أمر طعما من ورود الحمام ووجد فى طريقه الشوك والقرطب بسبب هذه الأحزان والآلام . أفشاهدتم كيف يغضب الله عندما يهان الصوم ويحتقر وكيف أنه يسر جذلا عندما مايكرم ويوقروها ولما أهين اعطى لمن أهانه عاقبة الموت ولما كرم اعطى لمن اكرمه النجاة من الموت . لأن الله منح الصوم قوة يظهرها عند فعله واعطاه سلطة أنه بعد ابرام الحكم والقضاء بالموت يجتذب فاعليه من وسط طريق الانتقام إلى الحيوة والنجاة وهذا الأمر

لم يدعه الصوم مع اثنين أو ثلاثة أو عشرة أو عشرين . بل مع أهل مدينة نينوى بجملتها التي أمست منخفضة كالرأس تحت قبول الرجز والسخط الذى وافاها من العلى بغتة . وبعد ذلك نجت كأنها بقوة قادرة وافتها من العلاء واختلستها من يد الشر وزجتها فى ميناء الحيوة والنجاه . وأن رأيتم أيضاً هذه القضية المستغرب به قابلة الاستماع فارصخوا لكلامنا برهة لنسمعكم اياها . يقول الكتاب المقدس أنه بلغ قول الرب إلى يونان النبى مخاطباً . قم فامض نحو مدينة نينوى العظيمة . انظروا يا اخوتى كيف أن مراد الله أن يجذب قلبه إلى الشفقة على هذه المدينة العظيمه لكونه تعالى عارفاً بسابق علمه بهرب يونان المزمع . فلنصغ إلى غاية الأنذار بالأمر . قل لأهل نينوى أنه بعد ثلاثة أيام تتقوض مدينتكم وتضمحل . ولاى سبب يا إلهنا تسبق فتنبىء عن ورود الشدائد قبل حلولها . فيجيبنا تبارك وتعالى . قصدى بذلك أن لا أعملها فأخاف بورودها لاردع من الوقوع فيها . وقد قال بعض الفلاسفه . فلنرهبن الاقوال لئلا تحزننا الافعال . ولماذا أضيق على أهل نينوى زمن اجتهادهم وشوقهم لخلاص أنفسهم بثلاثة أيام . لكى تعلموا يا احبائى كمية فضيلة أولئك الامم . اعنى أهل نينوى أنها بثلاثة أيام استطاعت أن تحل الغضب الحال عليها من جرائها التى هى عظيمة جداً . ثم تعجب من محبة الله للبشر . كيف أنه رضى بتوبة ثلاثة أيام وصفح بوساطتها عن آثام هذا عظم مقدارها . حتى أن مثلك أنت أيضاً إذا سقط فى آثام عظيمة لا يقطع رجاءه من خلاصه . وكما أن المتهاون الكسلان إذا وقع فى خطية لا يقدر أن يستعطف البارى عليه ولو اتخذ زماناً مديداً فى التوبة . كذلك النشيط ذاته . والمبتدىء بتوبته باجتهاد يستطيع أن يبيد خطاياه الكثيرة ولو فى زمن وجيز . أما انكر بطرس السيد ثلاث دفعات أما كان انكاره الثالث بقسم أما رهب كلام جارية وبعد ذلك ماذا حدث . ألعله احتاج زماناً طويلا لتوبته . كلا . بل فى تلك الليلة سقط فيها ونهض معافى . فحصل له الجرح والشفاء فى ليلة . مرض وتعافى بوقت وجيز . وكيف كان برؤه وشقاؤه . وبأى نوع حصل له ذلك . بالبكاء والحزن والمرارة . لكن ليس بالبكاء فقط . بل باجتهاد وتوجع مؤلم . ولهذا لم يقل الانجيلى أنه بكى بكاء مطلقاً . بل بكاء مراً . ومقدار قوة تلك الدموع التى أذرفها لايستطيع لسان أن يبيح بوصفها . ولكن مظاهر الأمور ونتائجها تظهر كميتها لكون سقطة الجنود شراً عظيما جداً ولكن بعد تلك السقطة الصعبة وذاك الشر العظيم اصعده أيضاً إلى درجة كرامته الأولى ومنحه أن يكون من رسله العظام فى كنيسته المقدسه واظهر لنا السيد جل ثناؤه محبة بطرس لمعلمه أنها

أكثر من باقى الرسل كلهم بقوله يا بطرس أتحبنى أكثر من هؤلاء إلى آخر الآية . فنعطف راجعين . أن الصوم بالحقيقة فضيلة عظيمة ولا يوجد غيرها يساويها . ولئلا تقول أنه بالواجب قد سمح عن أهل نينوى لأنهم قوم برابره جهلة لا يعرفون شيئاً . احضرت لك ذكر بطرس إلى الوسط . لان العبد الذى يعرف إدارة سيده ويفعل مايستوجب به الضرب يضرب قليلا . الذى يعرف ولا يعمل يضرب كثيراً ومن المعلوم أن بطرس عبد خاص عارف لارادة سيده وانظر بعد ارتكابه هذه الخطية التى هى أعظم الخطايا كيف أنه أوصله إلى مثل هذه الدالة المفرطة . فلا تيأس بعـــدها من خطاياك ياأخى واعلم أن أشر الخطأ هو أن يثبت الإنسان فى الخطأ . وأمر من الوقعة هو أن يبقى صاحبها طريحاً ساقطاً بدون أن ينهض . وعلى مثل هـــذا ينوح ويندب بولس الرسول وهو جدير بالنوح والعويل . لانه يقول حتى إذا أتيتكم لا يذلنى الله وأحزن كثرين . لا الذين اخطأوا مطلقا . بل الذين لم يتوبوا ولم يقلعوا عن الدنس والنجاسة التى اقترفوها .قل لى يا هذا . أى زمان هو اوفق للتوبة من زمن الصوم . فلنعد إلى تتمه الخبر قائلين . فلما سمع النبى هذه الأقوال انحدر إلى مدينة يافا لكى يهرب عن وجه الرب إلى ترسيس إلى اين تفر يا انسان .أما سمعت القائل يقول . أين أذهب من روحك . وإلى أين أفر من أمام وجهك . أترى إلى الأرض . فالارض بكمالها للرب . أم إلى الجحيم. ولكن زعم . إذا انحدرت إليها فتجدنى . أم إلى السموات فانك هناك موجود . أو هبطت إلى قاع البحر . فهناك زعم : تقبض على يمينك هذا بعينه اصاب النبى . لان الخطية هى بهذا المقدار ثقيلة حتى أنها تفعم أنفسنا جهلا فظيعاً . وكما أن السكارى النشاوى من الخمر يميلون بمشيهم يميناً وشمالا ولا يدرون ما أمامهم . وهدة كانت أم مكاناً مشرفاً فيسقطون على وجوههم فى غفلة . هكذا الذين يبادرون نحو الخطية ويكونون مضبوطين بشهوتهم ومستأسرين بها فإنهم يضاهون السكارى . فلا يدرون ماذا يفعلون ولا يفكرون فيما هو كائن أو مستقبل . أتهرب من السيد ياهذا . قل لى . ولكن اصبر قليلا . وانت تعلم حينئذ أنه لا يمكنك الفرار من سيد البحر الذى هو عبد سيدك أيضاً . لانه عند ولوج النبى السفينة أخذت الامواج فى ارتفاعها تارة وهبوطها أخرى . حتى كان البحر عبد حسن الطاعة لسيده لـــكونه رأى عبداً مشاركا له فى الاسترفاق هارباً من وجه سيده وقد سرق مال مولاه . أما هو فلحسن وفائه لسيده لم يدعه أن يهرب بل كان يضطهد أولئك الذين ضموه اليهم ليختلسه منهم . هذا صنيع البحر حين شاهد نظيره فى العبودية . وحققه مع المــلاحين قاومهم كثيراً لاجــله . لانه هاج واضطرب .

وصرخ بهم فأزعجهم وقبض عليهم وجذبهم ليس إلى مكان القضاء والشريعة بل إلى لجته ليغرقهم . وقد أرجفهم بأنه إن لم يعطوه خصمه ومضاهيه فى التعبد يحدرهم إلى أسفله وأما النوتية فترى ما الذى فعلوه عندما رأوا هذه الشدائد والأهوال الجارية عليهم . زعم أنهم طرحوا وسق السفينة بأسره . إلا أن السفينة لم تخف لأن الوسق الذى جعلها فى خطر واثقلها كان لم يزل فيها بعد وهو جسد النبى لأنه هو الذى اثقل السفينة وبسببه اشرفت على الغرق . ولكن ثقله ليس من جسده بل من ثقل الخطية . لأنه لا يوجد شيء ثقيل فى الحمل بمقدار ثقل الخطية . انظر كيف أن زخريا النبى شبهها بالرصاص . وداود لما نص عن هذه الطبيعة . قال أن مآثمى علت رأسى . وكالحمل الثقيل ثقلت على . والمسيح يقول نحو المتصرفين بالخطايا هلموا إلى ياجميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم . وهذا الحمل نفسه كان يثقل السفينة بالأكثر وقد أشرفت على الغرق من ثقلها حالا . وأما يونان فكان مستغرقاً بنوم ثقيل . إلا أنه لم يكن نائماً بلذة واشتهاء بل من حزنه وكآبته . لأن العبيد العديمى الموالاة لاربابهم يعرفون ذنبهم سريعاً . كذلك الذى عرف شر الخطية بعدما أصابته . وهذه سجية الخطية دائماً . لأنها بعد أن تتم وتكمل تضرم أوجاع النفس التى ولدتها . وهذا بخلاف ولادتنا الطبيعية لأننا نحن متى ماولدنا تكف عنا الأوجاع والآلام . وأما الخطية فتى ولدت تزيد آلام الذين ولدوها وأفكارهم . وأما رئيس السفينة فحين عاين هذه الأمور المزعجة بادر إلى النبى قائلا له . لماذا أنت رابض بسكينة . انهض فاضرع إلى الهك فى شأن ما تراه . لأن الرئيس صح عنده أن ما أصابهم من هيجان البحر وأنوائه لم يكن من الأمور الاعتيادية . بل الضربة كانت ربانية لأن الغرق الذى كادوا يقعون فيه كان خارجاً عن الأعمال البشرية . ولهذا لم تقدر يدا المدبر أن تحتال عليه بالمساعدة وتسكنه . فالقضية حينئذ آلت إلى مدبر أعظم . وهو الذى يدبر العالم جميعه . فلذلك طرح الجميع القلوع والمجاذيف . وشخصوا نحو السماء يطلبون العون من هناك . ولما لم يعطوا ما يسألونه . ولما عجزوا فى أمورهم ألقوا أخيراً قرعه فوقعت على المذنب . ولكن أولئك لم يسمحوا بطرحه عند ذلك فى البحر . بل مع تلك الشدة والاضطرابات روضوا أنفسهم وسكنوا حواسهم . وقاموا فى ذلك الحين فى الحكم وأخذوا يستفحصون النبى . وأعطوه فرصة ليرد الجواب عن نفسه . وبحثوا عنه بحرص جزيل كأنهم قضاة متشرعون . واسمعهم يسألونه قائلين . ماهى مهنتك . ومن أى أرض أنت . وإلى أين ذهابك . وماهو اسم مدينتك وقبيلتك . ولأى معنى البحر يخاصمك والقرعة توبخك وتشهد عليك . وبعد

هذا كله البحر ينذره . والقرعة تشهره . وهم لم يكملوا الحكم والقضاء عليه حسبما يقتضيه الأمر فى أماكن القضاء لأن الخصوم والشهود موجودون . إلا أنهم لم يصدروا . الحكم على الجانى حتى يحكم هو على نفسه . ويكون خصما وحاكما لخطيته . هكذا فعل النوتية القوم البربر الجهلة . وتخلقوا بالحسنى النظام فى أماكن القضاء وهم فى ذلك الخوف والعطب متضايقون بتلك الاضطرابات التى اعترتهم من هيجان البحر . حتى أنه لم يمكنهم التنفس . وما زال يلعب بهم البحر يميناً وشمالا ويزجهم بين الوجيف والارتجاف . ويرفع أمواجه عليهم مزبداً حتى أضاعوا جميع حملهم لأجله . ولكن بالحقيقة أن هذه القضية كانت من عناية البارى : وهو الذى سمح بهذه الأمور كلها تأديباً للنبى . لكى يصيره محباً للبشر ذا غيرة عليهم . فكانه تعالى كان يهتف إليه ضمن هذه القضية قائلا . يا أيها النبى كن ممثلا لهؤلاء النوتيةالذين هم أناس جهلة سذج . ومع سذاجتهم هذه وحمقهم لم يسمحوا بنفس واحدة أن تهلك ولا لجسد واحد الذى هو جسدك . وأنت قد سمحت عن مدينة مقدارها جسيم جداً وهى مشحونة بربوات من الناس . وسلمتها للبوار حسب هواك . ولهؤلاء الذين وجدوامثل هذه المشقات وكادوا يهلكون بسببك لم يسمحوا أن يعاملوك بالردى حسبما حتمت به عليك القرعة . وأنت ليس لك على أهل نينوى دعوى ولا قضية تشكوهم بها . ومع هذا أنى أمرتك أن تبادر إليهم عاجلا وتردهم عن غيهم إلى طريق خلاصهم بإنذارك إياهم . وأنت لم تطع أوامرى ووصاياى . وهؤلاء لم يسمعوا أحداً يأمرهم بأن يجتهدوا فى خلاصك من سطوة اليم . ويتصنعوا معك بكل حرصهم لينجوك منه . مع أنك أنت المذنب فيهم . أعلموا يا أخوتى أنهم لم يستبيحوا مجازاته بعد أن القوا القرعة بعد تلك الأهوال التى أصابتهم من اضطراب البحر . حتى أنه خصم ذاته بذاته وأقر بالهرب معترفاً وأيضاً بعد اعترافه لهم بذنبه لم يستحسنوا هلاك النبى . بل أنهم أفرغوا كل جهدهم وقوتهم وتصنعوا بكل نوع من حسن التدبير ألا يطرحوه فى عمق البحر . ولكن البحر لم يكن يطابق رأيهم . لأن الله لم يفتر عنهم قصداً منه أن يؤدب النبى فى عمق البحروعندما سمع الملاحون النبى قوله خذونى فزجونى فى لجة البحر . ليسكن اضطرابه حاولوا بكل جهدهم أن يقتربوا من الأرض ويلقوه عليها فلم تمكنهم من ذلك الأمواج المتراكمة . حتى أننا كما سمعنا عن النبى وهو هارب نسمع عنه الآن أسفل وهو معترف فى بطن الحوت . لأن تلك أوضحته إنساناً . وهذه أبانته نبياً . لأنه عندما أقتبله فم البحر أردفه فى بطن الحوت . وحافظ البحر عليه محافظة المسجون خوفاً من هربه ليدفعه فى يد سيده صحيحاً سالماً . ومنع الأمواج الهائلة أن تخنقه . والوحوش الضارية أن تفترسه

بل صانته معافى . وأتت به المدينة المقصودة ورضخ البحر والوحش لأمر الله رضوبفيرأوق طبيعتهما لكى يتأدب النبى بذلك . فلما ولج بعد هذه كلها المدينة بلغ الرسالة أهلها . كأنها منشور ملوكى مخيف مؤدب . وصرخ مابين ساكنيها قائلا . أنه بعد ثلاثة أيام تنقلب مدينة نينوى وتندك أسوارها فتخرب . فلما سمعوا هذا النداء الموعب رهبة وارتجافاً لم يشكوا فى كلامه ولا أهملوه بل أسرعوا بأجمعهم نحو الصوم المنقذ . رجالا ونساء . سادة وأراكنة رؤساء ومرؤوسين . شيوخاً وشباناً . كهولا وأولاداً . حتى طبيعة الحيوانات غير الناطقة شاركتهم فى هذه الخدمة العظيمة . وانتشر لبس المسوح فى قطار المدينة فما كنت ترى إلا رماداً مبذوراً على رؤوس الجميع . ونوحاً تدوى منه الجبال . وندباً تتفتت منه منه أكباد الأسود وافترق العجل عن أمه . وطرد الخروف عن ثديه . واذهلت المراضع عن بنيها . وفطم الرضيع قبل أوانه . وابتعد عن احضان والدته . ولم يكن يسمع بينهم إلا أصوات محزنة وضجات مزعجة فترى الأطفال يطلبون ينابيع الحليب والأمهات يتألمن الألام الطبيعية ويحنن إليهم حنينا يحزن القلوب . والنساء يصرخن نحو أولادهن بالأصوات الموجعة والأولاد يستغيثون بآبائهم جوعاً وتضوراً . ويجهشون ببكاء ونحيب أليم . وقد ضمرت أجسادهم ودقت . وترى الشيخ نائحاً على مايصيبه . وقد اقتلع شعر لحيته . والشاب المترفه يندب ندباً يفوقه . والفقير يتنفس الصعداء تحرقاً . والغنى ذهل عن حسن ترفه معيشته وتاق إلى ضنك المعيشة ومرارتها كعفيف . وترى الملك نفسه قد باين سمو شرفه . واكتسى عوض المجد خزياً . وألقى التاج الملوكى عن رأسه . وذر الرماد فوقه . ونزع عنه ذاك الثوب البرفيرى وأتذر عوضه بمسح خشن . وانحدر من علو كرسيه المرتفع . وانطرح على حضيض الأرض حزينا نادباً ، نبذ جلالة مقامه الملوكى المتحامى المنفرد وأمتزج بالعوام كأنه واحد منهم . وكان ينوح بينهم ويندب نفسه دونهم ، وهـذه السجايا وأمثالها أمكنته أن يخلص مدينته من البوار والهلك أسمعتم قبل هذه بمثل هـذا العجب أن مسحاً بالياً يغلب برفيراً قشيباً مذهباً . والذى لم يمكن البرفير أن يصلحه استطاع المسح أن يهذبه . والذى لم يقدر الأكليل الملوكى على إتمامه فاز الرماد بتثقيفه وتقويمه أفشاهدتم أن قولى عن الصوم لم يكن كذاباً . ونظرتم كيف أن السكر والنهم قلقل أصول المدينة الثابتة ، وأوشك أن يقوض مبانها والصوم وطد أساساتها ودعم قواعدها بعد أن كانت مرتجة . وبهذا الصوم أيضاً ولج دانيال النبى بئر الأسود الضارية وجالسها ، وخرج من ثم كأنه كان بين أغنام وديعة . مع أنها كانت تزأر بشراسة . والمائدة موضوعة أمامها وهى تنظر إليها نظراً مريعاً . إلا أنها لم تقو على التناول مع أن سجيتها الطبيعية كانت

تحثها على تناولها . لأن الجوع كان قد أضر بها إذ كانت منذ سبعة أيام لم تأكل شيئاً حتى أنها تخلقت بخلق شرس يفوق كل السباع الكاسرة . ومع هذا كله كانت تنقبض من النبى وتحتشم أن تمس ذاك الجسد المستعمل الإمساك . وبهذا الصوم وطىء الفتية الثلاثة سعير النار المتقد فى أتون بابل ومكثوا فيه رابضين والنار تتقد حولهم من غير إضرار ولا بؤس حتى أن أجسامهم كانت تتراءى بأنها أكثر ضياء من النار وأبهى نورا وذلك عند خروجهم من الأتون . فيا للعجب من كون تلك المادة نارية محرقة ولم تفعل فعلها المخصوص وتلك الأجساد لم تزل كما كانت ولم يصبها ما يصيب الأجساد من النار . فكيف يمكن أن يكون هذا . فإن كنت مستغرباً هذه القضية فاسأل الصوم وهو يرد جوابك ويحل معضل أشكالك فياله من أمر فائق الطبع أن الأجساد تحارب طبيعة فعالة وتغلبها . أفتشاهدتم هذا الأمر المعجب . ألاحظتم غلبة مذهلة كهذه . فاستقبل الصوم يا هذا بأحضان مفتوحة واعجب من مناقبه النفيسة . كيف لا يكون إثماً عظيما علينا أن نهرب وجلين من ذاك الذى كان لأهل الأتون مساعداً وللذين بين الأسود حافظاً . وللأبالسة طارداً ، ولقضية البارى تعالى المحتومة حالا ولاهتياج الآلام مسكنها . وفى مرقاة الخلاص مصعداً . ولتسكين الأفكار مختلقاً ، أجميل بكم أن تفروا من الذى فى يديه مثل هذه الخيرات الوافرة . ولعل أحد يجترىء أن يقول ؛ أنه يضر الجسد ويزيد فى ضعفه . أجبتك أنه بمقدار ما يفسد الإنسان الخارج يتجدد الإنسان الداخل يوما فيوما . وإن تأملت حقيقة الأمر تأملا جيدا تجد أن الصوم والد العافية والصحة . وإن لم تعتقد بقولى وتصدقه فاسأل الأطباء وهم ينبؤونك عن ذلك بأوضح بيان . لأنهم يسمون أبو الإمساك الصحة والعافية . ويعدون لك أمراضاً متعددة تتولد من الامتلاء : كوجع المفاصل ، وثقل المعدة وفسادها ، وقصر العمر ، وداء الإستسقاء وأنواع البلاغم والأورام وغير هذه من الأدواء الأرضية . فهذه كلها تنتج عن الترفه والنهم فى المآكل والمشارب وتوهى قوة الجسد وصحة البدن وتفسد فرح النفس . كما تفسد المجارى الرديئة النهر الجيد . فلا ترهبوا يا أخوتى من الصوم الذى به تنجون من مثل هذه الشرور المتكافئة . ولا تحسبوا أنى أحثكم بالنصيحة على قبول هذا الأمر حثاً مطلقاً بغير أصل ولكن إعتقدوا أن كلامى لكم هو بأصل يوجب نصيحتى لكم . وهو أنى أرى البعض منكم ، بل الأكثر عند ورود الصوم يقشعرون من ذكره ويتضجرون منه مثقلين ، ويدفعون ذواتهم قرب مجيئه لكثرة الأكل والشرب كأنهم مندفعون إلى حكم إمرأة شريرة فاجرة . فهذا هو السبب الذى يدعونى إلى نصيحتكم وتحريضكم . لئلا تفسد الشراهة والبذخ تلك المنفعة المزمعة التى تنالونها بواسطة الصوم المستقبل ، ويبيدها الفم والبطن . اقتدوا يا هؤلاء

بأولئك المدنفين الذين فيهم المواد الفاسدة . كيف أنهم إذا أرادوا أن يستعملوا دواء منقياً يتهيأون قبل استعماله بتلطيف المآكل لينالوا بذلك منفعة الدواء المنقى . لأنهم إذا اكلوا قبله أكلا زائداً واستعملوا بعده الدواء المناسب لايجديهم ذلك نفعا البتة بل يتكبدون مرارة الدواء ويحتملونها ويطيبون من منفعته . لأنهم أوقعوا التضاد والمنافاة بين الكيموسات التي اكلوها : ومرارة الذى استعملوه . ولذلك السبب ينهى الأطباء عن استعمال العشاء قبل استعمال الدواء المنقى . لكى تسبق قوة الأدوية فضلات الكواميس الرديئة الكائنة فتنقيها . هكذا هو الصوم . فإنك إن شرهت اليوم وسكرت وفى الغد اقتبلت الدواء فإنه لا يجديك نفعاً . وبذلك تصيره غير مفيد غير انك تعانى التعب والمشقة وتعدم المنفعة اللازمة . لأن البذخ المتقدم غلب قوة الدواء وأفسده . فالضرورة إذاً تدعوا أن لا تدخل على الصوم بالسكر والنهم . ولا من الصوم على البذخ لئلا تشبه أيضاً ذاك الذى يكون نحيل الجسم وهو يتمشى رويداً لضعف قواه فيعرض له أن يصدمه أحد برجله فيسقط ويرجع أشر مما كان أولا . هكذا النفوس قبل الصوم وبعده فإننا نحجب صفاء صيامها بغيم السكر والشراهة . ولقد أرى البعض منكم أيضاً يتسلحون تجاه الصوم كمن عزموا على محاربة وحش ضار . كيف أنهم يتدججون بالسلاح ويقوون ذواتهم بآلات الحرب من كل جهة ويحاربون ذاك السبع الكاسر . هكذا أنتم فانكم تستعدون لمحاربة الصوم والتضايق منه وينتظرون ذاك الوديع الهادى بأنواع من الجهل والحمق . فإذا سئل أحدكم لماذا تمضى إلى الحمام فى مثل هذا اليوم . يجيب قائلا لاستقبل الصوم بجسد نظيف طاهر . والآخر لماذا تسكر اليوم . يقول وبوقاحة إنى قادم على الصوم . فياله من قضية مستغربة . وياله من أمر مرذول أمام الله والبشر . لأنك تستحسن أن تستقبل الصوم بجسد نقى . وتصير نفسك مرذولة بالسكر والدنس . وقد كنت أحب أن أقول أشياء أخرى أكثر مما قلته عن هذه الأمور ولكن كفى بمثل هذه الأقوال لتثقيف الفطن الأريب . والضرورة تدعونا أن نكف عن مثل هذه المخاطبات . بما أننا كالرعاة الذين يصفرون بالقصب . وينفخون فيه تحت شجرة ما . هكذا نحن فإننا نصفر لكم فى ظل هذه البيوت المقدسة فلنتمثل يا اخوتى أقوال هذا الأب المكرم المرتل الحاذق فى صناعته . فانظر كيف أصلح ترنيماته بالمعزفة الذهبية وهو يضرب بها الألحان الممتزجة العذبة . وقد أقام لنا مشهداً عظيماً . ليس من أقواله فقط بل من حسن أفعاله البديعة أيضاً طالما أفادنا من فمه الذهبى درر الكلمات الثمينة . وأهدانا من بحار تعاليمه نفائس الجواهر والذخائر السنية .

وإلى مثل هؤلاء المعلمين يشير السيد المسيح بقوله . من عمل وعلم فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السماء فعسى أن يكون ذلك لنا بصلواته وصلوات جميع القديسين ونحظى بملكوت النعيم . بنعمة ربنا وإلهنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذى له مع أبيه وروحه القدوس المجد والعزة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة التاسعة والعشرون

(فى التوبة)

قد عاينتم فى الأحد الماضى . ما صار من الحرب والظفر . حرب مع الشيطان . وظفر وكان السيد المسيح . وشاهدتم كيف كانت التوبة تمدح متلثلثة . والشيطان يولى الادبار . من . قبلها جريحاً مهشما وهو خائف مرتعد . لماذا تخاف ياشيطان ولماذا ترتعد حين ترى التوبة تمدح وتكرم . فيجيب اللعين قائلا . بالحق أن أحزن وانتحب . ويحق لى أن أضطرب وأجزع . ولماذا ؟ قل لى ياشقى . فيجيب قائلا . كيف لماذا وقد اختلست منى هذه التوبة باقتدارها أوانى عظيمة . وماهى هذه الأوانى . هى الزانية . والعشار . وبولس ذاك المجدف . واللص على الخشبة . وبالحقيقة أيها الاخوة أن التوبة أختلست منه تلك الأوانى العظيمة . وأوهت قواه وتركته كئيباً . وقد حصل له من الذين قدمنا ذكرهم جراحات مميتة . فاذا كانت فضيلة التوبة هكذا فلماذا لانبادر نحو البيعة مهرولين لنفوز بها بواسطة استماع هذه الأقوال المخلصة ونكون حريصين على اكتساب التوبة حرصاً مفرطاً . فان قلت أنك خاطىء فبادر إلا الكنيسة واعترف بجريرتك مقراً فتحظى بالغفران والصفح . وأن قلت أنك بار صديق فاسرع إليها أيضاً باتضاع لئلا تسقط من طريق العدل . فعلى كلا التقديرين الكنيسة لك ميناء النجاة . وإن كنت خاطئاً فادخل الكنيسة متوحشاً بالتوبة وقل نحو الله معترفاً . أننى مذنب . فأى تعب يحصل لك من هذا . أم أى طريق بعيدة تريد أن تمشى بها . أم أى حزن وضنق يعتريانك . قل قولا ياهذا فقط . وقل إننى أخطأت ولا تخف . ألعلك تخلص من يد الديان إذا أخفيت آثامك أم لعل الشيطان ليس هو بخصم لك . أسبقه ياهذا وخذ وظيفته . وما هى وظيفته هى المخاصمة والمحاكمة . فاسبقه أنت وأعترف بخطاياك لتمحوها وتصير خصما له . فهلم إلى الكنيسة وقل لله أنك اخطأت . من حيث أنك تعترف

أن لك خصما مثل هذا لاتخفى عنه جرائمك . والله جل ذكره لايبغى منك أكثر من هذا . حسبما يقول الكتاب الألهى . أذكر أنت أولا خطاياك لكى تتبرر . قل : إننى أخطأت لكى تقطع عنك الخصومة . وليس فى هذا الأمر تكلف . ولا يحوجك إلى كثرة كلام أو إنفاق فضة أو غير ذلك . بل يكفيك أن تكون حسن اليقين بربك . وقل فى نفسك أننى متى أعترفت بخطيتى لله ربى فللحين يبيدها . ولك فى ذلك دليل واضح من الكتاب الألهى حين أقر ذاك بخطيته سومح . ودين قايين ذاك الذى قتل أخاه هابيل . حين قال له الله اين أخوك هابيل . قد سأله ذاك الذى يعرف الأمور قبل حدوثها ولم يكن سؤاله عن عدم معرفة . بل ليمهد طريق التوبة أمام القاتل ويعطيه بسؤاله سبباً وفرصة للاقرار والتوبة. ودليل أنه كان عارفاً ويسأله سؤاله فيما بعد . أين أخوك هابيل . فأجابه بقلة أدب . لاأعرف احارس أنا لاخى ؟ فإن لم تكن ياشقى حارساً فلماذا صرت قاتلا . لم تحرس فلماذا تقتل ؟ لحقاً لو اعترفت بالجميع لكنت فعلت سبباً للصفح والغفران . أسمع مايقوله الله له . ها صوت دم أخيك يصرخ إلى . فللحين وبخه الله بجرمه . ومع السؤال قضى عليه بالعقاب . ولم يكن هذا كله بسبب القتل فقط بل بالأكثر لأجل قلة أدبه . لأن الله لايكره الخاطىء بمقدار مايبغض العديم الورع والخشوع ويشناه . وعندما تقدم قايين فيما بعد نحو التوبة لم يقبله الله لكونه لم يعترف بخطيته أولا بعد ماوبخ لأنه قال بعد ذلك هو ذا خطيتى أعظم من أن تغفر . يعنى أننى غير مستحق للحيوة بعدها . فأجابه البارى تعالى قائلا لتكن مرتعداً مرتجفاً على الأرض كل حياتك . فياله من حكم مريع مخيف وقال له أيضاً فى أثناء ذلك انى لاأميتك لئلا يمحى ذكرك فينسى بل أنى ابقيك حياً لتكون مثالا للجميع وناموساً وتصير هذه المصيبة أما للفلسفة . فكان قايين يجول فى المسكونة كانه ناموس متنفس أو عمود متحرك . وهو صامت . ولكن فحوى قضيته كان يهتف بصوت جهير يفوق صوت الصور قائلا . لايفعلن أحد مثل هذا الذى لو اعترف باثمه ابتداء لمحا الله زلته . ولكن لما لم يقر بجرمه وبخ وأدين كما تشاهدونه لكى تعلموا أن هذا هو الحق . اسمع يا أخى قضية أخرى ضد هذه . داود ذاك الملك الفقير بل النبى الغنى وذلك أولى من أن أقول أنه ملك . لاننى أسر بنبوته أكثر مما أسر بملكه لأن ملكه كان مشهوراً فى أرض فلسطين لاغير . وأما نبوته فكانت منتشرة فى آفاق المسكونة بأسرها . ملكه تلاشى واضمحل بزمن يسير . وأما نبوته فكلامها موجود حياً إلى الآن فى العالم كله . وأيسر أن يطفأ شعاع الشمس وتفقد ضياءها من أن يزول كلام

ربنا وينسخ . هـذا داود المذكور سقط فى ورطه القتل والزنى عندما رأى إمرأه تغتسل . وهام قلبه بحبها . وساقه الغرام والوجـد إلى أن أجتمع بهـا وتمم ما كان يشتهيه منها بالفعل . صار النبى المشرف يا إخوتى فاسقاً . سقطت الجوهرة المصونة فى وضر الحماه . ومع هذا كله لم يعرف النبى عظم خطيته . وكيف يتمهد له أن يعرفها ويتبينها وقـد اظلمت بصيرته من لذة الخطيئة وتـكاثفت ظلمتها أو ما تعرفون أنه متى سكر مدبر المركب سارت مركبته سيراً عديم الترتيب . فمدبر المركبة هو النفس . والمركبة هى الجسد والنفس متى ذهلت يتمرغ الجسد فى نجاسة الحمأة . وطالما المدبر متيقظ متنبه . فالمركبة تسير سيراً قويماً مدبراً . ومتى عجز المدبر . عن حفظ زاد الدواب سارت المركبة سيراً رديئاً مهلكا . هكذا الإنسان عينه فطالما نفسه متيقظة وهى قائمـة على التدبير وحسن النظام بانتباه يكون الجسد نقيا طاهراً ومتى اظلمت النفس وعجزت يتورط الجسد فى حمأة اللذات البدنية . فماذا إذا فعل داود بعد هذا ! فعل الفسق ولم يوجد من يوبخه عند ارتكابه الفحشاء . ومتى اخطأ داود . عند انتهاء عمره فى زمن الشيخوخة . لتوقن ياهذا أن الشيخوخة لا تفيك من البأس متى كنت متهاوناً . وأيضاً متى كنت يقظا مجتهداً لا تضرك الحداثة وعنفوان الصبا . لان اتقان الفضيلة ليس بموقوف على زيادة العمر ونقصانه بل على حسب رصانة العقل وتثقيف رأيه . ودانيال كان ابن اثنتى عشر سنة وقضى على الشيوخ المسنين بالحـكم واستعمل الشيوخ الغدر والخيانة وشهدوا إفـكا وزورا . فلا ذاك أضر به شرح الشباب . ولا هؤلاء نفعتهم الشيخوخة . لان تثقيف الامور واقتناء الفضيلة ليس من حدود العمر وأزمنته . بل موكول إلى جودة الرأى وحسن التميز . داود كان فى سن الشيخوخة وسقط فى وهدة القتل وسفك الدم . وهو لا يدرى ماالذى عمله . وذلك لان المدبر كان سكرانا من عدم استماع الزجر وما الذى صنعه البارى تعالى بعد هذا معه . أرسل اليه ناثان النبى رسولا منبها . فوفـد النبى على النبى . فياله مـن أمر معجب . وليس هـذا بعجيب لان مثـل هـذا يحدث فى الأطباء . فانه إذا اعتـل أحـدهم يحتاج إلى طبيب آخر يعالجه . وهكذا هنا نبي إعتل بالخطأ ونبى آخر وافاه بالعقاقير ليعالجه . أتاه ناثان النبى ولـكن لم يوبخه على الفور بقوله أيها المتخطىء الشريعة والدنس الفاسق الفاتك . إنك حزت من الله مثل هذه الكرامات الجزيلة ودست بعد ذلك وصاياه وعصيته . لم يقل له هكذا لئلا يحمله على القحة . ويجعله عديم الحياء ومتحسراً . وكثيراً ما يعرض هذا لمن تتضح خطيئته ، فإنه يصير بغباوته عديم الحياء والخجل ، أتى ناثان إليه واحتج بأن له قضاء يقضيه فدخل عليه وقال له أيها الملك ، إن لى حكما وأنا أسألك أن تحكم لى بمقتضاه . وهذه قضيتى

كان واحد فقيراً ، وآخر غنياً . والغنى له أقطاع من الماشية وحظائر مختلفة . وأما الفقير فليس له إلا نعجة واحدة ، ولمحبته لها كان يسقيها من الكأس التى كان يشرب منها ويطعمها من خبزه أيضاً ، وإذا رقدت كانت ترقد فى حجره[١] فأتى غريب إلى ذلك الغنى فيالها[٢] من أمور محدثة عجباً لأن الغريب استأسر الملك عند وفوده فبخل الغنى بنعاجه الكثيرة عند وفود الغريب واختلس نعجة ذاك الفقير قسراً ونحرها له . فكيف الحكم فى هذه القضية يا أيها الملك ؟ فظن داود أن النبى يعنى بهذا عن غيره ، لأنه فهم الكلام على معناه القريب الظاهر دون المراد البعيد الخفى . ولذلك وقع القضاء مخفياً ، وهذا كعادة الناس وسلوكهم فإنهم إذا أوقعوا الحكم على الغير يجعلونه صعباً شديداً . فقال الملك عند ذلك : حى هو الرب الإله أن الذى صنع هذا الصنيع المنكر يستحق الموت حالا ، وأن يرد عوض تلك النعجة أربعة أضعاف . فما الذى قاله له ناثان حينئذ . فعل كالطبيب الذى لم يجس الجرح جساً بطيئاً ، بل فاجأه بغتة وفجر الورم المنتفخ بسرعة ليشعر بألم الوجع سريعاً فيختلسه ، وأجابه قائلا : أنت هو ذاك الغنى . فأجابه داود على الفور معترفا : أننى أخطأت للرب إلهى ولم يرتفع بقلبه ولا أجابه قائلا : من تكون أنت حتى توبخنى ومن أرسلك إلى لتتظاهر معى هكذا وبأية جسارة وجراءة قلت ما قلته . فلم يقل داود شيئاً من هذا بل حين عرف ذنبه أقر معترفا وقال إننى أخطأت للرب فما الذى جرى بعد ذلك أجابه ناثان قائلا : والرب غفر لك خطيئتك . لأنه يقول لأنك أدنت نفسك وبكتها أعفو أنا أيضاً عن جريرتك أنت بنفسك إعترفت بذنبك وأنا للحين صفحت عن خطيتك ورحمتك . أنت حكمت على ذاتك بالعقاب . وأنا أبطلت هذا الحكم عنك . أشاهدت يا هذا كيف أنه قد تم ماكتب وهو اذكر أنت أولا خطاياك لكى تتبرر . فقل لى أى تعب شاق تجده إذا اعترفت بخطاياك أولا أنظر داود أنه لم يحتج على خطيئته : بقوله إننى وجدت المرأة تغتسل .أو حجة ما غير هذه . بل اعترف قائلا إننى أخطأت للرب . ثم إن للكتاب طريقة أخرى للتوبة فإن قلت ما هى . أجبتك . هى أن يندب الإنسان نفسه ويحزن لأجـــل الخطيئة . فإذا أخطأت إحزن على خطيتك فيباد اثمك سريعاً وليس فى هذا الأمر تعب البتة . لأنى لا أطلب منك

---

(١) يشير بهذا إلى الرجل وزوجته أي أوريا وامرأته . ويعنى بهذه الاوصاف محبة الرجل لامرأته

(٢) يشير بالغريب إلى الشهوة . ولقب داود بالغنى . وهذا من باب التورية ولماذا سمى الشهوة غريباً . لانها لم توجد فى داود إلا فى ذلك الحين : وكان ظهورها فيه حديثاً .

سوى أن تحزن وتتأسف لأجل اثمك ولا أقول لك أن تجوز البحار الهائلة وأن تمشى مسافات بعيدة أو أن تهب مقتناك بأسره . ولكنى أطلب منك هذه . وهى أن تنوح وتبكى خطيتك لا غير . فإن قلت ومن أين لى إذا نحت لأجل خطيتى أنال غفرانها . أجبنك . لك فى هذا برهان سديد من الكتاب المقدس فخذه دليلك . كان ملك اسمه آخاب . قد ذكر تاريخه فى الكتاب المقدس أنه كان ملكا على اسرائيل وأنه كان بسبب امرأته إيزابل يصنع الشرور الكثيرة أمام الله . وسفك دماً زكياً بسبب شهوة الطمع . فاشتهى هذا الملك كرم إنسان اسرائيلى يسمى نابوت . فراسله فى شأنه قائلا . اعطنى كرمك لأنى أشتهيه وخذ منى إما ثمنه وإما موضعاً آخر عوضاً عنه . فأبى نابوت ذلك قائلا. إننى لا أشاء أن أبيع ميراث أبى . فاشتدت رغبة أخاب فى الكرم وهام به واغتم لعدم حصوله على مرامه . إلا أنه لم يرد أن يغتصبه منه . فاتته ايزابل إمرأته . وكانت وقحة عديمة الاستحياء سيئة الأخلاق نجسة . فقالت له لماذا أنت محزون مكتئب ولم تأكل شيئاً ؟ فاجابها الملك إنى اشتهيت كرم نابوت وخاطبته فى بيعه فلم يبعه . فأجابته زوجته قم فكل . وأنا أجعلك ترث كرم نابوت . وكتبت للحال رسالة كأنها من الملك . وأنفذتها إلى مجاورى نابوت . ومضمون الرسالة هو أن يقيموا شهود زور عليه بأنه قد افترى على الله والملك . ونذروا عن ذلك صوما لكى يسفكوا دماً وامتثلوا ماقيل . ورجم نابوت فمات . ولما بلغ ايزابل خبر موته قالت لأخاب هلم الآن فخذ الكرم ميراثاً . لأن نابوت قد مات . وحين سمع ذلك من زوجته فمن شدة رغبته فى الكرم مضى ليرثه فخاطب الله حينئذ ايليا النبى قائلا . قم وامض نحو أخاب وقل له . أنك قتلت نابوت وسفكت دماً زكياً لترث كرمه . هوذا يسفك دمك أيضاً وتلحسه الكلاب والزوانى تستحم به . فهذا هو الغضب الالهى وهذا هو الحكم المثبت . وهذه هى المعصية الكاملة . وارسله الله إلى الكرم لينتقم منه . لأنه حيث تصير الخطية فهناك يلزم أن تكون المجازاة والانتقام. وحيث تجاوز الشريعة فهناك تكون الخصومة . فلما شاهد آخاب ايليا قال له وجدتنى أيها العدو . لأن النبى كان يبكت آخاب دائماً حين يراه مخطئاً . وأنا أعرف أنك كنت توبخنى دائماً . وأما الآن فإنك قد أمسكت بعنقى ولا يمكنى الاعتذار فى ذاتى وأما ايليا فحين عرف مافعل من الخطأ العظيم أوضح له حكم الله العادل قائلا . هكذا يقول الرب الاله. كما قتلت وسفكت دم إنسان وورثته هكذا يسفك دمك أيضاً وتلحسه الكلاب . إفهم يا أخى هذا القضاء

الشديد لأن الجزاء الذى قضى به عليه كان من قبل الله . فحين سمع آخاب هذه الأقوال استحوذ عليه الحزن والكآبة وطفق ينوح على خطيته . لكونه عرف الظلم الذى أنشأه . فلما رآه الله بعد ذلك حزيناً نائحاً . أجل القضاء ألا يكون فى أيامه ولكن قبل أن يصرف غضبه عن آخاب راجع بكلامه ايليا لئلا يظهر النبى فى مقاله كانه كاذب فيصيبه ما أصاب يونان . لأنه هكذا البارى تعالى قال ليونان : قم فأمض إلى مدينة نينوى تلك التى كان عدد ساكنيها اثنتى عشرة ربوة من الرجال عدا النساء والأولاد وأنذر فى وسطها قائلا أنه بعد ثلاثة أيام تنقلب نينوى بساكنيها ولكن يونان لعلمه محبة الله لجنس البشر غير المحصاة لم يرد أن يذهب كما أمره بل اضمر الفرار بقوله أنا امضى يا الهى وانذر لكن أنت محب للبشر ومتى تاب أحد إليك وبكى أمامك بتخشع وندامة تغفر له وأقتل أنا بعد انذارى كأننى نبى كاذب والشرح فى هذا المعنى مطول ولكننا نقتصر منه على جزء يسير فعزم يونان على الهرب فابصر سفينة ذاهبة إلى تخوم ترسيس فاعطى رئيسها أجرته وانحصر فيها ليفر من أمر الرب . إلى أين تفر يا يونان . قل لى . ألعلك تقصد أرضاً غير هذه تواريك عن وجه الله . أما بلغك أن الأرض بكمالها للرب . أم إلى البحر ليقيك . لكن البحر هو صنعه واتقنه . وإن قلت إلى السموات فاسمع النبى داود قائلا . إنى أرى السموات من عمل أصابعك . وإن كان إلى الجحيم فاسمعه أيضاً يقول إن انحدرت إلى الجحيم فأنت هناك حاضر . وإن أخذت لى جناحين وسكنت فى أقاصى البحر فيداك هناك تهدينى ويمينك تثبتنى . ولكن يونان من شدة الخوف الذى ألم به . لم يفكر بشىء من هذا ولا ميزه . بل كان هارباً وجلا وهو لا يعلم أنه لا يمكن لأحد الهرب عن وجه الرب . والنتيجة أن البحر أخذه وبعد أن طرح فيه ومضى به جهراً ولم يخفه إلى مدينة نينوى وزجه فى فى أرضها . وكان البحر فى فعله هذا كالعبد النصوح . وضبطه لكونه شريكا له فى العبودية فلما استقر على وجه الأرض ذهب إلى نينوى وأنذر فيها قائلا . أنه بعد ثلاثة أيام تتقوض مبانى مدينتكم فتنهدم . وبعد انذاره فى المدينة خرج عنها خارجا ينتظر غاية الأمر . فلما جازت الأيام الثلاثة ولم يظهر شىء مما قاله وأنذر به ورأى نفسه كأنه نبى كاذب عدل إلى فكره الأول قائلا اننى كنت أحسب هذا الأمر فى ضميرى . وأقول أنك أنت يامولاى إله رحوم وطويل الاناة وتواب على مساوىء الناس وآثامهم . ولأجل هذا يا اخوتى كان النبى يؤثر الهرب والعدول عن أمر الله . إن الله محب البشر وأنه سوف يرجع عن ايقاع الشر بخلقه ويدفع القضاء الذى حكم به عليهم ولئلا يعترى ايليا ما اعترى يونان بانذاره

أوضح له سبب منع الانتقام عن آخاب وقال له . اشاهدت آخاب كيف أنه جاز أمامى نائحاً مكتئباً . ولذلك السبب أجلت الشر ألا يكون فى أيامه فيا له من عجب كيف أن السيد يلاطف العبد بكلامه والبارى تعالى يرد الجواب إلى إنسان فى آذان إنسان ويؤكد قوله عند النبى . بأنك لا تظن إنى عفوت عنه جزافاً . ولكنى لما رأيته قد قوم سبله واصلح ضميره رفعت عنه الغضب الذى هيأته له . ولا تحسب ذاتك فى هذا أنك نبى كاذب . لأنك لم تقل إلا الصدق . فإن الانتقام كان موافياً بحالة شديدة لا محالة لو لم يصلح سريرته ويغير نواياه .انظرتم كيف أن النوح والتأسف يمحق الخطايا ويصرف النقمة. وهذه طريقة أخرى أيضاً للتوبة. ويوجد طرق مختلفة غير هذه لكى تجدوا من اختلاف الطرق خلاصكم بسهولة . فإن قلت وما هى هذه الطريقة . اجبتك . هى الاتضاع ، لأنك أن اتضعت حللت عقال خطاياك ، ولك على هذا برهان جلى . وهو الذى قاله الكتاب عن ذلك الفريسى والعشار . يقول أنهما صعدا إلى الهيكل ليصليا . فأخذ الفريسى يعدد مناقبه الحميدة قائلا . إنى لست بخاطىء كباقى الناس ولا كهذا العشار أيضاً . فيا أيها الشقى المسكين والعديم الشبع يكفيك إنك دنت المسكونة بأسرها . فما الذى حملك أن تحزن من هو واقف بجانبك ، أما اقنعك افتخارك على الناس جميعاً حتى أنك تدين العشار أيضاً ، أما كان يرضيك حين شكوت الناس كلهم أن تصفح عن إنسان واحد بل ترفعت بنفسك قائلا ، إننى لست مثل جميع الناس ولا كهذا العشار ، إنى أصوم يومين فى الأسبوع وأزكى كل مالى وادفعه للمساكين ، أما اشبعتك الخصومة يا أيها المتشامخ الشقى مع أهل المسكونة بأسرها ، حتى أنك توصل اذاك لمن هو بجانبك وتدينه . وأما العشار فلما سمع هذه الأقوال لم يحاور الفريسى متذمراً قائلا . من أنت حتى تقول لى مثل هـــذه الأقوال . ألعلك مختبر سيرة حياتى لأنك ما ربيت معى ولا ساكنتنى ولا أطلت معى المعاشرة . فمن أين لك بى هذه المعرفة والإختبار حتى أنك تتكبر على بهذا المقدار . وتشهد لنفسك بالصلاح وتزكيها فياله من عجب كيف أنك تفتخر بنفسك ثم تبرر ذاتك . فلم يقل له العشار شيئاً من هذا ولا كلمة بكلمة البتة . بل قام على بعد منحنياً مطرقاً وسجد لله قائلا . اللهم أرحمنى واصفح عنى أنا الخاطىء . فحقاً يا إخوتى أن العشار حين تواضع تبرر . أما الفريسى فبعد أن صعد إلى الهيكل باراً نزل خالياً من كل بر . وأما العشار فرجع مفعماً من العدل والبر . أنظروا كيف أن السجايا غلبت الأفعال . لأن الفريسى قد كان حاوياً صفات البر والعدل . فاضعها بتظاهره . والعشار بمجرد اتضاعه لفظاً نال العدل والبر مع أن الأتضاع الذى فعله

العشار ليس بحقيقى لأن الأتضاع الحقيقى هو أن يكون الإنسان عظيما مفخماً ويتضع .
وأما العشار فلم يكن له ذلك لأن الذى قاله وأبانه عن نفسه هو الحق . وكان صادقاً بقوله
له أنه خاطىء لكونه عشاراً . وهذه الصناعة لا يوجد أشر منها . قل لى هل يوجد أردأ من
ذاك الذى يقاسم أموال الغير التى نالوها بأتعابهم وكد . ويصير شريكهم فى تجارتهم
والأشياء التى ليست له . ويشاركهم فى الربح لا فى الأتعاب ويشاطرهم وهو لا يتعب فى
شىء . فلا شك أن التعشير هو خطية رجسة . لأن العشار ليس إلا خاطفاً مختلساً . وخطيئته
ظاهرة ويطمع بأموال الغير بطريق التصنع والحيله ويقيم له شريعة تساعده على حيلته .
ويليق به مايقال . أنه أشر من اللصوص لأن اللص . يخجل عندما يصادفه أحد يسرق .
وأما العشار فلا يستحى متى خطفت ماليس له . أفلا يكون حينئذ أشر من اللص وبالحقيقة
أنه لا يوجد أشر من العشار البتة . ذاك الذى يترصد الطرق والمذاهب . ويجنى ثمار
الأتعاب الغريبة . لأنه يستريح فى أوان الأتعاب ويتعب فى أوان الربح . ووجه تعبه هو
اعتناؤه فى أن لا يضيع شيئاً من تلك الأشياء التى لم يتعب فى تحصيلها . فمن هنا يظهر لنا
شر العشار وثقل ذنبه وإن خطأه عظيم جداً . فقوله إذاً اللهم اغفرلى وسامحنى أنا الخاطىء.
إنما كان حقاً وصدقاً لا رياء وخداعاً أو تواضعاً منه . فإذا كان الذى نطق بالصدق نال مثل
هذه الهبة العظيمة المقدار . فكم بالحرى ذلك المتضع اتضاعاً حقيقياً . أشاهدت ياهذا كيف
أن المعترف باثمه والمتكلم بالصدق صار باراً . وإن أردت العلم بالإتضاع الحقيقى فأنا
أوضح أنظر بولس معلم المسكونة . ها هو ذا متضع آخر . ذاك البلبل الروحى . ذاك
الأناء المصطفى . ذاك الميناء الهادى . ذاك الحصن الحصين غير المتزعزع . ذاك الذى سعى
فى المسكونة بجسد كأنه بأجنحة . ذاك الذى وفد إلى العالم بأسره . وتأمل كيف كان
يتضع ذاك الجاهل الفيلسوف والفقير الغنى . قل لى عن ذاك أنه كان متضعاً بالحقيقة . أنظر
ذاك الذى تجلد لأتعاب لا تعد . وظفر بالغلبات المتعددة على الشيطان المارد كيف أنه ينذر
قائلا . أنى لست بمستحق أن أدعى رسولا . فحقاً أنه هو الأجدر أن يدعى متواضعاً ذاك
الذى عانى مشقات وقيوداً وجراحات وجلداً . الذى أقتنص سائر المسكونة بشص رسائله .
المنادى باسمه من الصوت السماوى . الذى اتضع بنفسه قائلا أنا أحقر الرسل . اتدرى من
يقول هذه الأقوال . هو بولس الذى صعد إلى السماء الثالثة . هو بولس عمود الكنيسة .
الملاك الأرضى والإنسان السماوى . صدقونى يا أخوتى أنه عندما أحضر اسم هذا فى تصورى

يحصل لى فرح لايوصف لحسن فضائله العالية . حقاً أن الشمس لاتنير الوجـوه وتعطيها بهجة كما تشرق أشعة اسم بولس فى أفواه المؤمنين . فإن كانت الشمس تنير الوجه وتزينه . فبولس يصعدنا نحو الأفلاك السموية نفسها ويجعلنا أعلى من بهاء الشمس والقمر الطالع . لأن قوة فضيلته لهـا قدرة أن تصير ملائكة من بشر وتصعد النفس إلى أعلى السموات . ويكفينا أن مثل بولس المعظم يعلمنا فضيلة التواضع . أفشاهدت اتضاعاً يفوق كل اتضاع . وتأملت العشار حيث صار باراً وورث ملكوت السماء التى نسأل الله أن تـكون لنا جميعاً . ونحظى بها بنعمة ربنا يسوع ومحبته للبشر الذى له المجد والعزة والإكرام إلى الأبد آمين .

المقالة الثلاثون

(فى الصلوة والإبتهال)

أيها الأخوة إن الصلوة هى خير عظيم إذا كانت بشكر وعقل متيقظ ساهر . فإن قيل كيف يمكن لأحد أن يكون شاكراً فى مصابه . أقول متى أدبنا ذواتنا وثقفناها سواء أخذنا من الله مانطلبه أم لم نأخذ . فإننا نكون حينئذ شاكرين الله تعالى فى ذلك لأن البارى تعالى حكيم بأفعاله أحيانا يعطى وأحيانا يمنع ونعتقد أن كلتا الحالتين صالحتان وحسنتان واشكر الله فيهما إن أخذت أو لم تأخذ . لأنه يحدث أحياناً أنك إذا لم تعط ماتسأله يكون لك خير أفضل وأجمل . ولهذا لا تستصعب قائلا . كيف لم يعطنا الله سريعاً . ألعل الله غير قادر أن يعطيك قبل ماتسأله وتطلب منه . نعم إنه قادر . ولكن يريد أن يكون السبب منا أولا نتضرع إليه بعدل حتى إذا سألناه باتضاع ننال منه عنايته العادلة . وبعد هذا نؤدى له الشكر الدائم سواء أعطى أو لم يعط لأن الله إذ لم يعطنا تكون له المنة علينا أكثر من أن يعطينا لأننا لا نميز بين النافع لنا وغير النافع لنا كما يعرفه هو تعالى ويميزه لأن الله يشاء دائماً أن يجتذب الإنسان نحوه كالأب المحب لبنيه . ويطلب منه ابنه وقتاً ماشيئاً ولم يعطه اياه افترى الوالد يصد الولد عن مرامه لبخل منه ؟ كلا . ولكن لشدة غرامه بابنه يتوق إلى أن يكون مواصلا التضرع إليه مسروراً بذلك منه . اعلموا يا إخوتى أن أولئك

الذين يهوون أن يستمع الله منهم متى توسلوا إليه بصلاتهم يلزمهم أولا أن يكونوا مستحقين تلك المنحة التي يطلبونها ولا يكونوا عديمي الإستحقاق لها . ثانياً أن تكون صلاتهم بحسب نواميس الله وشرائعه . ثالثاً أن يكونوا ملازمين الصلوة باجتهاد . ويثابرون عليها متأنين باتصال . رابعاً أن لا يطلبوا شيئاً أرضياً مضمحلا . خامساً إذا طلب الإنسان شيئاً لا يطلبه لأجل منفعة ذاته فقط بل ولجميع الأخوة المسيحيين الأرثوذكسيين أيضاً . فمن صلى بموجب هذه الطلبات الخمس سمع تضرعه وقبل ابتهاله . وإذا طلب الإنسان خلاف ماذكرنا لا يقبل منه ولا يسمع له . ولو كان الطالب باراً أو صديقاً . ترى هل يوجد أبر من بولس وأقدس منه فإنه حين طلب من الله مالا ينبغي ، ما سمع الله طلباته ولا أجاب ابتهاله . وإلى هذا المعنى أشار الرسول المذكور بقوله أنى طلبت من الله ثلاث مرات أن يفارقني فقال لى تكفيك نعمتي . وتقو على احتمال الامتحانات كلها أن قوتى فى الضعف تكمل . وكذلك موسى الذى كان رأساً للأنبياء فإن الله أيضاً لم يستمع دعاءه حين طلب إليه أن يدخل الشعب العبرانى أرض أورشليم لأن ابتهاله لم يكن فى محله وكذلك لا يستمع الله صلوة عمن هو فى الخطأ . ولهذا قال الله لارميا النبى . لاتصل لأجل شعب اليهود فأنى لاأسمع منك أصلا . وكذلك لايسمع الله منا متى تضرعنا إليه فى أن يوقع الشرور والأضرار على أعدائنا بل أنه بالحقيقة يغضب علينا مغتاظاً . لأننا نستحثه أن يصير عدواً لأعدائنا . والنتيجة يا أخوتى أن الصلوة هى عقاقير طبية شافية لكن بشرط أن نعرف كيف يجب علينا أن نستعملها . وإلا فلا يسوغ لنا أن نداوى بها أمراضنا وأن التأنى وهدوء الأفكار فى الصلوة هو أمر جيد جداً حسبما تعلمناه من تلك المرأة الكنعانية حين تضرع الرسل بأسرهم لأجل ابنتها ليشفيها وهو لم يشأ ذلك . ولكن بصبرها واتضاعها فازت بالشفاء الذى كانت تلتمسه . لأن البارى تعالى يحب توبة الخاطىء متى كان توسله إليه بذاته من غير أن يقيم له وسيطا يبتهل عنه فى شأنه . لا كما نراه من أمر الرؤساء المسلطين وأصحاب المراتب لأنه إذا أراد أحد الناس الحتميرين أن يسألهم منة فإنه يلتزم أن يقيم له وسيطاً يشفع فى أمره ويصرف أكثر مقتناه مع توسلات مخشعة وبالجهد ينال منته بخلاف أمور البارى تعالى فإنها لا تجرى على هذا الاسلوب . لأن الله لا يطلب منه وسيطاً سوى ذواتنا لا غير . ويسر جداً عندما يرى منا ذلك . ويهبنا النعمة التى نطلبها منه بسهولة، كما يفعل الآباء الذين يحبون بنيهم . حتى أنهم يصيرون أولادهم المتوانين نشيطين بواسطة منحهم وعطاياهم . فإن استجاب الله دعاءك فاشكره لأنه استمع طلبتك وإن لم يستجب

فاصبر إلى أن يجيبك . ولا تلزمك اللجاجة أن تقيم لك وسيطاً بينك وبينه . أو أنك تكلف أحدا فى الاجتهاد عنك . بل كن أنت فى ذاتك الوسيط فى التوسل إلى الله فتنال طلبتك ولو لم يكن معين ولا شفيع . فلو أذنبنا إلى إنسان ثم أقبلنا إليه باتضاع متوسلين صباحاً ومساء ونصف النهار وأطرقنا برؤوسنا إلى الأرض ساجدين له نغتصبه بمثل هذه السجايا أو التوسلات إلى أن يصفح عما أجرمنا فى حقه . هكذا يلزم صلحنا مع الله بل أبلغ من ذلك كثيراً . لأن من شيم البارى تعالى أنه لا يهب نعمته بواسطة ابتهال الغير . فليسمع هذا أولئك المتهاونون فى الصلوة . وهو إذا امتثلنا فى الصلوة ونحن مفعمون من كل رذيلة . فلا نتذمر على ربنا لأنه لم يستمعنا بل إذا قلت لك كن متضرعا إلى الله مرة أو أثنتين أو عشرة مرات فأكثر فاجتهد أنت الا تبرح من مكانك حتى تنال مطلوبك وقم على قدم الاجتهاد صابراً محترساً إلى أن تعطى سؤالك . وإذا نلت بغيتك فقدم الشكر المتصل لله على ذلك . وأنى لأعجب جداً من كثيرين يردون إلى البيعة المقدسة ويتلون ترنيمات متوالية ويصلون باستمرار . وإذا سألهم أحد عندما يخرجون من البيعة لا يعرفون بماذا يجيبونه به ولا يدرون أى فصل من الانجيل قرىء عليهم فى ذلك اليوم . وذلك لأن مسامعهم كانت غير مصغية لما قيل . فكيف إذا تعتب على ربنا أنه لا يستمع منك . وأنت الذى لا تفهم ماتقوله ولا ماترتله ولا ماتقراه وتصليه . تقول أننى أحنيت ركبتى جاثياً وابتهلت إلى الله بالصلاة . نعم أن هذا حق . ولكن عقلك كان تائهاً خارجاً فى ظلم العالم . ويزداد فى محبة المقتنيات وجسدك وحده كان فى الكنيسة . فمك كان يتلو التسبحة لاغير وعقلك يجول مابين موائد الأكل والشرب . مع أصدقاء المائدة وهذه كلها من ابليس لأنه وحش شرير وعدو ماكر ويعرف حقيقة أنه وقت الصلوة وخاصة عند القداس الإلهى يحصل لنا خير روحى وافر فيعيق اللعين نشاطنا فى ذلك الحين ويبدد صلاتنا ويشتتها . ومتى هممنا بان نتمم فروضنا . يهىء لنا من الأفكار الدنسة مالا يحصى عداً . ويدنس صلاتنا فتظلم . حتى أننا لاندرى ماذا نقول . فمتى أصابنا مثل هذا الامتحان فلنردد صلاتنا مرة واثنتين . حتى إذا شاهد الشيطان فعلنا . ورأى تيقظنا يفر عنا هارباً خجلا . لأنه يرى أن تجارة حيلته لم تنتج له ربحاً . وذلك كله بسبب أننا نثنى صلاتنا ونثلثها بتأن وورع ولنفهم قياس هذا من أنه إذا عرض لأحدنا أمر ما ضرورى واحتاج أن يمضى من أجله إلى أحد الاراكنة المتسلطين . كيف أنه يجمع حواسه كلها ، ويتوسل إليه باصغاء وخضوع ولا يميل نظره عنه لا يمنة ولا يسرة . ولا يلتفت إلى من هو قريب

منه . بل يكون مواظباً على النظر إليه لا غير . فأكثر من هذا يلزمنا أن نصنع مع ربنا متى صلينا وطلبنا منه غفراناً وصفحاً . ويجب ألا ندع عقلنا يجول ههنا أو هناك فإذا لم تكن هذه السجية انا فى الصلوة ليس أننا لانجتدى منها فقط بنفع بل نقع أيضاً تحت طائلة الدينونة والانتقام . فإذا كان الذين يخدمون أولى المراتب والسلطات . يعانون فى خدمتهم أياهم الاثقال العظيمة والشدائد المتنوعة سنين عديدة طمعاً فى أجرة أو كرامة دينونة . فكيف نحن إذا لا يليق بنا أن نصبر بالاجتهاد الواجب فى خدمة سيدنا والهنا يسوع المسيح ذاك الذى سوف ننال منه المجازاة والأجرة الوافرة أكثر من اتعابنا التى نعانيها هنا . فلهذا يحيق العذاب الاليم بالمتقاعد عن هذه الأشياء كسلا . إن الصلوة هى خير عظيم ياأخوتى لأننا بواسطتها نخاطب نحن البشر بارى البرايا كلها . فإذا كان أحد يخاطب أولى الفضائل ويوادهم ينتفع من فضائلهم ومحاورتهم كثيراً فكم بالحرى ذاك الذى يخاطب الله بواسطة تلاوة الكتب المقدسة لاشك أنه يقتنى خيرات مستأنفة لاتحصى . فيا له من أمر مستقبح أننا نأمر عبيدنا وغلماننا أن يخدمونا مطلقاً . وإذا عرض لأحدهم عارض ضرورى وتقاعد عن خدمتنا نتثاقل منه جداً . والبارى تعالى الذى نحن عبيده وبراياه لانرى أن نكف عن أشغالنا برهة جزئية لنقدم له خدمة الصلوة والشكر المختص بشأنه . أيها الانسان الساذج . أنك كثيراً ما تطلب من الله ما لا تعرف موافقته لك. بل غالباً تسأله ما يضر بك وبنفسك. ولأجل هذا يتأخر البارى عن أجابتك. لأنه سبحانه مهتم بخلاص نفوسنا دائماً ولا يلتفت إلى مانبتغيه منه . لأن اعتناءه بما يوافقك كائن قبل أن تسأله . الرسولان القديسان يعقوب ويوحنا . سألا المسيح منحة فاجابهما قائلا أنكما لا تعلمان ماذا تطلبان . وسؤلهما كان أن يكونا أولين ومتقدمين فى الحكم على الباقين فانتهرهما عندما سألاه . فاجابهما قائلا أن هذه الطلبة بخصوص الرئاسة والسيادة هى من شيم الأمم . فكما أن الأباء يعتنون بابنائهم ولايمنحونهم الأشياء التى يسألونها . وليس أنهم يرفضون طلبتهم فقط بل يهتمون بأمورهم أيضاً . هكذا البارى تعالى . بل أنه أيضاً يعتنى بنا أكثر ويسوسنا لأنه يحبنا أكثر من أبائنا . ومتى رأيت ذاتك أنك عجزت عما تتضرع إليه مصلياً . وهو لايستمع منك ولايجيبك . فافتكر فى ذاتك أنه كم من مرة طلب إليك المساكين أن تساعدهم وأنت ولم تجبهم ولم تمنحهم كسرة يابسة لعظم قساوتك وعدم رأفتك . فمتى صرت ياعديم الرحمة رحوماً فالله من عظم محبته لجنس البشر يستمع منك ويغيثك . داود المطلوب ذاك الذى كان يعانى مهمات الملك

والسلطنة كان يصلى أمام الله مبتهلا سبع مرات في النهار . لا لأجله فقط بل لسائر الذين تحت سلطانه وطاعته . فاذاً أى جواب نزمع أن نؤدبه لله تعالى عن تلاوة صلاتنا بالتأنى والفتور . ومن هذه الجهة يجد الشيطان الينا مدخلا فيورطها فى خطط الخطايا المتعدده . لانه كل من يتلو صلاته متواتراً . ويكون مجتهداً فى التوسل إلى الله لا يمكنه أن يسلك فى منهج الخطية . وكما أن المياه المتدفقة تسقى الرياض وتروى الحقول الصادية وتعود بعد جفافها ندية مخصبة وتأتى بأثمار يانعة شهية . هكذا غرسة الصلوة فانها متى سقيت من معين الدموع أينعت وأتت باثمار جيدة لدى الله . ومهما طلب ذلك المصلى أمام الله بمواظبة يستجاب دعاؤه وابتهاله . بحيث انه يجمع جميع حواسه الداخلة مع نفسه . حسبما يقول الكتاب الإلهى . . باركى يانفسى الرب وجميع مافى بطنى لاسمه القدوس . فان فصل عقله وفكره من من الأرض يتصل حينئذ ليس إلى تخوم السماء فقط بل إلى عرش البارى تعالى عينه . لانه تعالى يريد أن المصلى يتلو صلاته بنفس منسحقة لا بفلسفة وكثرة كلام . بل باقوال وجيزة بسيطه وعقل مرتفع متيقظ . ولنتعلم هذا من حنة أم صموئيل النبى حين كانت تقول فى صلاتها هكذا . يا أدوناى يارب الصباؤت . أى أيها الرب الضابط الكل . إنك إن نظرت بطرفك إلى تواضع أمتك ومنحت جاريتك نسلا . قدمته هبة لك ليخدم هيكلك المقدس كل أيام حياته . فاستجاب الله دعاءها وأعطاها ثمرة من بطنها . وهو صموئيل المعظم فى الانبياء . فلاجل هذا يجب على المصلى أن لا يستعمل الهذر فى صلاته . كما يقول السيد المسيح . بل يجب أن يصلى بهدوء وسكينة . ويقول الرب يسوع المسيح ارحمنى أنا الخاطىء . لان الشيطان بكثرة الكلام يجد اليك سبيلا فيطرقك بغتة ويبدد داخلك ويدنس أفكارك ويسرق عقلك . فيعود فمك يتكلم عن شىء وعقلك شاخص فى غيره . وخاصة إذا كنت مملوءا ومتعبا من كثرة المآكل والمشارب تتمطى فى صلاتك متكاسلا فتكون حينئذ تصلى بفتور وملل ولم تكن كذلك حنة أم صموئيل حين ابتهلت إلى الله فى صلاتها بل كانت صائمة وساكنة الحواس . فلذلك عندما صلت بهدوء ورضوخ نالت ما كانت تبتغيه لان الله لا يرذل القلب المنسحق باتضاع . ويجب علينا أيضاً مع ذلك أن نحتمل الشتائم والتعييرات لانه لا يوجد شىء يجعل القلب نقياً طاهراً مثل الصبر والاحتمال . لأنه يقول فى الحزن فرجت لى . وأيضاً فى الاحزان ذكرناك حتى إذا نابتنا نائبة من طوارق الحدثان أو ضنك أضاق بنا ذرعا ولذنا إلى الله وتذكرناه باشتياق وحنو جزيل يسمع تضرعنا ويفرج عنا ضيقنا .

وكذلك أيضاً متى احدقنا بالمائدة فى ميقات الغذاء والعشاء يجب علينا أن نشكر الله أولا وأخيراً وهذا هو الذى يقينا من التهور فى وهدة السكر والشره . ويجعلنا نستعمل المآكل بالطريقة الحسنة والقياس اللائق . فيسر عند هذا النفس والجسد معاً . لأن كل مائدة يبتدأ فيها بصلوة وبركة وتختم بذلك أيضاً لاتنقض البتة من جميع الخيرات . فان قلت انا واقف موقف القضاء ولا استطيع أن أصلى نهاراً . ولا أن ابادر إلى ميناء الكنيسة فأكون مصلياً بها . اجبتك أن هذا سهل عليك جداً . وذلك بكلمات وجيزة يمكنك أن تصير الديان نحوك وديعاً باشاً . ولا يمنعك مكان أو زمان . بل كن بعقلك نقياً مصغياً لا غير فحنه دخلت خزانة قلبها وتوسلت نحو الله من غير صدى صوت والله اجابها . فلا تحتجوا يااخوتى قائلين أن هذا غير سهل ولا يمكن لنا أن نكون ملازمين البيعة المقدسة لنصلى فيها ونحن منهمكون فى مهمات العالم وأشغال المدبرين . لأن المكان لا يمنع والزمان لا يعيق . بل أى مكان وجدت فيه يمكنك أن تقيم هناك هيكلا لله وتصلى فيه . ولو لم تستطع أن تجثوا على ركبتيك . أو تقرع صدرك . أو تبسط يديك إلى السماء . فهذه كلها وإن لم تفعلها بل يكن عقلك وضميرك مشتاقاً إلى الله فقط . فإنك تكون قد أتممت الصلوة باتقان . ولو كنت تمشى فى سوق . أو كنت تمشى منفرداً أو كنت فى حانوت صناعتك مشتغلا . أو فى أى فعل تفعله من الأعمال الكثيرة الأنواع يمكنك أن تتحد مع ذلك بالمسيح وأنت تصلى بعقلك . حتى أن ذاك الذى يطبخ فى المطابخ وذاك الأسير المستعبد الذى ليس له فرصة ليمضى إلى الكنيسة يمكنه أن يصلى صلوة ترضى الله . لأن البارى تعالى لا يأنف من المكان . بل يسألنا شيئاً واحداً فقط . وهو الضمير الحار العفيف والنفس الطاهرة النقية . أنظروا ذلك الطوباوى بولس حين صلى ، ليس فى كنيسة أو بيت ، بل فى سجن مقتم وهو منطرح على ظهره وقد غلت أطرافه بالمقطرة فصلى وهو هكذا ، فقلقل أساسات السجن وربط السجان وجذبه إلى معرفة الله . وكذلك حزقيال الملك حين كان ملقى على فراشه . فعندما حول وجهه نحو الحائط وابتهل إلى الله بدموع أعاد البارى إليه للحين صحته الأولى . وكذلك اللص عندما كان مصلوباً مسمراً ، نال ميراث ملك السماء بكلمات وجيزة . أرميا فى بئر الحمأة . يونان فى جوف الحوت . دانيال فى جب الأسود . هؤلاء كلهم عندما تضرعوا إلى الله بالصلوات الحارة المضطرمة نجوا من شرور كثيرة . فان قلت ماذا يقول الخاطىء إذا صلى ؟ أجبتك : يقول ما قالته الكنعانية . وهو إرحمنى يارب فان إبنتى تصرع من الشيطان . هكذا قلت أنت نحو البارى تعالى . يارب أن نفسى تصرع من شيطان

ردى وبالحقيقة أن الخطية شيطان ردى لأن الإنسان الذى يصرع من شيطان يحزن عليه الجميع ويرثون له . وأما الذى يخطىء فالجميع يبغضونه ويمقتونه . ولا تستصغر ياهذا كلمة إرحمنى لأنها وإن كانت صغيرة تحوى بحراً من المحبة البشرية . لأنه حيث تكون رحمة الله فهناك جميع الخيرات . فاذا كنت خارج الكنيسة فاصرخ قائلا أرحمنى يارب . وإن لم تحرك شفتيك فاصرخ إليه بعقلك . لأن البارى تعالى يستجيب للصامتين أكثر . ولا تبحث عن مكان للصلوة بل الأولى بك أن تبحث عن ضمير جيد نقى . أرميا المغبوط طرح فى بئر الحمأة ودعا الله إلهه فأجابه الله وأنقذه . وأيوب الصديق لما كان على المزبلة مطروحا جعل الله له مسامحاً ، ويونان النبى حين كان محصوراً فى بطن الحوت . فصلى وهو مسجون فيه فأخرجه الله منه . وأقول جملة تغنى عن التفصيل . صلى أينما وجدت ولو فى حمام . ولا تحتج بعدم وجود مكان يناسب الصلوة . لأن الإنسان نفسه هو هيكل الله . إسمع هذا عن موسى حين خلص أمة اليهود وهرب بهم من وجه فرعون فانهم لما استقبلوا البحر أدركهم فرعون وجنوده من ورائهم وكان فرعون يطردهم بكتائبه . وتوسط موسى ومن معه بين البحر والمصريين . فانضغط عند ذلك الشعب الإسرائيلى ، فصلى حينئذ موسى نبى الله صلوة خفية فأجابه البارى تعالى علانية . لماذا تدعونى . فهكذا افعل يا هذا متى عرض لك أمر عظيم ، أوتجربة ما من إنسان أو من شيطان . فَلُذْ بجناب الله عاجلا وأدع إلهك . لأنه تعالى لم يزل معنا ملازماً حسبما يقول الكتاب الإلهى . إنك عندما تتكلم أجبتك ها أنذا حاضر ، فكأنه تعالى يقول لك . قبل أن تتمم كلامك أقترب أنا إليك وأسمع ما تقوله . وبعد أن تتمم تضرعك يهبك صحة النفس والجسد معاً . والنتيجة أنه إذا كان قلبك وعقلك نقياً سليما من الأكدار والآلام الرديئة سواء كنت فى مقام السوق أو فى موقف القضاء أو ساعياً فى الشوارع أو مشتغلا بيديك وأمكنك أن تبتهل إليه فتنال ما تطلبه . وبسط أيدينا نحو السماء فى صلاتنا يدلنا على أن هذه الأيدى قد اجترمت شروراً كثيرة وفعلت أموراً غير لائقة . لأنها تختلس ما ليس لها وتبتغى الاستكثار والطمع ، وتضرب الغير وتسرق ، وتلمس لمساً أليماً لغيرها أم لأعضائها . فيتدنس الإنسان عند ذلك بخطيئة لايوجد أشر منها ، وإلى هذا أشار الرسول بقوله . كل خطية يفعلها الإنسان فهى خارجة عن جسده وأما من يزنى فان جسده يخطىء ويقول أيضاً إن الأشياء التى يفعلونها سراً هى أقبح من أن تذكر . فلهذا اعقل وتفهم بل الأولى أن ترهب جزعاً عندما ترفع بهذه الأيدى تلك الذبيحة الروحية لله واحذر أن تدنسها بالأفعال السيئة . بل دعها تكون طاهرة زكية بواسطة خدمة المرضى من

الاخوة ومساعدة المحتاجين وإسعافهم . وبعد ذلك اسمح بأن ترفع يديك فى الصلوة والطلبة لأنه إذا كانوا بغير غسل ونظافة لا يحسن بهم أن يقدموا صلوة زكية ، فكيف إذاً لو تدنسوا بالخطايا والآثام. بل بالحقيقة أن هذه النجاسة تجتذب غضب الله وسخطه على المخطىء بزيادة ثم إذا آثرت أن نعرف كمية قوة الصلوة التى تقام فى بيعة الله . فاسمع ما أقوله كان بطرس الرسول عند ما كان مسجوناً ومكبلا بالسلاسل والأغلال ويداه ورجلاه مضغوطتان فى المقطرة . ولكن لما تقدمت عنه الصلوة فى البيعة من جمهور المسيحيين أنقذته للحين تلك الصلوة من اعتقاله ونفست عن كربه . ترى أى شىء هو أوفر قوة من الصلوة . ويكفيك أنها عضد مثل هذا الشهم المفضل الذى هو حصن البيعة وعمودها . وهذه الوصية أعنى وصية الصلوة لم يكن الموعوظون مأمورين بها فقط بل قد أوصانا بها نحن المنصبغين بالمعمودية المقدسة . وأمرنا أن نقدم الصلوة عن العالم أجمع . وعن الأساقفة أيضاً . قل لى يا هذا إذا كان المشجوبون الذين هم تحت طائلة القتل والإنتقام متى أجمع الناس على الإنتصار لهم . وتوسلوا فى شأنهم عند الملك الأعظم يمكنهم أن يسكنوا غضبه وغيظه ويحولوه إلى السلم والرقة . ويحملوه إلى أن يعفوا عنهم ويعتقهم . فكيف لا تكون أبلغ من هذا كثيراً الصلوة إلى الملك السماوى بأن يهبنا بواسطتها صفحاً وغفراناً . وتقسره تلك التضرعات الخشوعية من لفيف المؤمنين . وخاصة صلوات الكهنة وابتهالاتهم . ولذلك السبب وضع لنا البارى تعالى كهنة ليكونوا معتنين بنا ويؤيدوا صلوات الضعفاء لكى تقوى على الصعود إلى أعلى السماء . وتمثل بحضرة ربنا وإلهنا يسوع المسيح المرهبة . فإذا كانت صلوة الكنيسة يا هذا أيدت بطرس أحد الحواريين وأنقذته من اعتقال السجن وخلصته ، فكيف أنت بعد هذا تتقاعد عنها وتتهاون فى صلوة الكهنة وابتهال جمهور المسيحيين . إعلم أنه كما أن شدة المحبة الواقية لا يعتريها بعد مكان شاسع هكذا فعل الصلوة فإنه لا يحظرها مانع أصلا . وكما أن تلك المحبة تجمع شمل المتفرقين كذلك الصلوة فإنها تؤبد البعيدين وتعضدهم . موسى لم يكن حاضراً مع المحاربين بالجسد ، ومع هذا كانت مساعدته لهم وافرة حيث كان يبسط يديه كالصليب نحو السماء . لأن الكتاب الالهى يقول . وحينما كان موسى يرفع يديه إلى العلاء كانت جيوش اليهود تغلب العمالقة وعندما ماكان يتعب ويخفض يديه كانت جيوش العمالقة تغلب الاسرائيليين فلذلك التزم هرون وحور أن يسندا يديه لئلا يخفضهما فانتصر عند ذلك الإسرائيلون وفازوا بالظفر واعلم أيضاً أن تثقيف المناقب الحميدة لا يكون عظيماً جداً الا إذا ربح منه الآخرون . وتفهم هذا موقناً : انك لو كنت ممسكا

ناسكا واضطجعت على الحضيض . أو أكلت التراب عوضاً عن الخبز أو انتحبت على آثامك مدى ايامك ليلا ونهاراً . وانت لا تنفع غيرك بجهادك فبلا شك أن تعبك هو باطل وأن جهادك ليس بعظيم . إن ذاك السعيد موسى قد اجترح آيات كثيرة باهرة . وكلها لم تحسب له أمراً جسيما سوى ذلك الصوت المغبوط الذى قاله لله تعالى وهو إن تركت لهم خطيتهم فنة ونعمة . وإن لم تتركها لهم فامح اسمى من مصحفك . وكذلك داود كان يقول لله هكذا انا هو الراعى وأنا الذى أخطأت الرعية : فالاولى أن ترجع غضبك على وعلى بيت ابى لاغير فهذه أفعال الانبياء . وحقاً انها لعظيمة ومضاهية للسيرة الملائكية . ولكن أفعال بولس الرسول تفوق هذه قدراً وشأنا بالمحبة والشفقة . ذاك الذى سأل أن يسقط من بهاء المجد العتيد فدية عن خلاص للبشر . أعنى أن يعدم الخيرات السموية بحيث انه يخلص العالم باسره وانظر يونان النبى إذا كان يبغى مايوافق ذاته عانى الشدائد الثقيلة حتى الموت غرقا . ومدينة نينوى استقامت ولم تغرقها لجج البحار . ويونان وحده ابتلع من الحوت العظيم . وعلى ما أرى أن حنو بولس وشفقته تتجاوز شفقة موسى الكليم . وذلك بين . لان موسى ارتضى أن يهلك مع هلاك شعبه الاسرائيلى . وأما بولس فأبى أى يهلك مع شعبه . بل سأل الله أن يخلص العالم كله . وهو وحده يعاقب باشفاق . حسن هو للانسان أن يحور صلوات القديسين ولكن متى كان بريئاً . وإن كان على خلاف ذلك لايرجو من مساعدات الغير له نفعاً . بل إنه سيباد معها مضمحلا . قل لى ما الذى نفع اليهود عند ابتهال أرميا النبى وتضرعه لاجلهم . أماصلى إلى الله فى شأنهم ثلاث دفعات سمع الله يقول له لا تصل إلى متوسلا فى شأن شعب قد تجاوز الشريعة : أوما الذى أفاد شاول حين كان صموئيل النبى يصلى عنه : ويبكى أمام الله من أجله : حتى وقت وفاته . سمع الله ماذا يقول على لسان النبى المكرم . أنه لو قام نوح وايوب ودانيال . لايمكنهم أن يستنقذوا بنيهم وبناتهم من العقاب . لكون شرورهم قد نمت وتضاعفت . فالملخص من هذا . أن صلوات القديسين الأصفياء لاتنجح فى مثل هذا المظهر . نعم إنها تجدى نفعاً . ولكن متى عضدناها بمظهرنا الحسن وإن آثرتم معرفة نفع صلاتهم عليهم السلام . فاذكروا صلوة كورنيليوس الفاضل . ولا تغفلوا عن صدقة الطوباوية طابيثا التى كانت تصنعها . واسمعوا البارى تعالى يقول . انى لأعضد المدينة العظيمة أورشليم . وذلك لأجلى ولأجل داود عبدى . وفى أى زمان فاه السيد بهذا . وعندما كان حزقيا الصديق متقلداً الملك عليها . لا عندما فاجأه بالمواكب والكتائب . لان

فى ذلك الأوان كان شر اليهود قد تفاقم متزائداً وخبثهم قد قوى جداً . وقد استجاب الله دعاء أشعيا النبى . ولكن متى . لما كان أهل ذلك العصر يعملون أفعالا جيدة فانه أرسل ملاكه فى ذلك الأوان . وقتل فى ساعة من ليلة واحدة مئة وخمسة وثمانين ألف جندى من عسكر الملك سنحاريب ولربما تقول . وأية حاجة لى بصلوة الآخرين . وأنه ليكفينى متى عملت بحسب مراد الله . بعداً لمعقولك أيها الإنسان . حقاً إن بولس ذاك الاشرف السعيد . لم يقل ماذا تنفعنى صلوة الآخرين . مع أن صلوة أولئك لم تكن مستجابة كصلاته وكذلك بطرس أيضاً . مالى وللصلوة من الغير . مع أنك قد سمعت أن صلوة متصلة كانت تقام إلى الله فى شأنه من الكنيسة . وبواسطتها للحين نجا من الشدة والاعتقال . أحسن منك يا هذا أن تقول . ماذا يحوجنى إلى الصلوة . حقاً إنك تحتاجها من حيث تزعم أنك لا تحتاجها . ترى كيف يمكننا أن نستميل رضاء البارى تعالى إلى الصفح عن خطايانا وآثامنا عندما يستفحص عن ضجرنا وتوانينا وقت صلاتنا . والأشر من هذا هو امتثالنا لديه متضرعين من غير أن نعمل له الإكرام الواجب حسبما يفعله العبيد لساداتهم . ولا تظهر له الطاعة والورع . كمثل مايظهره الجنود لمقدميهم . والملاحون لرؤسائهم . ولا بمقدار تلك المحبة التى يواصلها الأصدقاء لخلانهم . ومتى عرض لك يا هذا أن تخاطب محبك وصديقك تكون معه فى مقام الورع والاحتشام . أما عند ابتهالك نحو البارى ومكالمتك معه فى أن يصفح عن ذنبك وخطاياك فتتوانى وتتمطى متكاسلا . وتكون قدماك منتصبة فى أعتاب المسجد . وعقلك يطمح خارجاً . تارة فى شأن المتاجر وتارة فى فوائد الفضة . وطوراً فى المهنة وشغل اليدين . وفمك يتلو هذراً باطلا . وهذا الأمر لا يصيبنا مرة وأثنتين . بل مرات كثيرة أيضاً . فهل نجد لنا جواباً نجيب البارى تعالى به إذا سألنا عن هذا فقط . أو إذا استفحصنا عن النظر الذى يطمح فى محاسن الصور والهيئات المضمحلة أو عن الهواجس الشريرة . والشهوات الدنسة . التى تنتج لنا من عدم استقصائنا الضلالة الحاصلة لنا من جرى ألحاظنا الغاشة . أو عن المماحكات والمداينات التى تتجنى بها كل يوم على قريبنا وهو برىء منها . أو عن المكر والغش الذى يختلقه كل منا بصاحبه . فنتراءى لأخواننا بالمواجهة بالمدح والتقريظ والكلام اللين والألفاظ العذبة . وعند افتراق كل منا عن صاحبه نأخذ بالدينونة والثلب . فكم من عقاب اليم سوف نعاقب به ، ثم ماذا نقول عن الحسد الذى يحسد به أحدنا الآخر إذا رأيناه بحالة مرضية أو عن تلك الشماتة التى نشمتها به متى رأيناه هاوياً فى مصيبة . ونسر عند مضرته فرحين ، سيدنا

فى ذلك الأوان كان شر اليهود قد تفاقم متزائداً وخبثهم قد قوى جداً . وقد استجاب الله دعاء أشعيا النبى . ولكن متى . لما كان أهل ذلك العصر يعملون أفعالا جيدة فانه أرسل ملاكه فى ذلك الأوان . وقتل فى ساعة من ليلة واحدة مئة وخمسة وثمانين ألف جندى من عسكر الملك سنحاريب ولربما تقول . وأية حاجة لى بصلوة الآخرين . وأنه ليكفينى متى عملت بحسب مراد الله . بعداً لمعقولك أيها الإنسان . حقاً إن بولس ذاك الاشرف السعيد . لم يقل ماذا تنفعنى صلوة الآخرين . مع أن صلوة أولئك لم تكن مستجابة كصلاته وكذلك بطرس أيضاً . مالى وللصلوة من الغير . مع أنك قد سمعت أن صلوة متصلة كانت تقام إلى الله فى شأنه من الكنيسة . وبواسطتها للحين نجا من الشدة والاعتقال . أحسن منك يا هذا أن تقول . ماذا يحوجنى إلى الصلوة . حقاً إنك تحتاجها من حيث تزعم أنك لا تحتاجها . ترى كيف يمكننا أن نستميل رضاء البارى تعالى إلى الصفح عن خطايانا وآثامنا عندما يستفحص عن ضجرنا وتوانينا وقت صلاتنا . والأشر من هذا هو امتثالنا لديه متضرعين من غير أن نعمل له الإكرام الواجب حسبما يفعله العبيد لساداتهم . ولا نظهر له الطاعة والورع . كمثل مايظهره الجنود لمقدميهم . والملاحون لرؤسائهم . ولا بمقدار تلك المحبة التى يواصلها الأصدقاء لخلانهم . ومتى عرض لك يا هذا أن تخاطب محبك وصديقك تكون معه فى مقام الورع والاحتشام . أما عند ابتهالك نحو البارى ومكالمتك معه فى أن يصفح عن ذنبك وخطاياك فتتوانى وتتمطى متكاسلا . وتكون قدماك منتصبة فى أعتاب المسجد . وعقلك يطمح خارجاً . تارة فى شأن المتاجر وتارة فى فوائد الفضة . وطوراً فى المهنة وشغل اليدين . وفمك يتلو هذراً باطلا . وهذا الأمر لا يصيبنا مرة وأثنتين . بل مرات كثيرة أيضاً . فهل نجد لنا جواباً نجيب البارى تعالى به إذا سألنا عن هذا فقط . أو إذا استفحصنا عن النظر الذى يطمح فى محاسن الصور والهيئات المضمحلة أو عن الهواجس الشريرة . والشهوات الدنسة . التى تنتج لنا من عدم استقصائنا الضلالة الحاصلة لنا من جرى ألحاظنا الغاشة . أو عن المماحكات والمداينات التى تنتجى بها كل يوم على قريبنا وهو برىء منها . أو عن المكر والغش الذى يختلقه كل منا بصاحبه . فنتراءى لأخواننا بالمواجهة بالمدح والتقريظ والكلام اللين والألفاظ العذبة . وعند افتراق كل منا عن صاحبه نأخذ بالدينونة والثلب . فكم من عقاب اليم سوف نعاقب به ، ثم ماذا نقول عن الحسد الذى يحسد به أحدنا الآخر إذا رأيناه بحالة مرضية أو عن تلك الشماتة التى نشمتها به متى رأيناه هاوياً فى مصيبة . ونسر عند مضرته فرحين ، سيدنا

له المجد يوعز إلينا أن نصلى لأجل الذين يضطهدوننا ويمقتوننا . وأنت ما الذى تقوله أيها الإنسان أراك عندما تأتى الكنيسة مصلياً لغفر الله لك تشرع فى أن تلعن الآخرين وتسأل الانتقام منهم ، أما علمت بأنك إن لم تترك لا يترك لك ، وأنت مع هذا لم يكفك أنك لا تطلب إلى الله فى شأن اخيك أو عدوك أن يغفر له ، بل انك تدعو إلى الله فى أن يحبس رحمته عنه ويعدمه الحيوة ، لا يا أخى ليس هذا شأن المسيحيين ، فإن كنا مؤمنين يلزمنا ألا نستعمل الحقد والضغينة والمعاداة بل المحبة الحقيقية ، ومتى سألت الله الصفح عن خطاياك فلا تفطن لخطايا غيرك لئلا يفطن الله لخطاياك وإذا صلينا لأعدائنا فلا نهتمن بخطايانا لأنها قد غفرت حسبما يقول الله اتركوا يترك لكم ، ومن هنا ينتج أنه لا يوجد نفس أكثر شراً ولسان أردأ نجاسة ولؤماً من الذى يلعن أخاه ولا يباركه ، فإن كنت حقاً إنساناً وداخلا تحت اسم الحيوان الناطق فلا تنفث السم كالأفاعى ، إن كنت حقاً إنساناً وعالياً فى ذروة الشرف على جميع مصنوعات الله فلا تتخلق بخلق صل خبيث ووحش مفترس ، أن الله منحك فماً عذباً ولساناً فصيحاً . لا لتعض به كالكلب الكلب . بل لتعزى به أخاك وتسلى الغير بعذوبة منطقك البهج . فكر ياهذا بما عهد به إليك ربك بقوله . اغفر وسامح المذنبين إليك . فمالى أراك بقول البارى تستحثنى وأنا إلهك أن أشاركك فى دم أخيك المسفوك من يدك وتسألنى أن انقض وصاياى وعهودى وتحب أن تأكل لحم أخيك وتخضب لسانك بدمه كالمستشيطين غضباً وتصير ذاتك ضحكة للشرير وتدعه يهزأ بك عندما يسمعك تصلى مثل هذه الصلوة وتحث البارى تعالى فى الغضب عليك والبغض لك . ميز ذاتك وتأمل بناظر عقلك لما تتفوه بمثل هذه الكلمات السمية إلى أين أنت ماض . وأمام من أنت منتصب . ألعلك تظن أنك بازاء شخص مثلك . كلا بل تجاه الله القائل . صلوا على أعدائكم فياللعجب كيف أنك تجسر على القائل هكذا وتضرع إليه فى أن ينقض ناموسه الذى وضعه . حقاً أن هذا ليس مظهراً للعبودية ولا من الواجب أن يسأل أحد فى اهلاك غيره بل الأولى به أن يسأل فى استنقاذه . لماذا تتظاهر بمظهر عبد رقيق وتتصلب بكلام خصم ألد . فترانا عندما نبتهل إلى الله فى شأن أنفسنا وغيرها يبدأ كل واحد منا بحك جلده كسلا ويتثاءب ضجراً ونخوض فى تيار هائل من الأفكار القذرة . وأما إذا شئنا أن نعلن أعداءنا وندعو عليهم فننتصب لذلك بنشاط واجتهاد بليغ وانتباه لا يوصف وذلك لأن الشيطان متى تبين له أننا نريد أن نولج السيف والسنان بذواتنا لا يسبب

لنا مانعاً يعيقنا عن ذلك لأنه حريص على خسراننا بزيادة . فان قلت أنى مظلوم من خصمى ولهذا أنا أبكى نائحاً متنهداً أجبتك . أنه لمن الواجب عليك أن نعلن الشيطان الذى يرغب فى أن يظلمنا أجمعين ، لأنه هو الذى يلقى بيننا بذار المشاجرات والمنازعات وأما الانسان ولو فعل مافعله فهو صديق واخ فاذا كان الأمر هكذا فلماذا تغادر العدو الحقيقى الذى هو الشيطان وتنهش زميلك الذى هو الإنسان . فان عرفتم هذه الأشياء ياأحبائى فلنجتهد فى أن نثابر على وصايا الله وعهوده ونستسير بحسب ماتقتضيه إرادته لننال ميراث ملك السموات ونظفر بالخيرات الأبدية بيسوع المسيح ربنا الذى له المجد والعزة والإكرام مع أبيه وروحه القدوس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

المقالة الحادية والثلاثون

« فى التوبة والصدقة تقال فى أحد المرافع »

إن جنود الملك الأرضى لايحضرهم إلى حومة الميدان الانداء المنادين وأما جنود الملك السماوى أعنى يسوع المسيح فلا يجمعهم إلى مقام الجهاد إلا صوت القراءة ونداء الكتب الإلهية . فإنها تجمع الناس وتحثهم على تمجيد الله والخوف منه ، ولكن أولئك ينتصبون فى مصاف حرب مشهود ليبارزوا أعداءهم فى ساحة الكفاح وأما نحن الملتئمون بالصوت الإلهى فاعداؤنا غير ملحوظين . لأنهم أرواح شيطانية . حسبما يقول المتأله فكره بولس الرسول أن صراعنا ليس مع لحم ودم بل مع الرؤساء والسلاطين والأرواح الشريرة المترتبين فى أوج الفضاء . فتأملوا أيها الأخوة أى أعداء لنا وأنظروا محاربتنا مع من هى وكيف أنهم أشرار وعديمو الاستحياء . وهم يبتغون منا أن نرتكب كل المعاصى لنعاقب معهم بعذاب اليم وينصبون أشراكا مختلفة . حتى إذا لم يحصل لهم أن يوقعونا بهذه الخطية يعدلون بنا إلى الأخرى وإذا يئسوا من تلك أيضا يخترعون لنا واسطة غيرها ولا يزالون ينقلون بنا من واحدة إلى أخرى إلى أن يوقعونا باشراكهم ويتم لهم المراد فيستاقون واحداً إلى الزنى وآخر إلى الفسق وآخر إلى خبث . وآخر إلى اختلاس ما ليس له . وآخر إلى سرقة مال مجاوريه وغيرهم . وآخر

إلى استكثار وطمع . وآخر إلى حسد وغيره . وآخر إلى شتم وقتل . وآخر إلى دينونة وتجن . وآخر إلى أكتساب المديح الباطل من الناس . وآخر إلى محبة المجد الفارغ . وآخر إلى شره وفساد . وآخر إلى سلب مال الكنائس . وآخر إلى عـــدم استحيا وآخر إلى القساوة وعدم الشفقة . وآخر إلى المجد والحلف . وآخر إلى المذمة والتذمروآخر إلى الغيظ والحنق وآخر إلى أشتهاء الظفر والرياء وآخر إلى التجديف والطماثة وآخرين إلى أن يقسوا البعض عن افتعال الرحمة مع المساكين . وآخرين إلى أن يغيروا تخوم أراضى جيرانهم وحدودهم . وأخرين إلى أن يتقاعدوا عن أجرة فعلتهم . ويا له من شرلا يوجد أصعب منه . وآخرين إلى أن يعيروا الأيتام ويحزنوا الأرامل . وآخرين إلى أن يصيروا أسباباً للغير فى الوقوع بالآلام النفسانية التى لايحصى عددها . وإن ذكرت لـــكم الجميع واحدة فواحدة تفنى حياتى والزمان ولا يمكننى أحصاؤها . أنظروا يا أخوتى كم من شرور نسقط فيها كل يوم ونحن لانصغى إلى ذلك بعقولنا . ويحاً لى . ماذا يكون حالى أنا الشقى المهان ، صدقونى يا أيهاالإخوة انى حين كنت أرتب هذه الأقوال وأكتبها كان يشملنى الخوف والأندهاش وتعترينى الرعدة والتعجب ، ولشدة ما تستحوذ على الأوهام تذرف عيناى بالدموع واجهش بالبكاءو والانتحاب ، خاصة عندما أفكر فى مثل هذه الأدواء الشريرة والحيل الشيطانية التى نخادع بها . ويضحك علينا الشرير من قبلها . فعلى م نهمل عنصر خلاصنا . وحتى م لا نهتم بورود كأس الحمام . وإلى م نتهاون بسلوك سيرتنا كسالى وإلى م انتظارنا . وحتى م نكون عادمى الشبع ، وحتى م نتهاون بالبائسين ولا نرحمهم ، وحتى م نهتم فى احتشاد الأمتعة . واكتناز العسجد واللجين . وحتى م نتخطى إلى محبتهما التى هى مخنق الأنفس. وحتى م نقيم فى ظل الحسد والكبرياء ونتظلل بافياء النفاق والدينونة وحتى م نستكن فى مقر الشهوات الدنسة والهواجس الرجسة . فلماذا نضل ذواتنا بذواتنا ولأى شىء نحن مترقبون . ولماذا نتعب باطلا . ولماذا نكنز الأشياء الزمنية وندخرها ألم تكفنا محبة هذه الأشياء الغريبة عنا . فلنتب يا أخوتى . فلنتب ولو أنه الآن ؛ ولننهض من رقدة الخطية والتوانى بنشاط ، وإنى لأضرع إليكم ياأيها الإخوة قائلا . أن تكتحلوا بمرود التيقظ . وجانبوا الهجود والوسن الثقيل ، وهلموا إلى مقبلين . واسمعوا ما أصفه لكم يامعشر المتقين الله . وهلموا إلىواستمعوا كلمات روحية تخلص نفوسكم . هلموا إلى وتعلموا منى مشورة صالحة ومرضية لله لتنقذكم . هلموا فلنعترف لله بأجمعنا ، هلموا قبل أن ينحل موسم هذه الحيوة . وقبل أن توصد فى وجوهنا أبواب الحيوة السمويه قبل أن يرد الموت فيجدناغير مستعدين. هلموا قبل أن تأذن الشمس بالمغيب . وقبل أن يستر الضياء الظلام المدلهم

هلموا يا قبائل أبناء البشر جميعاً غنيها وفقيرها . هلموا يا أولى الجنس الحسيب ويا ذوى الشرف والنباهة . هلموا يا أيها الأحرار والعبيد . هلموا يا قبيلة فقبيلة . وقامة فقامة من رجال ونساء صغار وكبار . وأحداث مع شيوخ . هلموا يا كهنة الرب وكافة بنى الأكليروس هلموا ياقاطنى المسكونة مغرباً ومشرقاً . هلموا يا أيها الشبان والعذارى ويا أيها الكهول والأحداث . هلموا ياجميع ملوك الأرض مع الحكماء والأميين . هلموا فلنسجد بخشوع وورع لدى ربنا الذى يرانا وأوجدنا . هلموا يا أخوة متفهمين أن لاشىء ينفعنا من العالم ولا غيره . هلموا فلنعاين أننا كما دخلنا إلى هذه الأرض هكذا سنخرج منها ذاهبين إلى المكان المعد لنا ، هلموا معترفين إلى الرب بعبرات منسجمة ، وتنهدات حارة ، وصدقات متصلة منا إلى المساكين مقرونة بالحنو والرأفة وهو يرينا طريق خلاصنا . ولنقبل إليه باخلاص نية قائلين :

صلوة

يارب أننا أخطأنا إليك فى السماء . وأمام جلال عزتك . فاقبل منا رجوعنا وتوبتنا واقبل منا نحن الخطاة نوحنا وبكاءنا حتى الإنتهاء . وإلى غاية الموت . اقبلنا نحن المفعمين بؤساً وشقاء . نحن الذين سلكنا سبيلا ذات شر ونفاق . اقبلنا يا أيها الوالد للأنام . لأننا أغضبناك جداً اقبلنا أيها السيد نحن الذين أفسدنا حياتنا فى الرجاسة والعصيان . وأضعناها بكل المساوىء والشرور . اقبل أيها الرب الاله أولئك الذين تجاوزوا وصاياك وشرائعك . ورضخوا لوساوس الأبالسة الخبثاء . اقبلنا أيها السيد لا حسب أعمالنا . فاننا نقر معترفين باننا غير مستحقين ولا لهذه الحيوة الحاضرة من جرى أثامنا وسيئاتنا . ونعترف أيضاً يا ربنا والهنا بأننا لسنا أهلا لأن نعاين شيئاً حتى هذه الشمس المنيرة أيضاً . لأننا أرتكبنا كل كبيرة . حتى أنه لايوجد نوع من الخطأ والشر إلا اصطنعناه بغباوتنا نحن الأشقياء . ولكننا رجعنا إليك فاقبلنا أيها السيد كالأبن الشاطر واللص والزانية الباكية واطلع علينا يارب . وأرددنا إلى خوفك . وافهمنا ارادتك يارب . ولا تغضب علينا . بل افحص عن خطأنا منعماً كما صفحت عن العشار حين أتى إليك تائباً . لأنك أنت هو آلهنا . ولا نعرف أحداً أخر سواك . انقذنا يارب من أعدائنا . ولا تدخل فى المحاكمة مع عبيدك . فأنت هو الرب الآله . ونحن شعبك وغنم رعيتك فقد اخطأنا وأسأنا . وأرتكبنا الظلم أمامك وأصطنعنا الشر والأساءة . وتوغلنا فى مهالك الخطأ جميعاً وشردنا عن مناهج وصاياك ولم

نستمعها . فلهذا غدونا ضالين متحيرين وبعدنا عنك نائين . ولكن عد يا أيها السيد وأرحم الذين طردوا من الفردوس بمكر الحية الخبيثة وخداعها . إرحمنا يارب إرحمنا . وألبسنا حلة السرور والبهاء . وشحنا بثوب الأنعام الخلاصى . أرحمنا أيها الرب الاله . واشفق علينا متحنناً نحن الذين قد عرانا الشيطان من معونتك أرحم الذين قد تركوك ومالوا نحو العدو الماكر يخدمونه . ارحمنا نحن الضالين عن سننك . أرحم الذين لم يحتفظوا بعهودك ومواثيقك بل ساروا وراء الشيطان وشرهم واستعبدوا لحيلهم الباطلة . أرحمنا نحن الذين قد تدنسنا بحمأة الخطاة ورجاسة الأثام ، أرحمنا ياأيها الرحمن ارحمنا ، ارحمنا يا أيها الصالح ارحمنا ، ارحمنا يا أيها الطويل الأناة ارحمنا إرحم الذين اغتصبهم واقتنصهم الشيطان الخبيث. ارحم المتدنسين بفحش الزندقة فإن ايدينا قد طالت إلى كل شر ، وارتكبت كل قباحة ، وطمحت إلى كل استغنام وظلم ، وقد نجسنا النفس التى قد أبدعتها على صورتك ومثالك ، ودنسنا جسدنا مع حواسنا بأسرها ، فلساننا غدا حساماً مرهفاً فى حق القريب ، والحاظنا صارت تضرم بطمحها مشاعل نار ملتهبة . وأيدينا قد امتلأت دماً واستكثاراً ، وأرجلنا تسعى فى طرق المظالم والشرور ، وأفواهنا قد تدنست بأنواع القذف والشتائم ، وجملة تغنى عن التفصيل حقا أننا قد نجسنا الأرض والهواء ، وعلت شرورنا ورذائلنا فوق الجبال الشامخة ، وامتد طمعنا وغشنا إلى مافوق طبقات السحاب ، وخطأنا أمسى فاقد التقويم والشفاء ، ومصابنا لانجد له عزاء ، ويأسنا ليس له تسلية بالكلية ، هاهو ذا الأرض لم تعد تحتمل أثقال شرورنا ، فلهذا ندعوك يا الهنا بأن ترحمنا لأنك أعلم بضعف طبيعتنا الفاسدة ، أرحم يارب ماصنعته يداك وهانحن نتوسل نحو تحننك وعنايتك بأن لا تعدمنا رجاء معونتك بل اسعفنا بأيادى مراحمك . وإن كنا غير أهل لها ، وسب لنا معونتك نحن الخطاة ، وأظهر لنا وجهك فنخلص ، واقبل تضرعنا آمين .

فمتى تفوهنا بمثل هذه التوسلات ياأخوة ، فلنبتعد عن كل رذيلة ونجاسة ، ولنهربنّ من كل ظلم وطمع ، ولنفرنّ من المجد الباطل والسكر مع كل أنواع النهم والشراهة المنتجة كل شر ، ولنعبدن عن جرثومة الشرور وأصلها ، ولننبذن الشتم وبغض الأخوة ، ولنتحفظن من شهوة الزنى والفسق وأنواع التجديف ، ولنهربن من السرقة والأختلاس . ومن المجد الفارغ والرياء ومن الغيرة والحسد ، ومن باقى ضلالات هذه الحيوة الزمنية الكاذبة ، حتى إذا جاء إلينا السيد المسيح بغتة لايصادفنا متوانين فيشطرنا شطرين ويحكم

علينا بقوله . شدوا أيديهم وأرجلهم والقوهم فى الظلمة القصوى . حيث البكاء وصرير الأسنان . فياله من بكاء وندب نزمع أن ننشئه فى ذلك الحين لحقاً يا أخوتى أننا سننتحب نائحين ونمزق ذواتنا فلا ينفعنا ذلك شيئاً . فإن كنا لهذا الانتقام مستعدين ونظهر فى ذلك الموقف المريع غير تائبين . كان الأليق بنا أن لا نولد فى هذا العالم . وإن وجدنا ثم غير متأهبين ولا مستعدين كان الأليق بنا أن نعرف هذه الحيوة . وإن كانت هذه الشدائد مزمعة الظهور فينا كان الأجمل بنا أن لانعيش فى هذه الدنيا ساعة واحدة . فلنبكين ياأخوتى ههنا بكاء يسيراً لئلا نعاقب هناك عقاباً مؤبداً ولننبذن باختيارنا احتشاد المقتنيات ونوزعها على المساكين الضعفاء لئلا يرد الأخرون بعدنا فيرثون ويتنعمون باتعابنا المذخرة أكلا وشرباً ويترنمون على مطاف كؤوسهم قائلين أن الغنى يخزن المال ولا يدرى لمن يجمعه . وأيضا هو ذا الإنسان الذى لم يجعل الله معينه بل اتكل على كثرة غناه . فلنرحم يا أحبائى لكى نرحم . ولنسامح لكى نسامح . فأى نفع يحصل لنا ياأخوتى متى تعبنا فى احتشاد المقتنيات ودخل الغير على أتعابنا . فلنبادرن أولا ونرسل ما نجده هناك يوم أتياننا ، أو ما سمعتم بأن ما يزرعه الإنسان فاياه وحده يحصد ، فلا يعتذرن أحد بقوله أن لى أولاداً وعائلة ، ولهذا لايمكننى تبديد مالى لئلا أترك أولادى بعد مماتى فقراء بائسين ، فلا تفكروا ياأخوتى هكذا ولا تهتموا بهذه الأشياء البتة ، هوذا فى السماء اله موجود فإنه هو الذى صنعهم وهو يهتم بهم ويدبرهم ، وأما نحن فيلزمنا أن نهتم بذواتنا لاغير ونجعلها مهيأة لوروده تعالى مزينة ونندبها بنوح وتنهد ، ونحذرها قبل الموت فى كل حين ، ونحرص على تثقيفها قبل تلك الدينونة الهائلة ، وقبل تلك الساعة التى لايسعفنا بها ولد ولا قرينة ، ولا أب ولا أم ، ولا أخ ، ولا صديق ودود ، ولا إبراهيم نفسه ، ولا نوح ، ولا دانيال ، ولا بطرس ، ولا بولس يمكنهم استنقاذنا من تلك العقابات المرة ماعدا افعالنا الصالحة فقط عندما يأتى الرب يسوع المسيح يأتى من أعلى السموات . يأتى ليدين الأحياء والأموات يأتى ذاك الفاحص القلوب والكلى . يأتى ولامناص من يده . يأتى وهو جالس على الكرسى الشاروبيمى . ذاك المطلع على الاعماق الخفية . يأتى إله الالهة ورب الارباب . يأتى سيد السادات وقاضى القضاة . يأتى ملك الملوك وديان الديانين . يأتى الموبخ لكل الشرور ومظهر الأسرار والزلات الخفية . يأتى المبين هواجس الافكار والكاشف كل الأفعال والأقوال الدنسة . تأتى تلك العين التى لا تغفل ولا تنام . ذلك الديان الذى لا يأخذ بالوجوه

والمنتقد لأشياء من غير رشوة ومحرق كل فعل دنس ولذة نجسة ومرسلها إلى أطباق الجحيم . يأتي محب السلام ومبغض أنواع الأقاويل السيئة مع كل خطيئة خطف ورافض فاعلى الشكوك خاصة في بيعة الله الارثوذكسية المزمع أن يعاقبهم عقاباً أبدياً . يأتي ذاك الذى تهرب من أمام وجهه سائر الجبال والآكام وتجف منه مياه البحار وتطوى السموات كالدرج . والكواكب تتساقط من العلاء . والهواء يضرب مرتاعاً والشمس يعروها الكسوف . والقمر يمحقه الخسوف . وقوى السموات ترتج . وتقف الشاروبيم مرتجفة والسارافيم منذهلة والملائكة مرتعدة . ورؤساؤها قد اعتراها الهلع والوجف . ويستحوذ الاضطراب على مافوق وأسفل . وجميع المبروءات تتقلقل رهبة . يأتي ذاك الذى لا يحابي مع انسان ولا يرثى لمسكين فى محل الحكم . يأتي ذاك المعطى كل انسان حسب أعماله . والمبكت كل ارادة وبغية والمعلن حركات كل نسمة . يأتي ذاك الراحم الرحماء والمهوب فى ارائه أكثر من أبناء البشر . يأتي ذاك الذى تجثو له كل ركبة فى السموات والارض وما تحت الثرى . يأتي ذاك الذى يكون للصديقين مجداً وخلاصاً وللخطاة عقاباً وعذاباً . يأتي ذاك الذى عرشه شعاع مضطرم . وخدامه نار تلتهب . يأتي ليطوب الجياع والعطاش ويعطى الويل والحرب لأولى الشبع والرى . يأتي ليكرم المجتهد والمتيقظ فى الصلوات والتراتيل بشكر المتوسل إليه بصبر . وأما المتوانون فيرسلهم الى العقاب الابدى . يأتي ليكون مخيفاً ومرهباً للخطاة وبشوشاً وديعاً فى وجوه الأصفياء وينادى بأوليائه وأخصائه قائلا : هلم يامباركى أبى رثوا الملك المعد لكم من قبل كون العالم ، لا لأنكم حزتم فى الأرض غنى وثروة ولا لأنكم احتشدتم مقتنيات كثيرة ولا لأنكم كنتم ذوى نسب شريف ولا لأنكم اتخذتم العبيد والأماء ولا لأنكم ورثتم الحقول والمزارع . ولا لأنكم ملكتم غنماً وبقراً وفدادين . ولا لأنكم شيدتم المخازن والمنازل الخطيرة . ولا لأنكم نلتم الموائد الفاخرة بالاسراف من غير بخل وتقتير . ولا لأنكم تسربلتم بالديباج والثياب البهية وتضمختم بالطيوب العطرة الزكية . ولا لأنكم كرمتم ومجدتم ورفعتم أكثر من الجميع عظمة وبهاء ولا لأنكم اضنكتم أجسادكم وانحلتموها بالسهر والامساك وحافظتم عن البتولية والعفة وعاينتم الشدائد وتكبدتم الأهوال . بل لانى كنت جائعاً فأطعمتمونى وعطشاناً فسقيتمونى وغريباً كنت فآويتمونى إلى منازلكم وحظائركم وعزيتمونى تعزية لا يشوبها نقص وشاهدتمونى عرياناً فكسوتمونى ومريضاً فعدتمونى وأهلتمونى إلى راحة لا توصف ورأيتمونى مسجوناً

مضنوكا فأتيتمونى زائرين بنشاط جزيل . فعندما يجيبه الصديقون قائلين . متى رأيناك يا ربنا جائعاً فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك أو غريباً فآويناك أو عرياناً فكسوناك أو سقيما ومحبوساً فخدمناك فيشير اليهم حينئذ ذاك القاضى العادل قائلا الحق أقول لكم أن الذى صنعتموه مع أحد إخوتى هؤلاء الأصاغر أعنى المساكين والملهوفين والغرباء الجائعين والمجذومين والمهانين والمتورطين فى الشدائد والأحزان والجوع والعطش والمهشمين فى الأمراض . كأنكم بى فعلتم ذلك ولنفسى كنتم خادمين ومنيحين ولهذا أقوله لكم . هلم يا مباركى أبى رثوا الملك المعد لكم من قبل انشاء العالم . هلموا أولا يامن حفظتم الايمان المستقيم بلا دنس هلموا يا من تمسكتم لأجلى بالمسكنه الروحيه هلموا يامن سكنتم لأجلى قمم الجبال الشامخة وانضغطتم فى ثقوب الارض وكهوف الجبال مع الوحوش هلموا يامن لأجلى نحتم وندبتم . وكنتم لاغبين من الجوع والعطش . وهلموا يامن طردتم لأجل العدالة وكنتم من جرائها معيرين مبغضين . هلموا ياأنقياء القلوب والافكار . هلموا ياجميع الرحماء والمتحننين . هلموا يامن علتم الايتام وآويتم الغريب . هلموا ياعاضدى الأرامل ومساعدى الضعفاء هلموا ياعائلى المرضى وجابرى دين المديونين . هلموا يامنقذى المنفيين وصانعى الراحة للذين هم مضنوكون فى الأتعاب الصعبة . هلموا يامن سرتم لأجلى فى السيرة السلامية بالهدوء والسكينة . هلموا يامن أجتهدتم فى طريق العفة والنسك والعذرية حتى الموت . هلموا يا من حفظتم النفس والجسد معاً فى الطهارة والنقاوة والتقوى من غير دنس . هلموا يا من أجزتم حياتكم كلها بالصوم والسهر والتلاوات المتواترة . هلموا يامن تداومون طرق الكنائس المقدسة صباحاً ومساء . هلموا يامن أهملتم الارضيات واعتنيتم بالسمويات هلموا يامن لأجلى تركتم آباء وأمهات ونساء وأولاداً وبنات ومنازل وحقولا واخوانا . هلموا يا هؤلاء لتنالوا خيرات أورشليم هلموا لتعاينوا مجدى ولتفرحوا جذلين . هوذا أجركم فى السماء معروف . هلموا فانظروا أى سيد شريف كنتم خادمين . سروا وابتهجوا فان ملكوت السماء معدّ لكم . أدخلوا إلى فرح سيدكم لتحظوا بتلك الخيرات التى لم ترها عين ولا سمعت بها أذن ولا خطرت على قلب بشر . أدخلوا منازل أبى وحظائره . تلك التى تشتهى الملائكة أن تنظرها . اقبلوا علامات الظفر . والبسوا أكلة غلبة الجهاد الذى احتملتموه من ثقل النهار وحره . وأحظوا بالملكوت السموى يامن احتملتم ألم الجوع والعطش ورقدتم على حضيض الأرض وصلابتها وصبرتم على التقشف والزهد . ففوزوا بالمجد الذى لاينعت والفرح الذى لايحد وتنعموا بالمظال

الأبدية التى سبقت فهيأتها لمجيء . استريحوا فى الأخدار النورانية المضيئة . أقيموا فى تلك النعم والأفراح التى لا انتهاء لهـا . جولوا فى تلك المساكن البهية الممجدة . تمتعوا بالقصور البهية المزخرفة . أستريحوا من أتعابكم وأحزنكم وممـا احتملتموه لأجلى من القذف والتعيير . جولوا مع الملائكة القديسين . ترددوا بين الرسل والانبياء . شاركوا القديسين الذين أرضونى بالابتهاج . أسكنوا فى بلاط ملكى حيث لا ألم ولا حزن ولا تنهد ولا عويل بل مسرة أبدية وحيوة سرمدية . فمثل هذه الهبات أنا أهبها لحافظى عهودى ونواميسى . وبمثل هذا الأكرام أنا أكرم الذين أكرمونى . وبهذا المجد العظيم أنا أمجد الذين مجدونى . هكذا أنا أريح الذين أراحوا أعضائى . أعنى الفقراء القترين . وهكذا أطوب الذين يعتنون بكنائسى . وهكذا أجازى مئة ضعف فى الحيوة الدائمة عوض ساعة واحدة . أعطيتمونى كسرة يابسة فنلتم عنها العوض ملكوت السموات . وهبتمونى درهما من فضة حزتم به نعيم الفردوس الشهى . كسوتمونى طمراً ممزقاً فكسوتكم عوضه ثوباً من النور سندسياً لايعتريه البلاء . سقيتمونى كأس ماء بارد فأرويتكم من ماء الحيوة والراحة . آويتمونى فى منازلكم تحت سقفكم فوهبت لكم بأن تكونوا مع زمر الملائكة القديسين . أعطيتمونى عطايا زائلة فظفرتم بأشياء باقية غير مضمحلة . وهبتمونى هبات وقتية فنلتم مكانها راحة أبدية . اهلتمونى لمائدة زائلة ففزتم ببر أبدى . خلصتمونى من السجن والاعتقال وأعتنمونى فى وصبى وتألمى . وسددتم جوعى . وبردتم غليلى . ورحضتم قدمى . وأدفأتمونى عند قرى . فهو ذا قد وهبت لكم حضن إبراهيم مقعداً حسناً . أعطيتمونى تراباً وطيناً فمنحتكم عسجداً ولجيناً . نحلتمونى حشيشاً ذاوياً فعضتكم عنه لؤلؤاً مصوناً . فان مالى بأسره مال سماوى غير فاسد . وأما غناكم فكله هشيم وحمأة حقاً أن غناى مفعم نوراً وحيوة وسروراً وراحة وأنى لعارف ومتذكر بما فعلتموه معى وعليم بمـا منعتموه عن أفواهكم وأشبعتم به جوعى وغير ناس مامنحتموه لغربتى . ولهذا السبب أنا أهبكم جميع ما فى السماء والأرض من الخيرات فحقاً أنتم أخصائى وأصفيائى إلى أبد الأبدين . أفشاهدتم أيها الأخوة أرباح الصدقة وعلمتم مقدار قوتها وعرفتم نفعها وفوائدها . فليجتهد كل منا ما دام له زمان فى هذه الحيوة الباطلة الزمنية لكى يقتنى مثل هذه الفضائل الإلهية . ثم يلتفت إلى من هم عن يساره قائلا : ويل لكم أيها القساة الذين أضعتم حياتكم سدى . إنى جعت فلم تطعمونى وعطشت فلم تسقونى

وهلم جراً . كم مرة أتيت بابكم سائلاخبزاً من الصدقة فرددتموني خائباً صفر اليدين .
وكم مرة قصدت، منازلكم ورأيت موائدكم مزهرة بأصناف الخيرات وأنتم تدعون اليها
الزواني والراقصات وأنا واقف ولم تسمح خواطركم بأن تهبوني كسرة خبز يابسة وأنا مع
هذا لم أطلب من الذي لكم بل أطلب مالى الذي أعطيتكموه وأنتم لم تعطوني مالى . مرات
كثيرة طرقت أبواب منازلكم والشتاء قد ألم بى ضره وكنت إذ ذاك عريانا حافياً .
وشملني البؤس من شدة البرد وزمهريره حتى أنني عجزت عن تحريك شفتى . وانتم حين
شاهدتموني بهذه الحالة السيئة . زجرتموني خارجا وضربتموني . وأخذتم بقذفي وتبكيتي .
ولم تعدوني كـكلب مهمل . فلهذا أغربوا عنى ياملاعين إلى الظلمة القصوى والنار
الآكلة . حيث الدود لايموت وصرير الأسنان لايهدأ . لأنه ماكفاكم أنكم لم ترحموني
فقط . بل حذرتم الراحمين أيضاً أن لايرحموني . بقولكم أن هذا طفيلي وقح . فطالما
تجنيتم على المساكين البائسين بانهم سراق لصوص وما كنتم لهم راحمين . فياله من عجب .
لانكم تعولون الكلاب وتروضون الخيل والجنائب وتهتمون بالحمير والخنازير . وتعتنون
بالغنم والمعزى . المساكين والضعفاء الذين هم أعضائى فلم ترحموهم وقتاً ما . ولهذا
انتم الآن لاترحمون . أو ما تعلمون ياأيها الأشقياء المنكودو الحظ أنه من قبل المساكين
يحصل لكل إنسان خلاص نفسه أو ماسمعتم باننى دعوتهم أخوتى . أو ما بلغكم
نص الكتاب الإلهي يقـول من يرحم مسكيناً يقرض الله . أو ما عرفـتم أن
دينونة عديمى الرحمه تكون بغير رحمة . كم مقدار ما كان المساكين يصرخون
إليكم ويسألونكم رحمة وهم يذرفون الدموع مدراراً بنوح ونحيب . وبأى ألفاظ
وعبارات كانوا يهتفون إليكم ليستميلوا بذلك قلوبكم الفظة القاسية والعديمة
الحنو والشفقة . وكيف كـانوا يستغيثون بكم . وماهى الفاظهم التى كـانوا
يقولونها لكم . هى هذه . ارحمونا فى حب المسيح . ساعدونا الله يساعدكم . أعطونا يا أهل
الخير . تصدقوا علينا يارحماء . ارحمونا يامحبى المسيح . أغيثونا ياأهل الشفقة . تحننوا علينا
يا متحننون . وبمثل هذه الأقوال وما شاكلها كانوا يخاطبونكم ويتظاهرون لكم بأنواع
كثيرة من السجايا التى يمكنها أن تلين صلابة الصخر الصلد وتهـذب شراسة الوحوش
الضارية . وأنتم مع هذا كله قسيتم جوارحكم وترفعتم بجوانحكم . وماكفى أنكم لم ترحموني
وتعزوهم فقط بل كنتم لهم ضاربين وعن منازلكم طاردين وأشخصتموهم من مكان إلى
مكان حتى أن أكثرهم قد مات تضوراً من الجوع والبرد . فكم من ايتام ظلمتموهم .وكم أرامل

اختلستم أموالهم . وكم مساكين ضعفاء احزنتموهم . وكم أناس أبليتوهم بالضرر والاحزان. وكم أجير تقاعدتم بأجرته . ولهذا السبب انتم الآن تعاقبون عقاباً أبدياً.أما اتخذتم العذارى الخمس نموذجاً فى تعليمكم . أن كل فضيلة عارية عن ثوب الرحمة لانفع لها بل هى كالطعام الذى ليس له ملح . فإن كانت عفة . أم صوماً . أم صلوة .أم سهراً . أم زهداً . أم جوعاً أم عطشاً . أم كل فضيلة تقول عنها وهى خالية من فضيلة الرحمة أنها لا تحسب شيئاً . فإذاً ماذا أقول . وفى أى واد أجول معكم على هذه القساوة المفرطة . وعلى هذا الضمير الردى الذى انتم منطوون عليه . فلهذا أنا أخاطبكم ياجميع الخطاة قائلا اذهبوا عنى ياملاعين إلى النار المؤبدة . لأن ديوان ملكى لا يطأه من هو عديم الرحمة والتحنن . ولن يؤهل لفردوس نعيمى ومنازلى السموية ذاك الفاقد الشفقة والحنو . ولا ذاك الخبيث المجدف . ولا ذاك الشرير الطمث . ولن يلج خدرى من كان زانياً أو فاسقاً . أو كان سادومياً منافقاً ولن يستحق بمائدتى من كان فظاً بخيلا . ولن يسكن فى مظالى الأبدية من كان مختلساً طماعاً ولن يتخطر فى ميادين ملكوتى من كان لصاً قاذفاً . ولن يقرب من هيكلى العالى المشرف من كان كذوباً واشياً . أو سكيراً بذخاً ولن يحظى بخيراتى من كان محباً للفضة طماعاً . ولن يستريح فى الاخدار السموية من كان نجساً متدنساً . ولن يحوز الراحة السرمدية من كان متوانيا متضجراً . أو كان نماماً قاتلا . ولن يتلذذ بعشائى من كان كنوداً مدمدماً أو كان حقوداً غادراً .ولن يدخل خدرى من كان هازئاً هاذراً . ولن يقطن المساكن الأبدية من كان وقحاً حسوداً . وجميع من هم متصفون بهذه الصفات الذميمة لا يجدون لهم عندى ميراثاً ولا نعيماً . فلا تضلوا يا أيها السامعون . فإنه لا أحد من الظالمين الغاشمين . ولا من هؤلاء المذكورين يستحق الولوج إلى ملكوت السماء . بل إنما ملكوت السماء للسموحين الرحماء . والمساكين بالروح . والباكين حزناً وضيقا والوديعين بقلوبهم . وأولى الأمن والسلام فهؤلاء هم الذين يسرون بميراث الآب ويلجون السموات العلية ويسرون بها مبتهجين وأجرهم فيها عظيم جداً . وأما أنتم يا أيها القساة الغلاظ والفاقدى الرحمة والإنسانية فامضوا إلى النار المؤبدة المعدة لإبليس وجنوده . لأنكم لم ترحموا فلا ترحمون . امضوا إلى الظلمة المدلهمة أيها المغضوب عليهم والممقوتون . اذهبوا عنى يافاعلى الشرور . لجوا حيث الدود الذى لا يموت والنار الموججة التى لا تطفأ . وحيث البكاء وصرير الأسنان . فليذهب حينئذ هؤلاء الأشقياء إلى العذاب الأبدى . وأما الصديقون فيرثون حيوة خالدة . فإذا أيقنتم بوجود هذه الأشياء يا إخوة فهلم بنا نرجع عن سبلنا السيئة ونؤدى لله توبة وتنهداً

ولنقرع بيد التوبة خزانة صدورنا وننهض من رقادنا وغفلتنا. ومن كان منا كسلانا متوانيا فلينبه حواسه وينشطها. وليتنحب كل منا على ماقدمه من فظيع الخطأ بدموع منسكبة. وإن كنا ظلمنا. أحداً واختلسنا ماله ظلماً فلنعوض عليه ذلك لئلا ندان به لدى المنبر المرهب ولنرحم لكى نجد رحمة من الله ربنا ومخلصنا يسوع المسيح. ولنغفر لمن لنا عليه سواء كان فقيراً أم غنياً. ولنصفح عن الجميع من خالص لبنا كما أمرنا السيد المسيح لئلا نظهر مداينين مخاصمين يوم الدينونة المريعة ونصاب بما أصيب به العديمو الرحمة. ولنكن شفوقين بعضنا نحو بعض ومحبين للجنس البشرى ووديعين. ولنسلك فى منهج الخير والصلاح ونستعمل الأناة ومساعدة بعضنا بعضا. ولنكن نصوحين فيما بيننا لننجو من تلك العذابات المتقدم ذكرها. ونعبر هذه الحيوة الحاضرة بغفران المآثم لنفوز بتلك الخيرات الأبدية بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر. الذى له المجد والأكرام مع أبيه وروحه القدس الصالح وصانع الحيوة. من الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

المقالة الثانية والثلاثون

(فى الأمراض والأطباء)

أيها الأخ الحبيب متى عرض لك مرض أنها قوامك وعزمك فلا تضجرن لذلك ولا تفترين على اسم ربك. بل أذكر الأجساد المضنوكة بكثرة الجهاد وافطن فى ذات أيوب تلك المقدسة. وبالحقيقة أنها نقية ومشرفة. فقل لى أى البشر استطاع أن يصبر صبر أيوب على مثل هذه الفوادح المرة والنوائب التى طرقته مرات متوالية أليس أن جسده كان يؤكل شيئاً فشيئاً. حتى أن لحمه بأسره تناثر بالياً وأفسد النتن سائر جسده وعجز عن أن يذوق بفيه مأكلا ما. ولهذا كان يقول. أنظر أن أكلى ليس إلا النتن والكراهية ومع هذه المصائب كلها كان يشكر الله تعالى القادر على شفائه ولكن البارى تعالى لم يحب أن يشفيه لكى يصير نموذجا أعظم للعالم. وليكون بمصابه تمثالا لتعزية الذين هم فى المصائب منهاضون فاتخذه يا أيها المعترى بالأمراض عزاء وتسلية. وإذا اعتراك شىء من الضرر فى شأن الله

إما من شر الناس وإما من مكر ابليس فاشكر الله ولا تجدف على أحد . فكما أن الذين يعاقبون لأجل الله . إما من طريق الشهادة وإما من طريق النسك والعفاف يكللون بالمجد هكذا أنت ياهذا المبتلى فإنك بصبرك على المحن الواردة عليك من الناس تحظى بأكلة البهاء والظفر . وأن عرض لك داء عضال آل أمره بك إلى المنون ولم يشأ البارى تعالى استنقاذك منه فاشكر الله عليه شكراً يزلفك إلى جنابه . لأن الإنسان الصالح أيضاً لا يكون بريئا من الحكم العادل . فإذا شاهدت مثلا أحد الصديقين وقد أسلم للنكال أو الجوع أو الخسران . فلا تشك بذلك بل قل ربما هذا الإنسان الصالح قد ارتكب أمراً ما رديئاً . وها هو الآن يؤدى كفارته عما جناه لئلا يعاقب هناك مخلداً . وأن أبصرت آخر أيضاً متورطاً فى شرور كثيرة . ومع ذلك لم تطرقه طوارق الحدثان والمصائب . بل هو فى راحة وسرور ورغد عيش . فلا تعجبن منه . بل قل فى نفسك أن هذا الإنسان المرتكب مثل هذه المعاصى المتعددة ولم يصبه من ذلك شر البتة ربما يكون قد صنع وقتا ما أمراً صالحا ، فعوض عنها بالخيرات ههنا كيلا يجد له هناك أجراً ، ترى هل يوجد شر من يوداس ، وأكثر منه خطفا وأعدم شكراً ، لا لعمرى، فأنظر كيف أنه عند ماندم بقوله ، إنى اخطأت بتسليمى دماً زكياً ومضى فخنق نفسه فى الشجرة ، كيف أن الله راعى مقاله المتقدم وكسر به غصن الشجرة وألقاه إلى الأرض وهو يجود بنفسه وفيه بقية من روحه ، قصداً منه لعله يتوب ، ولكن بما أن الشقى المنكود الحظ سقط فى وهدة اليأس شجب ذاته بذاته ، فتبا لفكر اليأس ما ارداه وأمره للخاطىء ، ولنرجعن إلى ما كنا به سابقا ، فنقول أن لعازر المسكين من حيث أنه بشر قد يمكن أن يكون له خطأ ما ، والغنى أيضا ربما يكون له صلاح ما ، ولهذا يجاوبه إبراهيم قائلا ، يابنى، هوذا أنت قد فزت بخيراتك فى حياتك ، ولعازر قد عانى هناك بلاياه ، أعنى قد فعلت فعلا صالحا ، فاعتضت عنه بالغنى والصحة والإكرام والسلطة والاقتدار فلم يبق لك الآن شىء تستوفيه ، فمتى رأيت يا هذا باراً معاقباً ومعذباً فلا تذهلن من ذلك ، بل قل هذا فقط ، أن الله يشاء أن يمحصه ههنا من ذنبه ، وأن رأيته قد عوقب بما يفوق جرمه وجريرته فأيقن أنه سيحصل له بذلك زيادة بر . اسمع مصغياً إلى ماأريد أن أقوله لك . أن أيوب كان إنساناً صديقاً وبريئاً من العيب والخلل ومحبا لله حبا تاما لاغش فيه . فعاقب الله جسده ههنا ليفوز بالمجازاة الوافرة فى ملك السماء . واسمع البارى يقول له . إنى قد جعلتك معاقبا لأظهر صلاحية صداقتك وأصير صبرك مثالا صالحا للجميع أترى أقلق الصديق عقابه الأليم . أم ثنت عزمه مشورة امرأة وشقشقة لسانها كلا

بل هذه صيرته أشد شجاعة وبسالة . حتى أنه زجر زوجته وردعها بأقواله. ورأى الأفضل له أن يعاقب بغير رحمة من أن يجدف أو يجد له من الشر مخلصاً . وعلى حسب ظنى أن حال الأكثرين عندما يعتريهم مرض أو خسران فإنهم يستشيطون بالافتراء والتجديف فيعانون الأوجاع ومرارة الآلام ويعدمون ثمرة الصبر والاحتمال بشكر . ما هذا الذى تفعله أيها الإنسان . أتجدف على الهك المحسن إليك الذى ابدعك . أما تعلم أنك بتجديفك وافترائك تلقى ذاتك فى وهدة عميقة وتزجها فى عقاب أليم . أما تعلم أن الشيطان ينصب شباك الشرور ليصطادنا بحبائل التجديف ويورثنا عقابا سرمديا ، وإذا رآنا فى مصابنا مجدفين يزيدنا ألماً على ألم ليهلك بذلك أنفسنا بخلاف ما إذا رآك متصلباً أمام الأوجاع بجلادة ، وأنت تشكر الله ، فإنه يولى الأدبار هارباً من سطوتك وعساك يا هذا إذا جدفت تصير الألم عليك أخف صعوبة ، كلا ، بل إنما تجعله أشد وأمر ، فإن كنت لا تستطيع الرقاد من مضض الألم فاشكر الله عليه ، وإلا فإنك تطرده عن معونتك وتصير الشيطان عليك متسلطا قويا فإن سبقك لسانك مبادراً للتجديف على طريق العادة ، فاعضض لسانك إلى أن يسيل منه الدم ، لأن ذلك اشهى لك من أن تسأل غداً يوم الدينونة قطرة ماء لتنديه بها ، كما أصاب ذاك الغنى المذكور آنفا ، والاليق بك أن تصبر على هذا الوجع الزمنى اليسير من أن تعاقب عقاباً أبديا ، فمتى مرضت يا أخى الحبيب مرضا ثقيلا وأتاك أصدقاؤك وأقرباؤك يستحسنون لك باستعمال التفاؤل واتخاذ العوذ والاحراز كى تحوز بواسطتها البرء والشفاء ، فاياك ومقالهم واحرص منهم حرصا شديداً لأجل خوف الله ، ولا تذعن لهم بما اشاروا به عليك لأنها أمور شيطانية ، ولكن أصبر فى شأن الله ، وأنت تسبب لذاتك بذلك أكليلا شهيداً ، لأنه كما أن الشهيد يتكبد النكال والعقاب ببسالة وبأس لكى يجتذب الرجس من الأوثان ويأبى السجود لها . هكذا أنت . لأنك تكون شهيداً بالعزم بواسطة صبرك أطرد السحرة من بيتك ولا تسمع لهم حتى إذا شاهد الحاضرون ذلك يمدحونك قائلين . أن فلانا لسعيد من حيث أنه مرض مرضاً ثقيلا . ولم يرض لنفسه أن يباشر أفعال السحر والفال . بل قال أنه خير لى أن أعدم الحيوة ولا أبعد حسن أمانتى البهية . فإذا كان ههنا يمدح الرجل الصديق بهذا المقدار فكم بالحرى ماسيناله من ثناء الملائكة ورؤساهم وما سيحوزه باستحقاق من تلك الأكاليل الثمينة . وما ذاك إلا لأنه لم ينبذ تلك المحبة التى كانت له مع المسيح . فاذا كان السيد المسيح يحضر لنا إلى الوسط ذكر أولئك الذين أشبعوا الجائع وكسوا العريان ويثنى

عليهم بالمديح فى العالم بأسره فكم بالحرى ذاك الواقع تحت مثل هذه الأمراض الصعبة والأدواء المؤلمة ينال منه تقريظات بليغة حقاً أقول ياأخوة أن أكليل هذه الأمراض المنهكة يلمع مشرقاً أبهج من الكل وأنه ليجب على الأصحاء أن يذكروا السقماء بذلك المرض الذى شمل تيموثاوس الرسول الطوباوى الذى لم يكن يفارقه البتة ولا أمكنه أن يرتاح من تلك الاسقام المزمنة . تأملوا كيف أن مثل هذا الأسقف الأقدس والمعلم المسكونى الذى كان ينشر الأموات من أجداثهم ويخرج الشياطين من الناس احتمل مثل هذا الداء العضال كل حياته وأجاز حياته كلها بالأمراض المدنفة . مع أن معلمه بولس ذاك الرسول المغبوط أمره بأن يتعاطى شيئاً من يسير الخمر مدواة لمرضه . وأما هو فكان يأبى استعمال المدواة وكان صابراً محتملا تلك العلل الفادحة بشجاعة وجلادة . فما بالنا نحن لا نستطيع الصبر والاحتمال وأى جواب عسانا نؤديه لله . من حيث أنه متى عرض لنا مرض من الأمراض نضجر عن احتماله . ونبادر إلى الدمدمة والافتراء . ونلتفت يميناً وشمالا من غير صبر . ونحن لا نصغى إلى ذلك النص الإلهى المقول أن الرب يؤدب محبيه . وما كفانا هذا فقط بل نتجاسر أيضاً على افتعال أمور منكرة كالسحر والعرافة الشيطانية . ونهمل البارى تعالى القادر على اسعافنا واستنقاذنا . ترى أى عفو يكون لنا أو أية مسامحة نظفر بها . أو بماذا يمكننا أن نجيب السيد المسيح . أم كيف نضرع إليه متوسلين . أو كيف نلج البيعة المقدسة . أو كيف نسمع الانجيل المقدس يتلى علينا . وبأية الأيادى نمسك الكاليما وتتناول الأسرار المقدسة ولا تظن ياهذا أنه ممكن لأحد أن يتوسل عنك إلى الله ، ولو كان دالة لدى الله كموسى أما سمعت الله يقول لأرميا النبى لا تصل إلى فى أمر اليهود ، فإننى لا استمع ، ونرى الأكثرين لا يتوسلون إلى الله فى شأن ثروة وسلطة ، بل لأن يحيق بأعدائهم البوار وأن تعتريهم الشرور والمصائب الموبقة وأن يموتوا موتاً رديئاً شنيعاً ، وأما توسلهم فى شأن أنفسهم فهو أن يكون الله عليهم شفوقاً وحليماً ومحباً وعلى الأعداء صارماً قاسياً ، فهؤلاء يشبهون مريضا يسأل الطبيب أن يعالجه بعقاقير تنكى مرضه وتزيد توجعه، ولكن الطبيب لا يصغى إليه ، ولو أنه بكى وناح لذلك فالطبيب لا يشفق على عويله ، وليس هذا منه قسوة بل شفقة على المريض لئلا يهلك عند إتمام مراده ، ومثل هذا يفعله الآباء مع أطفالهم فإنهم إذا طلبوا من ابائهم مدية أو جذوة نار فإنهم لا يبلغونهم سؤلهم لا بغضة لهم ولكن خوفا عليهم من الأضرار ، فمتى كان أحد صديقا وطلب فى مرضه السحر والتقسمات الشيطانية فهو فى شر عظيم ونعتقد به أنه هالك لا محالة . وقد عدم بالكلية استحقاق الملكوت . لانه أفضل لنا

أن نسلب الحيوة فى ذاك المرض الكائن بنا من أن ننجو منه بواسطة التعزيمات الشيطانية ونتهور فى وهدة الكفر والالحاد . فاننا ولو شفينا بتلك الأبواب الشيطانية حالا . ولكننا سوف نعاقب من هذا الشفاء نفسه عقاباً مؤبداً . أما بلغك خبر لعازر المسكين . كيف أنه أجاز حياته كلها بصراع الجوع والمرض . وكان عديم المأوى والمسكين . وأقام على باب ذاك الغنى حتى الموت ، وقد كان مخلع الأيدى والأرجل ومأكلا للكلاب . لأن جسده كله كان بالياً حتى انه لم يستطع أن يطرد الكلاب التى كانت تأتى وتلحس قروحه . ومع هذه المصائب كلها لم يطلب ساحراً ولا سأل عرافاً . ولا استدعى طبيباً يداويه . بل رأى أنه أفضل له أن يموت باسقامه المتنوعة المؤلمة من أن ينبذ عنه حب الله . ترى أى صفح يكون لنا من الله إذا وجد أمامه مثل هذا المسكين الذى احتمل مثل هذه المؤلمات الفادحة ونحن لأجل حمة جزئية أوصداع يسير نضيق بذلك ذرعا وندعو المعزمين والعرافين ونستخبرهم عن أحوالنا . وقد يوجد اناس يمرضون ولا يعوزهم شىء وقد يوجد فقراء بائسون وهم أصحاء أقوياء لو أن لعازر كان فى مكان قفر حيث لا أحد ينظره لما كان بهذا المقدار محزوناً وكئيباً . ولكنه كان مطروحا بين اناس مترفهين ومتنعمين وليس له من يعتنى به . فمن هذه الجهة كان يحصل له الألم ويتضاعف لذلك حزنه . ومن حيث انه كان يشاهد أيضاً المرائين والمملقين يدخلون ويخرجون إلى الغنى وأما هو فكان منفياً خارجاً فيزداد أيضاً تألماً فلنتشبه ياأخوة بهذا المسكين ولنصيره لنا نموذجا فى أمراضنا فيكون لنا بذلك تعزية وتسلية . مع أن ذاك المسكين لم يجد له مثالا يغايره فى مصابه واحتماله وخصوصاً أنه كان قبل مجىء سيدنا يسوع المسيح . فالآن إذ لنا اطلاع على الأمور الآلهية الروحية ولنا مثل هذا الرجاء الصالح بالقيامة والخيرات المعدة فلا نرضى أن نكون هكذا صغيرى الأنفس . بل لنغاير لعازر أيها الأخوة فى صبره واحتماله سواء كنا أغنياء أم فقراء من العامة أم متوحدين حكماء أم معلمين . فهلموا بنا يا هؤلاء نضاهيه فى الفقر والمسكنة وفى الأوجاع المرة التى كانت مستحوذة عليه جميع أيام حياته . ترى أى صفح نناله أن لم نؤثر أن نضاهيه ونغايره . أم أى جواب نؤديه . لا لعمرى . متى أراد أحد الأطباء الماهرين أن يقطع عضو إنسان . أو أن يخرج منه حصاة المثانة . أو أن يعالجه فى مرض آخر يماثل هذه الادواء المؤلمة الواقعة تحت معرض الأخطار . فإنه يخرج سقيمها إلى خارج الشارع ولا يداويه فى مكان خفى بل ظاهر ليراه بذلك الأكثرون . وليس هذا الفعل من الاطباء بغضاً وشماتة بل ليؤدبوا الغير بهم ويجعلوهم يعتنون بعافيتهم وصحتهم لئلا يردوا مورداً هذا عظم خطره

فمتى رأيت يا هذا إنساناً صالحاً صديقاً وهو منهوك بالأمراض مضنوك بالشقاء والتعاسة . وقد زهقت نفسه زهقاً عنيفاً فقل لذاتك هكذا . أنه لو لم يكن حقاً هناك دينونة وقيامة لما جلب مثل هذه الشرور على من احتمل لأجله احزاناً كثيرة ومشقات متعددة . ولكن من هنا ينتج أنه لا بد ما أن يجازيه عوضا عن أتعابه هذه بحيوة أخرى أبدية . وإلا فكيف كان له أن يدع الأشرار يتنعمون فى حياتهم كلها بترفه ونعيم غض . والصديقون يعانون مثل هذه المشقات والمصائب فمن هنا سمى البارى تعالى عدلا وأنه يجازى كلا حسب استحقاقه وكرامته حسبما هو عليم الذى له المجد إلى الأبد آمين .

المقالة الثالثة والثلاثون

(مرتبة على العذارى العشر تقال يوم الثلاثاء العظيمة)

أننى افتكر يا اخوتى فى قصر حياتنا . وأتأمل الزمان كيف أنه يمر كالدولاب المستدير . وكيف أن مصائب الناس فى هذه الدنيا عظيمة وحياتهم كثيرة التعب والأحزان . وكيف أن هذه الازمنة تسير مسرعة كمر السحاب . وكيف أن الجميع كالظل . وكيف أن مجد هذا العالم هو وقتى . والقوة والسلطة سريعتا الاضمحلال . والترفه والدلال والسعادة تمر كالخيال والغنى يعبر كأضغاث الاحلام . ثم أنى أفتكر أيضا فى ذلك اليوم الأخير وأتأمل سرعة انتهائه . وفى ذلك الوقت المزمع لكل أحد أن يعطى جوابا عن أفعاله إن صالحة وإن طالحة . وأعتبر ذلك القاضى الذى لا يحابى . وذلك المجلس الرهيب . ثم أتصور كيف أن الديان ينحدر من السماء كالبرق الخاطف . وكيف تسارع أمامه قوات الملائكة ركضا باحتفال عظيم . وكيف ينتصب الكرسى المخيف . وكيف تطوى السموات كالقرطاس . وكيف تحترق العناصر بأسرها وتنحل خوفا ورعبة . وكيف ترتعد الأرض وهى منتظرة ورود الديان كيف تصرخ الأبواق بصوت عظيم . كيف تفتح القبور . كيف تفرغ اللحود . كيف ينشر الأموات من القبور كالمستفيقين من الرقاد . كيف يعود التراب إلى ما كان عليه أولا بلحظة عين . كيف ترجع النفوس إلى أجسادها . كيف يسارع الصديقون إلى الموقف العظيم . كيف

يوافى الختن نصف الليل . كيف يؤهل المستعدون للدخول إلى الخُدر السماوى كيف يغلق باب الخدر فى وجوه الكسالى المتهاونين .

فعندما ما افتكر بهذا ياأختى داخل نفسى أطوّب العذارى العاقلات اللآتى أحضرهن الكتاب الإلهى قبل هنيهة إلى الوسط . كيف أنهن جاهدن وتعبن نحو آلام الوسن وكيف أنهن لأجل تذكرهن الدهر المستأنف الذى لا انقضاء له ولا نهاية حفظن ميقات الحضور محترسات لكونهن أيقن بمجىء الختن والظفر به . ولاختبارهن ظلمة الليل بالفحص الجزيل أعتنين بالمصابيح باهتمام عظيم . إلا أنه لا يمنعنا مانع يا أختى متى اعتبرنا هذه الكلمات الآلهية .

يقول الكتاب الإلهى يشبه ملكوت السماء عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن لاستقبال الختن . ليت شعرى متى خرجن . أوقتاً فيه أدركهن أنقضاء الحيوة . أم وقتاً فيه وصلن إلى أمر الانتهاء وحكم الموت . أم وقتاً فيه فاجأتهن الملائكة ليغتصبوهن عن أخذ أنفسهن . هل فى ذلك الحين خرجن لاستقبال الختن . كلا . خرجن حين رفضن الاغتباطات العالمية . حين شرعن يستسرن بالسيرة الصالحة حين اخترن السلوك فى الطريق الضيقة . حين تقن إلى الصعوبة الإرادية . حين أعرضن عن نهج الزواج ولم يملن إليه . حين أهملن لذات الجسد كلها . حين اخترن الحظ الصالح والعفة عن الأشياء الفاسدة . حين نذرن أن يقضين أعمارهن بالنقاوة والعذرية . حين أحببن الختن الصالح . حين اشتهين حسن الملكوت وجماله . حين تعرين من جميع مهمات هذا العالم المفسد . حينئذ خرجن لاستقبال الختن . قال خمس منهن عاقلات وخمس جاهلات . ترى من أين تعرف الحكيمات العاقلات . يعرفن من كونهن جمعن بين البتولية والرحمة وزيّن بتوليتهن بالأعمال الصالحة . لأنهن عرفن جيداً أن الإيمان خلواً من أعمال هو ميت . واستيقنّ أن اتقان فضيلة واحدة لا يكفى للخلاص . لأنه لا يمكن للنسر الطيران بجناح واحد . وفطن فى صوت الختن القائل . أنى أشاء رحمة لا ذبيحة . وفى موضع آخر يقول أيضاً . أن الرحمة تفتخر على الحكم . أعنى الرحمة تغلب حكومة الله المقسطة وتجعله يرحم الخطاة . ولماذا كان هؤلاء العاقلات يميزن هذه كلها بحسب الواجب اترعن أوعيتهن زيتاً . فإن قلت وماهى الأوعية . أجبتك أنها بطون الفقراء وأنفس الجائعين لكونهن صيرن الفقراء واسطة الغرس الروحى . ويهيأن

وأخذن معهن نفقة الرحمة والرأفة . لانهن كن يشبعن الجياع . فلهذا كانت مصابيحهن متألقة بالضياء الساطع . لأن الفقراء كانوا يشكرون . والختن السماوى كان يفرج . وهن كن يبادرن للرحمة . والخدر الذى كن يترجينه ويشتهين أن ينلنه كان يتهيأ لأن هؤلاء العذارى العاقلات كن يصرخن قائلات بقول داود النبى تهيأنا ولم نتربص . وأما الجاهلات فكن ممسكات مصابيحهن وهن واقفات خارجاً وبعيداً عن الختن لأن مصابيحهن كانت منطفئة . لأنه لم يكن لهن زيت . لأنهن تأملن وحرصن أن يتممن فضيلة واحدة فقط أعنى أن يحفظن بتوليتهن وأما الرحمة فأهملنها . آهاً عليهن كيف أنهن أحببن العفة والعذرية وأما محبة الغرباء فما استقبلنها بل مقتنها أيضاً .

فاذاً ما الذى جرى أخيرا . أعلم أنه حين أبطأ الختن نعس جميع العذارى ولكن العاقلات إذ أن مصابيحهن كانت مترعة زيتاً كن متيقنات أن مصابيحهن لاتنطفىء . وأما الجاهلات فكن ينتظرن وقت الضرورة أعنى فى انتهاء حياتهن ومالى لا أقول قولا باختصار . إن الساعة قد حضرت . والزمان قد آن . وبدأ الاضطراب وعلا صوت الأبواق . وارتجفت العناصر . وعصفت الرياح . وارتعدت السموات . وتقلقل الجبل . وانحلت الكواكب فتساقطت واهتزت القوات . وتسارعت الملائكة أولا . وجرت البروق أمام والخليقة بأسرها كانت قلقة ومضطربة أضطراباً شديداً لأن الديان لم يأت نهاراً بل نصف الليل . وبعد ذلك حدث صراخ عظيم وأصوات شديدة هائلة تستدعى الجميع إلى الأستقبال قائلة هاهوذا الختن مقبل أخرجن للقائه فماذا تظن صار حينئذ . قامت العذارى وطردن الرقاد أعينهن وضبطن مصابيحهن بأيديهن فمصابيح العاقلات كانت تزهو بالضياء الساطع . وأما مصابيح الجاهلات فلم تسهر بل كانت خامدة . لأن مصابيح العاقلات كانت تستقى من دهن الرحمة . وأما مصابيح الجاهلات فكانت منطفئة . فاستحوذ لذلك على النسوة أمر مهول . واحدقت بهن شدة مرهبة مريعة . حتى أنه ما أمكنهن أن يهربن منها أبداً . ولم يجدن لهذه المصيبة المنعكسة بالويل تعزية واحدة . فتقدمت حينئذ الجاهلات نحو العاقلات يطلبن منهن ذاك الذى لم يقدرن أن ينلنه . قائلات لهن اعطيننا من زيتكن لأن مصابيحنا قد أطفئت.

أعلمن أيتها الجاهلات . أنه لقد كان يجب عليكن فى ذلك الحين أن تماثلهن لكيلا

تتوسلن الآن. ولقد كان ينبغى لكُنَّ أن تشترين زيتاً حين كان بائعوه يتضرعون إليكن فى ابتياعه أعطيننا يقول الجاهلات زيتاً . باطل هو أن تتعبن متضرعات إلى العلاقات . انتن الكسالى المتوانيات . لأنه قد حضر الزمان الذى به يخرب موسم الحيوة وقد عبرت المعاملة الدنيوية وجازت . ولم يبق الآن أوان بيع وابتياع بل أوان الطلب والبيان عن الأفعال ولقد كان ينبغى لكن أن تميزن هذا الجهاد ابتداء . وأن يكون لكن النشاط والأهتمام لهذا الأستقبال . وكان يجب عليكن أن تلاحظن أن المصابيح خلوا من زيت لايمكنها الضياء والآن تطلبن أن نعطيكن من زيتنا ، أما عرفتن أنه لايمكن لأحد أن يتزين بأعمال غريبة ، أو يتحلى بلباس غيره ، بل كل واحد يحصد ما زرعه ، أعطيننا أنتن من زيتكن يقول الجاهلات ، فماذا قالت لهن العاقلات ، لعله لا يكفى لنا ولكن ، الأولى بكن أن تمضين إلى الباعة وتبتعن لكن ولو أنه بقى زمن يسير ، فأسرعن ياهؤلاء واتعبن لأنه لم يأت الختن بعد ، اجتهدن قبل أن تقفل الأبواب ، وامضين نحو الباعة وابتعن ، فمن هم الذين يبيعون الزيت يا أيتها العاقلات . لأن هؤلاء لم يعرفنهم لأنهم لسن بمعتادات أن يتاجرن بهذه التجارة . فأجابت العاقلات قائلات . ها هم الذين يجلسون فى أبواب الكنائس . أعنى بهم الفقراء والمساكين البلابل الصادحه الذين يبشرون النفوس بالربيع العقلى . الوسطاء المحترمين والمكرمين لدى السيد الفصحاء المتفقهين غير المغلوبين فى الدينونة . فلما ذهبت الجاهلات ليبتعن وفد الختن مقبلا .

فيا لها من مصيبة عظمى ووجع لا شفاء له ويالها من خسارة لا يوجد لها عزاء . وياله من بكاء وندب ليس له تسلية لأنهن حين مضين ليشترين زيتاً أتى الختن . أتى الفرح الذى كن ينتظرنه ويترجينه . أتى شرف الصديقين أتى النور فى سرقة نصف الليل . فاستقبلته العاقلات ودخلت معه الخدر السماوى . إنى لأرتعد من هذا المنظر الصائر . وأرتجف من اليأس الذى حصل للنسوة الجاهلات ، واضطرب بكليتى إذا تذكرت هذه المصيبة . لأنهن كن يشتهين النظر إلى الخدر العظيم الشأن . ولأجل هذه الساعة جحدن الفرح العالمى ومنعن الآلام وقاومن اللذات الجسدية وقهرنها لكن لما لم يكن لهن زيت وجدن أبواب الملكوت موصدة مقفولة . فطفقن يقرعن عند ما أتين قائلات ربنا ربنا افتح لنا . فصاح بهم الديان من داخل بصوت مخيف . قائلا لهن . الحق أقول لكن انى لا أعرفكن فيالها من مصيبة عظمى وشقاوة جسيمة لأن هذا الجواب المر والمفعم من كل ألم وعذاب لم يتجه اليهن بواسطة ملاك بل الديان نفسه أجابهن به لكى يضاعف لهن العذاب الأليم والحزن الذى

لا يطاق إذا سمعن صوته وهن لا يستطيعن النظر إلى وجهه . الحق الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن . فيجيبنه حينئذ قائلات أما تعرفنا ياسيدنا . أما لقينا عليك منذ مولدنا من أمنا . أما كنا لك تابعات أما حفظنا منذ حداثتنا العفة والنقاوة . أما صنا هذا الجسد الذى خلقته نقياً طاهراً . أما منعنا أعضاءنا من الآلام ولقد كان فى ظننا أننا ننال جوائز الأكاليل من يمينك المقدسة الطاهرة . والآن تغلق دوننا الأبواب وتقول أنك لا تعرفنا . لماذا أيها السيد لماذا .

فأجابهن حينئذ . إننى جعت فلم تطعمننى . وعطشت فلم تسقيننى . وغريباً كنت فلم تأويننى . ومريضاً ومحبوساً كنت ولم تعدننى وتعزيننى . لأنى قد أوصيت فى كتابى قائلا . إن الذى لم تفعلوه بأحد إخوتى هؤلاء الصغار الحقيرين ففى أيضاً لم تفعلوه .

إذا باطل أيها السيد وفارغ هو صبرنا على كل هذه المشقات الجسدية والمتعبات الدنيوية باطل اغتصابنا ذواتنا كل يوم على السهر طول ليلنا . باطل هو اشتياقنا اليك أيها الختن السماوى وحفظنا عذريتنا طاهرة غير مفسودة حتى الإنتهاء . فأجابهن الختن قائلا حقاً أنكن عذارى . ولكن ليس معكن جهاز . حقاً إنكن عذارى وليس لكن زينة ختنية . حقاً حفظتن نقاوة الجسد وطهارته . لكن هشمتن المحبة البشرية بعدم الإنسانية وقلة الشفقة . حقاً إن جسدكن طاهر ونقى ولكن أفعالكن وأحوالكن عديمة الرحمة والتحنن . لأن زينتى أنا ليست زينة طبيعـــة بل هى المحبة البشرية . فاللاتى يرغبن بى ويشتهين أن يتحدن بى ويصرن لى عرائس يجب عليهن أن تكون لهن زينة تشابهنى . فانى لا أستطيع أن أتخذ لى عروساً مضادة لطرائقى وأعمالى . ولا يمكن أن أضع فى خدر ذى سلام حربا . اذهبن عنى منصرفات لا تشوشن الأبواب قرعا . لأن ملكى هو مسكن الرحومين . ومن تشبه بشفقتى ورأفتى على المساكين فذاك يقبل إلى بسهولة . ذاك الذى يكون متمسكا بالروح . ذاك الذى يميل سمعه نحو السائلين والمحتاجين . ذاك الذى يحسب مصائب جاره وامتحاناته كأنها له . ذاك الذى يحزن مدمعا على نوائب الغير ومضراته . ذاك الذى يشبع الفقراء والمساكين ويملأهم من خيراته . ذاك الذى يكسو أجساد العراة ويدفئها . ذاك الذى يصغى إلى أصوات المرضى ودعائهم . ذاك الذى يسلى صغيرى الأنفس والمحزونين بكلام التعزية ذاك الذى يستقبل الغرباء ويدخلهم تحت سقف بيته . ذاك الذى ينشف باسفنجة الحنو والشفقة دموع الأرامل ويمسحها . ذاك الذى يخفف باعتنائه ومساعدته ثقل اليتيم .

فلا تعجبوا من هذه كلها وتمدحوها باللسان فقط بل ضاهوها بالأفعال أيضا . لأن خاتمة اللسان وثباته هى اليد . لأن اليمين إذا غايرت الكلام أظهرت العطاء وأبانته . فلنحب إذاً المساكين وليعتنِ بهم كل واحد منا على حسب مقدرته . ولنسمع أصوات السيد دائما لأننا إذا عرفنا تخويفاته نهرب من تجربتها . ولنشفقن على ذواتنا من أجل المساكين . لأن العذارى لما لم يكن من المحبة البشرية والرحمة أبعدن الختن مطرودات . فأى رجاء صالح يتجه للخطاة إذا شتموا المحبة البشرية بعدم إنسانيتهم . ياليت شعرى إذا قلت هذه الأقوال نحو الضعفاء لكى أشدد ضمائرهم فهل ترى أضر أحداً من الناس الفضلاء الصالحين . كلا . بل إننى أشدد عزمهم وأجعلهم أشد حرارة واجتهاداً فى حسن العبادة وإتقان باقى الفضائل.

فلننظر يا إخوتى متأملين فى مقام هذا الموسم العالمى كيف يجب أن نتاجر فيه ليمكننا أن نؤدى الجواب المقنع أمام ذلك الديان المخيف . ولنظهر النوح والندب قبل أن تنتصب الكراسى لكى ندرك مجىء الختن ونباشر حضوره ونفر سريعا من الخطية . وندرك ساعة المداينة المعلومة . ونستعطف الديان المهوب ليظهر وداعته لنا ، ولا نصير فى وقت وقوفنا أمام المنبر الرهيب عديمى الجواب ، ولنوزع الآن المقتنيات على الفقراء فتنحل هناك الأوزار وتبيد الخطايا ، ونخاطب هنا الديان على انفراد لئلا يفضحنا هناك أمام الجموع . اتخذ لك وسيطا نحو محبته البشرية أى مسكيناً تتقدم به هدية للديان واكشف له هذا السر . لأنه من أجله يترك للمجرمين أوزارهم ، لأن الفقير يقبض والقاضى يكتب العفو والغفران ، فهو يقبل السجلات ويمزق الصكوك لأنه يقول من يرحم مسكيناً يقرض الله فالشىء الذى تضعه الآن فى يد الفقير تجده هناك فى قبضة الديان . فإن شئنا أن نهرب من الدينونة فلنستعطف الديان منذ الآن بواسطة المساكين وإن كتبت وثيقة توصية عند موتك فاكتب فيها أيضاً مع اهلك واصدقائك حصة لنفسك الذاهبة إلى هناك . وأقل ما يكون أعطها نفقة يسيرة لأجل الضرورة ويكون اسم الديان مسطر فى الميثاق كناية عن اسم الفقير ولا يخلو ذكر المساكين من أوراق ميثاقك . واجعل الموت سبباً للفرح لا سبباً للحزن . واحرص أن لاتقف فى القضاء المخيف خالياً من وسيط . بل أشبع بطون أولئك الذين يدافعون عنك يوم الدين . ولنجعل البارىء تعالى الذى هو خالقنا ومبدعنا ومديوناً لنا لئلا يداينا . ولنبتع بهذه المقتنيات الوقتية عظم هذه السعادة . لأن البارى تعالى يقول . أن شهادة المسكين لك أيها الإنسان هى خير من أن تحبنى المحبة البشرية . لعلمك الأكيد بأنى أحب المساكين . أنى قد أنبت الصحارى عشباً للحيوانات الناطقة وغيرها وأعطيتهم كل ما يحتاجونه من

غير بخل . وأنت إذا صنعت رحمة لأحد فأنى أمد أنا يدى أيضاً مع ذلك المسكين وأتناول ذلك الفلس الذى أعطيته إياه . ولقد بلغك عنى أنى متسربل بالنور كالردا . ولكن متى كسوت عرياناً أشعر أنا بسخونته وسترته . وتعتقد بى أننى جالس عن يمين أبى فى أعلى السموات . ولكنه متى ذهبت إلى السجن لتتفقد المسجونين ترانى هنـــاك جالساً مع المحتاجين . وإن عدت أيضاً مريضاً مدنفاً تجـــدنى غير نازح عن فراشه لأننى فى جميع المسكونة مستقر وفى كل الأماكن موجود. وللمضرورين عاضد . وكل شىء تفعله بالمسكين تجده فى وافراً . فان أدخلت إلى منزلك غريباً عديم المأوى تتخذنى بواسطته مساكناً لك . وسأهبك هذه الأشياء الثلاثة . وهى أن أحفظ منزلك وأكثر مقتنياتك وأهىء لك مكاناً فى السموات تلك التى نسأل الله أن ننالها جميعاً بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذى له المجد والعزة إلى أبد الدهور آمين .

المقالة الرابعة والثلاثون

(فى الانبياء الـكذبة والأراطقة الضالين وفى علامات انتهاء هذا الدهر)

إن هذا القول لمحزن حسبما قد ظهر لى أخيراً . إلا اننى مملوء به فرحاً وسروراً جزيلا . أما وجه حزنى فهو أننى لن أعود فأتكلم معكم بعدها شيئاً آخر . ووجه فرحى وسرورى هو أن زمانى قد حضر لأنحل من جسدى وأكون مع المسيح وكما قال الرب بأننى لا أعود فأتـكلم معكم أيضاً . فهكذا أنا أقول لـكم ، ولـكن قولى لـكم هذا بقلب شجى موجع . وذلك من أجل الأنبياء الـكذبة والمعلمين المضلين والأراطقة المفسدين الذين من أجلهم يقول الرسول الالهى ، أن اناساً أشراراً وسحرة يظهرون بزيادة ضالين ومضلين ، أولئك الذين كاتبتكم من أجلهم مراراً كثيرة نصحاً لـكم وتنبيهاً . وأطلعتكم على معانى أقوال بليغة . بنعمة ربنا يسوع المسيح وامتنانه ، وأنتم أيها المحبون لله الشهود بذلك . حيث اننى كنت أوقظـكم فى كل مقالة وأفطنكم بما أذكره لكم ، ولعلكم الآن تفطنون بما تقدمنا فقلناه

بالأمس فأظن بأنكم تفقهون ذلك يارعية الله المنتخبة ويا جميع الذين هم محبو الجهلاء والسيد المسيح والتائقون إلى تلاوة الكتب المقدسة . وحقاً أن التائق إلى استماع الكتب الإلهية هو ممن يحبون المسيح حسب النص الإلهى القائل ، أن من يحبنى ويحفظ كلامى يحبه أبى . وأيضاً من يحبنى يُسبِّح بناموسى نهاراً وليلا . يعنى به الانجيل الإلهى وباقى الكتب المقدسة . والذى هو هكذا يكون ذكر الله فى قلبه غير ممحو أبداً . بل يكون مقتبلا تذكرة الله من السموات دائماً . وهو لايزال منتظراً وقت حضوره . وضابطاً بيديه كتب الإله دائماً . ولن ينسى أقاويلها الرادعة البتة . تلك الأقوال المنصوص عنها التى هى قيام الدينونة المريعة وفتح الكتب واشتهار المآثم . أفرأيت كم هى الفائدة الحاصلة من مطالعة الكتب الإلهية ولقد سمعتم منى مراراً كثيرة فى شأن الكتب المقدسة وفائدتها لنا . وكيف أنها تهتف فى آفاق المسكونة بأفواه الأنبياء والرسل . حتى فى فم سيد كل البرايا أيضاً . وهى تدعو كلا للمحافظة كالأم الحنونة المحبة لأطفالها الصغار . فهى تقدم لهم الشهادة وتذكرهم فى الأمور الماضية والمستقبلة . ولن تترك شيئاً من المفيد لنا كما تقدمنا فقلناه . ولن تتكلم بشىء خفى أو متوار بل أنها تجهر به كالبلبل الصادح فى كل صقع ومحل . وتعرض بذكر النواميس والأنبياء والرسل . وتشيد بذكر سيد السادات نفسه فتهتف على لسان أشعياء النبى قائلة : أصرخ بقوة ولاتجزع وأرفع صوتك كالبوق . ويقول أيضاً . أصعد يابشير على جبل عالى . ثم يقول بعده . أرفعوا أصواتكم ولاترهبوا وكذلك داود النبى يقول . عييت مما صرخت وبح حلقى . ويوحنا اللاهوتى يقول فى رسالته الجامعة . أحرصوا ألا تضيعوا ما فعلتموه . هوذا المضلون قد خرجوا إلى العالم . وبولس الطوباوى يصرخ قائلا . كونوا سائرين بالاحتراس والرب الاله يقول علانية . ها أنذا قد خاطبت العالم مشافهة علانية ولم أتكلم معهم بالخفاء فى شىء . والرسول الانجيلى يخبر عنه قائلا . أن يسوع كان واقفاً وهو يصرخ قائلا . من كان منكم عطشاناً فليقبل إلى وارداً ليشرب . أفشاهدتم كمية هذا الجهاد ونظرتم مقدار هذا النشاط والاعتناء . كيف أن الكتاب الإلهى يدعوا بحرارة وليس من يسمع . ويصرخ موضحاً وليس من يفهم . اسمعوا بولس الرسول ماذا يقول . إحذروا من ممازحة الكلب احرصوا من فاعلى السوء . تأملوا كيف تتصرفون فى حياتكم . هوذا الأيام خبيثة . وقد وردت أقوال كثيرة فى الكتب الالهية قديمة وحديثة على هذا النسق وهى تصرخ نحونا وتنبهنا من تغافلنا وإهمالنا ونحن نعرض عنها ونعمل بخلاف مايقوله الرب . فقد كمل حينئذ المقول على لسان أشعياء

النبى . سمعا يسمعون ولا يفهمون . وأغمضوا عيونهم لئلا ينظروا بها شيئا . فكم من مرة نسمع تلاوة الكتب المتنوعة ولانصغى إليها بعقولنا ولهذا نوجد فاقدى الجواب يوم الفحص والدينونة يوم تظهر الأمور المبهمة . وتكشف الأعمال الخفية . وتبرز أفكار القلوب إلى الوسط . يوم يجلس القاضى العادل للدينونة . يوم تفتح تلك الكتب التى كنا نحتقرها ونتهاون بها ونعرض عن استماعها . حقا أننا قد أهملنا المنهج المستقيم . وسلكنا طريق الضلالة جميعا وصرنا كما كنا فى القديم قبل أن تسودنا يارب كقول النبى . وحقا أنه قد تمت فينا كلمة داود التى قالها . أنهم قد اختلطوا بالأمم وتعلموا صنائعهم . ولهذا نحن اليوم مذلون فى الأرض كلها . وذلك لأجل خطايانا . وقد انتهت فينا آخرة العصور والأزمان حسبما كتب . إن الرعاة قد صاروا ذئاباً خاطفة . والأغنام قد انسحقت وبادت . والجوع كائن على الأبواب ليس من جوع خبز وعطش ماء . بل من جوع استماع أقوال الله والتكلم بنواميسه جهراً علانية . وأنهم يهرعون من المشارق والمغارب يطلبون كلام الرب فلا يجدونه . أفهمتم كيف أنه يعنى بالجوع جوع كلام الله . فياله من جوع مفسد للنفوس وياله من جوع مسبب للعقاب الأبدى ولكل نوع من الشرور . هذا هو الجوع الذى يسبب كل رذيلة . هذا هو الجوع الذى سبق النبى متوسلا فى شأنه إلى الله قائلا . إلهى لاتبتعد عنى . وقال أيضاً فى شأن المؤمنين المجتهدين أنك لتعولهم فى الجوع . وأيضاً فى أيام الجوع يشبعون . وأيضاً أن الرب رحوم ورؤوف . لأنه منح الغذاء لاصفيائه الخائفين منه فهذه الأقوال قالها داود لأجل أولئك الذين يبحثون فى الكتب المقدسة أنهم لا يجوعون البتة . فلنفتش الكتب إذاً يا إخوتى لئلا نجوع عند مجيء الجدب المفسد للنفوس . ولنفحص فحصا شافيا لئلا نضل وتزحزحنا كل ريح . كما قال الرب لأولئك المتهاونين والمتوانين . إنكم ضللتم من عدم فهمكم الكتب . أفحص يا أخى الحبيب الكتب الالهية . وهذه وصية سيدية وأمر إلهى . إفحص بتعب وجد واجتهاد فتجد غنى كثيراً وكنزاً ثميناً مدفوناً فى الحقل فالحقل أفهمه أنه الكتب المقدسة الالهية لاغير . ابحث عن الكنز المخبأ فى هذا الحقل فتجده . وعندما تجده بع كل مالك واشتر ذلك الحقل . أعنى به فهم الكتب الالهية المخبأ فيها الإبن الوحيد الجنس وحكمة الله الآب الحقيقية ذاك الذى متى وجدته تصير مغبوطا مطوبا كما هو مكتوب . الطوبى لمن وجد الحكمة إفحص الكتب يا أيها الحبيب وأبحث عنها غنيا كنت أم فقيراً عبداً كنت أم حراً . ذكراً أم أنثى فتش الكتب الالهية فإنها خزانة كل الخيرات .

فلنعد إلى موضوع كلامنا السابق المبنى على انتهاء العالم وعلى الانبياء الكذبة والمعلمين الكاذبين والاراتقة الضالين الذين هم كالبئر المملوءة حمأة تجرى منها السيول المتراكمة فتغطى وتضل الكثيرين . ترى من أين اتفق هذا الأمر ومن أين منشأه وحدوثه . فهذا ظاهر معلوم . أنه من جهل الرؤساء وعدم معرفتهم بكنه حقيقة الايمان . لأنه حيثما وجد رعاة غير عارفين فهناك تجتمع الذئاب الخاطفة وتفنى الخراف وتمزقها . ترى من أى موضوع ابتدىء أولا . أعن انتهائنا أم عن بيان الأراطقة الضالين الدنسين المفسدين فحقاً يا أخوتى أنه لو كان لى وقت كاف لانشأت بالحقيقة أقوالا مسهبة فى بيان اعتقادات الارطقات الضالة المضلة . إلا أن الجهاد عظيم والقول مسهب جزيل فى تكذيب آرائهم وبيان سوء اعتقاداتهم الدنسة . ولكن الضرورى الآن علينا هو أن نظهرهم بأنهم أعداء المسيح من دلائل الكتب المقدسة . وأنهم ذئاب خاطفة . وقد أغاروا على حظيرة الخراف. ولهـــذا يلزمنا أن نطردهم عن خراف السيد المسيح ونخرجهم منها . وبالحق قد دعوا من الأنبياء أنهم ذئاب خاطفة . حتى من السيد نفسه أيضاً ومن أفواه الرسل المطوبين ولا يكفى أنهم ذئاب فقط . بل منافقون . ومستهزئون . ومضادون للحق الجلى . وأعداء غاشون . ومحدقون . ومراؤون . وسراق . ولصوص ومهملون . وأنبياء كذبة . ومعلمون ماكرون . وقادة عميان . وضالون . وأشرار . وأعداء المسيح . ونفس الشكوك وبذار الشيطان . الذى هو الزوان . إذ لا إله لهم يحذرونه فهم أعداء الروح الذى جدفوا عليه . فحقاً أنه لا يهملهم ههنا أعنى فى هذا الزمان الحاضر ولا هناك أعنى فى المستقبل لأنهم أصل التجديف على طريق الحق وسببه فهؤلاء المدعوون أولاد الشيطان الرجس ، حسبما يقول فيهم الرب الاله . أنكم انتم من أبيكم الشيطان . ويقول الثاولوغس أيضاً . إن بنى الشيطان ظاهرون السمة . فإذا كان هؤلاء الأرجاس هكذا فيجب علينا أن نفحص عنهم أولا . ثم بعد ذلك نشرح فى البحث عن انتهاء الزمان . أقول . قال الرسول الالهى . إبتدأت الأقوال الصعبة بالحدوث وكثرت معها مخالفة النواميس . وقلت المحبة من الأكثرين وقد كثر التائهون وأكثر منهم الضالون . فهلم يا أخى نفتح الكتب الألهية التى بها نجد الحدود المقدسة الشرعية ونشرع فى الخطاب والمحاورة أولا من الأنبياء ثم من الرسل لئلا نضل بضلالتهم وننقلب مع كل ريح من تعليم هؤلاء الأشرار المضلين بالغش فى منهج الضلالة ولئلا نترك أسفل لنصعد مع التلاميذ الأطهار إلى قمة الجبل المغبوط ونسمع معلمنا الصالح يقول . أنظروا وأحرصوا أن لا تضلوا سبيلا . ويوحنا يقول أيضاً . أنظروا

ذواتكم لئلا تبيدوا بما تصنعون . وبولس الرسول كذلك يقول . احذروا الكلاب الكلبة وتبينوا طريق مسلككم . وما معنى قولهم . انظروا وأحرصوا يا إخوتى . معناه أن نهرب محترسين من أولئك الذين يضللوننا عن الحق وهم لابسون جلود الحملان ويخفون الذئب الخاطف ضمنها ويضلون بخبثهم المتهاونين والمتوانين . فلهذه الضرورة تقول الكتب الألهية فى كل موضع . أحرصوا وأجتهدوا واسهروا مصلين ليس عن ذواتكم فقط بل عن الرعية بأسرها أيضاً . أنظروا الكتاب الألهى كيف أنه لايصمت عن شىء مخصوص لفائدتنا . حقاً يا إخوتى إنه يشملنى البكاء والتألم عندما أسمع عن بعض أبناء كنيستنا أنهم يقولون أن هذه الأقوال ليست هى من الكتب الألهية . ولا أسمع هذا الكلام المفسد من بعض العامة الجهلة فقط بل من أصحاب المراتب الذين يدعون بأنهم رعاة الخراف مناطقة . وهم فى مناصب الرسل والأنبياء . وأما طرائقهم فليست عن النهج القويم . فلأجل هذا أوجه خطابى نحوهم قائلا . الويل لكم يا قادة العميان وعادمى المعرفة . ويا أيها المتزينون بالملابس البهية وقد أهملتم أقوال الله . وأنتم تخدمون البطون التى هى الهتكم ومجدكم وتمتصون البان الرعية وتأكلون لحومها . ولا يهمكم شىء من أجلهم مع أنكم مزمعون أن تعطوا الجواب عنهم يوم الدينونة فالى أين يمكنكم أن تهربوا منها وقد أهملتم خلاص الأنفس الناطقة . فلهذا أنا أسهب فى مقالى وخطابى وآتى بشهادات وثيقة لاتحصى من الكتب الألهية والأناجيل المقدسة . ومن الأنبياء والرسل الأطهار . واستعين على ذلك باسعاف السيد المسيح ليسد أفواه المتكلمين بانظلم وأما محبو هذه الأقاويل الروحية فتستنير قلوبهم وتبتهج افئدتهم فمن أين أذن ابتدىء بالمقصود . فليس هناك من يقول أنا هو الأول وأنا هو الآخر ولكن فليجمع كل واحد منكم أفكاره ويضم حواسه إلى ذاته . ويترك المهمات العالمية . ويقبل إلى بجملته ويصغى إصغاء مستفيد لكى يفهم الأقوال كما هى . قال البارى تعالى احرصوا جداً لئلا تضلوا . لأن كثيرين يأتون إليكم باسمى قائلين . أنى أنا هو المسيح ويضلون بذلك الكثيرين ويقول أيضاً ، أحذروا متيقظين من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم من داخل ذئاب خاطفة ، ومن أثمارهم تعرفونهم ، يعنى من كلامهم ونبواتهم الكاذبة ومن ريائهم وعقائدهم الفاسدة وتميزونهم من تجاديفهم وافترائهم ، لأنه لايمكن لشجرة رديئة أن تثمر صالحة ، لأن الشجرة تعرف من ثمارها ، فهكذا أنتم تعرفونهم من نتائج أثمارهم ، أعنى أعرفوهم من فحوى أقوالهم وتعاليمهم ، ولا تدخلوهم منازلكم ولا تحيوهم بالسلام ، لأنه لايجوز أن يقال لمثل هؤلاء السلام عليكم ، ولا تحاوروهم

بسؤال وجواب ، كما قد قيل لا تلقوا جواهركم قدام الخنازير يعنى مثل هؤلاء . بل احرصوا من خميرهم أعنى من أقوالهم الفاسدة وأرطقتهم النجسة ، ولا يتثاقل أحد منى يا إخوتى لأن هذه الأقوال هى إلهية ، اسمعو أيها الرعاة صوت رئيسكم ، وأحرصو على ذواتكم وعلى رعايتكم وأحذروا من الكلاب النهمة ، وأستيقظوا لئلا تفاجئكم اللصوص بغتة ، من لم يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يتسلق الحائط فذاك لص وسارق ، ويقول أيضاً فى شأنهم : من ليس معى فهو على ويقول نحوهم أيضا . أنتم من الشيطان أبيكم . وأيضا الويل لكم إذ تغلقون ملكوت السموات فلا تدخلونها ولا تدعون الغير أن يدخلها . ويقول أيضا ، أنكم لستم من غنمى ولا من خرافى أفشاهدتم السيد المسيح كيف أنه فى كل موضع يفضح المنافقين ويشهر الأراطقة المعاندين فيالعظم محبته لجنس البشر ، وبالعظم تنازله الذى لايباح بوصفه . ويالجلالة صلاحه الذى لاينعت ، فبماذا نكافىء الرب عما قدمه لنا من مثل هذه الخيرات الوافرة ، وهذا قليل من كثير مما قلناه يا أيها الرعاة وسمعتم قول السيد كيف أنه يأمرنا فى كل موضع أن نحرص على ذواتنا ، حيث أنه يهتف بأناجيله المقدسة قائلا ، احرصوا وأجتهدوا واسهروا وصلوا وليس أمره هذا لنا فى الأناجيل فقط بل على ألسن انبيائه ذوى العقول المتألهة وعلى أفواه رسله المتكلمين بالألهيات ، لأنه يتكلم فى افواه الجميع بكل مايشاء ويريد ، وبولس الرسول يشهد بصحة ما أقوله ، فإنه يقول فى أثناء تعليمه أن المسيح هو المتكلم فى . ثم أننا نحضر إلى الوسط اقوال الرسل المتفوهين بالالهيات ، ونسمع ما يوصوا به من جرى الأراتقة الملحدين ، هات الآن يابطرس فقل لى ، أنت الذى طوبك الرب يسوع من أجل هؤلاء المضلين الذين يزمعون أن يضلوا رعيته التى سلمها فى يدك وأقامك عليها رئيسا للرعاة ورقيبا على أنفسنا ، ومنحك هبة الروح القدس لتقوى رعيتك على الذئاب الخفية ، وتعلم كما علم ربنا يسوع الذى هو معلمك ، فيجيب بطرس قائلا : اعلموا ، أولا أنه سيأتى فى الأيام الأخيرة أناس مكرة يتصرفون بحسب اقتضاء شهواتهم ، وأيضا سيصير منكم معلمون كذبة ويخترعون آراء فاسدة وأرطقات مهلكة ويجحدون السيد الذى اشتراهم بدمه ويتبع ضلالتهم اناس كثيرون ولكن جزاءهم لايبطىء ، وهلاكهم لا يتأخر اذ هم بنو اللعنة ، لأنهم اهملوا الطريق الجيدة ، وسعوا فى ظلام ضلالة عقولهم ، وهذه الأقوال قالها بطرس الطوباوى فحقا يا اخوتى أن بطرس هو صخرة ثابتة فى الإيمان ، حقا إن بطرس اعطى مفاتيح ملكوت السماء حقا إن بطرس هو الذى مشى على الماء ، حقا إنه محب الرب يسوع ، حقا إنه هو الالهى الحار فى إيمانه ، حقا

أنه عظيم فى الرسل القديسين الذى اهلك سيمون الساحر أول اللصوص والسراق وتلميذ الشيطان فى البدع والأرتقات ، ويوحنا الإنجيلى يقول ، أن أفعال الشيطان ظاهرة ، اعرفتم الآن كيف أن الرب يسوع يتكلم فى أفواه الجميع ، أليس هو القائل فى الأنجيل المقدس عن المبدعين انكم انتم من أبيكم الشيطان ، وانى لاعرف أن كثيرين يقولون لى . أن الله خلقهم وبدون إرادته لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً ، فاقول لكم ماذا تقولون يا اخوتى . فإنكم لا تدركون شيئا البتة فسؤالكم أن الله خلقهم . نعم وأنا أقول هكذا ولكن خلقهم ليعملوا أعمالا صالحة حتى إذا شاهدنا سيرتهم نتبعهم فيها ونصير ابناء الله بواسطتهم مع الإيمان المستقيم .

ولنعد إلى ما كنا فيه قائلين : قال يوحنا الرسول . فالآن قد صار مسحاء كذبة كثيرون ويقول أيضا احفظوا ذواتكم لئلا تضيعوا شيئاً من التى تعبدتم لها آنفاً لأن المضلين قد كثر ظهورهم فى العالم . ويقول أيضاً . يا أحبائى لا تؤمنوا بكل روح . يعنى لا تؤمنوا بكل تعليم بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله لأن انبياء كثيرين قد ظهروا فى العالم . ويقول أيضا . كل من جاءكم بغير هذا التعليم فلا تقبلوه ولا تسلموا عليه سلاما . لأن من يسلم يشاركه فى أعماله الشريرة . ويقول أيضا . كل من يتجاوز تعليم الرب يسوع ولا يثبت فيه فلن يكون السيد له الهاً . فهذه الأقوال كلها يوحنا أبن الرعد المحب أكثر من جميع القديسين . المثبت الكنيسة من أقاصى الأرض إلى أقاصيها . هذا يوحنا الذى سد أفواه الاراطقة المبدعين بتكلمه فى أسرار اللاهوت . وأما يعقوب الرسول فإنه يقول . من أراد أن يصادقه ويصافيه الوداد فتلزمه الضرورة أن يكون لله عدواً . اسمعوا هذا يامن تصادقون الاراطقة وتواكلونهم وتأملوا هذا القضاء المر الشديد . وهو أنكم تكونون أعداء للرب يسوع لا محالة . ألا ترى أن ذاك الذى يصادق أعداء الملك ويصافيهم الود لا يمكنه أن يكون صديقا للملك . بل لا يؤهل الحيوة بعدها أيضا . بل يباد مع أعدائه . وأما يهوذا فإنه يقول كما قال يعقوب لأخيه بأنه قد ظهر أناس منكرون قد كتب عنهم سابقاً فى هذا الحكم بأنهم أشرار منافقون يحولون نعمة الله إلى الطماثة . وينكرون الرب يسوع المسيح وحده . ويقول أيضا أنه فى السنين الأخيرة يظهر أناس يتصرفون على حسب شهوات نفاقهم ويجيزون حياتهم كلها بغير خوف ويكونون كالسحب التى لاماء فيها تتجاذبها الرياح والعواصف فتمزقها أو كالنجوم الضالة أو يهيأ لهم الظلمة المدلهمة إلى أبد الدهور فهذه وأمثالها تعلمناها من الرسول

المفضل يهوذا الكلى الحكمة فهلم الآن إلى يا بولس الرسول وهات ما عندك يا أيها الأناء المصطفى . وقل لنا بحسب ما تقتضيه النعمة الكائنة فيك من الله . واخبرنا عن فساد هذا الزمان الشرير الكائن . وأظهر لنا منه الذئاب الخفية . وافضح دهاء اللصوص وأشهر سرقتهم لرعية الرب يسوع الهنا . وابن لنا غش تعاليمهم الفاسدة . فيجيب ذلك السعيد المبجل بولس الرسول قائلا . إنى لا أعرف أنه من بعد انحلالى تفاجئكم ذئاب رديئة فلا تشفق على رعيتى أفشاهدتم يا اخوتى تساوى أقوال الرسل القديسيين والانبياء الأطهار كيف أنه محكم بالاستقراء والتتبع فى هذا الصدد . وتأملتم أقوال المتكلمين بالالهيات كيف أنها تماثل بعضا بعضا فى أمر الاراطقة الضالين الذين يسمونهم تارة كلابا وتارة ذئابا حسبما يقول بولس الرسول فى موضع آخر احرصوا من الكلاب احرصوا من فاعلى السوء . احرصوا من أن يضلكم أحد بالفلسفة الباطلة احرصوا فى كيفية سلوككم بالاحتفاظ والتيقظ لأن الأيام هى خبيثة . فأى جواب ترى يكون لذاك الذى يسمع مثل هذه الوصايا ويتوانى متهاونا . اسمعوا كيف يقول الرسول أيضاً . لا تقبلوا أقوالا متلونة ولا تعاليم رديئة . ويقول أيضا . أن الرجل المضاد بعد أن تنصحه مرة واثنتين ولم يقبل أهرب منه. ويقول أيضا . هوذا أشرار وسحرة سينجحون فى الأكثر ولكنهم هم الضالون المضلون . فليسمع هذا من له أدنى صحبة معهم . ولا شئ يطهر المنجسين بهم إلا الفرار من الرجز الذى لا يوافيهم . فيا أيها المتدنسون معهم فى المآكل والمشارب أيمكنكم أن تتناولوا أسرار المسيح الالهية الرهيبة . ألا تسمعون بولس الطوباوى قائلا انكم لا تستطيعون أن تأكلوا من مائدة ربنا ومائدة الشياطين . أخرجوا من بينهم يقول النبى . ولا تفعلوا الرجس . ليت شعرى هل تسمعون منا ما نقوله . إذ لعلنا نقنعكم بهذا أم أننا نتعب باطلا كأننا نصفر فى الهواء وإلا فإنى لأجل المجتهدين النشيطين والتائقين إلى استماع الأقوال الروحية لأن يعملوا بها أكلف ذاتى أن لا أكف عن التكلم بأقوال بولس البلبل الصدوح . وأقول أيضا ما يقوله وهو أن لا تصيروا مقاومين للامة المؤمنة فأية شركة للنور مع الظلمة . أين المتكلمون بالاباطيل . أين الافواه المفعمة شراً ونفاقاً . القائلون أن هذه الأقوال ليست من الكتب الالهية أولئك الذين آلهتهم بطونهم ومجدهم قبائحهم التائقون إلى الارضيات والمنعكفون عليها دائماً . فهذه الأقوال كلها قالها بولس الطوباوى فم الكنيسة واناء الروح القدس . المنتخب بالدعوة العلوية . الكثير الجد والاجتهاد . الشجاع الشهم والأسد الهصور . اعنى به بولس . ذاك القيثارة الملحنة والهزار المنذر بالرب يسوع . جرثومة

الاعتقاد الصحيح ونموذج الإيمان البهى . بوق الكلمة الانجيلية . خطيب العبادة الحسنة . أحبولة الأمم . وقناص الشوارد . وكذلك الرسل المطوبون والمتكلمون بالأقوال الالهية . فإن الذى قالوه فى شأن الأراطقة المضلين والرد على سوء اعتقاداتهم أكثر من أن يذكر .وأما الأنبياء المحقون فاثبتوا ذلك سابقا ولكن يلزمنا الأمر أن نحضرهم إلى الوسط ونسمع مناجاة أدلتهم . قال داود أنه ليس فى أفواههم صدق . قال أيضاً . أبغضت يارب الذين يبغضونك وعلى أعدائك كدت أذوب حنقاً وأبغضتهم بغضا تاما. وصاروا إلى أعداء قال سليمان الكلى الحكمة . أن المنافقين يخادعون بادعائهم الاستقامة وقال أيضاً . يابنى لا يضلك الرجال المنافقون ولا تذهب معهم فى الطريق . وقال اشعياء النبى . بل الله على لسانه ينطق قائلا . ولدت بنين ورفعتهم ، أما هم فجحدونى . وقال أيضاً لن يوجد للمنافقين سلام فترى هل إكتفيتم بهذه الأدلة الباهرة أم نأتيكم ببراهين الانبياء فرداً فرداً لكن على حسب ظنى أن هذه الأقوال كافية لمن يرغبون فى فهمها وتطبيقها . لأن ما يدركه المذعن بشاهد لايدركه المتعنت بالف شاهد . ولكن فلنورد لكم من البراهين ماتطلبونه من أقوال الأنبياء . قال داود النبى موبخا أولى الخبث والمكر وكاشفا غشهم بقوله . أنه ليس فى أفواههم صدق . قلوبهم باطلة . ألاحظتم فهم النبى كيف أنه يبين غشهم ويكشف لنا عن ريائهم وعقائدهم الرديئة لئلا نضل بمكرهم . اسمعوا هذا يا أيها المستقيمى الرأى ولا تختلطوا بالأراطقة يا أصحاب الإيمان القويم . واسمعوا أنتم يا أيها الرعاة الرؤساء وارتعدوا من استماع هذه النصوص خوفا وفرقا . واكشفوا غش ضمائرهم وضلالاتهم لرعيتكم . ولا تمنحوا الشيطان فرصة ، ولا تفتحوا بابا أمام الذئاب الخاطفة لئلا تدخل اليكم فتفسدكم . وماثلوا بطرس المطوب الذى لما سمع تجديف سيمون المثلث اللعنة فى مدينة رومية حين أدعى الشقى بأنه قوة الله لم يحتمل بطرس تجديفه ولاساعة واحدة بل وبخه على الفور واظهره كاذباً مفترئاً ولصاً سارقا ولله محاربا فاحدره من علو تشامخه وأسلمه إلى يد الهلكة . وكذلك ابنه منطانس لا بل أبن الشيطان النجس الذى لا اله له سوى زانيته . فوبخه الرسول الطوباوى مبكتاً وأظهره عياناً أنه جاحد عديم الاله وأبانه مسيحاً كاذبا ونبيا خبيثا وأبكمه حالا . وسد فمه النجس باسم الرب يسوع ولم يطل أناته عليه ولا احتمل عظم تجديفه وافترائه ساعة واحدة . فهكذا افعلوا يا أيها الرعاة ولا تشاركوا أفعال الظلم العديمة الثمر بل وبخوه وكذبوه كما فعل الرسل القديسون وآباء الاله بالجسد . كداود العظيم الشأن فانه تعب فى

شأنهم كثيراً وجاهد الجهاد الكلى وانتصب بإزائهم موبخاً لهم وفاضحاً وصاح بهم بالغيرة الالهية نحو الله : قائلا . إلى متى يارب يفتخر الخطاة . شتتهم باقتضارك وجازهم كافعالهم يارب وأرذل تماثلهم فى مدينتك لأن ما أصلحته هدموه . وكان داود يضرع إلى الله متوسلا لكى يأتى ويتمم مسألته بقوله : طاطىء اللهم السموات وانزل . وأيضاً لا تتباطأ يارب . وأيضاً فلتـــدركنا رأفتك سريعاً يا رب ، وأما الله ذاك الذى يحب أن يخلص الناس جميعاً وأن يقبلوا إلى معرفة الحق الذى هو قريب من كل المستغيثين به فى الحق ولم يهمل طلبة قديسيه ولا رفض مسألتهم بل إنه أنار السموات وانحدر ودبر خلاص جنسنا وأظهر لنا تعاليمه كلها علما وعملا . وفيما بعد لما اراد بسابق علمه أن يظهر لنا أولئك المزمعين أن يترأسوا على الكنائس انه يلزمهم أن يطردوا الاراطقة المبدعين من كنيستهم وبين رعيتهم صنع مخصرة من حبل وأخرج بها من الهيكل كافة الذين يبيعون ويبتاعون وطردهم قائلا . أن بيتى هو للصلاة وانتم صيرتموه مغارة للصوص . اسمعوا هذا يامن هم متقدمون فى الكنائس ومصدرون فى السدة الكهنوتية . واعلموا أنه لم يفعل هذا الا نموذجا لكم لتقتدوا به وتقتفوا آثاره وتتقلدوه من بعده ولتحرصوا مجتهدين على طرد الذئاب الخاطفة وتحفظوا الخراف وتصونوها من غير ضر وبؤس وعندما اخرج السيد جمع البائعين والمبتاعين خارجا انشأ ينبىء عن الخراب والدمار المزمع أن يكون عليهم جيلا فجيلا . لاجل خلقهم ومضادتهم . واشار اليهم قائلا . هوذا يترك لكم بيتكم خرابا . أفهمتم هذه النصوص كلها وتيقنتم أن الأعداء والمضادين أعنى بهم الاراطقة يدفعون فى كل جبل إلى يد الهلكة والبوار حسب قوله تعالى أن كل غرسة لا يغرسها ابى السماوى تقطع كما فعله هو أولا . ثم بعد صعوده إلى السماء أيضاً أنشأ رسله المطوبون الحرب العظيمة مع هؤلاء المضلين . ثم بعـــدهم معلموا البقية المقدسة والمجامع الإلهية التى حـــدثت فى ميقاتها وأقتلعوا كل من لم يتب عن ضلاله وأسلموهم للهلاك كما هو مـــكتوب . أنك تهلك جميـــع من يتكلم بالـــكذب . وهاهم الآن قد بادوا جميعاً وهلـــكوا من جرى كفرهم وآثامهم . هـــات الآن فأرنى أولئك الذين حاربوا الكنيسة فى ذلك الزمان فأين الملوك المقتدرون اين الحـكماء وجمهور الفلاسفة . أما تبددوا جميعهم واضمحلوا . ومضوا عابرين كأنهم لم يوجدوا . أين قساوة اليهود الخبثاء وتعصبهم أين هو الساحر سيمون مقدام الاراطقة واولهم . واين الشيطان وتلميذ اليهود المضادين السيد المسيح . أين هو ابنه منطانس الشرير ذاك الخليقة النجسة وبذار التجديف والطماثة ورأس الشرور والفجر مع زانيته فـــأين افعـــالهم تلك المرذولة الدنسه التى لا يجب أن نبينهـــا مفصلة لفحشهـــا . ويـــكفى ماقاله

الرسول عنهم . أن الأشياء الصائرة منهم هى شر قبيح فلا ينبغى أن تذكر . أين مركيون أين والس . أين مانى . أن فاسيليديوس . أين نيرون أين يوليانس أين أريوس . أين مكدونيوس أين محاربو الكنيسة الذين قال عنهم داود النبى . هوذا قد أحاطنى كلاب كثيرة أما محتهم الاعصار وطاف عليهم كأس الحمام فأهلكهم جميعا وبادوا كالدخان من جرى آثامهم أن طردوهم منفيين كالذئاب المفسدة . إن الذين طردوهم كانوا محاربين أقوياء وهم الرعاة الشجعان المتقدمون على الكنائس فى ذلك الحين أولئك الرجال المطوبون . وأما الآن فانى أرى فرقا بيننا وبين أولئك الرعاة الأقدمين وبين رعاة زماننا هذا . لأن أولئك كانوا محاربين وهؤلاء هادئين مطمئنين ، أولئك كانوا أشداء مجاهدين وهؤلاء آكلين مترفهين . أولئك كانوا يتزينون بالكتب والعقائد المستقيمة وهؤلاء يتزينون بالملابس ويستهترون بالضحك . أولئك كانوا ينصبون ذواتهم ترسا فى مقام الجهاد عن الرعية ويماثلون ذلك الراعى الصالح يسوع المسيح . وهؤلاء يتركون الرعية والخراف الناطقة مباحة للذئاب الخاطفة ويهربون ، وماذاك إلا لأنهم مستأجرون وليسوا بأصحاب الخراف . فيالعظم شأن أولئك الرجال المطوبين الذين كتبت أسماؤهم فى سفر الحيوة أولئك ارتعدت منهم جماهير الشياطين وارتجفت منهم جماعة الاراطقة واندهلت . الذين سدوا كل فم يتكلم بالتجديف وابكموا الألسن الظالمة فيحق لى إذاً يا إخوتى أن أقول ما قاله داود وهو نائح . أين رحمتك القديمة يارب . فكذلك أقول أيضاً باكيا منتحبا أين ذاك الجمهور المطوب . أعنى صفوف أولئك الاساقفة والمعلمين الذين اشرقوا فى هذا العالم كالكواكب المزهرة وأبانوا أقوال الحيوة وأظهروا محبة الاهتداء . ولكن ما المانع من حضور البعض من هؤلاء المشرفين إلى الوسط . الذين بواسطة ذكرهم تتقدس الأنفس . أين ايفوديوس عرف الكنيسة الزكى وعطرها وخليفة الرسل القديسين ومضاهيهم أين اغناتيوس مسكن الإله وخدره . أين ديونيسيوس البلبل السماوى . أين ايبوليطوس الشهى الحلاوة . والبارع فى الذكاء . أين باسيليوس العظيم المساوى الرسل إلا قليلا . أين أثناسيوس راغم أنف الأراطقة ومدمرهم . أين غريغوريوس الثانى من اللاهوتيين وجندى المسيح الذى لا يقهر . أين سميه الآخر الروحى . أين أفرام المعزى الحزانى ومرشد الشبان وهادى الضالين الذى هو على الاراطقة كسيف ذى حدين كنار الروح القدس وخزانة الفضائل أشاهدتم يا اخوتى هذا الفرق الواضح وتأملتم هذا الفضل المميز بين أولئك الرجال السعداء وبين أهل زماننا هذا . وإنى لاعرف معلمين آخرين غير

هؤلاء المذكورين اللابسين اللاهوت لكن يكفى ماذكرناه لكم عن هؤلاء الأفاضل الذين نصبوا أنفسهم ترسا للدفاع عن الخراف كما قلناه خلافا لهؤلاء الذين يتركون الرعية ويهربون حقا إن أولئك كانوا أقوياء اشداء قولا وفعلا . وهؤلاء متعظمون بالأملاك والمقتنيات والخيل والبغال والحقول وقطعان الماشية والطباخين والموائد البهية الثمينة. فمن أجل هذه كلها يهتمون اهتماما جزيلا ليلا ونهارا . وأما لأجل الرعية الناطقة الذين لأجلها سيعطون لله جوابا عنها يوم الدينونة والموقف المهول فلا اهتمام لهم بها. أصلا . فإن سألهم سائل عن كتب ورسائل وتفاسير هل هى موجودة عندكم . فيجيبونه قائلين . إننا أناس فقراء وليس عندنا ما نقتنى به صحفا. وتراهم يتظاهرون بعد هذا بالغنى والثروة وبالأثواب الفاخرة البهية. يعرضون أكمامهم ويطولونها ويجمعون خداما كثيرين وخاصة أمر الطباخين العجيب ، فيا له من خزى شديد وواها لها من سيرة رديئة ، ويالها من محبة فضة مرة هائلة وتبا له من بطن عديم الشبع والإكتفاء فمن هذا حقيقة تتأتى الشكوك ، وتنشوا الدمدمة والتعبير وتردد الشتائم والإضطرابات ، وإن استفحصت أحدهم عن هذه الأحوال الكائنة يجيبك قائلا إنى لم أظلم أحداً وإنما هذا مالى ولى سلطان أن أفعل به ماشئت فقل لهم يا أيها السائل هكذا ، فإذاً مالى أراكم تتظاهرون بالمسكنة عندما يظهر أحد الأراطقة الضالين الذين يتكلمون كلمات معوجة ولا يوجد من يقاومه ويضاده ، بل نرى الجميع يصيرون فقراء ليس لهم شىء ، الجميع نراهم ساكتين الجميع ينذعرون هاربين خوفاً . أف له من جهل فظيع وتعسا له من أصل شرير ، أعنى به محبة الفضة ، الذى هو جرثومة الشرور ، فآها لجهلنا وغباوتنا كيف أننا نظن ونحن أغنياء متمولون بأننا نخلص وقد بلغنا النص الإلهى ، وهو أن دخول الجمل فى ثقب الإبرة أسهل من أن يدخل غنى ملكوت السموات ، ألعلكم تظنون وأنتم بالترفه والتنعم والسكر واللهو أنكم تقدرون أن تغلبوا الأراطقة وتكيدوهم ، فحقاً أن الذين يسكرون الآن ويتنعمون لا يصغون إلينا فى شىء البتة ، فكيف يمكنكم يا هؤلاء وأنتم فى حال الغنى أن تظهروا للغير حسن فقر المسيح الذى افتقر لأجلنا الذى أوصى تلاميذه أن لا يحملوا شيئا فى مناطقهم لا نحاساً ولا غيره ، فبالحقيقة أنكم فى ضلال مبين ولم تفقهوا الكتب المقدسة ولا سمعتم الرب قائلا . طوبى للمساكين بالروح. وقوله أيضا : لا تكنزوا فى الأرض غناكم . فها هى ذى ملابسكم قد فسدت وأكلتها الأرضة وأنتم ستعطون عنها الجواب للسيد المسيح الذى هو رئيس الرعاة ألا تفكرون يا هؤلاء أن كل واحد سيعطى لله جواباً عن ذاته ألا تعلمون يا أيها الرعاة أنكم سوف تعطون جوابا عنكم وعن غنمكم وعن الكهنة ورؤساء الكهنة والشمامسة وعن كل فرد من أفراد

رعاياكم . فاحرصوا ألا تضيعوا الوزنات . إحرصوا فيما يقيكم ويقى خرافكم . إحرصوا ألا ينقص من قطيعكم خروف واحد وأنتم تعلمون ذلك جيداً أنه إذا بقى خارج الحظيرة خروف واحد يكون من إهمالكم وتوانيكم وإن أكلته الوحوش الضارية تفنى معه حياتكم بأسرها لأن الديان يطلب دمه من أيديكم . فانتبهوا يارعاة متيقظين . وأنذروا بقول الحق والصواب وغادروا الشئون العالمية واجتهدوا فى المسير بالحرص والجهاد ، إحرصوا من الكلاب الكلبة وأقول لكم احرصوا ولا أكف عن مخاطبتكم قائلا إحرصوا ،إحرصوا من الذئاب المختلسة . إحرصوا من اللصوص والسراق . إحرصوا من القوم المضلين المفسدين لأن الذين خرجوا لإفساد العالم كثيرون ، إحرصوا وانتبهوا ساهرين يا جميع الذين أخذتم المقتنيات السيدية واحرصوا وانتظروا يوم حضوره المخيف عندما يوافى لحسابكم ومناقشتكم على ما كثر وقل . ذاك الذى وهبكم الميراث فإن رضختم يا أحبائى لهذه الأقوال بعقولكم فارعــوا رعية الله التى أعطيتموها كما يقول بولس الرسول . لا بالاغتصاب والإكراه بل بالاختيار والإرادة لا بالربح الردى بل بالشوق والإهتمام . لا كالمسلطين على الأكليروس بل لتصيروا امثالا ونموذجا صالحا للرعية لتنالوا بذلك اكاليل المجد الذى لا يفنى ولا يضمحل عند ظهور رئيس الرعاة. وأقول أيضا إسمعوا يا كهنة الرب وملوك الأرض وكل الشعوب .الرؤساء وجميع قضاة الأرض . الأحداث والعذارى . الشيوخ من الشبان افهموا ياقاطنى المسكونة بأسرها . الصغار مع الكبار . الذكور مع الأناث ، الغنى مع الفقير ، فانى أضرع إليكم بأن تصغوا للعقــل إصغاء متفهم لأنى أريد اليوم أن أقنعكم بما ابينه لكم من الكتب المقدسة بأن ليس كل مسيحى يحق له التسمية بالمسيحى بل إننا نرى كثيرين موسومين بهذا الاسم وليسوا كذلك حقيقة لانهم ضالون وتائهون فكثيرون هم الذين يطلق عليهم اسم المسيحى لفظا وأما الذين هم مسيحيون بالفعل فقليلون فتراهم من حيث الشكل والهيئة كأنهم تلاميذ المسيح ، وأما من حيث الفعــل والطريقة فكانهم يهوذا ، وأما من حيث التسمية والادعاء فكأنهم حسنوا العبــادة شفوقون . وأما من حيث الفعل والسيرة فكاليونانيين ، بالاسم مسيحيون وأما بالفعــل فوثنيون كقــول النبى الكريم ، أنهم امتزجوا بالأمم واقتبسوا أفعالهم وها قــد تمت نبوته فينا حقاً ، فأى المسيحيين هم الذين يحفظون الخرافات والخزعبلات ويترقبون طالع المولود ويعتنون بالسحر والتنجيم والرقى والعوذ ، ويحتفظون من بعض الأيام والشهور والسنين ، ويتطيرون من المنامات وأصوات الطيور ، ويضيئون المصابيح فى مجرى الماء ثم يستحمون به ويتطيرون من ملاقاة البعض ومصادفتهم ، ويأكلون ذبائح الأوثان وفريسة الوحوش

والجيف وأشياء أخر مثل هذه ، فكيف يسوغ لنا أن نلقب مثل هؤلاء باللقب الشريف . أعني مسيحيين ، وبأية دالة يجسر مثل هؤلاء الذين يعملون مثل هذه الأعمال أن يسموا مسيحيين الذين يتخلقون بزى الأمم ويغيرون وجوههم ويقلبون أصواتهم ويرقصون ويصفقون بأيديهم ، خاصة أولئك الرجال الذين يبرزون بملابس النساء ، فكل الذين يفعلون هذه الأفعال ويرغبون فى قبولها لا يليق بهم أن يدعوا بمسيحيين ، كالجارية العذراء مثلا فإنها طالما هى محافظة على بكوريتها فمن الواجب الضرورى بان تلقب بعذراء ، وهذا حقها ، فإذا ذهبت عذريتها لا يحق لها حينئذ أن تسمى بعذراء فهكذا الذين يدعون مسيحيين متى تعدوا العهود وتخطوا الوصايا الناموسية وفعلوا أفعال الأمم الغريبة لايجب أن يدعوا بعدها مسيحيين ، افهموا هذا يا أحبائى جميعكم واعلموا أننا بتلك الكلمات الوجيزة انفصلنا بفصل كلى عن هذه الرجسات المذكورة بأسرها ، أعنى بقولك قد رفضت الشيطان وجميع أعماله ، فاحرص ياهذا على قولك وإلا فهذه الأفعال ليست إلا أعماله خزاه الله فانى أسألك ياحبيبى بأن تصغى بنظر عقلك إلى من قد وعدته واعلم أنك لم تعد ملكا سماويا ولا ملكا أرضيا ولا رئيسا مسلطا على هذا الدهر الحاضر بل أنك وعدت ملك الملوك وسيد السادات وامام الرؤساء والمسلطين نفسه ، فإن واقعتك هى معه واتفاقك ، وإليه منتهى قرارك ، ووعدك أمام شهود كثيرين فأيقن إذاً حقيقة أنك فى قبضة الديان مع اقرارك له بازاء شهود امناء فراقب من هذه الجهة ذاك الذى سوف يأتى من أعلى السموات ومعه صك عهودك وكلام فمك لينشره عيانا ويقرأه الملائكة والبشر معا ، إحرصوا إذاً يا إخوتى واحتفظوا من ذواتكم وإياكم والأعمال الوثنية والأفعال الأممية . واسمعوا الرسول يقول إنى أقول لكم وأشهد الرب عليكم بأن لا تستسيروا فيما بعد كسيرة باقى الأمم التى هى بحسب ضلال عقولهم الذين هم مظلمون العقول والأذهان ، فمن حيث أنكم تعلمتم من الرب يسوع هكذا إعقلوا لهذه الأقوال يا إخوتى ولا تباشروا الذين يرتكبون مثل هذه الأفعال السيئة ، فتلاميذ الهلكة كثيرون وسوف يكثرون أيضا . وأما أنتم فاحرصوا جداً . لأن الزمان يستخدم خدامه . ولا تعجبن من هذا يا أخى هوذا صارت الرعاة ذئابا ، فها هو ذا الرسول بولس لما كان يخاطب الاساقفة والقساوسة كان يقول لهم أنه سوف يقوم منكم أناس يتكلمون كلمات معوجة ، فلهذا لا يضلكم ذاك الذى يتزين من الخارج بزى الملائكة ، ولهذا قال الله تعالى لا يضلكم أحد ، وأنا أيضا أقول لكم هكذا ، لا يضلكم أحد لامن الذين هم فى الخارج

ولا الذين هم فى الداخل ، سواء كان اسقفا ، أو قسيسا أو شماسا ، أو أنوغنسطيا ، غنيا كان أو فقيراً ، أو من يتكلم كلاما معوجا منحرفا ، فإنهم يكونون ملعونين وعليهم من الله السخط واللعنة ، اياكم والذين يأتونكم بلباس الحملان ومن داخلهم ذئاب خاطفة ، فعليهم من الديانة وشكلها وظاهرها وأما حقيقتها وقوتها فينكرونها ، فلا تضلوا يا احبائى بشقشقة كلامهم واباطيلهم بل الذى تسلمتموه من الرب يسوع فعليه اثبتوا ، وبه استسيروا ، وإله السلام يكون معكم آمين ، فلنكف من هنا عن التكلم ، ولنختم مقالنا فى الانقضاء وانتهاء الزمان ، ونتكلم عليه بكلام وجيز ثم نصمت بعد ذلك ، أقول يا اخوتى ، إننى عندما أريد أن ابتدى فى التكلم عن انتهاء العالم يأخذنى القلق والانذهال وترتعد فرائصى وأوصالى بأسرها ، فجميع معجزات الله وأعاجيبه عظيمة ومخيفة جداً ، وأما سر الانتهاء ، والمجىء الثانى فهو مما يفوق إدراك العقول والألسنة ، وتقصر عن وصفه وتشخيصه فصاحة الفصحاء ، ويندهش له كل سماع ومسمع ، فالتلاميذ الأطهار قد كان لهم شوق زائد واجتهاد جزيل إلى أن يسمعوا من المعلم خبر العلامات فى شأن انتهاء العالم كما سمعتم ذلك غير مرة من الانجيل المقدس بحيث يقول ، أنه لما كان الرب يسوع جالسا على جبل الزيتون تقدم إليه تلاميذه قائلين له على انفراد، قل لنا يامعلم ماهى علامة حضورك وانتهاء العالم ، افشاهدتم حكمة الرسل القديسين ما أعظمها ، إذ أنهم إذا أرادوا أن يسألوه عن أمر خطير يأتونه جملة وعلى انفراد يتقدمون ويقولون له ، قل لنا أيها الرب يسوع ، قل لنا ، يا فاحص القلوب والكلى ، قل لنا ياصانع الجميع ، قل لنا يا بارى المبروآت ، قل لنا يامطلعا على الأشياء قبل كونها ، قل لنا ياأيها الرؤوف المحب البشر ، ماهى علامة حضورك وانتهاء هذا الدهر الحاضر الذى به تكون دينونة الأحياء والأموات مع كل المسكونة ، متى بطلت كل رئاسة وسلطان ، ومتى سجدت لك كل ركبة من السماويين والأرضيين ، والذين هم تحت الثرى ، قل لنا ماهى علامة حضورك ، أما الرب الاله فأجابهم قائلا ، احرصوا لئلا تضلوا ، لأن كثيرين يأتون بأسمى قائلين إنى أنا هو المسيح ، احرصوا لئلا يطغيكم أحد . وها هو ذلك الوقت الذى حدده السيد هو قريب بل حاضر ، وهو الذى نراه الآن بأعيننا ، فحقا أن هذا هو الزمان الذى أشار إليه المخلص بقوله ، إذ هو فى ذلك الزمان ، قال المخلص أن الوقت قريب ، فلاجرم أن يكون الآن بدؤه على ما نشاهده ، فانظروا أيها الأخوة هذا الاجتهاد الذى يظهر لنا الرب يسوع فى أمر الأنبياء الكذبة والمعلمين الضالين والأراطقة الغاشين ، ليكشف بذلك غشهم ومكرهم الكامن فيهم ويظهره للجميع ، فلهذا حضر التلاميذ أولا سائلين عن علامات

الإنقضاء ثم أظهر لهم أنه سيوجد فى الرعية ذئاب خاطفة يضادون السيد المسيح ، ثم عطف كلامه على باقى الأمور المزمعة بقوله، وسيكون حروب واضطرابات ، وتقوم أمه ضد امة ، ومملكة ضد مملكة . الأمور التى شاهدتها الآن ونحن لانفهمها بعقولنا وتمييزنا . ألم نشاهد الآن أن الجوع مشتد فى أماكن كثيرة . والخوف قد عم الجميع . وكل ما قال عنه وذكره هاهو الآن موجود ونحن لانميزه بعقولنا .ثم أنه قال بعد ذلك سيشك الكثيرون. أترى هذه ليست كائنة الآن بأسرها . فارنى ياهذا من هو المتقى الله بحسب الواجب . أليس الجميع حائدين عن هذه الوصايا الالهية إلا ما قل . أليست البغضة واقعة بين العالم جميعه . فها هوذا قد كمل الأمر على مانشاهده ، ألا ترون الآن كيف أن الواحد يحارب الآخر ويشاجره ، وأمة قائمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، ورؤساء ضد رؤساء ، وأساقفة على أساقفة ، وقسوساً على قسوس ، وشمامسة على شمامسة ، وعامة على عامة ، حتى أنه من زيادة الأثم قد خمدت نار المحبة من الكثيرين ، فلاجل هذا تقدم السيد المسيح قائلا إفحصوا الكتب ولا تضلوا . وقال أيضاً عن علامة أخرى تدل على الانقضاء ، وهى قوله ، أن يكرز بهذا الانجيل فى المسكونة كلها شهادة لجميع الأمم ، وحينئذ يكون الانتهاء ، ولربنا المجد والعزة والوقار ، إلى أبد الدهور آمين.



فهرس الكتاب

تم بحمد الله



الناشر
دار العرب للبستاني
٢٨ شارع الفجالة - القاهرة
ت : ٩٠٨٠٢٥
الجمهورية العربية المتحدة
مـ
٥٠
٥ ليرات